البحـث عـن ابتسـامـة

(حكايات وقصص قصيرة)

محمد المنصور الشقحاء

في البدء :

يضم هذا الإصدار :

١ ـ مجموعة: البحث عن ابتسامة.
ا ـ الطبعة الأولى صدرت ضمن مطبوعات نادي الطائف الأدبي عام ١٣٩٦هـ.
ب ـ الطبعة الثانية صدرت عن الدار السعودية للنشر والتوزيع عام ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م .
٢ ـ مجموعة: حكاية حب ساذجة.
أ ـ الطبعة الأولى صدرت ضمن مطبوعات نادي الطائف الأدبي عام ١٣٩٩هـ.
ب ـ الطبعة الثانية صدرت عن الدار السعودية للنشر والتوزيع عام ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م.
٣ ـ مجموعة: مساء يوم في آذار ، صدرت ضمن مطبوعات تهامة عام ١٤٠١هـ / ١٩٨١م.
٤ ـ مجموعة: انتظار الرحلة الملغاة ،صدرت ضمن مطبوعات نادي القصة السعودي عام ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م.
٥ ـ مجموعة (الزهور الصفراء) مطبوعات نادي الطائف الأدبي عام١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤م
٦ـ مجموعة (قالت أنها قادمة) التنفيذ الطباعي الدار السعودية للنشر والتوزيع عام ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م
٧ـ مجموعة (الغريب) منشورات دار مجلة الثقافة بدمشق عام ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م

المنحوسة
وتذكرة السفر إلى القدس

وتلفتُّ حولي ، أبحث فيهم عن شيء غير الصورة التي شدت بصري ، من أول خطوة خطوتها داخل المعسكر ، وتناثرت أسئلتي على الأرصفة المغبرة تسأل المارة عن حقيقة ما أشاهد . كان يطل من عيون الجميع الجوع واللهفة .. الخشية ومسامير الترقب تملأ الأحداق دماً ..

أخذت أبحث عنهم، كان كل همي أن ألتقي بأكبر مجموعة من الصبيان أسألهم هل يحبون الحرب، وماذا يتمنى كل واحد منهم. سيفاً أم بندقية. أم دبابة. أم وردة وقلماً وقرطاساً..؟

أخذ أحدهم يبكي وهو يستمع كلماتي.. سألته العجوز الواقفة ..

ـ لماذا .. ؟

ـ ألا تعلمين ؟ إن الطائرات كانت هنا .. ولم يبق من أسرته أحد..

ـ الطائرات كانت هنا .. ؟

ـ أجل أنت لست صحيفة .. كيف نحن سكان الخيام المحتاجين لقطعة رغيف ، نعلم ، وأنت لا تدرين ، رغم وجود الراديو معك وباستطاعتك اقتناء الصحف والمجلات ..

ـ آسفة يا سيدتي..

ـ وماذا يفيد الأسف ، أنت آسفة لأنك لا تهتمين بالآخرين لكن ماذا يجري مع الآخرين أولئك الذين لا همَّ لهم سوى إبادتنا نحن ، هربت وحيدة ، طوحني الهواء ، أخذ يدفعني هنا وهناك حتى وصلت إلى الجسر .. كنت أتلفت حولي أبحث عن رفيق أو مؤنس للطريق لأني أخشى غدر شيخوختي ، كان الجميع هناك .. ينتظرون .. يمضغون اللبان .. ويتعارفون رغم أن فوهات البنادق مصوبة إلى صدورهم، وببسمة الأطفال المتعلقين بأكتاف آبائهم وأمهاتهم، حاولت أن أبكي، ولكن دموعي التي شاركتني الطريق استعصت عليّ هذه المرة لا أدري لماذا.. لكن عرفت أخيراً أنها الكبرياء .. كنت أتحدى تلك البنادق والفوهات المصوبة . تلك الأحذية القذرة التي تتحكم في مصير هذا الكوم من البشر الفارين من ديارهم . كلنا نبحث عن خيمة . وسعيد الحظ من كان أحد أفراد أسرته يعمل في الكويت أو السعودية أو ليبيا أو حتى في البرازيل .

وانسحبت العجوز قبل أن أعرف شيئاً عن الطفل الباكي، وأخذت أتأمل قصتها. مصيرها أنها وحيدة وهذا الطفل وحيد. وتخلصت من المتكومين حولي ،

وأخذت أسير على غير هدى أتحدث مع نفسي . نسيت آلة التصوير والقلم والأوراق .. أصبح رأسي مسجلاً يسجل كل شيء حتى صراخ الأطفال .. حديث السيدات على الأرصفة ومن النوافذ المتهرئة ، والرجال المتكومون أمام الأبواب حول راديو صغير . الريح القاسية . البرد القارس ..

كنت أحاول شيئاً لم أستطع حتى هذه اللحظة معرفته وفجأة قفزت الصورة أمام ناظري. كانت العجوز تتكلم مع الصبي أمام صنبور الماء وهي تغسل وجهه وتقبل جبينه ثم تشده من يده وتواصل طريقها جاذبة الجمع المتكوم حول صنبور الماء .. كان الخرير الناعس يفرض هيبته على الموقف ..

ـ إنها منحوسة ..

ـ من .. ؟

ـ هذه العجوز. إن نحسها سوف يلاحق الصبي . كل المجموعة التي حضرت معها ماتوا وبقيت هي. وذلك الصبي يجب انتزاعه منها قبل أن تأتي الطائرات..

لا أدري أي شيء هذا ولكنني وجدت هذه القصاصة أمامي فاغرة فاها تمد لي يدها لانتزاعها من على الطريق.. إنها صورة من الصور المفروضة على أمتنا والتي يريد العالم تكرارها، ويجد العالم فيها شيئاً ما لإزجاء الوقت. أنتم يا شباب العالم فكاهة (...)؟ كانوا يتسكعون على الأرصفة .. وتحت ظلال المسجد الأقصى.. وكل ما عليكم هو شراء تذكرة سفر إلى القدس إلى أورشليم.. لمشاهدة بعلبك، ومدائن صالح..

فحضارة الغرب تتسكع هنا .. والمنارات لا زالت قائمة ممشوقة في عنان السماء.. بصقت العجوز بمرارة وهي تجرجر الصغير وراءها ..

ـ إني تعب يا جدتي ؟ ..

قال ذلك وهو يرفع عينين خطف الرعب بريقهما. وهمَّ أن يقول شيئاً ما، لكنها صدمته بصمتها، فلم يقل شيئاً وأخذ يجرجر خطاه وراءها.

كانت الغيوم تتلبد في السماء بينما هبت نسمة تحمل رائحة الأرض الطيبة . كانت خطواتهما واضحة على الأرض وابتعدا رويداً رويداً ، وسرعان ما ابتلعهم المعسكر ..

* * *

الأخوات الثلاث

في عصر يوم من أيام الشتاء القارس . وقفت فتاة صغيرة أمام واجهة المكتبة الصغيرة، وراحت تتفحص بعينيها الكبيرتين تلك الدفاتر والمؤلفات باهتمام زائد.. كانت تبحث عن شيء أو تفتش عن غرض .. وفجأة انتصبت بقامتها الصغيرة واعتدلت وقد ارتسمت على محياها أمارات الفرح والحبور ، ثم ولجت إلى داخل المكتبة تسأل عن شيء ..

ـ عمي هل باستطاعتي رؤية هذه القصة المعلقة هناك ؟ ومد محمد يده وتناول قصة الأخوات الثلاث .. قدمها للفتاة التي صاحت:

ـ ما أجملها ، هل هي للبيع يا عمي .. ؟

ـ أجل .. هل أرسلك أحد لشراء هذه القصة .. ؟

ـ كلا إنما أشتريها لأهديها لأختي الكبيرة التي لم تعد تستطيع الذهاب معي إلى المدرسة..

ـ بارك الله فيك ..

وحلّت الفتاة عقدة منديلها وأفرغت على المنضدة بضعة قروش ثم قالت :

ـ لقد حرمت نفسي من التفسح لثلاثة أيام مع بنات جيراننا ..

وألقى عليها (محمد) نظرة حالمة متألمة ثم أخذ القصة من بين يدي الفتاة وقد أدرك أنها لا تعلم ثمن القصة.. وكيف يصارحها بالحقيقة ويعلمها بأن قروشها كلها لا تكفي وأن عليها أن تنتظر أيضاً تسعة أيام أخرى حتى تجمع ثمن القصة.. ولكن نظرة الفتاة الهادئة الوادعة أيقظت كامن أشجانه وذكرياته ، وحركت في صدره صوراً تنبض بالحياة .. وسألها :

ـ ما اسمك يا صغيرتي ؟

ـ نورة ..

ـ خذي هديتك واحرصي أن لا تفقديها في الطريق.. وانطلقت الفتاة خارجة من المكتبة بعد أن ودعت صاحبها بابتسامة حلوة تشع فرحاً، وأتبعها بنظراته حتى اجتازت الشارع العام بينما عصفت في نفسه أحزان فهيجت كربه، يا لها من فتاة حركت في قلبه جرحاً لم يستطع الزمن وأده..

ولكن ما أن أخذت الفتاة تعدو قاطعة الطريق العام ، منحرفة في شارع جانبي يؤدي إلى دار أسرتها حتى داهمتها سيارة "قلاب" مسرعة ..

منذ ذلك اليوم يتذكر ويستعيد تلك الحادثة التي أودت بوحيد ته حصة.. وما كان الزبائن القليلون الداخلون محله يشغلونه عن نفسه وللحظات رغم ما كان يبدو

عليه من لطف وكياسة وإشراف ، فلا يترك عمله في المساء حتى تصدمه الحياة بفراغها ومرارتها.

وتقدم الليل وخف إقبال الزبائن أو هو قد انعدم فتنفس الصعداء وأخذ يعد نفسه لإغلاق المكتبة ..

لكن إذا بأحدهم ينتصب أمامه.. شاب في ميعة الصبا .. فنظر إليه مستفهماً وخيل إليه أنه قد ألف هذا الوجه أو رآه من قبل.. وقبل أن يتفوه بكلمة مدَّ يده بقصة الأخوات الثلاث ..

ـ هل هذه القصة قصتك .. أليس كذلك ؟

ـ أجل ..

ـ إذن أنت تذكر لمن بعتها هذا المساء.. ؟

ـ بعتها لفتاة صغيرة .. !

ـ ألم تسرقها منك .. ؟

ـ لا ...

ـ وكم دفعت .. ؟

ـ ....

ـ نحن لم نمنحها شيئاً من النقود، فكيف حصلت على هذه.. ؟

ـ ولكنها دفعت كل ما تملك..

وأمام نظرة الشاب الحائرة المتسائلة شعر بشيء من الوجل والخوف فأمسك بتلابيب الشاب وصرخ فيه ..

ـ ماذا حدث ؟

ـ لقد دهمتها سيارة هذا المساء.. وهي تحمل هذه القصة الشرطة، يهتم بها رجال الشرطة، ولكن والدتي تساءلت عندما رأتها في يدي عن سر وجودها فأسرعت إليك ..

*   *   *

إنّـــه ولــد !

ـ أجل أنه ولد.. هكذا تدل كل الظواهر ..

بهذه الجملة أنهت فاطمة كلامها وهي تتجادل مع "أبو محمد" الذي أصرَّ على البقاء والتخلف عن العمل حتى يطمئن عليها . بينما انزوت البنات في ركن قصي من الدار يلعبن في هدوء وصمت خشية إقلاق راحة والدتهم المتمددة في الغرفة الداخلية بعد أن انهارت فجأة..

ـ إذاً الوقت حان.. ؟

ـ لا أدري .. ولكن أشعر بألم شديد يمزق أحشائي ..

ـ ما رأيك لو ذهبنا إلى المستشفى .. ؟

ـ لا . أرجوك .

ـ إذن نحضر الطبيب إلى هنا .. ؟

ـ لا مانع ولكن لم يحن الوقت بعد ..

وخرج "أبو محمد" من الغرفة ما منح "فاطمة" فرصة التأمل فرفعت رأسها إلى سطح الغرفة الواطئ وهمهمت.. إنه ولد .. لقد كان الوحم غريباً وكذلك الحركات التي تصدر من الجنين.. أجل حتى جارتنا الشابة أكدت ذلك عندما وضعت الملح على رأسي على حين غرة.. حقاً غضبت لحظتها لكن.. كانت الفرحة أكبر مما أتصور .. وهي تؤيد أحلامي .. آه .. ومرت سحابة من الألم على وجهها ولكنها لم تحاول وأد كلمتها الأخيرة .. إنه ولد .. أما "أبو محمد" فقد خرج لا يلوي على شيء محاولاً حصر تفكيره في المشكلة التي تطبق عليه بكل ثقلها.. ها هي "فاطمة" تتألم. وها هو "سمير" يساومه على ابنته الكبرى "إيمان" .. وها هو المدير الطيب ينقل من المكتب أشياء كبيرة أخذت تنهال عليه بقسوة وقوة فوق رأس "أبو محمد".. ولكنه يهمهم أخيراً .. إنه "محمد" لقد أصبح لدي ولد أخيراً وبعد سبع بنات.. أجل إنه "محمد" وليذهب "سمير" مع الشيطان وليطربق المدير الجديد المكتب بحثاً عن موظفه المهمل الذي يتغيب ولم يمر على استلامه العمل سوى يومين .. وعاد "أبو محمد" إلى الدار .. وقبل أن يلج الغرفة ذات السقف الواطئ صدمته صرخة "فاطمة" المكتومة فوقف قليلاً يفكر..

ـ أبي.أبي. .. إنها تريدك ..

ـ من .والدتكِ.كِ .. ؟

ـ أجل أرجوك بسرعة ..

ودخل الغرفة المظلمة وأخذ طريقه إلى فراش زوجته التي تكومت من شدة الألم في ركن الغرفة..

ـ ألحقني ..

ودخلت جارة الغرفة مسرعة .. ولم تلاحظ "أبو محمد" المنتصب في وسط الغرفة واحتضنت المريضة في هدوء ..

ـ أروح أجيب طبيب .. ؟

ـ آسفة مساء الخير.المعذرة. .. العتب على النظر ..

ـ أهلاً وسهلاً .. أجيب الطبيب ..

ـ انتظر .. ما رأيك يا فاطمة نروح المستشفى.. ؟

ـ لا .. لا ..

ـ إنه أفضل من هذا المكان .. وهناك تلقين من العناية الشيء الكثير..

ولم ترد فاطمة وبهتت الجارة من إصرار المريضة وتلفتت حولها تريد قول كلمة "لأبي محمد" الذي اختفى.. ودخل الدكتور مطأطئ الرأس وعاين فاطمة وهزّ رأسه وأخرج من حقيبته بعض المعدات والحقن..

ـ وما رأيك تروحي المستشفى.. ؟

ومرت موجة من الألم لم تفهم معها ما قاله الدكتور الذي سارع إلى حقنها بإبرة مهدئة وعاد الهدوء إلى الوجه المتقلص.. وشعر الدكتور بارتياح ساعده على معاينة المريضة وخرج من الغرفة وهو يقول ..

ـ بعد لم يحن موعد الوضع ..

ـ ما العمل.. ؟

ـ بعد ست ساعات تعال لأخذي من العيادة..

وغادر الطبيب الدار بعد أن نقده "أبو محمد" أتعابه مضاعفة.. وحل الهدوء بعض الشيء على الدار .. ومرت لحظات وجد فيها فرصة ليعود إلى أفكاره.. متأملاً حال زوجته والألم الذي تعيشه.. إنها ليست المرة الأولى التي تعيش فيها مثل هذه المتاعب.. ففي كل حالة وضع تقاسي .. لكن هنا فرق .. لقد انتهت التسعة أشهر وها هو الشهر العاشر ينتهي والألم يزيد والدلائل تقول إنه.. وانطلقت صرخة من الغرفة الداخلية فلم يكمل بقية خواطره .. وهرول مسرعاً ..

ـ الجنين.. لا يتحرك ..

ـ و .. ماذا .. ؟

وخرج مهرولاً يبحث عن الطبيب .. ووجده لكنه اعتذر عن الحضور مدعياً أن الوقت لم يحن وأن لديه بعض الأعمال.. وأمام إصرار الطبيب أخذ "أبو محمد" يبحث في العمارة التي يسكنها الأطباء عن آخر متخصص في الولادة .. ووجد طبيبة المستشفى العام فقرع باب عيادتها ..

ـ أرجوك أسعفينا.. !

ـ أمرك .. !

ـ إن زوجتي على وشك الوضع .. !

وأخذها إلى الدار رغم أنها كانت تتأهب للذهاب إلى المستشفى حيث حانت نوبتها في العمل.. وعاينت المريضة وخرجت من الغرفة صامتة ..

ـ هل في الإمكان نقلها إلى المستشفى .. ؟

ـ إنها لا ترغب.. وتصر على ذلك ..

وخرجت من الدار وأبو محمد وراءها، وأخذ سيارة أجرة إلى المستشفى، وهناك أخذت بعض الآلات التي تساعدها على إجراء عملية سريعة للولادة.. وطلبت من الممرضة المناوبة في المستشفى أيضاً مرافقتها ..

وقف "أبو محمد" والبنات أمام الباب الخارجي مع أحد الجيران بينما دخلت الطبيبة والممرضة إلى الدار، ومرَّ وقت استطاع فيه إقناع جاره بأن ما ذهب إليه خطأ رغم انشغال باله بما يدور في الداخل.. وأطلت ابنته الكبيرة من فتحة الباب ..

ـ أبي .. أحضر سيارة .. الدكتورة تبغي تروح ..

ولم يقل شيئاً وسارعت إحدى البنات الصغيرات إلى الموقف لإحضار سيارة أجرة، ووقفت الطبيبة ومساعدتها بالباب.. يتأهبن للرحيل .. وتقدم منهن ..

ـ مبروك الحمد لله على السلامة ..

ـ ولكني لم أسمع صرخة الوليد .. ؟

ـ البقية في حياتك لقد نزل الولد ميتاً..

ـ ولد ؟ .. و .. ميت ؟!

وأسرع إلى الداخل ، ولكن الصمت صدمه فعاد أدراجه ، ووجد الطبيبة والممرضة داخل سيارة الأجرة بانتظاره ..

* * *

نـــــــوره

ظلت برهة مترددة وهي تسمع صوت والدتها من الداخل تحادث جدتها العجوز المتمددة على سريرها والتي أطلقت عدة صرخات مملوءة بالشتائم على غنم الجيران التي ما أن لمحت الباب الخارجي مفتوحاً حتى تراكضت في جلبة لترتع في الدار ولتبحث عن شيء يؤكل .. ثم وضعت يدها على رأسها وخطت خطوات حذرة وعيناها شبه مغمضتين ..

ـ أمي.أمي. .. رأس يوجعني ما أقدر أروح المدرسة اليوم ..

طفلة لم تتعد ربيعها الحادي عشر ذات وجه ملائكي أبيض مستدير.. أحد أسنان فكها العلوي بارز يثير خجلها .. عندما تهم بالابتسام تغطي فمها بيدها مما جعل أفراد الأسرة ينكتون عليها وقد أخذوا من لثغتها أداة للمزح .. ! وهم يحرجونها في شيء من الطيبة :

ـ الدفتر هذا لمين .. ؟

ـ حج (حق) حنان ..

ـ أبوك فين.. ؟

ـ في الدشان (الدكان)..

لكن والدتها لم تستمع لقولها .. إذ صرخت فيها ..

ـ أنتي لسه هنا .. ؟ وأخواتك .. ؟

ـ راحوا .

ـ يا الله الحقيهم..

ـ لكن ..

ـ اليوم السبت وأول الأسبوع ..

وتعدو لتلحق بأخواتها اللائي شكلن مجموعة كبيرة مع بنات الجيران ، وهي تفكر في ماذا سوف تلاقي من "الأبله" التي طالبتها بأن تغير كراريسها والمريول البني بآخر أزرق . لكن لم تبلغ والدتها بذلك بعد أن سمعت تهديد والدها الذي ملّ الطلبات بأن يمنعهن من الذهاب إلى المدرسة هي وشقيقاتها الثلاث .. ولحقت برفيقاتها وهي تنسى كل شيء.. لتحدث بنت الجيران "فوزية" عما أحضرت لفترة الفسحة الكبيرة من أكل، وأخذت تقلب أوراق حقيبتها؛ لقد نسيت أن تحضر وصلة التمييس (الخبز) معها بينما أحضرت "فوزية" بعض قطع الجبن البلدي وحلاوة الطحينية المتبقية من عشاء الضيوف.. وأخرجت "نورة" القروش

الأربعة التي تتزود بها كل صباح من والدها وعند رأس الشارع الذي تنتصب المدرسة في نهايته كان دخان فرن "التمييس" يعانق السماء ..

مدت يدها لأخذ أحد الأقراص المرتبة بعناية في زاوية الفرن بسرعة حتى لا تستقبل أولاده: عند االمدارس.لق فيكون مصيرها بعض الشوطات بالخيزرانة التي تبرع بتا البواب العجوز (حسب ما تظن !!) بينما هو اشتراها لابنه الصغير حتى يقال إنه اتبع الطريقة الحديثة في تربية أولاده: تربية المدارس .. ؟

دخلت الفصل خلسة كأنها تحاذر أن يمسك بها أحد بينما المدرسة منهمكة عند باب الفصل تحادث زميلة وهي ممسكة بالدفاتر المصححة بطريقة تجعل البنات يحترمنها ويقلدنها في نفس الوقت.. واقتنعت أخيراً .. ودخلت الفصل وانطلقت همسة مخنوقة :

- احترام.. !

ووقفت طالبات الصف في حركة منظمة ومرَّ الدرس في هدوء لا يعكره سوى ذلك الألم الداخلي الذي بدأت مطارقه تسلب "نورة" إنصاتها من جراء تفكيرها لسماع كلمات "الأبلة" وشرحها بينما القدر يحيك خطوط النهاية .. والباب الكبير موارب والسيارات تعج بالطالبات البريئات وقد انطلقن عائدات إلى المنازل.. في الجهة الجنوبية من المدرسة كان منحنى تنزل منه السيارات إلى الشارع العام الذي يشق المدينة إذ أن السيارات تأتي من الناحية الغربية للمدرسة فراراً من الزحمة لتعبر المنحنى إلى الناحية الشرقية حيث الشارع العام أو الانحراف قليلاً ثم تسير عبر طريق فرعي على جانبه فيلا صغيرة كانت فيما سبق مستوصفاً صحياً .

وقفت "نورة" عند ركن الفيلا مع إحدى أخواتها يرقبن الباقيات وهنا انطلقت سيارة مجنونة لتطوي تحت عجلاتها إحدى بنات المدرسة وعلا صراخ البراعم الفزعات وانحنت واحدة تبكي ..

- نورة .. نورة ..

وأخذ النفس الذاوي يهزُّ الصدر الصغير في رعشات وجلة وزادها خفقان منبه سيارة الإسعاف التي تأخرت بعض الوقت لحمل المسكينة.. التي ما أن أغلق الباب عليها حتى لفظت أنفاسها..

* * *

الهنـــديـــة

٤ شعبان

وجدت اليوم دافعاً قوياً لأن أستعيد الذكرى التي نسيتها وأنا أطالع الدموع في مقلتي جارتنا الهندية المتجهة إلى الغرب تجر خلفها أطفالها الثلاثة بعد أن قام زوجها بضربها ..

لا أدري السبب ، لكن عندما قالت شقيقاتي الصغيرات جارتنا المسكينة تبكي في الشارع والأولاد يلتفون حولها .. سألت نفسي: لماذا ؟

ولكن قبل النهاية أخذت أفكر : كيف ترحل ؟ ومن أين تجد قوتاً لأطفالها ، بل أين تأوي والشتاء يطرق الأبواب في إلحاح ؟ كان ذلك في عام ١٣٧٩هجرية بالتقريب .. وكنت لا أقيم ما حولي لولا حكايات جدتي التي أفتقدها اليوم..

٢٥ جمادى ٧٩هـ

طرقت بابنا هندية طويلة القامة تحمل على رأسها صندوقاً مليئاً بزجاجات العطور تبحث عن مشتر.. واستقبلتها جدتي ذلك الصباح بنفس مفتوحة وتطمئن الهندية وتأخذ في سرد حكايتها .. لقد وصلت الطائف مع بعض أقربائها بعد رحيل من الهند دام أكثر من سنة تضاءل أثناءه حجم الجماعة إلى أقل من النصف ..

وكان ذلك بقصد الحج وزيارة المدينة، ولكن كل شيء تغير بعد الوصول.. ماتت والدتها ووجدت في أسرة تشتغل عندها ما يحثها على البقاء .. وتفرقت الجماعة ولم تبق غير أسرة صغيرة مكونة من عجوز وابنها الذي أخذ يجمع الأخشاب لصنع الصناديق والطاولات الصغيرة وبيعها بمبالغ زهيدة.. ولكن حدث شيء لم نكن نتوقعه .. وطردتها الأسرة التي تعمل عندها لتعود إلى العجوز التي تعرفها منذ كانت هناك مترقبة شيئاً عجيباً ؟ مكتفية بالتقاط قطع القماش القديمة من الشوارع وما يجود به الجيران على العجوز وعليها من ثياب بالية ممزقة لتصنع منها أكياساً صغيرة تبيعها إلى أصحاب الدكاكين..

٨ شوال

صدرت الموافقة المرتقبة لنرحل إلى الرياض ، لقد انتقل عمل والدي إلى هناك ، بعد أن رفع إلى درجة مفتش ، ليعمل بالوزارة ، وهناك اندمجنا بمجتمعنا الجديد مخلفين وراءنا جدتي التي رفضت مشاركتنا السفر راغبة في البقاء مع ابنتها – عمتي – التي كانت على وشك الوضع ..

أول محرم

الأخبار تقول : هناك أمطار ، جدتي تبعث لنا بتحياتها ، الطفل يموت بعد أن تعرض لهواء شديد ، ويذكرني هذا بشيء وهو أني عندما أكون بقرب نافذة سيارتنا المنطلقة بأقصى سرعتها أشعر أني بحاجة إلى من يسعفني وأن الاختناق يشل جسمي ..

٨ ربيع ثاني ٨٦

والدة أبي تنتقل إلى رحمة الله وها نحن نشد الرحال إلى الطائف.. كل شيء يسير حسب ترتيبه وخيط من الذكريات يمر بخاطري عن صاحباتي.. عن جيراننا .. عن المنازل الصغيرة .. وجدتي لا تمل التحدث ، تروي لي ولإخوتي ذكريات شبابها في القرية هناك فوق الجبل مع الأغنام والسماء الحانية التي تمد يدها لاحتضان أبناء رفيقتها الأزلية – الأرض – في مسيرة دائبة لا تعرف الملل ولا تخشى النهاية المرتقبة ..

٢٥ ربيع الثاني

أخذ الاضطراب يلفنا .. علينا أن نعود بعد أن انتهت فترة الحزن والعزاء إلى الرياض.. وعلي أن أجدَّ وأخواتي لأعوض ما فاتنا من دروس .. والدتي تبكي ولا أدري لماذا ! لقد عاودتها ذكريات سحيقة مرت بها في بداية حياتها الزوجية، وجدتي تلفها بالحنان والعناية النادرين واللذين فقدتهما منذ الطفولة حيث توفيت والدتها وهي بعد لم تكمل الأربعين..

٢٥ رمضان ٨٨

وصل والدي إلى التقاعد منذ أيام ومراجعاته لم تفد رغم استسلام والدتي ومحاولتها في إقناع والدي بأن مهمته انتهت وعليه أن يفسح المجال أمام الآخرين ، وذوي الخبرة الجديدة حتى لا يكون هناك تأخير في المسيرة الكبرى إلى الأفضل ، ويرضى وتقرر العودة إلى الطائف وها نحن نعود ما عدا أخي الذي يدرس في الجامعة ، والذي قرر مشاركة بعض زملائه للقيام برحلة إلى المنطقة الشرقية وبعض إمارات الخليج العربي للتزود بالمعرفة والترفيه ، نشاهد أثاث دارنا يبتعد عن ناظرنا في رحلة نصل نحن قبل نهايتها لنستقبله ولنعيد توزيعه في غرف منزلنا القديم ..

٧ محرم ٨٩

الصيف يقرع الأبواب والأحاديث تدور حول المصطافين ، وأشياء أخرى، وأنا أستعيد أشياء كثيرة من ذكرياتي وإن نسيت الكثير ، لكن هناك وهنا أقابل وجوهاً مألوفة لا أدري عن أصحابها شيئاً ، إنما أجد في نفسي دافعاً يقول أني كنت أعرف أصحاب هذه الملامح ، وأني قد عشت لحظات أتفرس بها وتتفرس بي وتضحك .. !

٥ صفر

وجدتها من بين الوجوه التي حولي .. طويلة نحيلة ، تحمل صندوق العطور فوق رأسها لا صدر لها تمشي معتدلة القامة .. ولكن وراءها ثلاثة أطفال.. إنها الهندية – صاحبة جدتي – ولم تعرفني ولكنها تعرف عمتي حيث أن منزلها لا يبعد كثيراً عن حينا، تدور باحثة عن مشترٍ..

٣٠ ربيع الأول

عرفت حكاية غريبة اليوم، ولكن لا أدري ما صحتها ؟ هناك جار منزله يقابل منزلنا، ومنذ أن وجدت وأنا أعرف أنه لا شغل عنده ولا عمل سوى البحث عن مقاول تعهد ببناء منزل له، ولكن عندما أنهوا بعض مراحل الهدم اختلفوا وهنا فر المقاول.. ومنذ ذلك العهد الذي أجهله وهو يبحث حتى آخر الليل يقف في الزوايا وعند الأبواب ينتصب.. أتت الشرطة لأخذه بعد أن حاول ابتزاز جار له بكشف سيرة زوجته السيئة..

أول رجب

الهندية تذكرني .. تشدني إلى الماضي لأبحث في أحاديث من حولي عن شيء عنها، ولكن لا شيء، لقد تزوجت ابن العجوز.. ولكن ابنتها الكبيرة مجهولة الأب رغم معرفة الجميع بأن زوجها يدعي بنوتها، ولكنها لا تهتم بشيء سوى التطلع والتفرس في وجهي لعلها تبحث عن ماضيها العنيد وذكريات شبابها..

١٥ رجب

حضر أخي الكبير من الرياض .. ليبقى عندنا أياماً ثم يعود ، ووالدتي تحاول إقناعه بالزواج ؛ لأنها تخشى عليه ، وهو وحيد من قرناء السوء .. ولكن هناك شيئاً ضعيفاً وجدته في حركاته عندما يشاهد الهندية وبحثت عن السبب لكن ذاكرتي لم تسعفني بشيء، ووجدته ذات مساء يتطلع في شيء من الخوف إلى الهندية التي انتصبت أمامه وفي يدها ابنتها الكبرى ، ولم أسمع سوى أني لا أعرفك ، ولا أعرفك .. ولكنها تصرُّ وتجادل بصمت ثم تتفوه إنها ابنتك ، أنت السبب في وجودها ، وعندما اقتربت وجدها فرصة ليهرب .. ليرحل في مساء ذلك اليوم ..

١٧ رجب

وضحت الحقيقة .. عرفت اليوم من حديث دار خلسة بين عمتي والهندية بأن أخي هو الذي أغواها وهي بعد فتاة تعمل لدى أحد معارف الأسرة.. كانت في المطبخ تعد بعض متطلبات الوليمة، وفجأة انتصب أمامها.. وبعدها لقيته كثيراً حتى أنه أخذ يزورها في غفلة من الجميع.

٢ شعبان

الاثنين.. بنات الهندية الثلاث يحضرن كل مساء للتفرج على التلفزيون عندنا، وأتفرس في البنت الكبيرة.. أسألها عن اسمها وعن أمها وأبيها، وأنا أبحث في تقاسيم وجهها عن شيء يشبه أخي، ولكني لا أخرج بنتيجة.. فهناك عوامل تتصارع في داخلي وترسم صوراً قاتمة، لا أدري ما لونها عن الحياة والفقر، وذلك السر الذي يقف أمام الجميع وتتحطم عليه القيم الإنسانية، والمثل التي لا توجد لها صورة حقيقية عند الكثيرين من ذوي المبادئ المختلفة.. وأشياء كثيرة نرسمها ونجهل إلى أين تصل بنا.. ولكن كيف تورط أخي معها ؟ هذا ما لا أعرفه ..

٣ شعبان

وصلت إلى شيء من الحقيقة بعد أن ضج رأسي بالأفكار والتناقضات .. كانت تحمل كل مساء الطعام .. للعجوز وابنها الشاب ..

كانت تنام بعض الليالي أثناء معاودة المرض لها .. ومن هنا كانت البداية .. لكنه تغير عليها ذات مساء عندما لم ترضخ لطلباته بأن تبحث عن ما هو أثمن من الطعام لدى أسيادها ووجدت في أخي طفولة وسذاجة تحتاج لشيء، وكانت تريد منه أن يقدم لها ثمناً لما تقدمه ولو كان مسروقاً.. لا تشعر بالذنب، ولا تجد في ذلك العناء الكثير أو الخوف الذي قد يفضحها ذات مساء.. ولتقنع صديقها بالزواج بعد أن أخذت معالم الجريمة تتكون في أحشائها..

* * *

أوراق من مذكرات فتاة فلسطينية

(١)

وأنصت .. نعم اليوم اقترب والجموع تعد العدة، فالدعوة مفتوحة للجميع، كل شيء ممهد، وخط طويل يسيطر على الجميع.. المناكب تلتقي ، والمقل شارقة بالدموع، بالأمل ، بالنهاية السعيدة .. كل ذلك منذ عام ..

وها هو يمر بنا عام ..

والجوع ينهش صدري .. يمزق أحشائي بعد أن أعياني الانتظار ، بعد ان وجدت دارنا تبتعد .. تسبق الشمس الغاربة .. يبتلعها مد البحر العاتي .. فإذا بي أعود إلى خيمتي، وقد لفت انتباهي مجموعة من صبيان المخيم يتهامسون، ثم ينطلق كل في طريق وتبتلعهم الزوايا.. وتمر الدقائق، وإذا بحركة غريبة ومجموعة من الرجال يقتربون يحملون شيئاً.. كان ابن جارتنا العمياء، وقد فارقته الحياة، وبسمة لونها الألم فوق فمه الصغير..

خط طويل يسيطر على الجميع، خط من الدم يقبل الثرى، يشير إلى دارنا القديمة، إلى قريتنا الخربة في أرضنا المسلوبة..

(٢)

ماذا يعني كل هذا ؟ الطبل تقرع ، تصم الآذان ، تكون شلالاً من الضجيج ، وأنا ما زلت واقفة أمام باب خيمتنا ، أستجدي المارة .. أخي الصغير (ضاع) ، كان هنا في الصباح يلعب بدميته القديمة ، يصرخ في بائع البرتقال الفتي ..

ـ لماذا لا تنضم إلى الفدائيين ؟

لماذا .. لا تترك عربتك المتداعية هذه جانباً.. ؟ وها هو يطالعني .. بائع البرتقال..

ـ أخي .. هل رأيت أخي ؟ ..

وألقى الفراغ في عينيه .. لم ألق غير الصمت الرهيب .. لقد عاد آخر الليل طفلاً محمولاً أخذه الرجال إلى البعيد .. إلى سفح الجبل ، الذي يحجب عنا الرياح ، ينتظم في سلك الشهداء من رجال الفداء ..

كان صبحي قد تخطى الأسلاك الشائكة فإذا بقميصه يعرقل خطاه وتخترق صدره رصاصة الغدر والخسة والنذالة.والإجرام. ..

(٣)

إنه اليوم الألف بل المليون .. وأنا أشعر بساقي لا تطيقان حملي.. أمي الربو يكتم أنفاسها.. أبي كالمجنون في ركن خيمتنا، يهمهم بكلمات لا تفهم.. (سماح)

تبتسم للجميع، إنها طفلة لا تفهم.. وبطاقة المؤن الصفراء يأكل أطرافها القدم .. وهم يعصرني أن في أحشائي جنيناً .. ترى .. ؟ أيشاهد أباه.. ؟ ماذا أقول له عندما يكبر ؟ عندما يقول أين أبي ..

هل أقول استشهد عن طريق العودة ؟ أم أقول له ذهب ولم يعد ، ولكن هناك سؤالاً قد يواجهني به ؟

أهو ذهب لوحده، أهز رأسي بلا إيجاب، أيصدق أن أباه ذهب لوحده ليمهد طريق العودة.. ليصرخ في اليهود هذه أرضي.. اخرجوا منها، أترثونني ؟ أتأخذون حقا ابني.. ؟ غريبة كل شيء أم تراه سوف يجف حلقه ويكتم أنفاسه انتظاري الطويل في طابور دقيق السوس.. ؟

(٤)

جارتنا (سلوى) لم تعد مساء أمس من صنبور المياه ، أمها تبكي بحرقة ، وكادت تزيد آلامنا إذ همّت بإحراق الخيمة ، ولكن لحقت بها وأمسكت بيدها المرتعشة ، واغتصبت علبة الثقاب من بين أنينها ، لا حق لي في استعمال قوتي وشبابي على امرأة شرب الدهر من دموعها ، أكل جسمها حتى بدت الغصون ترسم ظلم القدر ..

مرَّ يوم وسلوى ما تزال مفقودة وأنا أشعر بوحدة.. أبي أخذ هذيانه يزداد ، بل فقد إحساسه فكان ينام .. وسماح تتوسد صدره ..

ماذا بقي لي غير أن الغثيان يدفعني إلى القيء وأحشائي تسبقني في كل ناحية..

الليل ساعاته طويلة.. آه ما هذا الألم.. ؟

(٥)

عدت إلى رشدي .. طالعتني مقلتي أبي الدامعتين، وبسمة واهية ترف على حاجبيه.. أشعر بشيء غريب حولي .. وإذا بالصراخ يصدمني ، لقد وضعت البارحة .. ولكن هذا الظل الطويل الذي ينتصب على باب خيمتنا أني أعرفه.. الفرحة تأخذ بمجامعي .. الدموع تسبقني .. وتقدم نحوي عاقداً زنديه على صدره يحمل لفافة بيضاء .. كان زوجي (منصور) وبريق الفرح يطل من مقلتيه .. وتلاقت العيون في عناق طويل .. قرب طفلي مني ..

ـ قبليه ..

إنه عودة .. نعم سوف يكمل طريق العودة .. إن استشهدت اعتني به ، أعديه لليوم المرتقب .. ازرعي في صدره خنجراً يصرع الأعداء القادمين من وراء البحار النتنة.

(٦)

اليوم معركة من الصباح ، الحشود على الحدود ، الطائرات تلقي بمنشورات تدعو المواطنين إلى الهدوء ، والتمسك بالسكينة ، لكن ما هي السكينة ؟ وأي شيء بقي لنا بعد أن فقدنا بياراتنا .. دارنا المعلق فوق الجبل الأشم ؟ طفلي (عوده) أخذ يبتسم لي ، يبحث بين الوجوه عني .. لقد غابت عيناي وبرزت نواجذي .. لا خبر عن منصور .. الطلقات تحملها الرياح من وراء الجبل .. غارة.غارة. .. السماء سوداء.. الطائرات تلقي بالحمم.

رحماك يا رب إنني بائسة . إلهي لا شيء بيدي.. وأمسك بيد سماح .. أحمل عودة .. أجري وراء أبي الأعمى، لقد سلب البكاء من عينيه النظر.. الصراخ يرتفع إلهي أين أبي؟ ..

ونعود نبحث بين الرماد عن البقايا.. وينطلق المذياع المجنون .. لقد قام الجيش الباسل بحملة تأديبية على أوكار المخربين وتم القبض على مجموعة يرأسها المدعو محمود الشيخ عرب .. يا للمجرمين .. إنه أبي الأعمى المتداعي .. إنه جد (عودة) .

(٧)

الجوع ينهشني .. لم يبق في مقلتي دمعة وأنا أودع – عودة – عند باب ملجأ الأيتام، سوف تنسيني الأيام والهموم والمتاعب التفكير فيه.. غداً ترحل المجموعة الأولى من النساء إلى الشمال إلى مخيم جديد نصبته الأمم مؤخراً بالتعاون مع الصليب الأحمر .. والحكومة رشفت آخر جرعة من ماء النبع الذي يوازي مخيمنا المحترق .. إني أشاهد ظلاً كبيراً يقترب .. الظلال تلف الجميع .. المطر ينهمر، إلهي ما كل هذا ؟ أطلقت صفارة الإنذار .. أظن خطأ .. ما سمعنا ليس سوى لغم أرضي أعده الفدائيون.. إنه بقايا لغم من عام ٤٧، لا من ألغام ٦٧ الجادة الحاقدة التي تزرع الموت في كل زاوية.. ارتجت له الديار الفلسطينية .. سمع صداه المغرب العربي ، ثارت لأجله أمواج الخليج العربي ..

وشعرت بالجوع .. وأنا أتلفح بثوبي البالي لأسير وحيدة في الطريق الطويل وقطرات من الدم تدلني طريقي.. إنها الزهرات التي خلفتها قطرات دم أخي ذات مساء ..

(٨)

الحقد.. الحقد يزرع صدري شوكاً .. يدفعني إلى التقلب كل مساء في فراشي البالي، لقد كانت رحلتنا طويلة.. وكان حظي أن تضمني خيمة عجوز وابنها المريض الذي يجهش كل لحظة بالبكاء لفقد المقدرة على المشاركة في الجهاد المقدس في سبيل الوطن..

كان يبكي وأنا أنصت لبكائه المرّ، ثم أواسيه وأنا أزرع الأمل في صدره، لكن يده تبدو كأنها وحش أسود معروفة متصلبة الأصابع.. ألمحها كل دقيقة في منامي، وأتخيل منصور وهو يبكي حاله.. وفي لحظة غفوت سرقني شعوري ، شعرت باختناق ، شعرت بأنني أقترب من هاوية ، والهاوية تبتلعني على الرغم من مقاومتي ، وأصرخ .. وأصرخ .. وإذا بيد حنونة تهزني..

ـ ماذا جرى يا بنتي.. ؟

وتملكني تفكير عميق: ماذا يعني هذا.. لعله خير .. وكان البصيص الأخير .. كان البيان السابع عشر يرثي منصور.. ويصف الموقف البطولي الذي عاشه أبو عودة وهو يحمي ظهر رفاقه المنسحبين ويده على زناد رشاشه يحصد العدو ، لكن طائرات الهليكوبتر لم تمهله .. ألقت بحممها فوقه فانكفأ على وجهه يقبل الثرى الحبيب ، يسقي عرق البرتقال .. بدم عربي جديد استشهد ..

(٩)

الحقد يلف خطاي .. يستأثر بلحظاتي ، والدموع تضيع معالم طريقي ، لم يبق لي أحد، العجوز تدعوني بابنتها ، تسألني لماذا تخليت عن عودة .. تسألني عن طريقه حتى تحضره إلى خيمتنا .. وأنا أبكي رسمت لها الطريق ..

ـ أتتركين ابنك من أجل ابني .. ؟

وتغلق فمي بيدها بينما تشير بيدها الثانية على ابنها .. وفهمت مرادها وأنا أقبل رأسها أدعو لها بالسلامة .. مرت لحظات رهيبة وأنا أقف على باب الخيمة أسأل السماء عن سبب الوجوم الذي يسربلني، يرسم الحيرة في حركاتي وتطلعي بلهفة لنهاية كل صرخة تصدر من المخيم.. فهذه أم تبكي ابنها الذي مات فجأة ، وهذه ثاكلة تندب زوجها .. بينما مذياع شاذ يحاول أن يسيطر على الجو الحزين بأغنية راقصة .. تقطر بالضياع والحب والهيام الماجن .. كي تكمل بقية نشرات الأخبار فتؤبن الفدائيين المجندين فوق الربا المكشوفة .. وإذا بي أبكي وأجد أن همومي تنقشع وأنا أسمع تنهيدة مكلومة تصدر من صدر مريض .. وهو يحاول النهوض .. لكنه يعود للبكاء وتلتقي دموعنا ..

* * *

المرســــــوم

أنت قوي .. أنت هكذا كل يوم حتى في الأيام التي لم أكن أعرفك فيها.. كنت أسمع أنك قوي تتحمل كل شيء.. تتحدى الكلمات ، وتخرج لنفسك ما تريد ولو بالعبط والادعاء .. وأطرقت رأسها قليلاً ، ثم مدت يدها لفنجان الشاي ، الذي لم يبق فيه سوى قطرات رشفتها ، وأعادته إلى مكانه ، ومدت يدها إلى إبريق الشاي وهزته فإذا هو فارغ لم يعد به شيء .. ورمقت محمد بنظرة فاحصة ، ثم جمعت الفناجين المتناثرة في الصحن ونهضت من مكانها ..

- فين الشاي .. ؟

- خلص ..

- لماذا .. ؟

- شربت البراد كله ؟ .. ما كفاك أصلح غيره..

لم يرد فوقفت قليلاً تتأمله ، ثم دخلت تغسل الأطباق ، منذ كتب الله عليها سكنى هذه الدار القريبة من مسكن الأهل بعد أن كاد الخصام يؤدي إلى ما لا تحمد عقباه لإصرارها على عدم السكنى مع والدته وإخوانه ، وهم على هذا الحال من عدم المبالاة والإهمال ، ثلاث سنوات لم يتغير في الموضوع شيء عدا تلك الرحلة التي قضى بها أربعة أشهر في الرياض للدراسة رجعت في أثنائها إلى دار أهلها ، ومن ثم الالتحاق بمدرسة محو الأمية التي افتتحت حديثاً في الطائف للأمهات .

كان يسرح كثيراً رغم ادعائه أنها كثيرة السرحان ، فمنذ أيام بعد غيبوبة طويلة نهض فجأة وارتدى ثياب الخروج دون أن ينبس بشيء ، واتجه إلى التلفزيون وأغلقه ناسياً الآخرين ، انتهت سلوى من غسل الأطباق وكنس المطبخ وعادت إلى مقعدها قبالة محمـد ..

- أين البنت.. ؟

- عند أمي ..

- كنت أظنها نائمة ..

- معلوم لهفت البراد .. وأنت منت داري كيف تدري عن بنتك التي لا تسأل عنها، واللي ما ندري الآن عن مصيرها ..

- ما هي عند أمك .. ؟

- أجل كذا .. لكن البنات إذا قفلت فترة المغرب يجيبوها..

- عارف.عارف. ..

انتهى الحوار ، وعاد إلى الأوراق التي بين يديه ليقرأها وأخذت سلوى تتابع التلفزيون ، وإن كانت تختلس النظرات بين الفينة والأخرى لمتابعة ما يقرأه زوجها الذي منذ عادت من المدرسة مع المغرب وهو جالس لا يرفع عينيه عن ما بين يديه من أورق .. وشعرت بالضيق والقلق وأحست أنها بعيدة عنه كثيراً، فنهضت من مقعدها وأخذت تبحث لنفسها عن شغله تنتشلها من أفكارها.. وأطلت من الباب الخارجي، ثم أخذت تدور في البيت، ومرت من أمامه مرة أخرى، وخفضت من صوت التلفزيون وأحضرت مجلة وعادت إلى مقعدها تقلبها..

ـ لماذا أغلقت التلفزيون ..

ـ حتى لا يضايقك صوته ..

ـ ولكن .. هل حضرت البنت .. ؟

ـ بعد ..

ـ ما هذه.. ؟

ـ مجلة قديمة أشغل بها نفسي ما دام أنت مشغول..

ـ لماذا فتحت الباب .. ؟

ـ شعرت بشيء من القلق فطليت، عسى البنت جاءت.

ـ بس ..

ورمقته بنظرة ثاقبة ارتعشت عندما ارتفع صوت سيارة الإسعاف مجلجلاً.. إنه قريب وأخذ يقترب وارتفعت أصوات أخرى وامتلأ الشارع بالمتفرجين ، وبسيارات الإسعاف والإطفاء والشرطة ، ولم يتحرك محمد من مقعده ، وصرخت سلوى: ما هذا؟ ولم تحركه الصرخة .. وقرع الباب بشكل عنيف، ووقفت وجلة والقرع يشتد فنهض محمد من مكانه متأففاً لفتح الباب، وأطلت الصغيرة منال ضاحكة ومعها البنات واجفات..

ـ أنبوبة الغاز انفجرت .. إنها حريقه ..

ـ فين ..

وخرج إلى الشارع واندس بين المتفرجين يتلفت هنا وهناك محاولاً معرفة الأمر، وتحركت سيارات الإسعاف والإطفاء وأخذ رجال الشرطة يفسحون الطريق لها، وأخذ الازدحام يخف فقرر العودة إلى البيت ولكن شده أحدهم:

ـ ماذا .. ؟

ـ وصلنا البيت ..

أوصل البنات البيت وعاد إلى الدار ليجد أن ابنته قد أوت إلى الفراش بينما سلوى واقفة تنتظر عودته ..

ـ أوصلتهم .. ؟

ـ أجل ..

عاد محمد إلى مقعده ولكن كل شيء كان يفكر فيه قد انتهى حتى الأوراق التي كانت بين يديه لم تعد به رغبة في العودة لها، فنهض من مكانه..

* * *

حـلــــــم

أنت نزق .. أنت لا تهتم بالأمر سيان عندك وقفت أمام الباب أم قفزت من نافذة في الدور السابع، تحاول أن تكون لا شيء، ومع ذلك تغلي من داخلك..

أنت حقود .. وفي الوقت نفسه جبان .. كل همك أن تكون وحيداً أمام نفسك وأمام الناس، تستمع في صمت لكل ما يقال، ثم ترسم ابتسامتك الباهتة.. أو خنجرك المسلط..

وتلفت غالبا يبحث عن المتكلم.. لم يكن هناك أحد سوى الكتاب الذي بين يديه، والراديو الذي غلب عليه التشويش فيه على الأغنية المذاعة فلم يهتم بتعديل المؤشر.. وجدران الغرفة الأربعة، وبعض الكتب المتراكمة فوق الطاولة الصغيرة، وبعض الأثاث المتناثر هنا وهناك..

وعاد للكتاب وقلب الصفحة ..

أنت ساذج هكذا .. إنها الحقيقة ، وتحاول أن تخلق من نفسك شيئاً جديداً ونادراً، صلب لا ينكسر ، ولا يتأثر بعوامل الجو ، لماذا تكره الصفرة في الرز ، ولا تهتم بأخذ السلطة ذات الطعم المز .. لماذا تكره الليمون والشطة .. ؟

ـ أأنا أكره الليمون والشطة ؟

وصمت منتظراً الجواب ، لكن لم يكن هناك من يهتم بذلك فأغلق الكتاب الذي بين يديه ومد يده بتكاسل إلى الراديو ، وأخذ يعبث بالمؤشر ويتطلع في ساعته .. لقد كانت التاسعة وأغلب إذاعات العالم تقدم نشرات الأخبار ، وأخذ يبحث في جنون وسرعة عن إذاعة ، ولكن كان كل شيء موسيقى وتشويشاً ومؤثرات خارجية تزيد من وجع الرأس وفي نرفزة أغلق الراديو ، ثم تمدد في الفراش .. ضايقه الضوء ، فمد رجله إلى زر الكهرباء وسرعان ما سبحت الغرفة في الظلام .. ويتحسس اللحاف بعد أن دب الخوف في أوصاله وغطى وجهه وقدميه وكل أطرافه..

حاول أن ينام وعاد إلى أحلامه.. إنه وحيد منذ تركته نوره مع هواجسه وأحلامه، لقد قررت عدم العودة بعد أن شتم أصلها وفصلها في حالة غضب وتأسف على زواجه منها رغم أنه وفي خلال أربع سنوات كانت كل المبادرات تجيء منه هو.. لم ينس في يوم أن يقول لها كلمة شكر في هدوء ورقة.. ولكن ماذا أغضبها .. المرتب الصغير .. لا أظن، فكل زوجة ترضى بما يقدمه لها زوجها ولو كان خبزاً وماءً.. هل هو شتمه لأسرتها .. قد يكون ذلك مجرد حدث طارئ لا بد أن في الأمر شيئاً ما .. ؟

إنها المائتان ألف ريال ، ولكن له أكثر من عشرات السنين وهو في كل ليلة يرجو الله أن يمنحه هذا المبلغ ليعمل كل شيء .. ليشتري سيارة ويقتني بيتاً ويرفه

عن نفسه وعن زوجته .. لكن لم يتحقق شيء من ذلك .. إنه موظف منسي ومجمد، لا يتغير ولا تتغير مرتبته منذ توظف.. منذ مليون عام وكل شيء كما هو..

والراتب لا يبقى منه عند توزيع حصص البقال وإيجار الشقة والأكل سوى ثمانين ريالاً.ز يدبرها حتى يحل مرتب الشهر الجديد ولم يتغير الحال ..

هل هذا هو سبب غضب نوره .. ؟ إنه مبذر، هكذا قالت، وما زالت تقول إنها تحلم مثله ولكن ليس بمائتي ألف ريال.. إنها تحلم بدار لها ولبناتها، دار ولو من غرفة واحدة.. تجعل الاطمئنان يسري في عروقها، يشعرها بأنها ربة البيت وأنها كل شيء..

ويرتفع صوت جلبة وضوضاء ، يقفز على أثرها غالب من الفراش ، ويضيء النور، ويأخذ في التجول بين الغرف لمعرفة مصدر الجلبة ، ويقرر إقفال المطبخ والحمام بالقفل، وكذلك الغرف الأخرى حتى الباب الخارجي أقفله بالمفتاح .. وعاد إلى الفراش ودفن رزمة المفاتيح تحت المخدة التي يضع رأسه عليها ..

احتضن الراديو .. وأخذ يبحث عن أغنية تشاركه وحدته في هذه الساعات المتأخرة من الليل..

* * *

وارتفع الصخـــب

إني أموت .. كلهم لا يدرون ما بي ، وما أعاني ، ألم يهترئ جسمي ، والأفكار الملعونة تسحق هامتي ، تشنق كل محاولة للهدوء تطرق بي ، السأم يكبلني .. الضجيج مزروع حولي ، والوقوف أمام النافذة أو الجلوس على عتبة الدار ، والرد على تحيات المارة لا يفيد شيئاً ..

علي أن أعود لأتمدد في فراشي، أو الجلوس أمام درج أشرطة المسجل للبحث عن شريط قد لا أجده، ولكن ماذا في الأمر ؟ وجدت هذه الجملة فوق الجدران أمامي تلفت انتباهي، كمؤشر سيارة صغيرة تحاول الانحراف، وأخذت أفتش جيوبي، كانت هناك قصاصة تقول: الأخ أحمد، فكرة القصة لطيفة وذات مغزى.. فقط تحتاج إلى بعض التركيز ، عاود قراءتها لتعرف ذلك ..

أين التركيز الواجب تسجيله .. نحن نعيش التدهور .. لقد فغرت الهاوية فمها منذ مليون عام، ولا زالت تستقبل المزيد، إني أقترب، الخطر يحدق بي من كل مكان وعلي أن أسجل شيئاً قبل أن تتلقفني الهاوية، وأستقر في القاع، وماذا أسجل ؟ ماذا في الأمر؟ وتطل جميلة بوجهها المعروف، ويدها النحيلة وشعرها الأسود رغم السنين، وقد افترَّ ثغرها عن ابتسامة لتضع أمامي دله القهوة مع فنجان واحد..

ـ إني ذاهبة ..

ـ ألا تشربين معي .. فنجاناً .. ؟

ـ لا أستطيع ، الوقت متأخر ..

ـ ولكن إلى أين .. ؟

ـ يعني .. ؟

ولم تقل شيئاً .. هزّت رأسها وأخذت تبحث عن عباءتها.. وأتجرع القهوة أسارع في شرب الفناجين محاولاً التغلب على الصداع الذي يهدُّ رأسي وفشلت ، فالصمت الذي فرضته حولي بعد خروج جميلة لم يدم سوى دقائق ، إذ اخترق أزيز دراجة ابن الجيران صومعتي وبكاء أطفال الوافدات لزيارة جارتنا شل ما تبقى في أعماقي من محاولات ..

ـ يجب أن تغيري رأيك وتبقي معي فهناك موعد هام يجب إنفاذه وبعد ذلك أسمح لك .. أمامك وقت كاف كي تلغي الفكرة.. أرجوك اخرجي عن صمتك وأجيبي على رجائي.. هل ستغيرين رأيك أم أنك ستبقي على عنادك ؟ .

- ....

ـ يجب أن تغيري رأيك ..

وتلفت حولي لم يكن بالقرب مني سوى دله القهوة الفارغة وفنجان في قعره بقايا وجميلة تقول – كذلك هي العائلة فرع من قبيلة كبيرة كانت تسكن الحجاز ، ويوجد حضر ينتمون إلى تلك القبيلة ، وقد ورد ذلك في كتاب تاريخ نجد ومعجم قبائل العرب القديمة والحديثة ..

كانت المسألة بسيطة للغاية .. مسألة يقال إنها تتعلق بطبيعة الإنسان وغرائزه ، وأشياء كثيرة شعرت الآن أنها تافهة رغم أن العم أبو صالح أكد ارتباطنا بالأسرة الموجودة في القصيم ، وأن السبل التي تحمل اسم العائلة الموجودة بتلك الناحية لنا الحق في سهم من أسهمها ، وكل ما علينا هو مطالعة شجرة العائلة ..

ـ أحمد .. أحمد انهض ـ هل أحد ينام الوقت هذا.. ؟

وتطلعت حولي.. كانت الساعة السابعة والنصف مساءً .. حاولت أن أقول شيئاً فلم أستطع .. المهم عادت جميلة لتوقظني من النوم.. إن الرفاق لم يحضروا للسمر كعادتهم ، وعلي أن أشاهد ما تبقى من برامج في التلفزيون ، لقد برزت ثلاثة أشياء أمام أفكاري السابقة ، تخلق في ذات الوقت مرحلة جديدة علي أن أفكر بها في جوهرها قبل أن يأخذني الوقت ويرتفع الصخب من جديد ..

* * *

الحنين واللحظات المفاجئة

ـ حامد.. إنهم يراقبوننا ..

وتلفت حوله يبحث عن المراقبين ، وتذكر فجأة أنه وحيد والغرفة مقفلة حتى النوافذ مقفلة ، وليس هناك سواه ، وصوت المكيف يملأ الغرفة أنيناً ..

ونهض من على مقعده وهو يحرك النظارة محاولاً تثبيتها على أرنبة أنفه واقترب من الباب، وأخذ يستمع.. قد يكون هناك حركة في الخارج .. أجل .. هناك أحدهم .. وانحنى يتأمل من خلال ثقب الباب واصطدم نظره بالجدار المقابل.. ولكن هناك أحذية كثيرة تتجول .. وتأمل الساعة، لقد كانت الحادية عشرة ظهراً ..

كيف يستطيع هؤلاء التجول في مثل هذه الساعة، والحر يسلخ الأجسام ؟ لا بد أن في الأمر شيئ مفكراً.خذ يتجول في الغرفة مفكرا...

لقد تسرب القلق إلى أعماقه .. إنه اليوم الرابع الذي يعيشه في هذه الدوامة، لقد رحل الجميع وغدا وحيداً.. لا لم يرحل الجميع، لقد قرر هو الرحيل هذه المرة، وكان عن سابق إصرار.. كان يعرف معنى الفراغ والصمت والوقت القاتل الذي يمر رتيباً في سأم وشك .. ولم يصل إلى شيء ..

عاد إلى مقعده يقلب الأوراق التي أمامه على المكتب.. وجدها متراكمة هنا .. لقد أحضرها الفرّاش مرتبة من المكاتب الأخرى وعليه أن يوقع.. وتذكر إذن كل هؤلاء المراجعين ينتظرون أوراقهم ، وله أربعة أيام وهو يوقع ولكن لم تخرج ورقة من المكتب، أجل إنه يتذكر لم يفتح ملفاً واحداً من الملفات المتراكمة على المكتب ، وإنما كل ما وقعه هي تلك الأوراق التي دخل بها أشخاص ، أخذوا يسألونه عن الصحة ويهنئونه بسلامة الوصول ، داعين لشرب القهوة ، لكن كيف تعرف بهم ، إنها لا يدري ، أجل فهم أغراب لا يعرف أسماءهم ، وإنما يعرف وجوههم .. أظن حتى في الزحام وفي السوق سوف يذكرونه بالدعوة إن لمحهم ، ويقلب الملف الأول ، ويأخذ المعاملة الأولى ثم يبدأ في القراءة ..

ـ حامد تذكر .. إنهم يراقبوننا ..

وتراخت يده وقد سَرَتْ قشعريرة في جسمه .. أجل إنهم يراقبونه ، ولكن الآخرين بعيدون "أمل" و"محمد" و"عزة" .. ؟

كلهم بعيدون ، لقد أمضى هذه الأيام الأربعة يفكر فيهم ، كلهم بعيدون .. لم يلمحهم بين الوجوه التي استقبلته أو التي دخلت عليه المكتب..

لكن كيف حالهم الآن .. ومدّ يده للهاتف .. ورفع السماعة .. يقرع الباب، ثم يدخل مراجع فيعيد السماعة إلى مكانها .. ويأخذ القادم بالأحضان ويسأله عن الصحة والأحوال، ويفل الرجل أوراقاً بين يديه، ثم يخرج قلمه المذهب من جيبه

ويقدمه لحامد الذي أخذ يوقع الأوراق والكلمات الرتيبة تمر عن الصحة وعن طلب تحديد وقت مناسب للتشريف وشرب فنجان من القهوة.. وامتلأ المكتب بالمراجعين ، وفي عفوية أغلق الملف المفتوح بعد أن أعاد إليه المعاملة التي كانت بين يديه ، وأخذ يضحك مع الجالسين ..

* * *

المفترق العاق

سرحت تتأمل تلك الأحداث التي مرت بها خلال حقبة من الزمن ، هي بحد ذاتها لا شيء بالنسبة للآخرين ، لكنها في حقيقتها هي تمثل أجيالاً من الأسر ، أخذت "حصة" تجمع شتات الخواطر رغم الفوضى التي يعيشها الفصل ، وصراخ الطالبات، وهمهمة المقاعد المتضجرة من اضطرابات محتليها ، وفي محاولة يائسة رفعت يدها لتهدئ الطالبات ،لطرد تلك الذبابة اللعينة التي أخذت من أرنبة أنفها منبراً .. أم لطرد تلك الغمامة التي أخذت تعترض طريقها .. ؟ أم هي محاولة يائسة لإسكات ذلك الفم الذي انهال يقرعها على فكرتها الجديدة التي اختمرت في ذهنها، وقررت تنفيذها رغم كل شيء.. ران الصمت على الجميع، وتلفتت حولها تبحث عن الضجيج والضوضاء ، وفوجئت بالهدوء يخيم على الغرفة ، وشمس الربيع تتسلل في هدوء عبر ستائر نوافذ الفصل ، وأنين خافت هو صدى تلك الحركات المكتومة الصادرة من الغرف الأخرى عبر شقوق الأبواب ، ومن وراء وقع نعال وأحذية المدرسات وعاملات النظافة خلال تجوالهم في أروقة المدرسة الكبيرة .. زرع كل هذا فوق الجدران علامات استفهام كبيرة ملونة سرقت وسائل الإيضاح ، ورسوم الجدران ألوانها بقسوة وعناد ، وتمددت فوق المقاعد علامة استفهام كبيرة لا لون لها . وصرخت في الطالبات ..

ـ ولكن هذا فم من .. ؟

واحتارت الطالبات .. دب الذعر والخوف في أوصالهن ، وهي التي عودتهن على قسوتها .. وعنادها في الوصول إلى جواب مهما كانت الأحوال، واستنجدت صاحبة المقعد الأول بجارتها، وعادت الحركة إلى الفصل لانتزاع "حصة" من هواجسها، وتصرخ في واحدة...

ـ نجاة واصلي القراءة.. ؟

وأخذت نجاة تقرأ (يا بهجة القلب، يا منبع الحب والعطف، يا أمي.. خففت آلامي ، أسعدت أيامي بالحب يا أمي ، بالروح أفديك ..)

ويرن الجرس معلناً انتهاء الدرس، وجلست في الفصل وحيدة تناجي المقاعد شاردة رغم أنها أخذت الكراريس لتصححها، إلا أنها لم تقم بتصحيح واحدة منها..

ـ أنت عاقة ..

وتلفتت حولها ، ولكن من أنت .. أنا لست عاقة، ونهضت من فوق كرسيها واقتربت من النافذة، وأخذت تتأمل الطريق الموحل حيث يقبع المنعطف.. ورفعت يدها وأشارت في تخاذل ثم أخرجت من فمها جملة كفحيح الأفعى ..

ـ إنه هو العاق ..

وكررت .. نعم هو المفترق العاق .. لست أنا .. ؟ هناك أمي .. وهناك أبي ، وكلهم يشدني إليه فإلى من أذهب .. ؟ تكلم يا من تتهمني بالعقوق .. وقبل أن تسمع الجواب فُتِح باب الفصل ودخلت الطالبات في جلبة وضجيج غير مباليات "بالأبله" المصلوبة على نافذة الفصل، ودارت حول نفسها ورمقت الطالبات بقسوة وصرخت فيهن ..

ـ أنا .. هنا .. !

فران الصمت على الفصل، وأخذت طريقها إلى مكانها أمام السبورة، وأخذت قطعة من الطباشير ورفعت يدها، وفي منتصف الطريق توقفت، ورمقت الطالبات في ارتياب..

ـ هو الدرس إيه .. ؟

وجاءها الجواب من أكثر من فم ، فلم تفهم شيئاً ، فاكتفت بما سمعت وأعادت الطبشورة إلى مكانها ، وعادت إلى كرسيها تحاول تصحيح الكراريس التي أمامها ، بينما سرت همهمة مكتومة من الطالبات ، حاولت – العريفة – بترها بوقوفها وأخذت تجيل بصرها في الجميع ، توقفت أمام واحدة ..

ـ أنت ..

ـ نعم .. يا "أبله" ..

ـ والدك فين.. ؟

ـ مسافر..

وتوالت الأسئلة على الطالبات، فوجدتهن جميعاً لهن آباء وأمهات، بخلافها حيث لا أب لها ولا أم.. كانت في مثل سنهن، لا تعرف شيئاً، ولكنها الآن فهمت الحقيقة بحذافيرها.. أب مزواج كل سنة .. كل شهر له زوجة وأم بائسة رمت بابنتها لترضي أسرتها.. كانت تسر وهي ترى الدار في هرج ومرج .. وكانت مسرورة أيضاً وهي تحظى بلحظة عطف عند زيارتها لوالدتها التي اكتفت بتجربة واحدة في الزواج، لتكون عالة على أسرتها..

هكذا وجدت "حصة" أمها.. وهكذا وجدت أباها .. كانت أمها امرأة فلم تنجح من ألسنة السوء، أما أبوها فماذا تعرف عنه.. ؟ لا شيء سوى هذا الجحفل الجرار من الأبناء والبنات، وكبرت وتخرجت من معهد المعلمات، أصبحت مدرسة، حاولت أن تتجاوز كل شيء..

ولكن كلمة – عالة – أخذت تتضخم أمامها ، تعرقل خطاها ، تملأ ما حولها عتمة، وقررت شيئاً لم تحاول البوح به ، لكن أحدهم اكتشف ذلك، فأخذ يلاحقها صارخاً فيها..

ـ أنت .عاقة. ..

ونهضت من مقعدها ، واتجهت إلى النافذة ، وأزاحت الستائر .. ورمقت الشارع الموحل ، ورفعت يدها هذه المرة بقوة مشيرة إلى المفترق .. والتفتت إلى الطالبات ثم صرخت فيهن ..

ـ إنه هو العاق .. ؟

وأجابت الطالبات في صوت واحد ..

ـ نعم يا "أبله" .. نعم يا "أبله" ..

* * *

عندما فات الوقت

استقر رأيه أخيراً على أن يتزوج.. وقرر البحث عن الفتاة المناسبة ، فأخذ يسأل هنا وهناك .. ووجد ولكن في أعماقه شيئاً يدعوه إلى عدم الإقدام ، إذ أنه يرى كل فتاة وجدها "فاطمة" تلك التي لعبت بعقول الشباب وفاز كل واحد منهم منها بموعد كاذب .. حتى هو أخذ من مواعيدها الكثير، لكن عندما يصل كان يجد الشارع فارغاً، وباب الدار مقفلاً بالقفل الأصفر المعتاد.. رغم أن هناك بالداخل صوتاً وحركة.

وقرر بعد جهد أن كل بنات المدينة غير مناسبات ، وأفضل حل له أن يتزوج من قريته رغم عدم معرفته لها ، فشد الرحال مصطحباً خاله وابن خاله ، أخذت الطريق أمام الثلاثة تقصر والحديث بينهم ما زال في بدايته ، والسيارة بين لحظة وأخرى يرتفع أنينها لوعورة الطريق الجبلي .

وصل الثلاثة، وتلفت "صالح" حوله يبحث في البيوت الطينية المتناثرة والمزارع الممتدة على مد البصر فوق الجبال وبين الأودية عن جده لأمه التي ماتت وهو في الثانية، وحمله أباه إلى المدينة حيث لقي هو أيضاً ربه فكفله خاله واهتم بأمره.

ولم يجد من يساعده على رسم صورتها أو ذكر شيء عنها فكلهم نسيها ، ولم يعودوا يذكرون "حليمة" ، فكم من حليمة ماتت في هذه السنين التي مرت وأصبح عمره فيها ثلاثين سنة ، كل ما استطاع أن يجمعه هو عشرون ألف ريال منها خمسة آلاف دين .

استقبله الجميع ، ودارت الدعوات ، كل يوم في دار وكل وليمة في دار وما زال الحديث كما هو في بدايته .. وطالت مدة المكوث بدون نتيجة .. إما الشروط هو يريدها لم تتوفر، أو لشروط أهل الفتاة لم يوافق هو عليها.. وتسرب الملل إليه وإلى خاله ، فكلهم يريد أن يتزوج مثله ، وكلهم يبحث عن فتاة ، وهو يريد فتاة كاملة ، وابن خاله يريد امرأة جميلة ، أما خاله ابن الخمسين فيريد امرأة ولوداً بعد أن سمحت له زوجته العقيم بأن يتزوج ، إنه يبحث عن امرأة ثالثة .

ووجد الجميع طلبهم ، وكان الحفل رائعاً ، وعادوا والبسمة ترف على الأهداب، تزوج الأب وابنه أختين ، أما "صالح" فقد تزوج ابنة عم زوجة خاله العقيم .

ومرت الأيام رزق فيها الثلاثة ثلاثة مواليد في فترات متقاربة، وهش الأقارب.. تهللت الأسر الثلاث بفرح وحبور، ولم يلحظوا في فرحهم هذا ما يدور في قلب زوجة الخال العقيم التي شاركت الجميع فرحتهم وشملهم بعطفها وإرشاداتها إذ كانت في مقام الأم لكل واحدة من البنات الثلاث.

وانفجر الموقف .. قرر الخال تطليق زوجته الجديدة بعد أن وجد في سلوكها ما يعيب، وطلب من ابنه تطليق أختها مدعياً بأنه لا بد أن زوجته أثرت عليها وأن ابنه لم يلاحظ ذلك.

وتسرب الشك إلى قلب "صالح" .. فأخذ يراقب زوجته وقرر إغلاق الباب عليها بالقفل عندما يغادر الدار .

ولم يتوقف شكه عند حد فأخذ ينهار جسمانياً ونفسياً فشخص بصره وأخذ لا يكف عن الحديث في مشيه أو وقوفه .. وشعر زملاؤه بما هو فيه لكنهم كانوا يجهلون السبب، فلم يستطيعوا التخفيف عنه أو حل مشكلته.

وطلب إجازة من العمل لمدة ثلاثة أشهر، فأخذ زوجته وسافر بها إلى القرية واستقبله أهله بالترحيب، وطلب منهم عندما قرر السفر إبقاءها عندهم حتى يعود لأخذها مدعياً أنه انتدب للعمل في أماكن بعيدة عن البلاد.

وعاد إلى عمله ، ولم تمر أيام حتى تحقق ما ادعاه فانتدب إلى الحدود الجنوبية من البلاد ثم إلى الشمال ثم إلى خارج البلاد ، وكأنه توقف قليلاً أثناء مشاغل العمل عن التفكير في زوجته وابنه .. وحط الرحال أخيراً وقد عاد إله بعض هدوئه ، فقرر السفر إلى القرية لأخذ زوجته وابنه ، أخذ يفكر في يوم السفر ودخل عليه أحد زملائه في غرفته بمقر العمل يحمل بين يديه رسالة وصلت مع ساعي البريد الذي لا زال داخل الإدارة يوزع ما في حقيبته من رسائل ، فهجم على زميله عندما تأمل ختم البريد وفض الرسالة وما أن وصل إلى نهايتها حتى تهاوى على مقعده ..

(لقد أرسلنا لك أكثر من رسالة ولم يصلنا الرد عسى المانع خيراً.. وقد ذكرنا لك في رسالة أرسلناها لك منذ شهر بأن زوجتك انتقلت إلى رحمة الله في حادث مؤسف.. إذ سقطت في إحدى الآبار وهي تحاول جلب الماء إلى البيت.. أما ابنك "عبد الله" فهو بصحة جيدة ولا مانع لدينا إن حضرت لأخذه..) .

ووضع رأسه بين يديه يتأمل الرسالة التي تمددت على المكتب أمامه، ثم رفع رأسه وأخذ يتأمل وجه زميله الذي ما زال واقفاً ينتظر منه كلمة شكر، ثم طوى الرسالة في هدوء ودسها في جيبه وخرج من مقر العمل..

* * *

ذات يـــــــــوم

١ ـ الساعة الرابعة والنصف مساء :

يبدو مع ذلك أنني أهملت واجباتي .. انقضى أكثر من مائة عام قبل أن أصل إلى هذه النتيجة.. لا شيء تبقى سوى نحن الثلاثة.. السماء ملبدة بالغيوم ، وكراسي المقهى المنتشرة هنا وهناك شبه ممتلئة بالمرتادين والجرسون يعدو هنا وهناك وبين لحظة وأخرى ينادي بصوت مرتفع : أربعة أسود ! . عبي حجر ! أو غيّر الرأس .. !

وأنا أحاول أن أنصت أكثر من اللازم حتى أستمع إلى الحديث الدائر بين رفيقيَّ صالح وحمد.. إن حديثهما الهامس رغم أنه لا شيء يثيرني.. وصرخ أحدهم :

ـ مطر .. مطر !

وتساقط المطر ، وأخذ الزبائن يفرون ، أما نحن الثلاثة مع برادنا وتعميرتنا فقد صمدنا ، وأخذنا نضحك من الفارين من مطر الصيف .. إنها سحابة وتنقشع ، وكدنا نيأس .. كاد صمودنا يتحطم أمام زخة من المطر .. كان الرهان كبيراً .. وتوقف المطر !!

وعدنا لحديثنا الذي انقطع مع تساقط أول قطرة ماء.. عاد صالح وحمد لهمسهما ..

وتأملت السماء .. في شيء من الضيق .. وتأملت رفيقيّ وهمست ..

ـ صالح .. هل تذكر أباك .. ؟

سؤال غريب.. كنت أشعر بغرابته وعدم استساغته ومع ذلك صممت على إلقائه، صمت قليلاً.. وقال :

ـ أجل أذكره .. وأعرفه، كان رجلاً مغامرة كثير الرحلات.. تاجراً فاشلاً .. هاجسه ظهر بعيره .. رحل ذات يوم ولم يعد .. كانت سفراته طويلة فلم نكن نقلق .. وجاءنا خطاب بعد مضي سنة على آخر سفرة له يقول إنه مات.. أجل مات في أرض الغربة .. ولا شيء أكثر من ذلك ..

وصمتُ .. كنت أظن أنني أعرف الكثير عن والد "صالح"، ورددت أنني أجد عطفاً خفياً على الفتى ولم أجد مدعاة لأن ألومه لرغبته في الإيجاز.. وكنت على استعداد لتشجيعه ومعاونته على الاسترسال .. ونظر إليَّ "حمد" ليرى أثر الحديث فلم أمهله إذ فاجأته ..

ـ حسناً وأنت يا حمد.. هل تذكر أباك .. ؟

تأملني مشدوهاً .. فهو يعرف أنني أيضاً أعرف أباه .. وأنني كثيراً ما جلست معه أستمع إلى حديثه الشيق وشكواه من الزمن بأسلوبه الفكه الممتلئ فلسفة ومنطقاً .. إذ كان يحلل كل شيء ولا يدع مجالاً للشك .. أسلوبه مقنع وحواره هادئ ..

ـ أبي تعرفه .. وأعرفه، كان رحمه الله يحرص على أن تكون من الصالحين قدر المستطاع، وتوقف عن الحديث.. كان يريد أن يقول (يمكنني أن أقول لك بإيجاز أنني كما اكتشف المخلوق الأول قدرته على لمس خنصره بإبهامه أستطيع أن أبين لك النتائج التي تضمنتها هذه التربة على قدر ما يخصني في هذا المقام فقط).

٢ ـ الساعة السادسة مساءً :

دبَّ الملل والسأم في أعماقنا من مكوثنا في المقهى بعد أن فرغنا من الحديث وسئمنا من مرور القهوجي أمامنا بين لحظة وأخرى وصراخه ..

فركبنا السيارة وقررنا التجول بين الصخور والأشجار المحيطة بالمكان .. وما أن فتحت باب السيارة حتى واجهني سؤالي..

ـ وأنت هل تعرف أباك .. ؟

تلفتُّ حولي فوجدت "صالحاً" مشغولاً بإدارة جهاز الراديو و"حمد" يتلفت حوله ويجيل نظره ليستمتع بالنظر ما أمكنه من الأشجار.

ـ أبي.. مات وأنا في الثانية من عمري .. ليس بمغامر أو تاجر .. رغم أنه كان كل شيء.. اشتغل في التهريب والتجارة وعاد بخفي حنين .. حاربه أهله فهاجر إلى الجنوب مع الحكومة وهناك وجد عملاً .. اشتغل بجد ونشاط .. ولكنه توفي مخلفاً الكثير من الأملاك .. ومع ذلك ها أنا ابن الثانية لا أملك شيئاً وقد جاوزت الثلاثين..

موظف عادي.. مرتبي محدود .. وتذكرت أن صالحاً وحمداً أيضاً مثلي لا شيء.. كلاهما موظف عادي ومرتبه محدود .. لكنهما يبتزاني بشيء جوهري ، إنهما يعرفان أباهما أما أنا فكل معرفتي هي حكايات معاصريه لا غير ..

وعدنا أدراجنا إلى المدينة رغم أن الوقت ما زال مبكراً..

ـ إلى أين .. ؟

ـ إلى البيت ..

ـ لماذا لا نرجع إلى المقهى .. ؟

وعدنا إلى المقهى بعد أن وافق الاثنان..

* * *

نقطـة اليأس

استحال كل شيء إلى ضباب وتلاشت الطريق .. لم يعد هناك أمل في الوصول إلى البر في سلام.. بدأت الأحداث تطفو معلنة عن نفسها بطريقة صارمة .. زرعت الدموع في عين "فاطمة" التي ما برحت تتأمل ابنتها الجاثية على أقدام خالها المريض ، فتراقصت الصور أمامها تلعن كل شيء في هذه الحياة الموبوءة التي أعلنت عن وجهها الآخر فجأة.

كان كل شيء يسير في طريقه برتابة ووضوح ، تملأ النفس ثقة والحياة طعماً لذيذاً..

ـ ما رأيك يا فاطمة .. ؟

ـ في .. ماذا .. ؟

ـ في أن تبقى هنا مع أبنائك أو نذهب إلى الطائف على شرط أن تسكني في دارنا.

ـ لكن من يعيش معنا أثناء غيابك .. ؟ إن الأمر مستحيل هنا ، وفي مقدورنا أن نطلب نقل ملف الأبناء ..

ـ أجل في استطاعتنا .. ولكن كما قلت ..

ـ يعني أسكن في دارنا.. أليس كذلك .. ؟

ـ أجل ..

ـ وهل أبقى وحيدة هناك، وأنت تعلم أن للبيت طلبات وحاجات..

ـ أعلم ..

ـ أم ترغب في استئجار خادما للعناية بأمرنا.. ؟

ـ في إمكاننا ذلك .. إذا تعذر بقاء أحد أشقائك معك..

ـ ولكن لم لا توفر نقود الخادم، وتدعني أقيم مع أسرتي حتى تعود.. ؟

ـ هذا مستحيل ..

وأصرّ "سالم" على كل كلمة قالها ، ووجدت "فاطمة" نفسها وحيدة مع شقيقها المريض ، تترقب زيارة أحدهم حتى يأخذه إلى المستشفى أو يبلغ والدها للإسراع إلى نجدتها ، وتراكمت الساعات وكل شيء يزيد في رهبة اللحظة التي تعيشها ولم يسعفها تفكيرها بشيء فتداعت في غرفتها تبكي .. بينما أنين أخيها المريض وبكاء أبنائها المحيطين به يتسلل عبر الباب .. كان المرض المفاجئ له وقعه في الدار الصغير في هذا الوقت المتأخر من النهار..

وفتحت – أثناء تقليبها لمحتويات الغرفة – دولاب الملابس وأخذت عباءتها من المشجب وخرجت لا تلوي على شيء إلى الطريق.. وفوجئت بالظلام المخيم وترددت وهي تنقل خطواتها السريعة إلى أي ناحية ، وبعد خطوات لمحت سيارة أجرة وقبل أن تفتح فمها منادية توقف أمامها ..

ـ نحن في الخدمة ..

ـ أبغى المستشفى ..

ـ السيارة .. وصاحب السيارة خدامك .. تفضلي .. !

ولم تتحرك السيارة فقد أصرَّ السائق على أن تركب، وهمت بالانسحاب، لكنه استغل خلو الشارع فلحق بها وأمسك بيدها بقوة وتصميم..

ـ أمرك .. لكن يجب إسعاف المريض ..

ـ من عيوني .. بس .. ؟

ـ إني أعدك وأقسم لك فقط ساعدني ..

وأخذت المريض إلى المستشفى وثابت إلى رشدها ، فأخذت تفكر في وعدها .. كان عليها أن تبحث عن مخرج وطلبت من السائق أن يوصلها إلى منزل أسرتها وتردد، لكن طمأنته بأنها عند وعدها له، واستقبلها والدها وبقيت الأسرة مستغربة زيارتها المفاجئة وأطلت الدموع من مقلتي والدتها وهي ترى المريض والقلق الذي تعيشه ابنتها..

عاد الاطمئنان إلى فاطمة وهي ترى الجميع حولها، فأخذت تعود إلى حالتها الطبيعية وتتعجب من ابنتها البكر التي أصرت على البقاء طوال الوقت جاثية عند أقدام المريض تشجعه على تناول الدواء وتساعده على الأكل..

وكان بين الجميع قريب أصر على الإشراف على علاج المريض، أخذت تتأمله متذكرة أنه تقدم يوماً ما لطلب يدها.. وتوقفت أمام والدها تتأمله وهو يتحدث .. يوزع أوامره ، ثم يمد يده ليدثر أو يربت على المريض .

ـ إنك انتهازي ..

خرجت هذه الجملة رغم أنفها وتبتعد بنظرها عن أبيها خشية أن يسمعها أحد وعادت متسللة تتأمل أباها.. كان كل شيء يسير كما كان منذ لحظات، ولكن لمَ تفوهت بهذه الكلمة ؟ .

إن "سالماً" رجل غني وذا مركز مرموق أما هذا القريب فهو مجرد موظف صغير، وصاحب سيارة الأجرة.. ماذا يكون أيضاً .. أتراه انتهازي أيضاً وانتصبت صورة زوجها أمامها فصرخت.وأنت.ت .. ماذا تكون .. ؟

وأثارت انتباه الجميع بما قالت..

ـ فاطمة.. ما بك.. ؟

ـ لا شيء..

ـ لكن ماذا قلت .. ؟

وتدخلت والدتها ..

ـ إنها متعبة .. انهضي لتنامي قليلاً ..

وترددت ولكن نظرات أبيها ورجاء أمها دفعاها إلى مغادرة الغرفة مستسلمة .. ووقفت في نافذة غرفتها القديمة ترمق الأفق في يأس وتبحث عن جواب ..

* * *

البحث عن ابتسامة

لتنهار كل المبادئ وليعم الدمار العالم، لترحل الكلمات الطيبة في قارب صغير يجرفه التيار إلى أعماق البحر، وتجتاح الأعاصير والأمواج المدن وتتلاشى صرخات الهلعين.. في الضباب الأسود الذي أتمنى أن أغطي به كل شيء حولي حتى نفسي.. أنا حاقدة لأني منبوذة ، كلهم رأوا فيَّ شبح الجريمة وحقد البشرية جمعاء رغم أنني لم أقترف ذنباً يذكر .. ماتت أمي وهي تصر على أن أكون بعيدة في مدرستي الداخلية التي قرر أبي حبسي فيها ، وأيد قراره جميع أفراد الأسرة .. كنت ألمح بريق الانتصار يطل من العيون حولي فأعيد بصري حسرة أبحث عند أقدامي عن الحقيقة الضائعة في زحام من حولي.. لم ينتشلني رفاقي مما أنا به ولم يخفف من مضاعفات ما أعاني رحيلي الدائب وحرصي على البحث عن الغرباء .. كنت أفر من الجميع لأحرص على اكتساب صديق..

كنت أخشى مشاهدة ذلك البريق الذي لمحته في عين أمي وهي جثة هامدة مسجاة على فراشها.. كان عهدي بها لحظة الانتصار عندما وافق أبي على إدخالي المدرسة الداخلية .. البريق الذي شعَّ من عيون الجميع إنه الآن يطل بقوة من عيني والدتي الميتة والتي أصررت على مشاهدتها قبل مواراتها التراب.. ومبعث إصراري تحدي الجميع.. وأبي المنهار الذي انهار لتلك الهمسات المسمومة التي تدور حولي.. كنت أريد منهم أن يصمتوا ولكن ذلك زاد من ثرثرتهم، وتقدم مني طبيب الأسرة يسألني إن كنت أريد مساعدة وفي بطء أزحته بيدي واتجهت إلى الكرسي الذي اعتادت أمي الجلوس عليه في غرفتها.. وأخذت أبكي ..

كان بكائي صمتي وتلفتي حولي .. وكان الفراغ يحيط به .. لم تكن هناك جدران ولا ستائر نوافذ .. أبداً لم يكن أمامي سوى فضاء رحب .. لا أعلم كم من الوقت مر .. كل شيء هادئ ، الرياح سكنت ، وأغصان الحديقة لزمت الصمت .. وأخذ الموكب المهيب يجتاز باحة الدار .. الجميع مطأطئ الرأس يأكلهم الصمت وتقرأ أفكارهم بشيء حاولت معرفته من تلفت بعضهم وهم يتبادلون أماكنهم تحت النعش، وألصقت وجهي بزجاج النافذة أتأمل الطريق والموكب يغرب.. يبتعد .. وشعرت في تلك اللحظة بالدموع تنسكب على خدي وسمعت ورائي خطوات .. كان أبي المنهوك وتلقفني بذراعيه، كنا نبكي، ودخلت عمتي، ودخل بقية أفراد الأسرة.. لقد انتهت مراسم الدفن .. طمر القبر في ثوان ، فقط شعرت فيها بأن أبي لم يكن لي شيأً من الحب وأن هناك نقطة نستطيع الالتقاء عندها ، ووقفنا مطأطئي الرؤوس نتقبل العزاء .. كانت كلمتهم واحدة، كلهم يقولون كلمة واحدة حتى ذلك الصبي الذي التصق بساق أمه مع أنه لم يحرك شفتيه إلا أني سمعته يقول الكلمة نفسها.. وتحركت مبتعدة أخذت أسير وأنا ساهمة لم أبال بنظرات من حولي ولا باستعطاف أبي وهو يرجوني الوقوف إلى جانبه لشد أزره، وانتهت فترة العزاء،

عاد أبي إلى مصنعه وأخذ الجميع يعودون إلى مرحهم.. كثر عدد سكان الدار هذه المرة، هكذا تصورت رغم أننا فقدنا أمي.. لقد كان الضجيج يملأ الغرف والاجتماعات الثنائية الصامتة تحطم أعصابي ..

نظرة النفور تقابلني من الجميع الذي يتجنبون الانفراد بي ، مجنونة .. زرع أحدهم هذه الكلمة في نفوس من حولي فصدقوه، وتضخمت الهمسات، سمعت الخادمة تكلم أحد عماتي..

ـ لم لا تعود سلوى لمدرستها .. ؟

وعرفت مدرستي أنها تلك الكلية البعيدة للشواذ والمشاغبين وذوي الحساسية الخاصة.

ـ محمود.. لماذا لا تعود سلوى لمدرستها .. ؟

كان أبي يتلقى هذا السؤال في كل مكان .. حتى عندما أخلو به ونجعل من الصمت رسول تفاهم كنت ألح على السؤال المرسوم على الجدران في كل مكان وصرخت في أبي..

ـ وأنت هل تريد مني الذهاب إلى المدرسة .. ؟

وذهبت إلى المدرسة وبعد أيام إذا بأبي يموت.. تدهورت سيارته .. ولم يعتن أحد بطلبي وغرقت في دموعي بشكل رهيب حتى وجدت المشرفة على القسم الذي أنا فيه أنه يجب مساعدتي (كان ذلك في ليلة مشئومة بالنسبة لي صرخت الفرحة في جنبات دارنا..) وأغلقت المشرفة فمي بيدها وهي تقول :

ـ إني أعرف كل شيء ..

ـ ولكن هل أنا مجنونة .. ؟

وطأطأت رأسها .. وحاولت أن أنسحب من أمامها ولكنها أمسكت بي..

ـ سلوى.. أنت لست مجنونة ، لكن هناك من يهمهم إلصاق هذه الصفة بك ..

ـ كلهم يتجنبون أن يعطفوا عليّ ..

ـ إنه عطف من نوع خاص .. عطف من نوع آخر .. أحدهم فرضه على الجميع .. ومع مرور الزمن صدقوه حتى أبيك صدقه، وكذلك أمك رغم أنها تقف إلى جانبك كانت تخشاك وتنعتك في فترات مجنونة..

ـ إني أتذكر أول مرة نعت بها .. عندما خرجت من غرفتها عنوة حيث كنت أحاول وأنا في العاشرة كما أظن فك الحبل الملعون الملتف حول رقبة أخي الصغير..

ـ لقد اتهمك الجميع بأنك خنقت أخاك بسبب غيرتك منه لأن الجميع يهتمون به.

ـ ولكن يا سيدتي ..

ـ أعلم .. لقد دخلت الغرفة فوجدت الحبل يطوق عنق أخيك ، وعندما لم يتجاوب مع حركاتك أخذت تفكين الحبل محاولة إيقاظه فإذا بوالدتك تدخل فجأة ويلحق بها الآخرون ..

ـ أجل ..

ـ وبعدها أخذ الجميع ينعتونك بالمجنونة ..

ـ أجل .

ـ والآن تحققت مآربهم ، وبما أني أعرف أنك لست مجنونة لذلك يجب علي مساعدتك ..

ـ إذاً لماذا أبقيتني هنا كل هذه المدة.. ؟

ـ خوفاً على حياتك ..

وخرجت من باب صغير جانبي من المدرسة وأخذت أتجول في الشوارع حتى وصلت الدار التي وجدتها مهجورة، وأخذت أبحث عن منفذ أدخل منه إليها، ودخلت.. أخذت أتجول في ردهات الدار وأشعل الأنوار حتى أصبح البيت قطعة من نور.. ويقرع الباب الخارجي، كان الحارس الليلي الذي اعتاد المرابطة أمام الدار أثناء نوبته، وتجلجل من الخوف عندما شاهدني، لكني قابلته بابتسامة رقيقة، ودسست في يده قطعة من النقود وأنا أقول..

ـ لا تدع أحداً يدخل الدار حتى تخبرني..

كانت الصور تجري أمامي وأخذت ألاحقها أبحث في الغرف المشعة بالأنوار عن شيء بينما أصوات فرامل السيارات المسرعة التي تقف أمام الباب تصك أذني، تدفعني إلى الجري، كنت أبحث عن شيء لا أعرفه.. وتصلبت أمام غرفة استعصت علي لا أذكر لمن كانت، ولكن الباب فتح.. كانت الجدران ملطخة بالصور وبالمناظر الجميلة وقد علاها التراب .. أخذت أجول أتفحص اللعب المتناثرة.. لقد كانت غرفة أخي الصغير الذي كنت سبب موته.. وشاهدت السرير المتحرك المشدود بالحبل (لأن والدتي كانت تهزه بواسطته أثناء انشغال الخادمة) وأخذت الحبل بيدي هازة السرير محاولة تذكر صورة أخي، لقد بدت تلك الصور الموضوعة في براويز حول السرير غريبة ولم أعرها انتباهي..

وتذكرت شيئاً وأنا أتأمل صورة عمي أحمد أصغر أشقاء أبي فأطلقت الحبل من يدي.. وأخذتها بين يدي وأنا أستغرب وجودها في ذلك المكان .. ورن جرس

سيارة الشرطة فأسرعت والصورة بين يدي خارجة من الغرفة وهبطت الدرج ثم شرعت الباب على مصراعيه داعية الجميع إلى الدخول وأخذت أتأمل الجميع المذهولين وشاهدتها مبتسمة ، وتقدمت وهي تمد يدها ملقية تحية المساء وأجبتها بانحناءة من رأسي، ثم دعت الجميع إلى الدخول .

كان أعمامي الثلاثة وعماتي وكل المستفيدين من وفاة أبي بالإضافة إلى رجال الشرطة ومديرة المدرسة التي هربت منها، وأخذتني المشرفة جانباً، وأخبرتها بما قمت به، ثم قدمت لها الصورة فتأملتها وأخذت تجيل نظرها في الجالسين.. وعندما وصلت إليه دفعتها بكتفي فتوقفت أمامه واقتربت من ضابط الشرطة .

ـ ماذا هناك يا سيدي.. ؟

ـ لا أدري لقد اتصل بي أحدهم. ادّعى أن هناك لصوصاً بدار المرحوم محمود..

ـ إذن لماذا جلست .. ؟

ونهض الضابط مرتبكاً، فأخذته جانباً وتحدثت معه قليلاً، وعندما انتهيت، اتخذ طريقه إلى الباب الخارجي، وهو يشير لمرافقيه، ونهض العم أحمد..

ـ سيدي.. ؟

ـ وماذا تريد .. لقد أثرنا المشاكل لسيدة الدار..

ـ ولكن .. ؟

ـ أعلم ما تريد قوله، لكن ما دامت المشرفة والتي تعرف كل شيء شرحت الأمر فلا داعي للبقاء..

وخرج الضابط ومرافقوه ، ودبت الحركة في الدار المهجورة ، أما أنا فقد أخذتني المشرفة والمديرة جانباً ، وسألتني المديرة عن سبب هروبي ، واحترت في الإجابة ، لكن المشرفة شرحت الموقف ، وتحول غضب المديرة إليها ، ووعدت بمجازاتها وهي خارجة والتف أعمامي حولي بينما اختفت النسوة وران الصمت علينا .

ـ سلوى تعبة يجب أن ترتاح ..

تخلصنا منهم وأخذتني إلى غرفتي ، وأخذنا نتحدث ، كانت تعرف كل شيء عن الدار .. دخلنا غرفة أخي لنبحث في الزوايا والأدراج عن شيء .. وانتقلنا إلى غرفة أمي نبحث بالأدراج والخزائن ووجدنا "دوسيه" احتوت وصفات طبية، كتبها طبيب الأسرة، كما عثرنا على دفتر به بعض الملاحظات.. وخرجنا من الغرفة لنفاجأ بالعم أحمد يتلصص ، حيث تصلب في مكانه ، ومررنا به في هدوء

– مجرمة – هكذا كنت لكني في نظر أقربائي مجنونة ، ولهذا لم يحدثني أحد عند الصباح ، ولم يشاركني مائدة الإفطار سوى المشرفة ومديرة المدرسة التي وصلت مبكرة ، وأخذت أتجول مع الاثنتين في حديقة الدار ، ولما عدنا كان الجميع في غرفة الجلوس ، وطلبت المشرفة الشرطة التي حضرت وقدمنا للضابط الملف الذي وجدناه في غرفة والدتي ثم طالبته بفك الحجز على الدار والمصنع ، وتسليم كل شيء لي ، واحتج الحضور ، وأخذت الكلمات تعلو بينما أخذ يقلب الملف ..

ـ إنها مجنونة وقاتلة ..

ورفع رأسه باحثاً عن صاحب الصوت .. ولكن ران الصمت على الجميع ونهض إلى التلفون وطلب الدكتور، وهو يتأمل الجميع.. وحضر الطبيب ، فأخذه جانباً وأطلعه على الأوراق ..

ـ وكيف مات الصغير .. ؟

ـ كما أظن طبيعياً..

ـ ولكن أين الشهادة ..

ـ هذه ..

وتأمل الشرطي الشهادة، ثم اطلع الدكتور على جملة وضع تحتها خطاً (لقد قتلت أخاها، إنها مجنونة.. ولولا مساعدة الطبيب لكانت فضيحة).

ـ ما رأيك في هذه الكلمات .. ؟

ـ لا أدري .. ولولا أني أحتفظ بسجل للأسرة لكنت صدقت هذا.

ـ هل كان الطفل مريضاً .. مرض الموت .. ؟

ـ تقريباً..

ـ ومن كان يشرف على علاجه.. ؟

ـ أحمد كما أذكر . لأن المرحوم كان مشغولاً في سفرياته ومشروعه الجديد .

ـ المصنع.. ؟

ـ أجل .

ـ وسلوى هل تذكر عنها شيئاً.. ؟

ـ أبداً ..

ـ ألا تعرف دوافع إدخالها مدرسة داخلية .. ثم عدم مشاركتها في دفن والدها؟

ـ قيل إنها اعتذرت ..

وتلفتُّ حولي أبحث عن شيء أنهي به الحديث واقتربت..

ـ ألم يقولوا لك إني مجنونة.. ؟

ـ كنت أسمع شيئاً من هذا لكنني لا أهتم..

ـ لماذا .. ؟

ـ لأنها بعيدة ..

وأخرج الضابط صورة عمي أحمد القديمة من تحت الملف..

ـ هل تعرف صاحب هذه الصورة .. ؟

ـ أجل ..

ـ شكراً ..

واقترب العم أحمد وجلس على المقعد الذي غادره الطبيب، سيد أحمد ابنة أخيك "سلوى" تطالب بتسليم مخلفات والدها، ولكن هناك اعتراضاً منك.. وتدعي أنها مجنونة ومما هو ملموس نرى أن ذلك كذب، وهناك دوافع لذلك فما هو سبب معارضتك.. ؟

ـ لا شيء.. ولكن حرصاً على المصلحة العامة .

ـ إذن لا اعتراض .. ؟

ـ أنا لا أعترض.. ولكن لو قابلت الآخرين لوجدتهم يؤيدون فكرتي وأن ما قلت حقيقة ولا مصلحة لي فيما ذهبت إليه ..

ـ وما هي علاقتك بوالدة سلوى الحقيقية .. ؟

وجحظت عينا العم أحمد عند سماعه لهذا السؤال، وأخذ يرتعش عندما لوح الشرطي بدفتر مذكرات والدتي.. وطال الحديث وحضر آخرون وتلاشى فيه إصرارهم وادعاؤهم أني مجنونة .. وتسلمت كل شيء وخرجت الصحف تحمل نبأ دخولي المجتمع وتلقفتني الأضواء ، وأخذت أبحث عن نفسي بعد كل هذا ، ولكن وجدت أني منبوذة .. لقد طغت تلك المرحلة المترسبة في أعماقي أخيراً وشعرت بأن علي أن أنزوي.. لقد وجدت أخيراً البريق، ولكن بصورة جديدة.. كان بريق الحقد الذي يطلق من مقل من حول حتى من المشرفة التي وجدت أن دورها انتهى بانتصاري.. ونسيت في لحظة انبهاري فضلها فتلاشيت في الزحام ..

* * *

الأقزام تنتحر

الساعة السادسة مساء وقد هدأ كل شيء ، ولم يبق أمام الخندق وأكوام التراب سوى الأطفال يلعبون ويتسابقون على صعود التراب واللف حول (الدركتور) وإلقاء الحجارة الصغيرة في الخندق الندي الذي احتقن الماء في بعض جوانبه .. وفجأة علا صراخ الصبية ..

ـ عنزة سقطت في الخندق.. !

ـ أين .. ؟

وأشار صبي إلى الماء المحتقن في الخندق حيث كانت بعض الدوائر والفقاعات تطفو على السطح ، ولم يشاهد المجتمعون شيئاً يؤكد صدق الصبي الذي راح يردد أن عنزة صغيرة سقطت في الماء ، فعادوا للتفرق والجري .. بينما بقي الصبي الذي شاهد العنزة يتأمل سطح الماء .. ومرَّ الوقت وهو واقف ، وحل الظلام فغادر مكانه ، بزغ القمر إذ كانت هذه الليلة من ليالي منتصف الشهر ولا شيء في الشارع سوى الخندق العميق الممتد على طول الطريق وأكوام التراب المزروعة على الجانبين (والدركتور) على رأس الخندق في صمت وقوة كقائد فرقة صمم على الاستمرار والمضي قدماً ، وخرج "محمد" من الدار حيث سمع صوتاً في الشارع ، ولكن لا أحد هناك ، وأطلت "بدرية" برأسها من نافذة غرفتها ، ثم اختفت بسرعة فقفل عائداً إلى مقعده أمام التلفزيون ..

ـ من هناك .. ؟

ـ لا أحد ..

ـ ولكن لماذا نهضت من مكانك .. ؟

ـ لقد سمعت جلبة في الشارع ..

لم يستمر الحديث طويلاً ونهضت "منى" من مكانها ودخلت المطبخ لإعداد فنجان من القهوة .. تململت في إعداده حيث حاولت دفعه على مساعدتها في استذكار دروسها خاصة وأن الاختبار لم يبق عليه سوى يومين فقط..

عاد الضجيج إلى الشارع مجدداً ، فقد أخذ عمال الحفر يعملون بهمة ونشاط، وأخذ (الدركتور) يكمل مسيرته نحو إكمال شق الشارع ، بينما البنات والأولاد وهم في طريقهم إلى مدارسهم يتوقفون قليلاً لتأمل ما يدور ثم يواصلون سيرهم .. يوم جديد من العمل عليه أفاق محمد على غير العادة وخرج لأخذ الفطور .. كل شيء عادي ، إنها الحركة التي بدأت منذ الشهر : العمال أنفسهم ، والعمل الدائب نفسه (والدركتور) الذي يجرح الأرض ، والأطفال الواقفون على أبواب المنازل لمتابعة العمل ، والفكرة التي أخذت تترسب في الأعماق عن القوة .. قوة الأقزام

الذين يقفون حول (الدركتور) كل يوم متأملين ما تقوم به هذه الآلة من عمل جبار غير مبالية بما حولها والتي لم تصل إلى شيء رغم المحاولات التي أقلقت راحته حتى إنه أخذ يقفل الباب بالمفتاح خشية أن يصيب طفلته مكروه عند ذهابه إلى العمل في الصباح .

عاد المتفرجون للتكوّم ومتابعة (الدركتور) في غدوه وإيابه إذا أغلقت المدارس والدوائر الحكومية أبوابها وجلس أصحاب المنازل المطلة على المشروع يقفون في نوافذ منازلهم وعلى الأبواب بعد أن نزعهم الضجيج من الفراش ولحظة القيلولة .. وارتفع صوت الصبي ..

ـ هذه العنزة.. هذه العنزة..

وأسرع الجميع إليه .. لقد كان صبي البارحة الذي شاهد سقوط العنزة في الخندق وأخذوا يتأملون الرأس الصغير الذي طفا فوق سطح الماء..

* * *

عين من دم

(جرحنا صار أوسمة)، وفجأة يغرز الخنجر المتسلل من الشباك في ظهر الأم البائسة التي سحبها القدر بطريقة عفوية لتنام في فراش زوجها المهدد بالموت..

وأنسى كل شيء ويد صديقي تهز كتفي..

ـ شوف كيف المجرم قتل أم شلبي ..

وأنا عندك بين عينيك التي أجهل الآن لونها، وجسمك الأصفر الناحل وغرتك الشقية تثير هواجسي، لم أكن أعرف شيئاً بعد، أعيش على كتاب المدرسة.. أتغذى وأفطر به وطرف المسطرة ينسلت في قسوة على قفا يدي ، لأني لم أحل الحساب ولم أحفظ جدول الضرب ، لأني سهرت بين عينيك ويدك الصغيرة حركاتها تجذبني وأنت تتحدين على الكيرم حماتك نايلة ..

أنا الآن قد جاوزت العشرين ، شاربي يقف عليه الصقر ، وذقني شائكة ، أما صوتي فما زال هو .. هو لم يتغير .. غير أني زدت تحولاً ولم أعد ذلك الولد الذي يرتدي الأسمال فلا يؤثر فيه منظرك المغري ، وأنت تتناولين فطورك المتأخر في غرفتك وقد تبعثر شعرك وضاعت الخصلة الشقية .. أو وأنت تمزحين مع ؟! .. وتصارعين شقيقاته ، كل هذا عاد إلى مخيلتي الليلة ، كنا ثلاثة أنت .. وفاتن.. وأنا ، نسير في الطريق المظلم الذي يوصل إلى دار أخيك ، وقد أزحت – الحجاب – عن وجهك وتعلقت بكتفي كعجوز أكلت ظهرها السنين ، وفاتن تقهقه وهي تتلفت حذرة من أن يلحق بنا أحد ، وأنت متمادية في تمثيلك ، لاهية عن كل شيء حتى عن ذاتك ، تفكرين في ذلك العهد البعيد الذي لم تحفظي عهدك معه .. ورغم دموعك لبست ثوب الزفاف الأبيض والجميع يضنونها دموع الفرح ..

إنه هنا وصل اليوم إلى الطائف في مهمة رسمية ، والليلة حفل عشاء يقيمه أخوك على شرفه ، وأنت مرتبكة ، تأخرت حتى لا يشعر أحد بارتباكك ، فأثرتِ حيرتي وخوف فاتن من أن يطل أخوها فيثيره منظرنا المريب ، ولم تتبق غير خطوات حتى عدت للحقيقة لكن كان فيك شيء جديد ، أنت مصفرة ، وقد فضح ذلك عامود النور ، بينما فاتن منشغلة في إعادة حجابها .. وتصلبت نظراتي عليك تسأل هل أنت محمومة ؟ وهزك اكتشافي ذلك ، ولم أقل شيئاً ، وعدنا لواقعنا ، كان صوت العود الذي يداعب أوتاره أخوك يصل إلى الشارع كتواشيح ملائكة ، وتوقفنا كي نغترف من اللحن الهادئ في وحدتنا وانطلاقنا وأيدينا متشابكة نحن الثلاثة مكونين حلقة عجيبة وسمعنا وقع أقدام تقترب من الباب فتركنا الباب يقرع وابتلعنا المسكن أنتم إلى الغرف الداخلية وأنا إلى المجلس الخاص بالرجال ..

وفجأة ينغرز الخنجر وتنطلق سيارة شحن مسرعة تدفعني إلى أن التصق بجاري من الخوف وأصواتكم تصلنا ، لقد كانت بينكم واحدة خائفة من السيارة المسرعة لست وحيداً فأخذت أضحك من حولي ، من طفولتي التي أخذت أودعها ، ويدي في حضن الشقية التي كل صباح تضرب شقيقتي عندما نلتقي بها على طريق المدرسة – تلك اللاجئة الشقراء – التي يطير فستانها القصير الهواء فيظهر قفاها وسروالها الصغير كانت تعض كتفي في عفرته وطفولته ..

كنت أنساها عندما أراك منتصبة أمامي وفي يديك الحبوب العشرين ولوحة الخشب المركونة على الجدار تنتظرنا ، ونتحدى فاتن واللاجئة لكن الأخيرة تقرصني في فخذي بقسوة كلما يأتي دوري في اللعب ، وأقاوم وأنا أرى بحري يتلاطم والزوابع تثير صفوه ، تهم بأن تبتلع زورقي الصغير ، لكن نفوز ليس كالعادة بتفوق إنما بعد محاولة يائسة ويدي ترتعش ، وأنا أتطلع إلى اللاجئة بعين ذاوية فإذا بها تغلي وقطرات الدم في عينيها تخضب يدي باللون القاني .. وبكاء مر ونشيج يقطع صدري يلون وجه أختي الصغيرة وهي ترجو والدتي بأن لا تدعها تذهب إلى المدرسة مرة ثانية .. إنه أنت وقد ذهبت فاتن مع زوجها بعد أن يئست من أخي .. ونحن غيرنا دارنا القديمة بمنزل بعيد، واللاجئة أصبحت ترتدي العباءة وهي تسير لوحدها في طريقنا القديم، وزوجك باع منزله، وأخوك سافر إلى جدة بعد أن نجح في دنيا الغناء فغدا مرموقاً.. وأولاد حينا أصبحوا رجالاً يلاحقون بنات المدارس .. تمرين الآن بي وبين ضجيج صالة السينما والدخان الذي يدفعني إلى السعال – في منامتك الحمراء – والسيارة ما زالت منطلقة والبطل يطرد من البوليس وأم شلبي تخرج من المستشفى ، تتقدمين نحوي في يدك خنجر، وأفغر فمي في بلاهة ويدك ترتفع وعيناك تقدحان شرر الجريمة ، وغيمة حمراء تمر بي فلا أشاهد شيئاً ، لكن بريقاً يلفت انتباهي عند قدمي إنه الخنجر ويدك ما زالت مرتفعة وعيناك متحجرتان وقد فقدتا لونهما وجسمك الصغير تبتلعه الأرض .. وعينان من دم .. أمامي فتاة شقراء شعثاء الشعر .. وفستان قصير يلعب به الهواء .. ووجه صامت إني أعرفه لكن لا تسعفني الذاكرة، فقد تملكني الوهم والخوف.

* * *

الطمـــــــــــوح

الحطام يملأ المكان ، أخشاب مبعثرة وبراويز صور محطمة ، وعلب صفيح فارغة أو محشوة بأوراق الصحف والمجلات .. كل شيء يدل على أن هذه الحالة لها تاريخ طويل لا يستطيع المتعمق من الزائرين تحديده أو الاقتراب منه .. حتى سليمان ذاته لا يذكر متى اشترى هذه الدار الخربة أو متى قرر السكنى فيها وإن كان يحتفظ بأوراق إيصالات الكهرباء وإنذارات البلدية بشأن البالوعة وشيء آخر من أوراق اشتراك التلفون الجديد.

كان سليمان يقدم الدوسيه التي تحتوي كل هذا لكل سائل عن تاريخ شرائه الدار، وذات يوم وعلى غير العادة وقفت سيارة نقل صغيرة أمام باب الدار وحملها مجموعة من العمال بالحطام الذي يملأ المكان ولم يكف رد واحد بل ثان وثالث ورابع حتى ظهر بلاط الغرف وتراب الحوش ، ولم يبق سوى الفراش الذي ينام عليه وجهاز التليفون ودوسيه الإيصالات .

ركب بالقرب من السائق وفي الحراج تم تكويم الجميع وبيعهم وعاد يصفق بيديه يتلفت حوله وإن كان الغبار يلفه ، وفي هدوء دخل الدار ووقف أمام المرآة القديمة المزروعة فوق المغسلة بالقرب من باب الحمام وتأمل نفسه قليلاً ثم فتح الصنبور وأخذ في غسل وجهه وقدميه ورأسه ، وحدق مرة أخرى في المرآة ثم هزّ رأسه غير مقتنع ودخل الحمام ثم خرج منه ووضع غترته على كتفه وخرج من الدار لا يلوي على شيء .

لقد قرر أن يستحم في الحمام العمومي، ومر على السوق وأخذ ملابس جديدة.. خرج من الحمام شخصية جديدة فشعر بالارتياح وهمهم وهو يتلفت ..

ـ لقد أزف الوقت ..

وفي اتجاه سيره خلف الدار وراءه وأسرع في خطاه.. كان في كل لحظة يتأمل معصمه رغم أنه لا يقتني ساعة، ولم يفكر في ذلك يوماً حتى بعد أن أصبح وحيداً.. بعد أن نزح إلى المدينة مخلفاً رفاقه في العمل بقريتهم التي جمعتهم الصدف بها من أول يوم لهم في أعمال الوظيفة لم يبالِ برجائهم ولم يهتم لضحكهم عليه ، كان كل شيء يسير حسب مخطط رسمه في رأسه ، وأخذ يرحب بكل عمل يوكل إليه في أوقات الفراغ حتى اشترى الدار ، واحتلت كل تفكيره فلم يعد لديه متسع من الوقت يقضيه خارجها وأخذ يأتي بكل شيء يعترض طريقه .. كان كثير التلفت عله يصادف شيئاً يستفاد منه واحتلت الخردة كل زوايا الدار التي أصبحت نظيفة الآن ..

أخذ يتأمل صورته في واجهات المحلات التجارية ودلف إلى شارع فرعي وأخذ يعد الأبواب: واحد.اثنان. .ثلاثة، وعاد من جديد يعد، لقد نسي رقم البيت المطلوب، فلم يجد بداً من الوقوف في وسط الشارع والمناداة وخرج أحدهم ..

- مساء الخير.. العم محمد فيه ..

- أي محمد .. ؟

- محمد أبو شوادي ..

- آسف ما فيه أحد في الزقاق بهذا الاسم..

- ولكن هذا هو الوصف ..

- لقد تذكرت كان عندنا واحد بهذا الاسم لكن رحل..

- من قريب ؟ .

- منذ سنة .

وأغلق الرجل الباب، بينما وقف سليمان مطرقاً وأخذ يجرجر خطاه بعد أن ألقى نظرة سريعة على الأبواب (ولكن كيف لقد اجتمعنا وعقدنا الاتفاق وانتهى كل شيء أتزوج ابنته ونسكن معاً في الدار.. مهر رمزي) وعاد أدراجه إلى الشارع وقرع الباب الأول والثاني والثالث ولكن لا أحد يرد..

لقد انهار كل شيء . ولمح شخصاً يسير أمامه قفز له قلبه (إنه هو) فمد خطاه.. كان الرجل يسير بسرعة وبشكل غريب وانقطعت أنفاسه، وفي النفس الأخير أمسك بالرجل من الخلف وتشبث به حتى لا يقع.. والتفت الرجل وفوجئ سليمان ، لقد كان الوجه غريباً وصارماً فذابت قبضته ..

* * *

النجوم تقدم العزاء

الأنوار تملأ الشارع والجدران والنوافذ المشرعة تغص بالأطفال والنساء يتفرجن على العرضة .. الكل يرقص والطبول تصم الآذان ، والسيارات تملأ الساحة ، ويمر الليل سريعاً ويزف عبد الله في كوشة لفتت الانتباه بوجاهتها وغناها .. كان الارتباك على محياه والقلق يدب في أوصاله ، ولا شيء يعمل في داخله .. لقد شله ما يدور حوله .. جلس على كرسي المنصة وأخذت الراقصات يتبارين في الإبداع، كل فتاة تحاول أن تقضي أطول وقت ممكن للتثني أمام العريس.

ورغم ذلك لا أذكر تلك الوجوه الآن ، أجل لقد أخذت بيد عروسي وخرجنا والزغاريد تلاحقنا في السيارة التي نقلتنا إلى منزل الزوجية ، كانت تزغرد هي والسيارات التي تلاحقنا ، وران الهدوء ، شعرت بالاطمئنان فأخذت مريم بين يدي أتأملها ، لقد كانت رفيقة طفولتي ومرحلة صباي ، وانتقلنا إلى العاصمة ، أما هي فقد بقيت مع أسرتها في الطائف .. أجل كل شيء فيها كان كما أذكر .. الآن تأكدت رغم أني التقيت بها كثيراً أيام الخطوبة التي قررنا فيها كل شيء.

حدث عبد الله أصدقاءه عن زواجه وزوجته وأسرتها وكيف سارت الأمور وكيف قضى الليلة الأولى.. كان حديثه يثير الانتباه رغم أن مقصده يظهر مقدار غنى والده الذي تكفل بكل شيء في الزواج هدية منه لابنه المحبوب الذي لا يريد منه سوى أن يكون مساعده في إدارة الشركة بدلاً من التجوال في أزقة وشوارع المدينة مع أصدقاء السوء وقضاء الوقت في أشياء لا تفيد .

لم يخيب رجاء أبيه وإن كان يختلس بعض الوقت لزيارة أصدقائه مدعياً إيصال زوجته إلى المدرسة حيث إنها قررت مواصلة الدراسة..

- اينك يا شيخ لك زمان ما شفناك.ك زمان ما شفناك.. ؟

- أبداً الأهل تعبانين ..

- خير ..

- الوالدة في المستشفى وزوجتي تم إجهاضها .. لقد فوجئنا بحملها ورغبتنا في أن نعيش في سعادة قبل دوشة الأولاد وحتى تكمل دراستها قررنا الإجهاض ..

- ....

- الموضوع.. سعادتنا وهروبنا من المشاكل التي قد ترتبت على ذلك، ولم يقل شيئاً جديداً.. مرت السنون تغير فيها كثيراً ، أصبح حريصاً على العمل وأن يقوم بما هو مطلوب منه ، دفن نفسه في أعمال الشركة هنا وهناك بعد أن آلت إليه وإلى شقيقه ، إنه يريد ولداً ترسبت هذه الفكرة في أعماقه حتى الهوس ، أما

زوجته فلم يعد لديها شيء تعطيه رغم كل التحاليل التي تفيد بأنهما قابلان للإنجاب ..

وقرر المغامرة بالزواج مرة ثانية الذي أغضب مريم فعادت إلى دار والدها منتظرة ما يطرأ ، وفشل كل شيء ، لم تنجب الزوجة الثانية والثالثة والرابعة ..

فعاد عبد الله إلى أصدقائه يبحث معهم عن ما يدله إلى الطريق الحقيقي والتقى بها في إحدى الشركات جميلة كانت تقف أمام باب أحد المطاعم التي ولجها مع بعض رفاقه مع شلة من زملائها وزميلاتها طيعة ولينة سرعان ما غدت صديقة تواسيه في مصابه وتنمي أحلامه ..

وطلب يدها ولكن ردته مدعية أنها متزوجة وزوجها يعمل في المكتب الرئيسي للشركة ..

ـ عبد الله .. إنني حامل ..

ـ ماذا ..

باحت بالسر الخطير وهي تهم بمغادرة السيارة بعد جولة طويلة استغرقت كل ما لديهم من حديث.

ـ سوف أطلب إجازة.. حتى أعود إلى البلاد وأضع ..

ـ وأنا ..

ـ ماذا هناك لا شيء .. لقد كانت لحظات سعيدة هي التي قضيتها معك، وغابت عن أنظاره مدة عادت بعدها إلى العمل في شركتها وأهملت الاتصال به وأخذت تتجاهل استفساره عنها.

ـ أين والدك.. ؟

ـ لقد أجهضت .. ومع ذلك ..

ـ مع ذلك .. ماذا ..

ـ وصل الأمر إلى زوجي فطلقني ..

وشدها بقوة .. أخذ يتأمل عينها بشيء من الخوف والأمل كان في داخله أكثر من سؤال..

ـ هل تتزوجيني..

وأطرقت قليلاً ثم تأملته برهة ..

ـ دعني أفكر ..

تزوج عبد الله فاطمة؛ لم يكن يدري أنها تخدعه.. وطال انتظاره للولد وشعر بالسأم الذي بدا أثره واضحاً على محياه وعلى تصرفاته فقرر أخذ إجازة طويلة من أعمال الشركة والرحيل إلى خارج البلاد لعله يجد ما ينقذه من همومه .. وأخذها معه .

ـ لقد كانت ملعونة .. كانت تسرقني ..

ـ وكيف ..

ـ لقد خدعتني ، كانت كاذبة لم تكن متزوجة .. ولم تحمل مني أبداً .. لقد اكتشفت هذا عندما قررنا العودة .. كانت تطالبني بالبقاء خارج البلاد ولم أجد بداً من تطليقها.. ولكن أخذت مني تعويضاً ضخماً أمن لها حياتها.. وفي الطائرة وأنا أفتش حقيبة الأوراق وجدت رسالة منها أخبرتني فيها بكل شيء وأنها عملت كل هذا لصالحي..

ـ والآن..

ـ قررت الاستسلام للواقع والعودة إلى.. مريم ..

وخرج من دار صديقه متأخراً كالعادة بعد أن أفرغ ما في جعبته من أقوال وانطلق بسيارته يسابق الريح متجهاً إلى الصحراء.. كانت السماء صافية والنجوم تتلألأ رغم أنها ليلة شتاء قارس بينما الراديو ينقل أغنية جديدة .

* * *

اللعبة الأخيـــــــــــرة

الطريق طويل .. اكتشف محمد هذا اليوم، وهو يقطع شارع الملك المسفلت وهو في طريقه إلى مقر عمله في الساعة الثامنة صباحاً.. كل شيء حوله ساكن رغم حرارة شمس الصيف التي تلسع ظهره بأشعتها ..

منذ سبع سنوات وهو يقطع هذا الطريق على قدميه لم يحاول أن يختار غيره أو يحيد عنه، وكالعادة كانت أفكاره تدور فيما حوله متأملاً السماء والأرض.. الفراغ الذي يحيط به وأشباح المارة والسيارات التي تمر به أشياء كثيرة لا يدري متى بدأ يفكر بها لكنها كانت حقيقية في أحاسيسه وأمنياته.. كانت أعمق منه جذوراً وأصلب منبتاً، أما هو ذاته فكان لا يدري شيئاً وإذا أعيته الحيل هزَّ كتفيه ثم تلفت حوله وقطع أفكاره بمد خطاه ومحاولته مسابقة من حوله من بشر وسيارات وتأمله بإصرار للنوافذ والأبواب التي حوله.

يوم شبيه بالأيام الأخرى وصل فيه إلى مكتبه ، ووقع في دفتر الحضور ثم جلس خلف مكتبه الخاوي من الأوراق يتأمل فنجان الشاي الذي وضعه الفراش أمامه بشيء من الهدوء والتأمل ، محاولاً أن يفلسف وجود هذا الفنجان أمامه ، وأعيته الكلمات فمد يده إليه وارتشف رشفة صغيرة وصل صداها إلى أعماق أعماقه .. أعاد الفنجان إلى مكانه وأخذ يبحث في أدراج مكتبه عن علبة دبابيس .. لقد تذكر الآن أن أحد أصدقائه طلب منه سرقة علبة دبابيس من المكتب لحاجته إليها.

سَرَت ابتسامة صغيرة على محيا محمد وهو يتذكر علبة الدبابيس.. قطع عليه ابتسامته الفراش الذي ما أن لمح فنجان الشاي فارغاً على المكتب حتى انتصب فجأة بكل قسوة وأخذ يسكب الشاي من الإبريق دون أن ينسب بكلمة.

ـ إنه يريد علبة الدبابيس .. أجل يريد علبة لكن من أين ؟ ولا يوجد في المكتب كله سوى نصف علبة ..

توقف عند هذه الكلمة وأخذ ينصت للحديث الدائر بين زميله في المكتب والمراجعين رغم أنه لا يستطيع شيئاً ويجب الأخذ والعطاء معهم وتوثيق عرى الصداقة .. كانت الصداقة هي كل شيء يفتقده هذا الموظف .. وصل إلى هذه النتيجة وقرر أن يقول شيئاً، لكن الحديث انتهى وعاد الصمت فران على المكتب من جديد..

ـ محمد.. العب ..

ـ ولكن .. لماذا لم تنزل أنت ورقتك ..

ـ ما فيه مانع ..

ـ بل حتى أعرف هل دقيت بالحكم أم .. لا .. ؟

وسرح مع لعبة البلوت .. أجل كل يوم يلعب لكن أمس كان يوماً جهنمياً، كل شيء فيه مثير حتى اللاعبون كانوا جهنميين، لا شيء أمامهم غير التحدي والفوز وليكن ما يكون..

فهد يمد يده في كل مرة نحو الورق للعبث به وجمع ألاكك والعشرات إن كان التوزيع عنده أو عند غيره غير مبالٍ بما في ذلك من أثر سيء .. لقد كان محمد يغلي معها فلم يعرف كيف يلعب وانقلب مرة أخرى .

ـ أبي.. أمي تبغاك ..

ـ ماني فاضي .. روح خذ العشا ..

ـ لقد شبت النار ..

ـ إذن روح وأنا ألحق بك ..

كان هذا رد فهد الأخير على الطفل الذي سمع الكلام وخرج من المجلس وتأمل الجالسين فهد الذي انتهى دوره وأخذ يتفرج على اللعب..

ـ أبي.. أمي تبغ ..

عاد الطفل من جديد يرجو أباه أن يحضر وطرده فهد غير مبالٍ برجاء الجالسين أن يذهب لتحري الأمر ثم يعود.. علل ذلك بأشياء تافهة لم يجد من حوله معها سوى الصمت وترك الأمور تسير على عواهنها.

هدأ التحدي وارتسمت الابتسامة على محيا محمد الذي أخذ يلعب في هدوء للتسلية كما كان يقول الجميع عند زيارتهم له وقضاء الوقت في لعب الورق في منزله لا شيء يجدوه من وراء ذلك غير الترفيه عن النفس وملء الفراغ الذي يعيشه بعد أن سئم التجوال في الشوارع والجلوس في المقاهي .. وطلق القراءة التي أخذ يشعر بثقلها وزهقه منها بسبب اقتناعه بأنه لا يوجد في المكتبة ما يقرأ .. وصل إلى أسماع اللاعبين صوت موسيقى ، إنه موعد أخبار الساعة التاسعة والنصف التي اعتاد التلفزيون تقديمها فأخذوا في التململ وقد أوشكت الجولة على النهاية ، وما أن بدأ المذيع يقدم الأخبار حتى نهض أول اللاعبين مستأذناً ولحق به الآخرون ..

ـ ولكن يا جماعة اللعبة الأخيرة ..

ـ خلاص راح الوقت..

وخرج الجميع من المنزل ووقفوا أمام الباب يمزحون متخذين من نتيجة اللعب تعليقاً فكهاً على المغلوبين..

ومن خلال العتمة أقبل الطفل الصغير فأخذ يتأمل الوجوه حتى عرف أباه وأمسك به..

ـ أبي.أبي. .. أمي ماتت ..

ـ ماذا .. ؟

صرخ الجميع .. وأسرع فهد إلى داره بينما تبعه الآخرون بأنظارهم دهشين ، ولم يلحق الطفل بأبيه الذي أخذ يعدو وغاب لحظات ثم عاد لاهثاً ..

ـ لقد عاد لها النزيف .. وأغمي عليها ..

وأسرع إلى الطريق العام يبحث عن سيارة أجرة وعاد يركض والسيارة تسير الهوينا خلفه وخرج من الدار يحمل بين ذراعيه امرأة متكونة ..

ـ مجنون..

ـ أجل مجنون لعب .. ! ونحن زودنا جنانه .. !

وتفرق الجميع بينما بقي محمد لوحده أمام باب الدار يتأمل السماء وقد ران الصمت حوله إلا من عواء بعض الكلاب القادمة من بعيد، أخذ يقرع أذنه.. كانت لحظة تأمل .. وجد معها في الصباح أن الطريق الذي أخذ يجتازه منذ سبع سنوات طويل ومرهق.

* * *

الحـــــرمـــــــــان

ما أن ارتطمت العربة الصغيرة بالحاجز المسلح في ملف النقبة الحمراء في طريق الطائف مكة بالهدى حتى كانت عربة النجدة تطلق نفيرها المعروف .. واستكانت العربة الصغيرة في حضن الجبل حيث كان اللطف .. وخرج من داخلها شابان في مقتبل العمر ما أن شاهدا عربة النجدة حتى أطلقا ساقيهما للريح !! لكن إصابة عادل لم تمكنه من الاستمرار في الجري إذ توقف وأمسك به رجال الشرطة .. وبعد معاينة العربة التي وجدت فيها بعض المواد المخدرة انطلقت عربة النجدة إلى المدينة ..

لم يتفوه عادل بشيء، إذ كان يعرف الجرم الذي وقع منه وأنه لا بدّ ملاقٍ جزاءه رغم معرفته ما لوالده من سلطات ومكانة لدى المسئولين استطاع بواسطتها أن يخرج من أكثر من مشكلة .. لكن الأمر الآن أصبح أكبر من كل شيء ، فقد عثرت الشرطة على أشياء ممنوعة ، بالإضافة إلى أن العربة مسروقة !! هز رأسه محاولاً طرد هذه الأفكار، وتلفت حوله محاولاً الاستنجاد برجال شرطة النجدة، لكن وجوههم المتبلدة وسحنهم الصارمة وحرص سائق العربة إطلاق نفيره المزعج محاولاً اكتساح العربات أمامه أعادته إلى حالة الانغلاق النفسي والهواجس .. حاول أن يضحك .. وحاول أن يقول شيئاً، لكن جداراً جليدياً يفصل بينه وبين مطوقيه رغم أنه لم يبح لهم باسمه وباسم والده .. فقد أصرّ على الصمت !! وها هو يتأسف على ذلك ، إنهم يتجاهلونه .. يحاولون قدر المستطاع تحطيم ما بقي في داخله من مقاومة .

دخلت العربة المدينة واتجهت إلى إدارة المرور حيث سلمت المتهم وطلبت الإسراع به إلى المستشفى للتأكد من تناوله المادة المخدرة .. الوجوه تسأله في صمت وهو يسير مع اثنين من رجال الشرطة عبر الصالات والممرات وصوت حذاء الجند يصك أذنيه عند توقفهم أمام أحد المسئولين من ذوي الرتب العالية ..

وتتم إدانته هذه المرة .. !!

باح باسمه كاملاً (عادل صالح الشيخ إبراهيم) فحاول أحدهم الاتصال بوالده لكن لم يجده، حيث كان خارج المدينة في مهمة رسمية منذ يومين .. إنه يعرف أن مصيره لا يهم أحداً بشيء رغم أنه أكبر إخوته، فهو منبوذ من الجميع لأن والدته أيضاً منبوذة .. ومنذ كان في الثالثة من عمره وهي مطلقة .. سمع الكثير عن أسباب الطلاق، ولكن في أعماقه رواية واحدة حرص على أن تكون هي الحقيقة لكثرة ما سمعها ممن حوله عنها ..

فقد تزوجت عنوة بوالده الذي يكبرها كثيراً .. قروية ساذجة ، كانت منذ الصغر مخطوبة لابن عمها الذي تربى معها في بيت والدها لأنه يتيم الوالدين .. توفي والده في إحدى المعارك التي كانت تنشب بين لحظة وأخرى بين رجال القرى حول المياه والمزارع، أما والدته فقد أصابها مرض عضال وهو في السابعة من عمره انتقلت على إثره إلى رحمة الله ، لكن بعد أن جعلته أمانة في عنق عمه وأن يزوجه من فاطمة ..

لكن الأيام مع دورتها أدخلت صالح في الدائرة .. رجل شرطة، وقد لفضِّ المنازعات وطال مكوثه في القرية .. لفتت فيها فاطمة نظره بجمالها فخطبها من والدها ودخل أولاد الحلال رغم معرفتهم أنها مخطوبة لابن عمها المسافر للتحصيل العلمي .

ولم يدم الزواج كثيراً حيث تربى الشك في أعماق صالح على أثر ما يلاقيه من قسوة فاطمة عليه وعدم تجاوبها مع رغباته ومتطلبات أسرته ، وأخيراً قدوم ابن عمها من السفر وتغير حالها حيث أصبحت ناعمة رقيقة الملمس ..

كان الانقلاب المفاجئ في حياتها له أثره الفعال في علاقتها بزوجها الذي عاد إلى زوجته القديمة وهجرها غير مبالٍ بأثر ذلك على وجودها في الدار الكبيرة .. شعرت بالإهمال ومع هذا حرصت على أن تعيش من أجل ابنها عادل .. وتوقف كل شيء ثم طلّق فاطمة وأخذ ابنها عادل منها، وعادت إلى دار والدها حيث استقبلها الجميع بصمت وحزن .. كانت العيون تطوقها من كل ناحية لمعرفة سبب الطلاق !! وتزوجت ابن عمها الذي لم ييأس رغم غدرها به وزواجها أثناء غربته مع معرفتها بحبه لها ، لكنه يعلم أن زواجها كان بالرغم عنها .. توقف عادل هنا فهو يذكر كل شيء حتى هذه الفترة عن والدته، أما الباقي فلا يذكر منه شيئاً ..

كان يدرس ويحاول قدر المستطاع أن يحصل على أكبر رصيد من الدرجات وأمام ناظره صورة والدته التي لا يتذكر منها سوى الملامح التي غدت باهتة مع مرور الزمن .. لم يحاول مطالبة والده بزيارة والدته لشعوره بأن ذلك سوف ينكأ جرحاً التأم مع الأيام ومرور الزمن .. فصمت على مضض محاولاً أن تكون البادرة من الآخرين .. وأطلت المفاجأة ، نال الشهادة الثانوية وها هو ينهي أوراق ابتعاثه إلى الخارج للدراسة :

ـ ما رأيك يا عادل بأن تودع والدتك ؟

ـ ماذا يا أبي .. ؟!!

ـ حيث أنك موشك على السفر إلى الخارج ..

فرح كثيراً وأعد نفسه للمقابلة وأخذ يسترجع ما في أعماقه من ذكريات راسماً صورة وهمية لأشقائه الذين لم يشاهدهم حتى الآن .. تسرب شيء من الخوف إلى أعماقه .. تهيباً من موقف اللقاء الذي لا يدري كيف يكون .. أهو حارٌّ مليء بالدموع أم بارد وغير مبال .. أخذت العربة تقطع المسافة الباقية من الطريق الزراعي المتجه إلى القرية حيث تسكن والدته :

ـ منين جاي يا ولدي ؟

ـ من الطائف .

ـ انته من أهل القرية ؟

ـ لا ولكن أريد زيارة أقارب لي ..

ـ زملاؤك في المدرسة ولا العمل ؟

ـ أبداً .. أريد زيارة والدتي ..

ـ أيه .. ومن هي ؟

ـ .....

ـ سبحان الله أنت جاي تبغا تزور والدتك، والمسكينة ماتت في المستشفى .. تبغا تشوف ولدها لكن لم يحقق لها أحد رجاها ..

ـ من ... ؟!!

ـ واحدة من قريتنا لها أسبوع في المستشفى تعسرت ولادتها فأسلمت الروح ..

ـ أي مستشفى ؟

ـ مستشفى الطائف .. هو في عندنا في القرية مستشفى !!

ـ بنت مين .. ؟

ـ بنت الشيخ فاضل ..

ـ ماذا ..؟

ـ ليه يا ولدي .. ؟؟

ـ فاطمة .. زوجة عبد الرحيم .. ؟!!

ـ أجل يا ولدي ..

ـ ......

ـ من أنت ؟ .. أنت ولدها ..؟!!

وانهارت كل أحلامه .. وتبخرت وأخذ يبكي .. أصابته نوبة البكاء فلم يستطع مقاومتها رغم امتلاء العربة بالركاب الذين أخذوا يواسونه بينما كان يردد: إنني ملعون .. إنني ملعون .. وطلب من السائق التوقف وترجل من العربة .. واختفى عن الأعين .. لم يبال بتلك الأشياء التي اقتناها كهدايا لوالدته وإخوته .. أخذ يجري مبتعداً يريد الاختفاء عن العيون وغاب مدة تأخر فيها عن موعد سفره إلى الخارج .. فتم شطب اسمه من كشف الطلبة المبتعثين .. ولم يحاول العودة إلى والده .. شعر بشيء من الحرمان في داخله يدعوه إلى أن يخطئ انتقاماً من المجتمع الذي حرمه من كل شيء !! وغدت كل مظاهر البذخ والرفاهية التي تتواجد في دار والده نياشين حرمان تلاحقه في كل مكان .. كان يتذكر ويلقي برأسه بين يديه محاولاً وأد الذكريات خلف الباب الذي تلج منه فلم يستطع .

أغلق الجندي عليه باب غرفة الحجز وهو متأكد أنه لن يخرج هذه المرة إلى دار والده، بل إلى السجن .. ليمضي مدة العقوبة التي سوف يقررها القاضي .. دبّ النعاس إلى جفنيه وهو جالس فوق مقعد الخشب الطويل حيث لا يوجد سواه في الغرفة وتمدد واضعاً رأسه فوق يده ومغطياً عينيه باليد الأخرى ..

ـ انهض ..

ـ ماذا ..

ـ لقد أفرج عنك ..

ـ عني .. !!

ـ لقد عثرنا على رفيقك في العربة وقد اعترف أنه هو الذي سرق العربة وكان يقودها أثناء الحادث ..

ـ وأنا .. !!

ـ أنت ..

وصرخ في وجهه الملازم الذي كان يقف خلفه الجندي:

ـ أنت نحن آسفين لتوقيفنا إياك ولكنها إجراءات وروتين التحقيق ..

*   *   *

الهروب وبحث المجاز

إنه مسافر .. لقد ترك البلاد في رحلة تستغرق شهراً .. قال للبعض إنها أجازة عادية .. وللبعض الآخر رحلة علاج ولعدد لا يتجاوز أصابع اليد .. لتحقيق رسالة والتأكد من صحة مخطوط عثر عليه مطموراً بين كتب قديمة في شنطة حديد أنزلها أحدهم ضمن بعض الأشياء المحطمة إلى الحراج فاقتناه ..

- أرجو أن تكون عيناً ناظرة على أسرتي .. ؟

لم يشعر عادل بثقل الكلمة حتى رأى دموع زينب .. كان كل شيء فيها يقول إنها محرومة وليس لها في هذه الدنيا أحد سوى ابنها بعد أن تركها زوجها وحيدة .. مع معرفته التامة بكره أهله لها وعدم اهتمامهم بمصيرها ..

- هل أنت بحاجة لشيء .. ؟

هزت رأسها بأنه لا تحتاج لشيء رغم دموعها .. إنما كان عليها أن تصبر وأن تنتظر حتى يعود ..

وقف فراش مكتب مدير الإدارة أمام عادل الذي كان يقلب بين يديه بعض الأوراق حتى يقنع مراجعيه بما ذهب إليه ..

- التلفون يبغاك ..

ترك كل شيء .. وأخذ يسير وراء الفراش .. ورفع سماعة التلفون ..

- نعم ..

- .....

- حقاً .. ماذا ؟ إنني مشغول ..

- .....

- لا أعرف .. لا أظن ذلك ..

وألقى بالسماعة إلى مكانها .. وعاد أدراجه إلى غرفته ، لم يعد في صندوق المكتب شيء من الفلوس .. والراتب سوف يتأخر صرفه .. لا أدري من أين جاء الفرق الموجود في الصندوق ؟

كانت العربة منطلقة في طريق رملي .. وكان الغبار يتصاعد في سحب وراءنا .. كنا اثنين فقط .. أحمق .. وثرثار، الأحمق يسير في تروٍّ وهدوء غير مبالٍ بما يلحق العربة من عطب .. أما الآخر فكان يروي حكاية مزيفة لواقع مجهول جعل من نفسه بطلاً ..

كان الثرثار .. زوج زينب التي تضع الآن في المستشفى مولودها الثاني كما روت له زوجته ذلك عبر أسلاك التلفون حيث نقلتها بعربة أجرة إلى المستشفى وأحالها الطبيب إلى القسم الداخلي ..

فك أزرة ثوبه متخيلاً أنه يعيش حالة انعدام وجود الهواء ، إنه يطفو .. والظلام يخيم على المكان .. لم يعد يرى شيئاً سوى همهمات مجهولة المصدر اتخذها دليلاً ليصل إلى النور ..

جلس عادل على كرسيه وراء مكتبه .. وعاد إلى تقليب الأوراق المتناثرة عليه ..

ثم رمق الجالسين بنظرة أودعها شيئاً من الدعة ..

ـ وأنت .. ؟

ـ لقد طالبني صاحب الشقة بإخلائها ..

ـ وما دخلي في الأمر ..

ـ أرجو سرعة إنهاء إجراءات سفري ..

ـ وهل بدأت إجازتك .. ؟

ـ بعد ..

ـ وهل استلمت حقوقك حتى نهاية العقد .. ؟

ـ بعد ..

ـ ومتى تبدأ الإجازة .. ؟

ـ بعد خمسة عشر يوماً ..

ـ لو أنهيت معاملتك اليوم هل تسافر .. ؟ إنك تعطلني عن أداء واجبي .. إنه لا داعي لأن تتوسط .. لقد كلمني محمد عنك هذا الصباح .. عزيزي قبل بدء إجازتك بخمسة أيام راجعني ، وفي خلال ساعات أنهي إجراءاتك ..

وخرج من مكتبه وخلفه المراجعون .. كلهم يريدون إنهاء معاملاتهم غير مبالين بما يلقاه من عدم مبالاة من بقية الموظفين حيث تمر أوراقهم، إذ أنه البداية والنهاية ولا شيء سوى ذلك .. واستقل عربته وأخذ طريق المستشفى حيث صعد إلى القسم الداخلي ووجد زوجته أمام باب غرفة الولادة .. حيث علم بأن زينب بالداخل تعاني من آلام المخاض ، وأنها على وشك الوضع ..

عاد أدراجه .. أخذ يعد درجات السلم .. لقد أصبح في وضع لا يُحسد عليه، فالمشاكل تطوقه من كل ناحية، ومن محاسن الصدف أن عدد درجات السلم

تساوي عدد درجات سلم المكتب، إنه الدور الثالث حيث يعيش مع مشاكل المراجعين .. وهاهو يعيش مع مشاكل زينب ..

وقف أمام باب المستشفى قليلاً .. كانت الساعة قد قاربت الثانية عشر ظهراً فلمحها .. لم يكن في داخله شيء .. تقدمت منه وقدمت له كيساً صغيراً عبارة عن حقيبة يد ..

ـ سألحق بك بعد قليل ..

لم يكن يعرفها .. كانت مفاجأة أكبر مما يتحمل .. وأخذ يصرخ من أنت ؟ محاولاً اللحاق بها، لكنها اختفت في دهاليز المستشفى .. فعاد القهقرى حيث التقى بثلاثة من الشباب يمدون الخطى متلفتين حولهم .. عرف من همسهم وارتباكهم أنهم يلاحقونها .. وعاد إلى مكانه حيث وقف قليلاً .. ثم اتجه إلى العربة وهناك لمحها تقف خلف أحد عواميد الموقف .. وبدون أي شعور مد يده إلى الباب الآخر وفتحه لتلج العربة .. وينطلق بسرعة .. أخذ يسير دون هوادة في شوارع المدينة .. كان منهوك القوى من فرط الإجهاد، فلم يحاول فتح باب الحديث .

ـ أرجوك توقف ..

وأوقف العربة .. لتترجل منها ولمحها تتألق صحة وشباباً ، جميلة المحيا .. على شفتيها ترف ابتسامة صغيرة .. أخذت تكبر وهي تقفل باب العربة ..

ـ لا أدري كيف أشكرك .. لقد أرسلتك السماء لإنقاذي من موقف كنت أكرهه ..

همّ أن يقول شيئاً، لكنها ابتعدت دون أن تنظر إليه .. وولجت باب عمارة كبيرة ولمحها وهو يهم بالسير تصعد السلم ..

* * *

إنهم يبحثون عن الزهور

ترجل حامد من العربة وتلفت حوله وهو يغلق الباب بالمفتاح .. الهدوء مخيم على الشارع الذي اعتاد على صراخ الأطفال وكرة الشراب وعويل أبواق العربات ..

قرع حامد الباب الخشبي المصبوغ باللون الأخضر في ارتباك وهو يحفر ذاكرته محاولاً استخراج ما اختزنته من ذكريات الطفولة والصبا، حيث كان صديقاً باراً للشارع رغم انعزاليته وانطوائه وحرصه على الابتعاد عن الضوضاء والضجيج .

كرر الطرق على الباب وسمع صوت وقع حذاء يقترب، وصوتاً واهناً يسأل من الطارق .. عرف أنها جدته التي تجاوزت الستين ودب الوهن والمرض في جسمها حتى لم يبق سوى العظم شاهداً على ظلم الأيام وتصريف الزمان .. كانت فرحتها أكبر من أن توصف بقدومه ، وأخذت تقبل وجنتيه المرة تلو المرة ، وتتحسس وجهه بيدها حتى تطمئن أكثر على صحته .

ـ أين أمي والإخوان ..

ـ راحوا لأخذ عمرة ..

ـ وأنت لوحدك ..

ـ جارتنا .. جابت لي الفطور .. وقبل شوية أرسلت بنتها الغدا .. و .. ولم تكمل العجوز حديثها حتى كان الباب الخارجي يفتح ودخلت امرأة بسرعة غير منتبهة لوجوده .. ألقت السلام ثم وقفت مشدوهة عندما لحظته جالساً بالقرب من العجوز ..

ـ ابن عائشة فهد ..

- ....

تصلبت نظراتها ولم تستطع إعادة الحجاب على وجهها ، وتقدمت ثم مدت يدها مرحبة في خجل ..

ـ تريدين شيئاً يا خاله ..

وخرجت قبل أن تسمع الجواب .. أخذ حامد يفكر في المرأة، إنه يتذكر أنه شاهدها قبل هذه المرة، لكن أين .. ؟ ولم تسعفه ذاكرته بشيء ..

وخرج من الدار لزيارة الأصدقاء والتجول في شوارع الطائف التي غادرها منذ ثلاث سنوات حزيناً بعد أن فشل في دراسته وتكرر عدم نجاحه في المرحلة

الثانوية وهاجرت فائقة فتاة البلكونة الخضراء المطلة على مسيال وادي وج المدينة مع عائلتها إلى الرياض مخلفة أكثر من جريح .. أكثر من رسالة ، وأكثر من حكاية منها الحقيقي ومنها المبتكر ..

في أحد الأيام ترك المدرسة كالعادة غير مبالٍ بأثر ذلك، ركب دراجته العادية واتجه إلى هناك حيث وجدها تقف مع ابن أختها في الباب، كانت الساعة العاشرة صباحاً .. أخذ يبادلها الحديث .. وتكرر اللقاء .. وأعطته صورتها ، لكن لم تحاول مراسلته كبقية الآخرين ، واكتفى بالصورة لعلمه أنه لم تمنح أحداً مثلها .. واختفت .. واختفى هو أيضاً، رحل مع الراحلين .. كان السفر أفضل من بقائه لا عمل له ولا دراسة .. يجب أن يكون رجلاً مثل الرجال، عليه أن يعمل .. أن يقوم بالواجب، أما أن يبقى عالة على والدته وزوجها فهذا شيء غير مستحب .. لقد تحطمت أحلامه وغدت الصورة باهتة، فالطموح المقرر أن يكون غرّب مع وفاة أخيه فريد ورحيل صالح إلى الجنوب باحثاً عن المال، وقرر الرحيل .. زاده قصاصة من صحيفة يومية بها إعلان حكومي عن وظائف شاغرة ، وتفكير عادي في أنه سوف يبتعد عن مدينته الجميلة ورفاق الطفولة وأصدقاء الدراسة مخلفاً وراءه الشوارع التي شربت من نهر عمره ثمانية عشر ربيعاً في صراع بين سذاجة الطفولة وطموح الشباب وأحلام الفتوة مع صخب الحياة وقسوة الأيام ، وهاهو يعود بعد ثلاث سنوات .. ممتلئ العود ، موظف عادي يستطيع مرتبه أن يقوم أوده .. ومشروع زواج يداعب مخيلته رغم عدم استعداده مالياً ولم يتهيأ نفسياً لذلك، عاد في ساعة متأخرة من الليل إلى المنزل ووجد الجميع في انتظاره بما فيهم الجارة التي ما أن لمحته يلج الدار حتى استأذنت وأخذت ترمقه بنظرة جانبية حاولت بها أن تقول شيئاً، ومرت بالقرب منه ، كان إحساسه بها قوياً رغم الضجيج الذي حوله وصراخ إخوته الصغار وهتاف والدته مرحبة .. أراد أن يقول شيئاً فلم يستطع ..

ـ من هي ..

ـ إنها خطيبتك ..

وتذكر كل شيء .. سارة الطفلة الشقية التي كثيراً ما كانت تلجأ إليه في إنصافها من أخيها .. وأخذ يتذكر والدها الرجل الطيب، ووالدتها .. الصور أخذت تتوارد الواحدة تلو الأخرى ..

ـ وكيف .. ؟

ـ ألم يصلك خطابنا ؟

وهزّ رأسه، لقد كان حضوره بسبب ذلك الخطاب الذي يدعوه للحضور ومشاركته في التقدم لطلب يد سارة من والدها .

استقر حامد في الطائف بعد أن قدم استقالته من العمل، حيث عاد شقيقه صالح من رحلته من الجنوب شاعراً بثقل الغربة ووطأة الأيام عندما يصبح الإنسان وحيداً في معركته معها، وقرر فتح مكتب تجاري للعقارات .. كانت العودة أجمل ما في ذلك . وتم الزواج .. كانت سارة تذكره كل ليلة وهم أمام التلفزيون بأشياء غابت عن ذاكرته من أحاديث الطفولة وشقاوتها .. كان يريد أن يقول شيئاً .. لكن الأيام كانت أكبر من كل شيء .. وقد ابتسمت ابتسامتها الكبرى .. لتجعل الطريق مفروشاً بالزهور ..

*   *   *

عندما تطل الأصوات خجلة

الحزن يملأ المكان .. هناك ظلال سوداء ترفرف على المكان رغم كل البوادر والملاحظات والنقاط .. فالثريات تزرع الشوارع نوراً والزغاريد المطلة من النوافذ .. ورائحة الدخان التي تملأ المكان ورائحة الطبخ وعبق رائحة الهيل والعود وصراخ الأطفال ..

- أربع ميه ..

صرخ محمد ، لقد كانت مفاجأة لم يكن يتوقع وهو يشتري على الورقة المكشوفة من أن تأتي (الاكه) الرابعة ضمن آخر ورقتين في التوزيع .. كانت الصرخة فجوة فرح سرعان ما وئدت .. حيث غلط زميله في اللعب عادل ، واستغل الآخرون الفرصة (وكوشا) اللعبة التي كانت بداية للفرح ونهاية له انفعل قليلاً ثم واصل اللعب ، ولكن بنفس غارقة في دوامة الظلال السوداء .

- عبد العزيز .. تعال العب ..

- هل انتهت اللعبة .. ؟

واقترب عبد العزيز الذي كان يتحرك هنا وهناك مشاركاً الجميع فرحهم ..

- روح يا شيخ ساعدهم ..

- إنه لا يعمل لله ..

- وصرخ عبد العزيز :

- ماذا ؟ ..

- لقد شاهدت العيون المتلصصة من فتحات سترة السطح .. ومن النوافذ المواربة .. إنهن كثيرات .. ترى هل لفت نظر واحدة منهن ..

- أنا .. ؟

وضحك الجميع .. بينما كانت نظراتهم تتجه إلى الفتحات المليئة بوجوه بعض الفتيات الصغيرات والأطفال ..

نهض محمد من مكانه ليفسح للآخرين وغادر المكان .. كانت الأفكار تملأ رأسه .. وبوادر الصداع تشعره بالضيق ..

الساعة الحادية عشرة ونصف ..

لا زال حفل الزفاف في بدايته .. لقد انتهى الرجال من الأكل ، أما النساء فسوف يقدم لهن العشاء الساعة الواحدة والنصف .. إنها عادة مستهجنة .. وهزَّ

رأسه وهو يدخل المفتاح في فتحة باب الشقة .. كانت سوسن وخالتها وعمتها الصغيرتان والمسجل يملأ المكان ضجيجاً ..

فسوسن تحاول رغم سنينها الأربع أن تحكي لعمتها وخالتها حكاية وهن يطالبنها بالهدوء والنوم .. هربت الاثنتان عند دخوله .. كانت فرصة للذهاب إلى الزواج حيث سبقتهن أم سوسن وبقية الأسرة .. تلفت محمد حوله وأخذ النوم يداعب مقلتي سوسن، وتناول من فوق دولاب الملابس ديوان شعر قديم أخذ يقلب صفحاته باحثاً عن قصيدة مناسبة يقرأها في وحدته ..

كل شيء حوله هادئ .. الأصوات تطل في خجل من بعيد معلنة عن نفسها .. إنهم يفضلون الانتحار على أن يجتازوا الثقب المرتوق في ثوب الليل .. لقد أصبح الثوب خلقاً ، لم يعد يكتفي الليل بحداء المسافرين وحزن العشاق ، فقد امتلأ بصراخ أبواق العربات وفحيح الثعابين وأشياء كثيرة كانت مجهولة والتفكير فيها مستغرب ..

وصل محمد إلى نهاية القصيدة الأولى .. كانت المسافة طويلة تخللتها بعض المواقف الجانبية كقراءة الحواشي ومعرفة ما يريد الشاعر الذي توفي منذ مليون عام .. تحت صخرة ما في ناحية مهجورة من الوطن .. بعد أن تزوجت ليلى وقررت التخلص من ذلك الحب العذري الذي شهر بها وغدت حكاية على كل لسان وشفة .. لا تخلو من الفخر واللمز من قناتها رغم معرفة الجميع أنها ابنة شيخ الحي ولا يستطيع أحدهم أن يرفع عينيه إلى عينيها من الهيبة والخوف من العاقبة .

أطبق محمد الكتاب .. وحمل سوسن إلى فراشها في الغرفة الثانية .. ودثرها باللحاف .. وعاد إلى مكانه لمواصلة القراءة .. وتأمل الساعة المزروعة بالقرب من مرآة التسريحة ، إنها الواحدة والنصف ..

نصف ساعة للأكل .. إذن عليه في الساعة الثانية أن يذهب إلى مكان الزواج لإحضار أسرته .. فالليل رغم قرب المسافة مخيف وخاصة ليل الصيف الذي لا يخلو من معتوه فاقد الشعور ..

وضع الغترة فوق رأسه .. بعد أن ألقى بالكتاب الذي بين يديه جانباً وتأمل المرآة في هدوء ..

إن عينيه محمرتان من السهر والقلق .. إذ لم يعتد على البقاء حتى هذه الساعة وحيداً منذ أن تزوج قبل عشر سنوات حيث هجر القراءة الطويلة المدمنة والذهاب إلى السينما حتى آخر الليل .

خرج من الدار وأقفل الباب في هدوء حتى لا يشعر الصغيرة النائمة بذلك .. واختار أقصر طريق على أمل أن يجدهن في الطريق واقترب من الثريات ..

الهدوء مخيم على المكان .. والتعب يطل بقسوة من عيون المتناثرين هنا وهناك من أهل العروسين والمساعدين .. واقترب .. واقترب .. لكن الأضواء كانت بعيدة .. وشعر بالاختناق .. إن الجفاف يشق شفتيه والآخرون ينظرون إليه بسذاجة وعدم مبالاة .. لم يعد في استطاعته أن يقول شيئاً .. فالمسافة رغم أنه أخذ يمد خطاه ما زالت كما هي والأنوار المتلألئة والأشخاص المتناثرين هنا وهناك فقد أنهكهم التعب على مرأى البصر .. لكن متى يصل ؟ .

* * *

غدير البنات

الينبوع ما زال ينزّ بالماء .. وهذه الزغب والطحالب المفروشة على الرمل على مد البصر تؤكد ذلك .. لكن الطريق مهجور .. حيث جرفه السيل وغدت السيارات الصغيرة لا تستطيع مواصلة السير .

ـ آه .. لو معنا سيارة جيب ..

كانت التنهيدة من منصور .. وكذلك التمني الذي أخذ يعكر صفو المجرى الهادئ بقدميه .. بعد أن خلع نعله وأخذ يجري بكل قوته في الوادي المهجور مخلفاً وراءه العربة الصغيرة التي انغرست عجلاتها في الرمل ، وصديقه رفاعة الذي أخذ يفكر في طريقة لإخراج السيارة والعودة من حيث أتيا ..

الساعة الآن الحادية عشرة صباحاً .. لقد استأذن رفاعة من رئيسه في العمل مدعياً أنه مسافر إلى الرياض .. لقد خطط: سوف يسافر مهما كان الأمر .. إلى الرياض .. إنه يحب هذه المدينة حباً كبيراً وكذلك يحقد عليها .. لقد لفظته منذ عشرة أعوام .. عندما قدم إليها وأصر على البقاء .. كانت الجدران غريبة وقاسية .. وكذلك الوجوه رغم وجود الأصدقاء والمحبين ..

كان وحيداً عندما رفضه صالح .. راغباً الزواج من جواهر .. كان يعرف أنها قريبته وأنها غدت خطيبة له منذ مليون عام وها هم يتنكرون لذلك .

ـ إنه مبذر .. لم يجمع شيئاً من مرتبه .. يشتري كل يوم جرائد ومجلات وكتب .. لا يركب في الحافلة .. أصغر مشوار يأخذ عربة أجرة طلب .. دائماً يذهب مع أصدقائه إلى المطعم .. بمعنى أصح راتبه في جيبه .. ولا تمر عشرة أيام حتى يكون على الحديدة .. وقرر الانتحار .. يئس من كل شيء .. أخوه في جدَّة .. والدته في الطائف .. ومرتع الطفولة .. غدت صورة باهتة كل الصور لا لون لها ..

ـ إنسان جائع .. ؟

الجوع في أعماقه .. أجل .. إنه جائع لشيء ما .. لكن ما هو هذا الشيء .. ها هو يلتهم ما يقع تحت يده .. ويلتهم الآخرين بعينيه .. ويحلم .. ويحلم ..

ـ منصور .. منصور ..

صرخ رفاعة .. مبتهجاً .. لقد أخرج العربة من الرمل وها هي تقف شامخة على جانب الطريق .. وقد تم توجيه مقدمتها إلى الجهة الأخرى من الطريق .. الساعة الواحدة بعد الظهر .. وصل الاثنان إلى الردف حيث يبدأ الإسفلت .. كان حديثهم عن المهرجان المقام في المدينة .. وهل سوف تسنح الفرصة لهم بمشاهدته

.. لا شيء أمامهم غير ذلك .. ثم التوجه إلى الرياض .. مرت لحظات .. ران فيها الصمت على الاثنين ، كان الطريق فيها يقترب من نهايته بسرعة مخيفة ..

ـ أنت ادخل البيت وأنا سوف أشارك جيراننا جنازتهم .

دخل منصور البيت ورسم رفاعة على وجهه الحزن .. وهو يقترب من باب جاره الذي توفي في الصباح .. حيث يقف ثلة من الرجال في انتظار خروج الجنازة من الدار .. لحملها إلى العربة والاتجاه إلى المسجد ..

ـ البقية في حياتك .. ؟

قالها لهم جميعاً .. وهو يعانقهم .. واحداً واحداً .. فكلهم أقرباء الميت حتى هو كان من أقرباء الميت ومن أصدقائه الخصوصيين .. لكن في الآونة الأخيرة انقطع عنه لم يهتم بزيارته في البيت أو المستشفى ، ولم يهتم حتى بالسؤال عنه رغم التصاقه به .. كانت الغصة في أعماقه تكبر دائرتها وتكبر .. وهو يردد ما قالته له والدته في الصباح وهي تنقل خبر الوفاة له ..

ـ لقد كان يسأل عنك ..

خرجت الجنازة وركب الجميع عربات الونيت المتكومة في الشارع .. كان عددهم عشرة .. ولم يركب معهم حيث عاد القهقرى .. فزعاً من شيء .. إنه دائماً خائف ..

الساعة العاشرة مساء ..

قطعت العربة أكثر من ثلاثمائة كيلو من طريق الرياض ، إنهم الآن ثلاثة : منصور .. علي .. رفاعة .. حديثهم طويل يتخلله بعض المواقف الضاحكة .. والبحث عن شريط لوضعه في المسجل ..

ـ يا لجمال غدير البنات ..

ـ أين وصلتم .. ؟

ـ عدينا الخزان ودخلنا يميناً حتى أوشكنا نصل الطلعة ..

ـ لم تشوفوا شيئاً .. الجمال وراء الطلعة ..

وضحك الثلاثة على هذه النكتة .. كان علي يتحدث بإصرار مؤكداً ما ذهب إليه .. وتوقف رفاعة للتزود بالوقود ومواصلة السير .. لم يبق سوى القليل .. ومع انبلاج الصباح كان الثلاثة في الرياض تسرب السأم إلى صدر رفاعة .. كان يتلفت حوله يبحث عن منطلق .. إن القفص يطوقه .. شعر بالاختناق عندما لم يجد أحداً .. كان الجميع مخيمين في البر .. و .. غير موجود .. لا أحد هناك تجول قليلاً .. زار كل المعالم التي يعرفها ..

الساعة العاشرة من صباح اليوم التالي ..

علي ورفاعة .. وحيدان في العربة .. التي أخذت تنحدر من ديراب .. لقد قررا العودة .. فلا شيء يدعوهما إلى الانتظار وارتباطهما بالعمل يحتم عليهما العودة .

* * *

سوف يعـــــود

ابعد .. اقلع يدك عني .. وتلفت حوله .. كانت غرزت خنجر جديدة تمزق أعماقه .. لكن كيف يفسر الصورة .. وهو يعلم أنها لا تعني شيئاً من ذلك .. إنها مجرد كلمات ارتسمت على لسانها وأطلقت لها العنان ..

لكن كثرة توجساتها هذه الأيام ، وانفعالها .. ؟

ارتسم هذا السؤال أمام صالح، وهو يطل من نافذة غرفته إلى الفراغ .. لا شيء أمامه سوى صورة باهتة لمعالم وذكريات هي أيضاً باهتة، كل شيء فيه باهت .. هكذا أخرج أخيراً ابتسامته التي سئم منها وتمنى أن تشنقها الأيام .

وعاد إلى الفراش .. ارتمى دون وعي وجعل من جدار الغرفة مرآة يتأمل فيه وجهه، لماذا قالت اقلع يدك عني ..؟ هل هو السأم الذي يشعر به أم أنه شعور غريب .. وعدم استساغة لمزحه ولسانه .. ؟

- إنها زوجتي .. ؟

سؤال آخر ارتسم على الجدار .. كانت كلمة زوجتي أكبر كلمات الجملة حروفاً وبروزاً وأخذ يتحسس الجدار بأنامله محاولاً معرفة سبب هذا البروز والكبر .. وتهدلت يده واستسلم صالح لغفوته المعتادة بعد الغداء .

الشارع ما زال يضج ، الصخب يرتفع ولا شيء سوى عواء الكلاب ومنبهات العربات وصراخ الأولاد وهم يلعبون الكرة .. والريح هذا اليوم شديدة ومتربة .. اجتاز الشارع وأخذ يسير على الرصيف يعد خطواته .. إنه يصل حتى الثلاثين ثم يعود للعد من جديد .. وامتلأت يده بالثلاثينات كل إصبع من أصابع يده عن ثلاثين ومع ذلك ما زال الطريق طويلاً .

- صالح .. صالح .. ؟

وتلفت حوله يبحث عن صاحب الصوت ..

- تفضل نوصلك .. ؟

وركب معهم ، أشخاص يعرفهم معرفة أكيدة ، ولقد لعب معهم البلوت .. ولكن ما أسماؤهم ؟ ياسين .. علي .. موسى .. الخ ..

- هنا .. شكراً .. ؟

وتوقفت العربة .. ونزل صالح من العربة وهو يفكر في الأسماء .. ويتذكر أن أصابع يده ما زالت مضمومة، فأخذ يواصل العد، ولكن المسافة التي قطعتها العربة ليست بالهينة أتراه يخمن كم خطوة هي .. وتوقف يفكر في الموضوع ..

- عمى .. قليل الأدب .. ؟

صفعته الجملة .. وانتزعته من أحلامه .. لكنه أخذ يتأمل صاحبة الصوت التي أخذت تبتعد .. عباءة سوداء وظهر منحن ووجه ضاعت معالمه وراء غطاء خفيف أخذ يتلفت بين الحين والآخر .. وتذكر زوجته منى .. تذكر لماذا خرج من البيت .. ولماذا نهض فجأة من الفراش ورفض شرب الشاي فأخذت خطاه تمتد .. الجميع في انتظاره .. الساعة السابعة ولا شيء غير هذه الساعة التي يمر بها على الرفاق لقضاء ساعتين في مثل هذا الوقت مع الورق والحديث في أمور الدنيا .. كان يلعب وهو صامت يستمع إلى هذا وإلى ذاك غير مبالٍ بما يدور حوله من أحاديث ..

- إنسان غير مبالٍ .. ؟

جملة عابرة قالها أحدهم .. بعد مضي ربع ساعة على جلوسه حتى قفز واعتذر للجميع وخرج .. تلفت حوله ثم ركب عربة أجرة وطلب من السائق الإسراع، ووصل البيت كان كل شيء هادئاً والظلام مخيماً .. فتح الباب بالمفتاح الذي معه .. واستقبله صوت التلفزيون .

* * *

الخـــــــــوف

واحد .. اثنين .. ثلاثة .. أربعة .. خمسة .. إنها تتحرك أصابع يده .. أجل تتحرك وقفز من الفراش ، أخذ يتلفت حوله .. أنا حي .. ما زالت عروقي تنبض والدماء تجري فيّ .. لكن أين أنا .. ؟ تلفت حوله .. الظلام مخيم .. ولم يصل إلى نتيجة ..المكان في أعماقه مجهول وكل شيء حوله غريب .. وعاد إلى يده يعد أصابعه .. واحد اثنان ثلاثة أربعة خمسة .. وكرر العد .. كرر .. كل شيء كان فيه متبلداً ..

لقد مات .. نعم ..كان الموقف من أصعب المواقف بالنسبة لجندي .. يجتاز الغابة وحيداً مع بندقية بدون رصاص .. الهجوم كاسح .. لم تستطع الفرقة المتقدمة مقاومته، فمات جميع أفرادها ما عداه .. كانت الأشجار ملعونة إذ أخذت تشي به ، كان حفيفها وهو يمر بها يثير القشعريرة في جسمه .. مر مرور البرق بكل الحواجز حتى النهر المكهرب .. حافة النهر محاصرة بأسلاك شائكة مكهربة ..

وتلفع ببذلته بعد أن رمى بالبندقية جانباً وقفز في الهواء محاولاً اجتياز الأسلاك .. وانهمر عليه الرصاص من كل جانب .. انهمر كل شيء وانهار فوق الأسلاك جثة هامدة ملطخة بالدماء ..

واحد اثنان ثلاثة .. أجل حي .. أنا حي وتحرك قليلاً أخذ يتقلب في الفراش ..

- سالم .. ماذا بك .. ؟

صوت يعرفه .. أجل صوت معروف يناديه .. وتلفت يبحث عن المصدر ..

- سالم هل هناك ما يقلقك .. ؟

- أبداً .. أبداً ..

كان يود أن يقول .. إنه يريد معرفة المكان الذي هو فيه الآن، ولماذا هذا الظلام الحالك الذي يلف المكان ؟ وما معنى السؤال عن حاله وماذا يقلقه .. وقد مات ؟ أجل مات ..

وأخذ يعد .. واحد اثنان ثلاثة أربعة خمسة .. إنما كيف يعد .. أصابعه تتحرك وأطرافه تتحرك ، ولا يشعر بأي ألم في جسمه .. وهذا الصوت صوتها .. أجل صوتها .. إنها مريم ..

- سالم هل تحدث نفسك .. ؟

- لا إنما النوم .. هجرني فجأة ..

ـ لماذا لا تشعل النور ..

ـ أي نور ..

ـ إن الظلام يخيم على الغرفة ..

ـ وهل أسروك .. أيضاً .. ؟

ولم يسمع رداً على سؤاله الذي تمنى أنه لم يلقه .. ترى كيف وصلوا لها .. إنه يذكر أنها كانت في البيت .. لقد ودعته هي وطفلته الوحيدة بدموع غزيرة .. وطمأنها أنه عائد .. سوف تنتهي الحرب ولن يكون هناك ما يسوء ..

ولكن المكروه حلَّ الآن .. إنها هنا معه .. وفي مكان مجهول .. يا لله ما هذه الدنيا التي تحتاج إلى ميكروفون حتى تعلن عن نواياها تضعه في هذا الموقف ..

ـ أين فاطمة ..

ـ لقد .. نامت .. هادئة ..

ـ ماذا .. ؟ ماتت هادئة .. ؟ كيف .. ؟

وقفز من الفراش .. واجفاً .. وهنا تأكد أنها ما زال حياً وليس فيه شيء يؤلمه .. فعاد إلى مكانه .. يتلمس الفراش والتقت يده بيد زوجته مريم التي احتضنته وألقت برأسها على صدره ..

ـ ماذا بك يا حبيبي ..

ـ لماذا هذا الظلام .. ؟

ـ هل أشعل الضوء ..

ـ أرجوك ..

ونهضت من مكانها .. وإن كانت أنامله تتحسس جسمها مترقباً صرخة ألم .. لكن كل شيء مر بهدوء ..

ـ الكهرباء مقطوعة ..

ـ ماذا .. ؟

واخترق نظره النافذة .. هناك أنوار في الشارع .. المدينة تحترق .. أجل المدينة تحترق.

ـ إنها تحترق ..

ـ من ..

ـ المدينة ..

ـ وعادت مريم إلى الفراش .. وأخذت وجهه بين يديها .. أخذت تتأمله بعد أن اعتاد الاثنان على الظلام .. كانت أناملها تتحسس جبينه وعينيه ووجنتيه ..

ـ ماذا .. هناك يا حبيبي ..

ـ لماذا لم يشتعل الضوء ؟

ـ لعل اللمبة محترقة ..

اللمبة محترقة .. وتحسس أطراف الفراش .. وارتفع صراخ فاطمة كالعادة تطلب ماء .. إنها في مثل هذا الساعة من كل ليلة تنهض من فراشها .. وتصعد إلى السرير حيث ترقد والدتها لتمسك بشعرها وتعود إلى مواصلة النوم، وأخذت الصور تتضح وأخذت يده تتقلص ..

واحد .. اثنان .. ثلاثة .. أربعة .. خمسة .. ونهض من الفراش ولحقت به مريم .. واتجه الاثنان إلى فراش الصغيرة التي أخذت ترتعش من الخوف ..

وخرج سالم من الغرفة وهو يحتضن ابنته .. فإذا بالضوء يصدمه .. كان البيت يعج في النور .. وتأمل الساعة المعلقة على باب المطبخ .. كانت الخامسة صباحاً .. وارتفع صوت مؤذن يدعو الناس إلى الصلاة .. مخترقاً الصمت .. كان الأذان واضحاً، كما أن صورة فاطمة التي عادت من جديد للنوم واضحة .. والتفت وراءه حيث مريم واقفة تتابعه بنظراتها ..

* * *

الأمل والفصول الأربعة

الفصل الأخير:

توقفت العربة أمام باب دار والد زوجتي وتريثت قليلاً قبل أن أحرك عربتي، كانت الساعة الرابعة مساء .. حيث قررت أنا وزوجتي أن نقوم بجولة خارج المدينة ..

ـ أظنه صالح ابن عمتي ..

ـ أجل هو ولكن من هي المرأة التي معه .. ؟

ـ لا أدري ..

وترجلت المرأة وكانت تحمل بين يديها لفافة بيضاء .. كما ترجل صالح وأخذ يرمقنا بينما هو يساعد بناته الصغيرات على النزول من السيارة .. وصرخت زوجتي ..

ـ إنها زوجته ..

ـ ما رأيك هل تنزلين وبلاش من الرحلة هذا المساء ؟

وترددت زوجتي قليلاً ثم همهمت :

ـ مسكين لقد جاء له ولد بعد أن يئس وها هو يأتي بزوجته لزيارة والدي رغم أن الحق لهم .

الفصل الأول:

كان كل شيء هادئاً حولي حتى وأنا أسمع تأفف من حولي من حياتي غير المبالية، كان كل شيء بيدي، بل الدَّين المتراكم علي رغم أنني لا أعرف أين أهدرت مرتبي الذي لا يشاركني أحد فيه .. ثلاث سنوات في الوظيفة وشقيقتي تصرخ فيّ بين لحظة وأخرى:

ـ صالح فاتن تحبك وتريدك زوجاً لها، وأنت تعرف ذلك والفرصة بين يديك فلماذا كل هذا .. ؟

لم تحزنني أحاديثها ولم أغيّر من نمط حياتي شيئاً رغم إحساسي بأنني سوف أصدم بالنهاية .

وكان كل شيء .. تقدم أحدهم طالباً يد فاتن ولم يعارض والدها أو أحد إخوتها رغم معرفة الجميع برغبتي وحبي لها .. وشعرت بالضيق، أحسست بالألم، لكن ما يفيد ذلك ولا شيء معي وحاولت أن أحتج .. وقررت أخيراً أن

ألتزم الصمت .. قررت الابتعاد ، وضعت في زحام المدينة بين قلق من حولي لم أفكر في شقيقتي أو والدتي ، فكل ما أعرفه أنني أصبحت ضائعاً لا مأوى له .. ووجدت من صديق في العمل يسكن بمفرده العون .. حيث قررت السكنى معه والابتعاد عن منزل شقيقتي حتى لا ألتقي بفاتن أو أحد أقاربها .

وشعرت والدتي بما يعتمل في داخلي .. لا أدري كيف وصلها الخبر ، وإذ بها تقف أمام مقر عملي ذات صباح .. كانت تبكي ، لقد قدمت من القرية مع شقيقتي الصغيرة، تاركة المزرعة وأغنامها لتقف بجاني ، وتجاسرت فأشعرتها بأنني قوي وأن الصدمة لن تؤثر فيّ رغم رنة الحزن والألم العميق الذي يهز أعماقي .. وعادت إلى القرية بعد أن أقنعتها بأنني سوف أعود للسكنى مع شقيقتي ، وشعر والد فاتن بكل شيء فرفض من تقدم لابنته لا أدري لماذا ؟ هل هو إكراماً لوالدتي أم لعدم مناسبة المتقدم واختلافهم في مقدار المهر وتفاصيل الزواج ..

الفصل الثاني :

تزوجت فاتن .. مرّ كل شيء بهدوء .. وسرى الشك هنا وهناك ، كلهم استغربوا هدوئي ومشاركتي الجميع في حفلهم .. العيون تتابع خطاي والحرس حول فاتن كل خطوة تخطوها .. تجد وراءها والدتها أو أحد أشقائها .

الشك لديهم خلق حولنا رواية وأننا نخطط .. نعمل لشيء من خلال عدم مبالاتنا وأن وراء الأكمة ما وراءها .. ومرت الأيام لتهدأ الحالة وليشد أشقاء فاتن على يدي بقوة معلنين تآزرهم معي وأنهم آسفون لما حدث محاولين معرفة ما أنوي ، فأخرجت من جيبي خطاباً وصل مؤخراً من والدتي تدعو لي فيه بطول العمر وتطالبني بالنقل إلى القرية حيث أكون بجوارها وأنها وجدت ابنة الحلال المناسبة ، بارك لي الجميع ، وتم النقل وتزوجت من صالحة هادئة وجميلة ، كل شيء فيها يشد الانتباه ، ورزقت بالمولود الأول ، كانت علياء .. وحلت سارة ومها وغادة .

ـ أنت لا تعرف طريق الأولاد ..

ـ كلهم خير والبنات الآن أفضل من الأولاد ..

ـ لكن الولد يحمل اسم أبيه ..

كلهم يريدون أن يكون لي ولد .. حتى والدتي تريد ذلك، واجهت الجميع بهدوء وصمت .. فأنا أيضاً أتمنى ولد .. ولكن هذه مشيئة الله ..

ـ صالح ..

ـ من ؟ فاطمة ..

ـ زوجتك حامل .. وإن شاء الله تولد بالسلامة ..

ـ ابن ..

ـ تدري أنا أتمنى لك بنتين توم ..

وانفعل صالح، ماذا دهى زوجة ابن عمته .. أتضحك منه ؟ ألا تدري ماذا يتفاعل في أعماقه من ألم وحسرة .. كل من حوله يريد أن يكون له ولد .. إنها تلاحقه في كل مكان ، لقد قررت شيئاً ما ..

ـ صالحة أتدرين لماذا يذهب صالح إلى بيت خاله .. ؟

ـ أبداً ..

ـ يريد خطبة إحدى البنات ..

ـ ولماذا ؟

ـ إنه يريد ولداً ..

ماذا يقول أمام الأمر الواقع .. فالمجتمع يريد ذلك وكل من حوله يبحث عن الولد الصالح .. فهل يكون شاذاً .. أخذت الأفكار تتفاعل في صدره مما أثر على نفسه فانطوى، أخذ يبتعد عمَّن حوله .. ارتضى الانفراد بنفسه فاتجه إلى الجبال يحدثها بما يتعامل في داخله مفكراً في الحديث الذي يدور .. وتغيرت نظراته إلى الحياة ولم يعد يتقبل دعوات والدته ومداراة أشقائه له ..

ـ إنها حامل ..

وهزَّ رأسه .. أجل حامل ، ولكنها بنت خامسة وقد يكون توم كما تدعي فاطمة، مرت الأيام سريعة ، وقد خبا أمله الذي كان يرجوه صامتاً .. وقرب موعد الوضع .. فطلب إجازة من العمل اختفى فيها عن القرية، سافر بعيداً مع أمله تاركاً زوجته ووالدته أمام الأمر الواقع ..

الفصل الثالث:

الطريق طويل وكل شيء يسير في هدوء .. رغم الابتسامة العريضة المرسومة على وجه صالح .. فالجميع يبحثون عنه .. لقد وصلته برقية عن طريق زوج شقيقته في المدينة حيث اختفى، تفيده بوضع زوجته بسلام .. وأنه رزق بولد .. فاقتنى سيارة جديدة بدلاً من تلك القديمة ولم يحاول البحث عن رفيق يؤنسه الطريق أو يساعده عندما يتعرض لحادث .. واتخذ طريق القرية ..

* * *

القفز على جدران الفراغ

فراغ كبير يملأ الأعماق .. وحبات من الفصفص واللوز وكوب شاي لم يتبق منه سوى أقل من النصف .. الأصوات تأتي من البعيد متداخلة .. صريخ مطربة صادر من مسجل بعيد يخترق الجدران ، وأنين (ماطور) خلط الاسمنت حيث تقام عمارة جديدة في زاوية من زوايا الشارع ، تسلل بقوة ، مفجراً الصمت الذي أراده عماد عندما هرب من مكتبه في الساعة العاشرة والنصف إلى المقهى ثم إلى الشوارع حيث دار بدون هوادة باحثاً عن امرأة تشبع جوعه وتحطم سياج الفراغ .

ولكن كان الفشل .. وكانت العودة إلى المكتب وعدم استساغة الجلوس وحيداً مع الأوراق .. والحديث مع الفراش والمراجعين .. السأم يلاحقه في كل مكان .. والفراغ المخيف يزرع حول أحاسيسه وأحلامه سياجاً جباراً أقوى من الإصرار الذي يحاول أن يكونه ..

وأدار عماد محرك السيارة وأخذ طريقه المعتاد متجهاً إلى الدار .. وها هو يقبع في غرفة الجلوس والأصوات المختلطة تصله من بعيد .. مصرة على ملاحقته رغم إقفاله للباب والنوافذ ، ليرتشف في هدوء كوب الشاي الذي أحضرته زوجته وحبات الفصفص واللوز التي أخذها عنوة من جيب ابنه ذي السنوات الخمس (حمدي).

الحرب قائمة وقمم الجبال ترتفع مخترقة السحاب حيث كل صنوف الحياة متلاشية رغم وجود الريح والماء ، إذ من وقت لآخر يهطل المطر مكوناً ترعاً وبحيرات راكدة تدب فيها الحياة فجأة ثم تتلاشى مع مرور الأيام ..

ـ كنت أفكر في هذا طول الليل ..

تذكر عماد بعض مقتطفات الحوار الذي دار في مكان ما من أعماقه عندما التقى برئيسه في العمل وبعض زملائه لمناقشة ما يجب اتخاذه خلال الشهور الثلاثة المقبلة حيث يتراكم العمل ويضج المكتب بالمراجعين الراغبين في السفر وإنهاء إجراءات أوراقهم لاستلام آخر مستحقاتهم لبدء عمل الموسم التالي ..

كان الجميع في واد وهو في واد .. مع حوار حقيقي ليعيش بكل بساطة أحداثه من خلال صورة نقلها صديق عابر لا يعرف عنه شيء حضر للسؤال عنه في المكتب ، وعندما لم يجده خرج دون أن يذكر اسمه ، كل ما استطاع من شاهده ذكره، إنه في مثل شبابه ويرتدي بذلة عسكرية .

ـ كنت خائفة .. من نفسي كلهم ينظرون إليّ بإعجاب وشهوة .. ومن لساني الذي يتلعثم .. عند كل نقاش يدور حولي .. فكلمات الإطراء ورجاء الاستجابة علامات استفهام تزرع الاحمرار في خدودي فآخذ في فرك يدي وتشبيك أصابعي

مفكرة لماذا أنا وحيدة .. رغم أن حولي ثلاث أخوات وما يربو على العشرين صديقة ، ولكن حظي أكبر من أن أحتمل نظرتهم ، فدوائر الحقد قد تأخذني يوماً إلى المجهول حيث لا أستطيع العودة .

وسارت الأمور .. كان كل يوم .. هو صورة طبق الأصل لسابقه .. المكتب .. النادي .. المقهى .. البيت .. التجول في الشوارع بدون هدى لاقتحام المجهول وصفع أبواب الريح بقوة .

ليس بعجيب أن أظل دائماً مبتسماً ولكن العجيب هو أن لا أكون مثل الآخرين ولو برعب .. حتى أعيش المجهول .. وأقفز حاجز الفراغ الجبار ولو لمرة واحدة أشعر فيها أنني استطعت أن أنفذ إلى ذلك الممنوع حيث تكثر لوحات .. احذر .. ممنوع الاقتراب .. محظور لقط الصور .. يجب أن تقدم بطاقة الإذن بالدخول للحارس .. كلمات كثيرة تقف مثل قمم الجبال .. أو أشجار الأدليب ذات الطول الشاهق .. لتزرع في داخلي الحسرة .. حتى تكون هذا الفراغ الهائل .. الذي يجثم على صدري مثل كابوس ..

- هل فريال هنا .. ؟

- تفضلي .. سوف تأتي بعد قليل ..

- أينها .. ؟

- ذهبت إلى الخياطة لإحضار بعض الفساتين ..

- ومتى تعود .. ؟

- تفضلي إنها في الطريق ..

وتلفت حوله .. إنه يعرفها .. سعدى الفتاة السمراء التي حلم بها بعض الأحيان .. والتقى بها أكثر من مرة .. فلم يكن موجوداً رغم رغباته .. الآن الشارع مهجور .. ولا أحد في البيت .. وهذه تقف على الباب تسأل .

وأجراس الانتهازية تقرع في داخله، تريد أن تعلن الفرصة وتحرك عماد إلى الداخل خطوتين .. مركزاً نظراته على المرأة الواقفة أمامه وهي لا تعي ما يجول في خاطره ..

- آسفة .. أرجو إخبارها بمقدمي ..

توقف في مكانه مشدوهاً ، هل يصرخ فيها أنه يريدها وهل تعي ذلك أم يعود إلى استسلامه وعدم مبالاته فالفرصة مواتية والسياج الآن شبه قصير يستطيع أن يقفز من فوقه ويطلق الفراغ إلى غير رجعة ..

- في إمـ .. كانك انتظارها بالداخل .. إنني .. ؟

وابتسمت لارتباكه ، هكذا صور معنى الابتسامة الصغيرة التي رفت على محياها فمد يده واقترب من الباب ووضعها على يدها المتكئة بها على الباب .. وأمسك بها ثم شدها إلى الداخل .. كانت القفزة أقوى من أن يحتمل فاهتز جذعه واصطدم رأسه بصدرها وهو في طريقه إلى الأرض .. حيث مضت ثوان وهو محني الرأس يستجمع خواطره محاولاً خلق عذر لما حدث ..

وفي وسط هذا الفراغ .. إنه لا يستطيع أن يستمر، إنها تزوغ منه .. تبتعد كالآخرين .. من خلال ضحكة ناعمة شعر بوخزها في كل أنحاء جسمه فأخذ يحرك يديه يتحسس مواقع الألم .. إنه يرتجف والأصوات القادمة من هنا وهناك تشنق صمته .. تقدمه إلى العالم فوق طبق من البلور مغطى بورق السولفان الزهري .. إنهم ينتحرون الآن، لقد خفت الأصوات قليلاً ولم يبق غير أصوات منبهات العربات المارة .

مدَّ عماد يده إلى كوب الشاي وتجرع ما تبقى في قعره فشعر ببرودته ولزاجته فوق لسانه وداخل حلقه وحتى المعدة ..

* * *

وكف عن التلفت

أنت .. وتلفت يبحث عن صاحب الصوت .. رغم أن الكلمة كانت صادرة من أعماقه .. الساعة تشير إلى الثامنة مساء يجلس وحيداً على مقعد شريط بمقهى الرياضة المطل على ملعب كرة القدم والكراسي حوله خالية من المرتادين .. وبين يديه (لي الشيشة) وعلى الطاولة أمامه تقعي زجاجة ليمون .. وزجاجة ماء مثلج .

أنت . .

كان حفيف أغصان الشجرة التي تلاصق مقعده هادئاً هدوء تلك اللحظات التي يعيش فيها مع أفكاره عندما يحلو له الجلوس وحيداً بعيداً عن العيون يتأمل ما حوله .. محاولاً بناء قصور في الهواء ..

أنت .. ؟

وابتسم .. لا شيء بين يديه .. وكف عن التلفت حوله .. أخذ يرقب السماء باحثاً عن النجوم التي حجبتها السحب الداكنة متسائلاً عن سبب تأخر طلوع القمر رغم أن الليلة سبعة عشر من الشهر ، وتناسى السحب .. كما تناسى أن الوقت لا زال مبكراً على طلوع القمر ..

أنت .. ؟

أنا .. هزّ رأسه كمن يقول نعم .. وفغر فاه محاولاً الاسترسال في الحديث .. ماذا تريد ؟

كان السؤال سريعاً فأطبق فمه وأخذ يقدح زناد فكره .. ماذا أريد ؟ آه .. تذكرت، أريد كل شيء ، منذ مليون عام وأنا أقول هذا .. أجل أريد كل شيء، ألم تصل إلى ذلك .. ؟ بعد لم أصل، أنا ما زلت عند ترديد أمنياتي وما أنا فيه من سأم وتألم، إنني أحارب على جميع الجبهات، فأنا أترقب اليوم الذي أنهار فيه ويحملني الجميع إلى مثواي الأخير بين كلمات الترحم ودموع الألم .

دموع الألم .. ؟

أجل تلك الدموع العاصية التي أشمئز لمرآها وأتهرب من مواجهتها حتى أنني لم أجرب هذه الدموع يوماً ما رغم أنني عندما أفكر أقوم بتقليم أظافري بأسناني وأحاول نتف القطع الناتئة من اللحم التي حول أظافري أو أنتف شعيرات ذقني وشاربي كلما سنحت لي الفرصة ، وفي كل هذه العمليات أمر بمراحل الألم ، ولكن مع ذلك أعتبر هذا الألم من صنعي ، أي نابعاً من ذاتي ، فهو إذاً لا شيء أبداً .. ونهض من مقعده متخذاً طريقه إلى الدار خالي الذهن لا يفكر إلا في السير عبر الشوارع الجانبية والمظلمة كالمعتاد .. ووقف أمام باب الدار الذي ما أن

فتحه حتى قابله الصمت، لا أحد هنا كان يقول .. وصرخ .. أمي .. أمي .. فتردد صوته عبر الغرف والنوافذ ورجع حاسراً لا يقول شيئاً، فضحك من ذاته فتردد أيضاً صدى قهقهته عبر الغرف والنوافذ ، إنه يعلم أن والدته عند ابنتها منذ ثلاثة أيام ، لقد وضعت فاطمة طفلة صغيرة ثالثة استقبلها الجميع بصمت، كانوا يتمنون لو كانت ولداً ، حتى هو تمنى لو كانت ولداً رغم أنه لا يدري الدافع لهذه الرغبة .. واتجه إلى غرفته فأخرج كتاباً أخذ يطالعه ومد يده إلى المسجل فدبت الحياة في الدار ومرت لحظات رنَّ بعدها التلفون فرفع السماعة وانتظر أن يتكلم أحدهم بينما كان يتابع القراءة ووصل إلى السطر الأخير فوضع السماعة على الطاولة بقرب المسجل وقلب الصفحة وتريث لحظات عفوية ثم مد يده إلى السماعة ورفعها إلى أذنه فإذا بالإشارة تعلن أن الذي طلب الرقم أقفل الخط .. فأعاد السماعة إلى موضعها فوق الجهاز وتابع القراءة.

* * *

عملية إحصاء

غريبة أنت يا دنيا .. لا موقف حاسم لك .. رغم أن الأيام تقول حكمتها وتتحدث بلسان الدقائق والساعات بكلمات المصارحة .. والحقيقة التي تفلت من أيدينا رغم إدراكنا أننا سوف نصل إلى الهاوية رغم حرصنا على التحدث عن ذاتنا وآمالنا ..

المكان يعج بالمرتادين .. كلهم من سائقي عربات الشحن الأجرة .. عربات حمل .. قهقهاتهم يتردد صداها بين الجدران غير مبالية .. كلهم قذرون ، صرعتهم الحياة بواقعها فكأن الاستسلام الساذج كان يفكر في ذاته .. في جلوسه وحيداً مع زجاجة الليمون وصدى صراخ صبيان المقهى .. الساعة تشير إلى الحادية عشرة صباحاً .. بعد أن أمضى ساعتين من الدرس في معهد التدريب ..

لقد رفض الدراسة في معهد الرياض شهوره الثلاثة وارتضى أن ينتقل مع دراسته إلى جدة حتى يكون قريباً من الطائف ، يحدوه أمل بأن تمر الأيام سراعاً ، محاولاً اختراق جدار العيش وحيداً في مدينة مجنونة نبذت كل شيء ، كان يخاف أن يعانقها وحيداً .. ويتردد كثيراً عندما يجد صديقاً يقرر ملامستها ..

البحر هو كل شيء بالنسبة له، لكن ماذا يثير البحر في أعماقه من ذكريات الطفولة.

لقد كانت الصورة التي يتوهمها عنه باهتة ، تراكم التراب عليها ، فكانت مفاجأة كبيرة له وهو يرى نهايته التي لا ترى وإصراره على صفع الشاطئ رغم الكبر .. ونعومة .. كان لها أثرها الفعال في الصخور ..

وانتبه من تأملاته .. ليراقب الجالسين على المقاعد .. قد يجد فيهم من يشاركه الحديث ..

وينتشل السأم المترسب في أعماقه ..

الساعة الحادية عشرة والنصف ..

جلس في المقعد المقابل لمقعده ثلاثة أشخاص أخذوا يتحدثون بهمس .. وأخرج أحدهم من جيبه كيساً صغيراً من الورق .. وهو يتلفت حوله وأخرج منه مجموعة من الحبوب الرمادية اللون وطلب من خادم المكان كوب ماء .. وفي هذه الأثناء اقترب شخص من الثلاثة بجوار صاحب الحبوب وفي هدوء تناول كمية الحبوب منه ثم وضعها في جيبه ونهض .

الساعة الثانية عشرة نهض من مقعده واتجه إلى العربة وأخذ يفكر أين يقضي بقية الساعات ، فهناك ساعتان دراسة تبدأ من الساعة الخامسة .. ولمح محلاً لتصليح مفاتيح العربات والأبواب ..

أشعل المؤشر الجانبي وأوقف العربة أمام المحل وطلب إصلاح مفاتحين احتياطي للعربة وأخرج من جيبه ورقة عملة من الخمسين ريالاً .. تناولها صاحب المحل وأخذ يفتش عن بقية لها في درج النقود ولم يجد ريالات إذ أن ثمن المفتاحين أربعة عشر ريالاً.

أخرج صالح من جيبه أربعة ريالات وشكر صاحب المحل، ثم خرج ليعود إلى العربة بعد أن جرب صلاحية المفتاحين الجديدين ونسي أن يأخذ بقية الخمسين ريالاً..

الساعة الثالثة .. أوقف العربة أمام عمارة كبيرة يسكن إحدى شققها قريبه .. حتى يستطيع أن ينام لديه ساعة وينهار الصداع الذي بدأت بوادره تدق مساميرها في رأسه معلنة أن ساعة القيلولة أزفت .. صعد السلم بهدوء ..

ـ من .. !!

ـ أنا .. صالح .. عبد الله فيه .. ؟

ـ لا ..

وقف قليلاً أمام الباب ثم عاد القهقرى وفي منتصف الدرج كان عبد الله يصعد الدرج ..

* * *

حكاية حب ساذجة

كان الدافع إلى الإقدام على الانتحار .. سماعه أن أحدهم تقدم لطلب يد نجوى وأن هناك شبه موافقة من أشقائها لثقتهم في الرجل الذي توسط لهذه الزيجة ..

شعر خالد .. أن أعماقه تنفجر وأن الدم أخذ يسيل من فمه وأخذ يلطخ ذقنه المحلوق وثوبه الأبيض الناصع .. فأخذ يتقلب في فراشه ..

الأصوات ثقيلة غير عابئة بما هو فيه .. فالجميع يريدون الوصول إلى نتيجة .. فالمتقدم للخطبة رجل أمن كبير في مقتبل العمر وصل للتو من بعثة دراسية في الخارج وعين مديراً لقسم شرطة البلد .. وطلبه الوحيد أن يشاهد العروس ولو لثوانٍ حتى يكون على بينة ..

والدين أباح هذه النظرة .. وذلك لصالح الزوج وكذلك في صالح الزوجة .. لم يفاتح أحد نجوى في ذلك، فالأشقاء الثلاثة ذوي خلفيات متباينة الأول غير مبالٍ، والثاني شبه انتهازي، والثالث لا رأي له مسلماً أمره لمشيئة الأخ الثاني ..

دارت معركة خفية بين الأخوة .. ونجوى التي أسلمت أمرها له كانت نظرتها وحديثها يدعوانه إلى عمل شيء .. لم يفهم ما تريد وركب قارب غضبه .. وأخذ يجدف إلى البر الثاني تاركاً الأمور تسير في أعنتها .. هجر البيت وخلف وراءه ألف سؤال .

وتغيب عن العمل .. أخذ الجميع يبحثون عنه هنا .. وهناك .. مرت ثلاثة أيام وهو قابع في شقة صديق له لا يعرفه أحد .. وفي مساء اليوم الرابع اشترى من البقالة التي في الشارع علبة أسبرو ودخل الحمام فاغتسل وصلى ركعتين .. ثم كتب رسالة باسم أخيه ووضعها تحت المخدة التي ينام عليها .. بلع جميع محتويات علبة الأسبرو وعلى فترات ثم أسبل الغطاء على جسمه رغم حرارة الجو واستسلم للنوم ..

حضر صاحب الشقة .. فلم يهتم بما حوله فخلع ملابسه وأخذ يتصفح بعض الجرائد ويده تعبث بمؤشر الراديو ..

سار كل شيء طبيعياً بالنسبة لخالد .. أما نجوى فقد أخذ لها أحد أشقائها بعض الصور في أوضاع مختلفة ومع بقية الأسرة حتى يطلع عليها الخطيب ..

ويكون الرأي الأخير وعمل الترتيبات السعيدة .. رغم الدموع ..تقلب خالد في الفراش .. وأخذ يحرك يديه ورجليه ثم أزاح الغطاء عن رأسه وأخذ يتلفت يميناً ويساراً .. كل شيء كما تركه البارحة .. إنها ذات الغرفة وذات الجدران ..

حتى الصور المعلقة هنا وهناك بدون عناية لم تتغير .. نهض من فراشه .. كان الوقت متأخراً .. أسرع إلى الحمام حيث رمى بعلبة الأسبرو الفارغة فلم يجد لها أثراً .. إنه حي لم يمت .. أتراه حلم .. وارتدى ملابسه .. واتجه إلى مقر عمله ..

أخذ الجميع يتأملونه .. إنهم يتحدثون عنه بهمس لقد حسم عليه المدير مدة غيابه كما اقتطع مكافأة للموظف الذي قام بعمله أثناء غيابه الأربعة أيام من مرتبه .. وثار غاضباً .. قرر المناقشة .. لكن الكلمات الطيبة المعسولة ونظرات العطف هدأت ثائرته.

ولم يتم الزفاف .. لا يدري ما سبب الخلاف .. إنما عاد للبيت ولكن في داخله شيئاً مشروخاً ..

ـ يا ولد هذي ما تبغاك لو أنها صحيح تحبك ما كانت انتقدت تصرفاتك بشكل يدل على عدم اهتمامها ..

ـ تصدق أن أخي البارحة أراد أن يوقع بي ؟ لقد كنا ثلاثتنا في القهوة ثالثنا أخو صاحبتي حنان اللي قطعت علاقتي بها منذ هاجرنا من مدينتنا في الشمال إلى الرياض . ليرويها حكاية من حكايات قضاء الوقت لولا إشارتي له ..

ـ إيه رأيك أتوسط لك عند الجماعة ؟ أنت ابن عم نجوى وأنت أفضل من غيرك بها ..

كانت أحاديث من هنا وهناك من أصدقاء وأقارب للجميع لم يقابلها بأكثر من الابتسام وعدم الاهتمام .

وحضر واسطة الخير مرة أخرى وتزوجت نجوى هذه المرة لم يعكر المناقشة شيء ..

وكان يتابع كل شيء عن قرب ..

لم يركب قارب الغضب ولم يجدف إلى الشاطئ الثاني كما حدث في المرة السابقة وبارك للزوجين بين نظرات عدم التصديق والاندهاش ..

وخرج ليرقص مع الراقصين .. كان غامضاً في فرحه حتى أن بعض أقاربه أخذوا يراقبون حركاته .. لقد كان رغم غموض فرحه عادياً هادئاً لم يتغير فيه شيء .. لعب البلوت والكنكان .. قام بصب القهوة والشاي للحضور ..

وكان واقفاً حتى آخر واحد من المدعوين ومن المشاركين في العمل .. لقد احترق شيء في داخله هكذا شعر وهو يضع رأسه على المخدة في فراشه .. لكن ما هو هذا الشيء لا يدري ؟؟ وهزّ رأسه لعله يطرد هذا السؤال من خاطره ووضع المخدة على عينيه وطوقها بذراعيه ونام ..

كان ذلك منذ عشرة أعوام .. ترسبت الصورة في أعماق خالد الذي تغير كل شيء فيه .. لم يعد ذلك الشبح الناحل ولم يعد الإنسان الهادئ غير المبالي، إنما بقي مع تلك الصورة التي سرقها لنجوى من بين مجموعة صور وجدها ملقاة على طاولة صغيرة في غرفة الجلوس الداخلية .. يتأملها كل مساء وهو يعود من المقهى أو دار السينما ثم ينام .. وهي بجانبه في غرفته ..

كان شعوره بالحب مبهماً .. أما نجوى فقد أحست بمقدار فقدانها له، ولكن ماذا تعمل فعوضت شعورها بالحرمان بالاعتناء بأبنائها الذين رزقت بهم .. وغدت ربة بيت بكل معنى الكلمة إذ ترهل جسمها وغدا الانفعال والعصبية ديدنها لأقل الأسباب ..

وتفصل المسافة بين الاثنين كما فصلت الأيام سابقاً ويغادر خالد المدينة في رحلة تدريبية ..

ما أن حطت رجله في أرض الغربة حتى وجد نجوى أخرى تزوجها وأخذ مظهره يتغير شيئاً فشيئاً حتى نسي أن هناك يوماً سوف يعود فيه إلى أرض الوطن .

* * *

الـــرواســـــب

شعور غريب خالجه وهو يدخل المفتاح في فتحة الباب الخارجي ليلج الدار، لأول مرة يحس أن هناك من يكتم أنفاسه ويحسب عليه خطاه ..

إنه يتذكر تلك اللحظة التي داهمته فيها الهواجس فتعثرت خطاه وكاد أن يقع على وجهه لولا شيء من الانتباه المفاجئ ..

خرج مسرعاً من الدار لا يلوي على شيء، كل تفكيره بأن يلحق بهم في دار سليمان للعب الورق أو الاتفاق على مكان لتمضية السهرة فيه، ولمحها .. عجوز أخنى الدهر عليها وشرب .. تمسك بيد طفل في الثامنة من عمره، تحاول أن تقول له شيئاً .. ورغم إصراره على الاستماع لم يفهم مما تقول كلمة، فاكتفى بمتابعتها حتى وقفت أمام بائع الخبز ..

كانت في وقفتها تذكره بأشياء كثيرة، لكن الصورة مضمحلة المعالم، لا يدري متى كان ذلك وأين ..

ووصل الدار وأخذ يشارك الحضور سمرهم ..

وها هو يخرج مهزوماً ليسرع إلى البيت ، ولمح المخبز مغلقاً وتذكرها ، وهاجمته الهواجس تحاول النبش من ذاكرته عن صورة واضحة للموقف ، فلم ينتبه للطريق وتعثرت خطاه .. فتح الباب بهدوء ، لا شيء في الداخل ، فالجميع يخيم عليهم الصمت .. دخل في هدوء .. الصالة فارغة سوى صوت التلفزيون وجرائد مبعثرة هنا وهناك..

ووجدها بالداخل سماعة التلفون في أذنها .. ما أن شاهدته حتى ارتعشت وأعادت السماعة إلى مكانها بعد أن أشعرت الطرف الآخر بقدومه ..

ـ من كان .. ؟

ـ ابنة عمي تكلمني .. كالعادة .. ؟

لم يصدق ما قالت إنما حاول أن يقتنع ، ولمحت على محياه الحيرة والحزن ..

ـ ماذا بك .. ؟

ـ لقد شاهدت عجوزاً في هذا البرد مع ابنها تشتري خبزاً ..

ـ لعلها أم عبد الله ..

وتذكرها .. كان ذلك منذ عشر سنوات .. رائعة الحسن رغم أنها تجاوزت الثلاثين، تعيش سعيدة مع زوجها الذي أصرّ على بقائها معه وعدم تطليقها رغم أنها لم تنجب ولم يرزقه الله منها بالولد الصالح حتى يحمل اسمه ..

يتحدث عنها الناس هنا وهناك بأنها سحرته وأنها دائماً تزور الكهنة من أجل المحافظة على حياتها الزوجية ..

وتطل أيام الفرح، الملطخة بالدم .. كان عبد الله .. ولكن الشك أنبش مخالبه في زوجها فلم يعد يستقر في البيت وطلقها ..

كانت فرحتها بعبد الله أكبر من أن توصف .. لم تبك لطلاقها، ولم تحاول أن تلتحق بأسرتها التي كانت منذ أعوام خلت تطاردها كالشبح لطلب الطلاق حتى تتزوج بآخر وتكون .. الخلف ..

وقررت البقاء من أجل ابنها كشجرة زيتون تمشت جذورها في أعماق الأرض لتثبت من وجودها وتقاوم الأعاصير ..

لكن الدهر كان أكبر من كل شيء ..

شعر بشيء من الارتياح عندما وصل إلى هذه النتيجة فمد رجليه بإهمال .. الأمر الذي ضايق زوجته فدفعته بقسوة غير مبالية بغضبه، وأصرّ على أن يمد رجليه ..

أشارت الساعة إلى الحادية والنصف، معلنة انتهاء برامج التلفزيون، لكن لم تكن لديه رغبة في النوم، فأخذ يقلب بعض الجرائد محاولاً قتل الوقت ..

وتلفت حوله .. كان وحيداً في الصالة .. شعر بالخوف يدب في أوصاله فأسرع بالنهوض من مكانه، واتجه إلى الحمام وأغلق بابه، وأطل من الباب الخارجي على الشارع فصفعه الهدوء، وأغلق الباب وعاد إلى الداخل، ليندس في فراشه قلقاً يفكر في أشياء بعيدة كل البعد عن موقفه .

* * *

المولود الثاني

لأنها تعرف القراءة والكتابة .. لذلك فقد كانت تحاول أن تقول شيئاً من خلال نقدها لما يحاول أن يقرأه خلال أوقات فراغه أو مشاركته في إبداء آيات الإعجاب بقصيدة أو كلمة اعترافاً من خلال قراءتهم لها ، إنها نابعة من الصميم الذي هم أنفسهم يبحثون عنه في معنى وجودهم ..

كان يغضب ومع ذلك لم يرتفع صوته على أحد ، كلهم يعرف أنه سريع الغضب والانفعال ، ومع ذلك يحاول أن ينسحب لأنه يعرف أن غضبه هذا نابع على ذاته ، على انطلاقته غير المؤتية بشيء ، فكل ما حوله هو فيه مجرد متفرج ، رغم أن الواقع يفترض فيه أن يكون ضمن الأحداث .

أما هي فقد كانت تغضب منه وتتجاوزه بكلماتها وحديثها الذي يتسم من خلاله أنها تشعره بأنه لم يعد شيئاً ما دام الآخرون مسيطرون عليه هذه السيطرة ، وكلمته غير مسموعة وحقوقه مهضومة .

وأمام كل هذا كان الضحية طفلهم "سمير" الذي لم يتجاوز الرابعة من عمره والممتلئ بكل ما في هذه الأرض من شقاوة وعناد ، فمنذ سنوات خلت كان إبراهيم لا يسترعي انتباه أحد من الناس باستثناء أفراد عائلته ، أما الآن فهو محط الأنظار في مجتمعه ومقر عمله ، لقد لفت مظهره الكثير من الانتباه بتناقضاته وعدم مبالاته في أن يجعل من كلماته ذات موقف مع الآخرين ، أما مع نفسه فالجميع يعلم أنه يعد أن يكون كل شيء .

ورغم فساد الجو العام المحيط بالأسرة المليء بالشائعات والأقاويل التي تجعل أكثر لحظات الالتقاء داخل الدار الصغيرة مشحوناً بالكهرباء ، فقد تقبل الاثنان ذلك ، وعرفت "سناء" أنها لن تستطيع تغيير ما بداخل زوجها ، فلذلك قررت الاحتفاظ بابنها "سمير" .. وأخذت تحرم عليه الذهاب إلى أسرة والده قاضياً معظم الوقت مع أشقائها وعند أسرتها .. كانت فرصة لأن ينام مرتاحاً وأن يسمع للراديو وأن يقرأ ويتفرغ لأصدقائه ، لكن والدته شعرت بكل ذلك فأخذت تقاسيه من خلال دموعها .. إنما ماذا يعمل ؟ .

وهنا يبدأ وجهه الأبيض يتحول إلى أحمر، بعد أن بدأت الدماء تغلي في عروقه، وقال وهو يحاول كتم غيظه:

ـ أماه . إنني مرتاح ..

لكن هذه الصرخة لم تفد ، تلونت الأيام بداء جديد يدعى الترجيف ..

ـ سناء .. لن تحمل مرة ثانية .. وإبراهيم يفكر في الزواج من جديد .. لأنه يريد أولاداً يملئون عليه البيت ..

ـ وما السبب .. ؟

ـ حبوب منع الحمل ..

لم تكن حبوب منع الحمل هي السبب ، لكن تفاهم الاثنين على ذلك هو السبب، وقررت "سناء" التوقف عن بلع الحبوب والاستماع إلى نصح الجارات في زيارة أم محمد وغيرها من العجائز الخرافيات واللائي يقال لهن أنهن يتعاطين السحر من أجل الخلف .. ألقت "سناء" بكل ثقافتها ووعيها وراء ظهرها .. ومن دار إلى دار إلى أخرى رغم علمها بأن ذلك يغضب إبراهيم أخذت تنتقل مرة مع والدتها وأخرى مع والدة إبراهيم وشعرت بآلام كانت أقوى من كل شيء ، وأخذها إلى المستشفى حيث فوجئ الطبيب بحالتها واستمع إلى شرحها ..

كانت منهارة ، وكانت نتيجة الفحوص أن تلك الخزعبلات جعلتها تفقد الأمل في الحمل مرة أخرى .

وجحظت عيناها وخرت مغشياً عليها ، كانت الصدمة أكبر من كل شيء ..

حدث ذلك منذ ثلاث سنوات كبر فيها "سمير" ودخل المدرسة وأحاطه والده بالحنان والعطف، كان كل ما في الدار من أثاث وإنسان ونسمات .

وعاودتها آلام الصدر .. التي أثبتت التحاليل في السابق أنها حموضة من البهارات والحمضيات .

ـ أنا عندي حل ، قبل ما يتضاعف الألم نذهب إلى المستشفى .

ـ أنا موافق لكن الشغل ؟ .

وهرب من الشغل ذات صباح وأخذها إلى المستشفى ودخلت على الطبيب المختص، وخرجت وهي تجرجر خطاها .. لم تقل شيئاً حتى ركبت السيارة ، عندما سألها عن العلاج .

ـ أنا حامل ..

أحس أن الدنيا تدور به، غارت ابتسامته الصغيرة، كان يبحث عن كلمات يقولها في ذلك الوقت، غير أن كل الكلمات أيضاً غارت، وأوصلها إلى الدار وخرج عائداً إلى عمله .. لكن الطريق طال .. أجل طال .. لم يعرف الطريق الذي يؤدي إلى المكتب لأول في حياته ..

وأشرقت الشمس من جديد ، أخذت تزرع أشعتها فوق الأرض ، إنما كان هناك شعور داخلي كئيب يغلف حركات إبراهيم وهو يستعد للذهاب إلى العمل ..

إنني أشعر بآلام شديدة .

ـ ما رأيك أذهب لمناداة والدتك ..

وأصرت "سناء" على الذهاب إلى دار أهلها ، واطمأن بعض الشيء ، كان يحدث نفسه وهو في طريقه إلى العمل عن نوع المولود ، وهل سوف يكون جميلاً مثل "سمير" أو سوف يكون ذا منظر كريه ..

مرَّ الوقت سريعاً رغم ما هو فيه من قلق ولم يجد أحداً في الدار ، إنهم في المستشفى ، لكن أي مستشفى ؟ أخذ يسأل أشقاء "سناء" ..

وقبل أن يخرج من الدار ، إذ بالباب يقرع وكان أول المسرعين إلى فتحه وصفعة الحزن البادي على وجه والد سناء فماذا هناك ؟ .

ـ إنها بخير ..

وانطلق إلى المستشفى ووجدها ما زالت تحت تأثير المخدر ، وتلفت حوله يبحث عن المولود ، ولم يعثر عليه ، ولمح والدة "سناء" تراقب تلفته وبحثه ..

ـ احمد الله على سلامتها ..

لقد كان مولوداً ميتاً ، توفي بعد دقائق من رؤيته للنور .

* * *

عندما تتلوّن الصداقة

أخذ خالد يستعرض شريط حياته وهو يستمع إلى الحديث الدائر في المجلس عن فضائل النساء وكرام الرجال، والتضحية التي يقوم بها البعض من أجل الوقوف مع كلمة قالها وموقف عاشه .

هز رأسه .. كانت الحكاية المروية أشبه بحكايته .. إنهما رجلان في خريف العمر لديهما أبناء من الجنسين في عمر الورود .. توسط الأول عند الثاني من أجل قريب شاب لمح إحداهن وأرادها أن تكون له زوجة .. لكن الثاني قال – في شيء من الإهانة والاستهجان – عندما عرف أن الشاب فقير:

ـ هل تزوجه .. أنت إحدى بناتك ؟

ـ أجل .. وبدون مهر ..

كان الموقف كبيراً رغم أنه كان على حساب الشاب والفتاة .. إنما الشاب وجدها مؤاساة حتى يلتئم جرحه .. إنها حكايته ..

أجل إنها حكايته وإن تغيرت الطريقة .. عاش على حلم .. كان (خالد) من نصيب (فاتن) هكذا قررت الأسرة ، وتوفي والد (فاتن) وانطلق (خالد) مع الحياة يبحث لنفسه عن لحظة مرح غير عابئ بما تخبئه الأقدار ، وجعل من أشقاء (فاتن) مساعديه في هوسه وانطلاقه ..

ضحكتهم وقهقهاتهم تردد صداها المقاهي وصالات الأندية الرياضية والوديان حيث لا يمر أسبوع دون رحلة وقضاء وقت ممتع بين الطبيعة وتسلق الجبال .

ولمحها ذات يوم، كانت (فاتن) خطيبته التي لا يعرف عنها سوى لحظات شاردة لمحها في حالة تأمل واستقرار ..

ـ إنني أريد .. أن أتزوج ..

ضحك منه الأصدقاء، لكنه أصرّ على كلمته وخرج من الدار التي استأجرتها الشلة لقضاء الوقت ولعب الورق دون أن يودع أحداً .. وغاب عن العيون شهراً لم يعرف أحد مقره .

حتى في الدائرة التي يعمل بها ، لا يعرف أحد عنه شيئاً سوى أنه أخذ إجازة عادية لمدة شهر .

وعاد ليحقق ما ذهب إليه .. طلب من والده أن يتقدم لطلب يد (فاتن)، واستعان والده بجار وخط الشيب رأسه ، يتخذ منه سكان الشارع مرشداً وحالاً

لمنازعاتهم، لصلاحه وعدم تدخله في شؤون الآخرين قبل أن يستعين به أحد ، وذهب الثلاثة إلى دار أسرة (فاتن) .

- إننا نريد (فاتن) .. (لخالد) .. وتكون زوجة .. كلمات مختصرة قالها العجوز .. لعلمه بقصة الخطوبة والقرابة التي تربط الأسرتين ..

- نفكر في الأمر ..

وصرخ خالد : ماذا .. ؟

وهنا هدأه الرجل بكلمات لطيفة وطلب تحديد موعد لسماع الجواب ، وخرج الثلاثة ، كان القلق أكبر من كل شيء ، مرت أيام المهلة .

- نعتذر عن ذلك .

- ولكن أبوكم أعطى كلمة ..

- لكن نحن نعرف خالداً ..

طأطأ خالد رأسه .. أخذ يفكر .. ماذا يعرفون ؟ أترى هناك نقاط سوداء في حياته تجعل صديقيه وقريبيه العزيزين يرفضان زواجه من أختهما، وهمَّ بأن يقول شيئاً ..

- إننا نعرف كل خير عن خالد ..

- أنتم لا تعرفون شيئاً نحن معه أربعاً وعشرين ساعة ..

- ماذا تعرفون عني .. ؟

- الأمر الذي يدفعنا إلى المعارضة في أن تكون زوجاً لأختنا .. ونهض من مكانه، وقد احمرت مقلتاه ..

- إذاً خدعتموني ..

وهمَّ بالخروج ولحق به والده والرجل العجوز .. وقهقهات الآخرين تلاحقه .

وأمام الباب الخارجي:

- نحذرك يا عم منه إنه لا يصلح زوجاً لأي بنت ..

- ولكن سوف أزوجه .. أجل سوف أزوجه ..

وأوفى الرجل العجوز بكلمته .. أخذ يبحث عن الفتاة المناسبة ، وتزوج خالد، لم يدفع شيئاً من جيبه ، كان والد العروس صالحاً من أقارب الرجل ، وتبدلت الحياة ، أخذ يبتعد عن الأضواء .. يفضل قضاء معظم الوقت في الدار، يخشى الأصدقاء، يحاول قدر المستطاع أن يكون وحيداً مع أفكاره يستعرض مراحل عمره ..

إنها الحياة التي نعيشها تبحث عن الدمعة في العيون، تقول للجميع هناك موقف يجب أن أستدر دموعكم فيه .. كان يستعيد صورة (فاتن) يحدثها بكل ما يمر به من خواطر وأحداث حتى خصامه مع زوجته التي تسعى لأن تقدم له كل شيء فوق طبق من الزهور يقوله .. إنها تنتظر الزوج القادم من وراء التلال .. حتى الآن وإن أصبحت معلمة تقضي معظم وقتها في المدرسة ..

ـ تفضلوا .. حياكم الله ..

نهض الجميع ما عدا خالد الذي لم يسمع الكلمة ولم يشاهد الجالسين وهم ينهضون متجهين إلى غرفة السفرة .. واقترب منه صاحب الدعوة :

ـ خالد .. ماذا في الأمر ؟

ـ لا شيء .. لا شيء ..

ونهض من مقعده ولحق بالآخرين حيث حشر نفسه بين اثنين بالقوة، ومد يده إلى الأكل وفي عفوية رفع نظره متأملاً الجالسين قبالته، وإذا به أحد شقيقي (فاتن) .

فأرخى رأسه .. وأخذ يقطع اللحم المكتوّم فوق صحن الرز للجميع ومنهم صديقه القديم الذي لم يجد بداً من أن يأكل تلك الوصل المقدمة له على مضض .

* * *

الحزن وأحلام اليقظة

الطريق طويل ! يبدو أنه كذلك ، عندما خرج علي من النادي واتجه إلى سيارته لا يدري أين يذهب ، الساعة تشير إلى السابعة والنصف مساء ، كل شيء حوله هادئ هدوء الظلال التي ترسب في أعماقه منذ ثلاثة أيام حيث دب الحزن كالعادة إلى داخله في قسوة وجبروت ليحطم كل ما بناه ، إنهم يبحثون عن مكان لإحراقه فيه .

همّهم الوحيد أن يقول (نعم)، لكن كيف ينطق هذه الكلمة التي لم يعرف غيرها في حياته، الآن إن المطلوب منه أكبر من كل توقعاته وصوره التي رسم لها .

إنه الآن في الثامنة والثلاثين من عمره، لقد بدأ كشف الحساب ماذا قدم؟ لا شيء يستحق خلال هذه الأعوام الثلاثين، أو ماذا قدم خلال الأعوام التي أدرك فيها وأخذ يشعر بما يدور حوله ..

ـ ليه يا علي .. ما تجي حتى أرسل لك ، أنا والدتك ومن الواجب أن تسأل عني وتطمئن علي ولا يمر يوم دون أن تمر علي ..

ـ لكن الشغل ماذا أعمل فيه .. وأصدقائي ..

ـ عارفه هذه أعذارك دائماً ..

وانهمرت دموعها .. كان ذلك منذ ثلاثة أيام .. إنها تريد منه الكثير، لكن كيف يقاوم ويقول نعم، وهو يشعر أن ذلك فوق طاقته واحتماله رغم مظهره الخارجي، وأحواله المادية رغم أنها محدودة فإنها تجعله يعيش في رفاه وهناء مع زوجته ووحيد ته سماح ..

لكنّ هناك شيئاً يهابه ويخافه، يدفعه إلى الاعتذار وأن يقضي معظم وقته في المكتب ثم النادي ثم البيت، حيث ينام فقط ويشاهد التلفزيون ويأمر ابنته وزوجته بالهدوء حتى يستطيع متابعة برامج التلفزيون أو قراءة الصحف ..

ثلاثة أيام ..

إنهم يطلبون منه في العمل أن يقوم بكل شيء ، وفي البيت زوجته وسماح ، هناك والدته وإخوانه والعمارة وأقساط بنك التسليف والنادي ، أشياء كثيرة تملأ ساعات يومه ، إنما هذا الحزن ما معناه ..

الخوف الذي في داخله .. ما مصدره ؟ .

وقف علي أمام السيارة وتذكر بعد أن فتح الباب أنه بحاجة إلى دفتر كتابة، فأعاد قفل الباب بالمفتاح ودخل النادي وخرج بالدفتر بين يديه يقلب صفحاته .. هناك شيء في داخله يطلب منه أن يكتب شيئاً لا يعرف ما هو ..

انطلقت السيارة .. وموسيقى هادئة من الستريو يملؤها محاولة نزعه من عالمه الذي خلق في داخله خيمة مليئة بالضلال وعلامات الاستفهام .. إنهم يملئون داخله دوامة انفجار ودمامل ألم ..

ـ أهلين محمد .. كيف الحال ..

ـ بخير .. ماذا جاء بك إلى هنا ..

صديق تعرف به من خلال العمل ، وهاهو رغم أنه هارب من كل الناس إلى هذا المقهى المنزوي لشرب الشاي وتعميره جراك والانطلاق مع حبل أفكاره إلى عالم غير مرئي يحل معه مشاكله وخوفه وإصراره على أن يقول لكل من حوله إنه يخاف من السفر، رغم أن داخله يقول خلاف ذلك فمرة هو في القاهرة .. وأخرى في الرياض .. وثالثة في الشام والكويت .. أحلام تزقزق في داخله أشبه بزقزقة العصافير التي تحاول أن ترشد الصياد إلى مخبئها ..

وهرب .. مرة أخرى بعد أن اعتذر صاحب المقهى عن تلبية الطلبات حيث أن موعد أذان صلاة العشاء حان ولا يستطيع تقديم شيء في هذه الدقائق لأن منادي الصلاة سوف يمر ويوبخه لأنه خالف التعليمات ..

عاد إلى السيارة وانطلق من جديد ، إن رغبته قليلة في العودة إلى المنزل في هذه الساعة .. وأقفل المسجل وأخذ يداعب راديو السيارة .. أخذ يبحث عن أغنية يدندن معها حتى يصل إلى المقهى الذي اعتاد الجلوس فيه .. إنهم كلهم هناك وجوه معروفة يعرفهم منذ ثلاث سنوات وهو يرتاد هذا المقهى بعد أن اعتاد شرب الشيشة .. كانت مكاناً هادئاً مرتادوها قليلون لبعدها عن الأضواء وصخب المدينة ، لكن الاعتياد وتكاثر الهاربين حتى غدت المقهى أشبه ما تكون بسوق صغير ألف كل مرتاد الآخر حتى غدت الوجوه معروفة .

اقترب .. كان يتوقع أن يجد أحدهم .. ولكن هناك شبه هدوء .. مرت الدقائق ببطء .. أخذت أفكاره التي اعتاد أن يناقشها مع نفسه وأحلامه تملأ الفضاء الذي أخذ يحدق فيه محاولاً سبر غور الظلام الهابط من السماء على الجبال الممتدة في شريط داكن إلى ما لا نهاية .

وقبل أن يلج الشارع الذي يسكن أحد دوره لمحه .. وجه مألوف يجلس في الظلام على دكه محل خياطة مغلق وقد تدلى رأسه فوق صدره في شبه إغفاءة طويلة غير مبالية بالأضواء وضجيج السيارات .. كان المشهد أشبه ببصيص هدوء أزلي وارتياح مجهول يحاول أن يزرع الضوء في داخله ومع ذلك أخذ يفكر

فيه بحزن .. وقد تخيل صوراً عديدة للرجل الغافي .. حاول أن يكون أحد أبطالها غير أنه لم يستطع .. فهزّ رأسه وأدخل المفتاح في فتحته بباب الدار حيث استقبله صراخ وحيدته سماح لتنشله مما هو فيه .

* * *

دمعـــــة كبيرة

أخذ يفكر في البداية ليدخل في الموضوع حتى يصل إلى حل .. لقد غدا في نظره أن كل شيء أصبح قاتماً ولونه أسود .. بسمته الصغيرة التي لازمته منذ الأزل أخذت في النضوب بشعوره بالألم مما يدور حوله .. إنهم يبحثون عن حفرة لردمه فيها .. كلهم ينقب وراء مكتبه وعبر الأبواب المغلقة عن طريق لإزاحته من الطريق ..

اجتاز خالد امتحانات الدورة التي طلب الالتحاق بها هرباً مما يحاك حوله بنجاح وعاد إلى مكتبه القديم .. ليستقبله المراجعون بالترحاب سائلين عن سبب الغياب وأشياء كثيرة شعر من خلالها بالزهو والارتياح ..

لكن كانت تلك الرحلة وقتية فأثار تكدس العمل بالمكتب في غيابه عاصفة احتجاج لحقه شيء من رذاذها فانصب اللوم عليه وعلى زملائه ..

ـ خالد طريقتك .. تعاملك مع المراجعين والعمل لا يعجب ! .

ـ لماذا سيدي المدير .. ؟

ـ أولاً جميع الموظفين في المكتب كثير والتغيب ..

ـ بسبب العمل ومراجعة الإدارات الأخرى كما تعلم ..

ولم يفد إقناعه للمدير .. إذ أصرَّ مدير شعبة الموظفين ومساعده على دمج المكتب الذي يرأسه خالد بمكتب آخر يقوم رئيس المكتب الآخر بالإشراف على عمل خالد وزملائه .. وأصر على الانفراد .. قرر شيئاً في داخله .. كان ترتيبه لسير العمل يجد من يقف حائلاً أمام التنفيذ، وأصرَّ على المواصلة رغم حزنه وشعوره أن موقفه أخذ يتدهور.

ـ مدير إدارة .. يصر على أن لا تبقى في العمل .

ـ لماذا .. ؟

ـ يدعي أن كل الأوراق التي ترسل لهم غير كاملة .

ـ ماذا .. ؟

ـ ويدعي أنك غير متعاون مع موظفيه ..

ـ وكيف يكون التعاون .. ؟

- .....

ـ هل يكون بأن أقوم بالذهاب إلى تلك الإدارة وإكمال الإجراء الذي يجب أن يقوم به موظفوه .. ؟

ـ ولكن العمل علينا ..

ـ أنا أعرف هذا .. لكن من يتحمل المسؤولية ؟ .

أيضاً إصرار آخر وادعاء جديد يدفعه إلى التفاني في العمل وقضاء معظم يومه وساعات من المساء وراء مكتبه حتى صفى جميع المعاملات وتفرغ لقراءة الصحف والمجلات غير عابئ بما يدور حوله من همسات حول ضم المكتب إلى المكتب الآخر وتأخير معاملات بعض المراجعين .. كانت المرحلة حاسمة وقوية ففي خلال خمسة وعشرين يوماً من العمل المتواصل انتهى كل شيء وعاد السلام إلى المكتب رغم أن السحب تنذر بطمس معالمه ودمجه مع الآخرين ليفقد شخصيته المميزة .

كان الاحتراق أكبر من كل شيء حتى أكبر من الضوء الأخضر الذي أخذ يرفرف على الدائرة، وانغلق خالد مع نفسه .. أخذ يتحدث مع ذاته عن مصير مجهوداته وطيبته وعدم مبالاته التي كان يجندها لخدمة الآخرين مهما كانت الظروف .

وشعر بحزن عميق ، ترقرقت في مقلته على أثره دمعة كبيرة حاولت غسل ما في نفسه من أدران ولكن شعور الانسحاق كان أكبر من أن يفتر من أي حل .. فأخذت ابتسامته الصغيرة تغور وحاول أن يتجاوز من حوله في قسوة .. مرت سبعة أيام قاسية مليئة باللؤم والتخاذل ..

وهو جالس وراء مكتبه يؤشر على الأوراق التي تمر بين يديه ويرد على التلفون بأسلوب مغاير لما في داخله .. ثم يعود لمواصلة قراءة الجرائد ..

وحول جميع الأعمال إلى زملائه في المكتب الذي كان يديره وحيداً رئيساً ومرؤوساً مع اثنين من المعقبين وفراش عجوز بلحية بيضاء .. كان يحاول أن يفرض على نفسه معنى أن دوره انتهى وأن عليه أن يتوقف عند هذه النقطة ليواصل العمل في جهة أخرى.

ـ أريد إجازة ثلاثة أشهر ..

ـ كثيرة ..

ـ أعرف ذلك لكن مضت ستة أعوام لم أتمتع فيها بإجازة وأنا .. ؟

وحصل على الإجازة .. شعر أنه لم يعد شيئاً .. عندما قرأ قرارها وأخذ صورة منه واتجه إلى قسم الحسابات لصرف مستحقاته عن أشهر الإجازة .

* * *

أناس يعيشون الحياة

كان ذلك منذ ألف عام أو أكثر، عندما أقبل والفرحة تطل من عينيه .. وفؤاده يرقص بالحياة والحب .. كان طفلاً في تصرفاته رغم أنه في الثلاثين من عمره، لم يعرف السعادة في سنه من حياته سوى سعادة الطفولة اللاهية التي لا تعي ما يدور حولها من أحداث ..

حتى حصوله على شهادة الكفاءة ودخوله معترك الحياة العملي .. ثم تعيينه في قرية تبعد عن مدينة صباه وأسرته فتقبل ذلك بشيء من الهدوء لمعرفته أنه في استطاعته التنقل يومياً .. ووجد صديقين من نفس الحي يعملان معه فأخذا جلّ وقته بالإضافة إلى تعرفه بأصدقاء جدد من جنسيات مختلفة يعملون معه في الدائرة نفسها .

مرت الأيام سريعاً وتزوج ..كانت سلمى وردة جديدة تدخل حياته ، هكذا وصفها .. لكن الوردة الجديدة سرعان ما سرى الجفاف في عودها بسبب الغيرة والشك، فذبلت مع الأيام .. كانت تقاوم الصراخ .. ولكن عندما استبد بها الخوف من الموت هربت إلى دار والدها ولم تعد ..

وعاد فيصل إلى رحلته مع الحياة وحيداً في دار والده وشبح الفقر والإحساس بأنه إنسان مختلف عن هذه البيئة يقض مضجعه، يدفعه إلى الهروب، لكن كل من حوله يعرف أسرته قبل أن يعرفه .

يعرف أن أباه فقير ، ويعمل بمرتب ضئيل ، لديه زوجتان ودستة من الأبناء كلهم يمد يده طالباً نصيبه في الغذاء والكساء ، إنه يخافهم فهم كما ابتلعوا أباه سوف يبتلعونه .. إن أمه وإخوته شيء بغيض بالنسبة له .. فهو يتمنى أن يكون وحيداً حراً طليقاً يعيش في هذه الدنيا عرضاً وطولاً بين الأصدقاء والرحلات .

بدون وخز ..

كانت هذه حال فيصل الذي شعر الآن بأن أمانيه كلها تتحقق، وأنه وصل إلى برَّ الأمان .. فمركبه الذي جرفته الأمواج والرياح إلى وسط البحر بعد أن فقد البوصلة التي تهديه الطريق .. يقترب ها هو الشاطئ أمام عينيه ..

ـ فيصل .. لقد وجدتها ..

ـ من يا عم عبود ..

ـ الزوجة الطيبة .. ومتعلمة ..

ـ صحيح ..

كتم كل شيء حتى عن والدته .. وطلب من العم عبود أن ينهي كل شيء ولكن بسرية تامة .. وشاهدها في مثل سنه ، قضت معظم حياتها خارج البلاد وها هي تعود بعد أن توفي والدها لتقيم هي ووالدتها وشقيقاتها مع شقيقها الذي يعمل في إحدى الدوائر الحكومية بمكة حيث أسرة والدها ووالدتها .

وتزوج .. وتعينت هي في وظيفة كتابية بإحدى المدارس الخاصة ، وانتقل إلى مكة بعيداً عن أسرته .. ليعيش سعادته بعد أن كان يعيش سعادة الآخرين ..

طوقته بكل شيء في سياج من المحبة والأمان .. لكن آثار وخز الماضي ما زالت طرية .. لم تشف .. فجراحه وشعوره بأن هناك أناساً طيبين سعداء يعيشون الحياة بدون قيود أو عقد يشعره بأنه يسير معصوب العينين ودب شجار وآخر .. كان بين كل شجار وآخر يتم بناء جدار جديد بينه وبين أسرته، بينه وبين الحياة البسيطة بدون آلام ..

شعر والده بأنه يبتعد .. فلم يقل شيئاً .. أخذ يراقب والألم يعتصره ..

ـ أنا .. عبد الرحمن ..

ـ عبد الرحمن .. مين ..

ـ أريد محمداً ..

كان محمد قريب فيصل حضر إلى مكة في مهمة عمل لمدة ثلاثة أشهر ورغم ما قيل عن سعاد من كلام بأنها إنسانة تكره أسرة زوجها ولا ترغب في مشاهدة أي فرد منهم فقد أصر على أن يقيم عند فيصل .. رغم أنه لا يلتقي بالاثنين فبعد أن كانت سعاد تستقبله وترحب به على أساس أنهم أسرة واحدة .. أخذت تتحجب وتبالغ في ابتعادها ومع ذلك تقبل الأمر لمعرفته بأفكار فيصل .. لكن .. أن لا تسمح لعبد الرحمن بالدخول وتغلق الباب في وجهه مع علمها بأن محمداً في الداخل نائم في غرفة الاستقبال شيء آخر.

كانت القصة أكبر من أن تتصور .. عندما خرج في الساعة الرابعة مساء ووجد عبد الرحمن واقفاً أمام سيارته .. يتميز غيظاً ..

مرت الأزمة بهدوء وإن فكر في مفاتحة فيصل بذلك خرج في النهاية وهو عائد من المقهى في الساعة الواحدة بعد منتصف الليل بعد أن قرر نسيان كل شيء
.

وأدخل المفتاح الخاص بالباب الخارجي في فتحته بعد أن ضغط على زر جرس الباب لحظات .. ولكن الباب لم يفتح .. لقد تم قفله بالمزلاج من الداخل .. كرر تحريك المفتاح وهزّ الباب في عناد .. وباءت محاولته بالفشل فضغط على زر الجرس مرة وأخرى.

وأخذ يتلفت حوله .. في ضيق وقلق لقد وقع في المصيدة أين يذهب في مثل هذه الساعة المتأخرة ؟

وقف لحظات يتأمل حاله .. فعاد إلى سيارته وانطلق هارباً .. كأن شبحاً يلاحقه ..

* * *

ويخـــاف الحـــــب

ها أنت موجود ، وعندما تكون كذلك لا بد من وجود خلفيات ودوائر وعلامات استفهام .. عندما تكون هذه الأشياء تكون الظلال المترسبة في أعماق الذات الإنسانية خليقة بأن تتكون لها بؤرة ذات تموجات إرسالها يرتبط في القوة والرداءة بقوة عدسة تلك البؤرة ..

وعندما يحل التجديف والسذاجة مكان كل شيء .. يكون هناك شيء من اضطراب الذات الذي يهيل في شيء من الكبرياء كل محاسن البشر على ذلك الكائن المدعو محبوباً.

المعادلة شبه فقاعة .. أخذ الهواء يتلاعب به مفسحاً لها المجال ترتفع ثم تتلاشى.

وقف صالح حائراً، إنها تدعوه لأن يقول شيئاً .. ولا يدري ماذا يريد أن يقول .. لم يكن متوقعاً أن يتم اللقاء بهذه البساطة لقد خطط كثيراً .

ورسم خططاً أكثر وقارن بين نسب النجاح راسماً خارطة إحصائية حتى يكون على بصيرة .. وغرفته الغير مرتبة تشهد على قلقه وعدم نومه الليلة الماضية .. كان يلاحقها كل مساء وهي في طريقها إلى المدرسة حيث تأخذ دروساً خصوصية .. وكان يقف كل صباح قبل موعد حافلة الشركة التي يعمل بها بساعة حتى يقف إلى جوارها على رصيف الشارع يتأملها دون أن يتفوه بكلمة ..

مرت ستة أشهر وهو على هذه الحالة .. بعد أن لمحها صدفة ذات يوم هرب فيه من العمل بعذر المرض .. مخططاً لمغامرة مع صديق يملك عربة تقف أمامه .

وابتسم وابتسمت .. لم يعرف أنها من الحي حتى لمحها تلج داراً في ذات الشارع الذي يسكن فيه ولمحها كثيراً لكن كل شيء توقف عند هذه النظرات .

رغم تخطيطه وإصراره على أن يقول لها شيئاً أي شيء المهم يعرف أنه تجاوز عقدة الخوف والخجل .

- صالح .. لقد انتظرت كثيراً هذه الفرصة .. إنني أحبك ..

- وأنا .. إنني .. ما أدري ماذا أقول ..

وتجلجل الموقف .. كان يتلفت حوله .. والخوف ينشب في كلماته وفي كل أطرافه مساميره ..

إن الدم يجري على الرصيف ، وأخذت عيون الجدران تتضاعف والدم يرتفع منسوبه في الشارع ، ورغم ذلك لا صوت هنا أو هناك .. كان يتوقع أن يرتفع صراخ الأطفال وتجلجل في قسوة صفارة الشرطة وعربات الإسعاف ..

لكن لا شيء من هذا ..

أخذ الدم يغطي كل شيء حتى المقل التي تدور حدقاتها في الجدران ..أخذ بعضها يختفي والآخر يتجاوز الجدران .. وتتعلق في الهواء ثم تهوي في نهر الدم ..

ولمح عينيها .. كان فيها شيء من الحياة .. خلاف تلك المقل الأخرى .. إنها تتحدث عن الحب والحياة تقول أشياء كثيرة عن المدرسة والمستقبل ..

وأنها وحيدة .. ولم يخفق قلبها لأحد من قبله رغم وجود الكثير من الشباب الذين لاحقها في الشوارع أو اتصل بها بواسطة التلفون ..

لكن لمعرفتها بأنه إنسان طيب وجدت نفسها مجذوبة إليه بشيء يشبه قوة جاذبية الأرض .

لم يقل شيئاً ..

ونهض من نومه وأخذ يعرك عينيه وتأمل الساعة المعلقة فوق الجدار .. إنها السابعة والربع ، لقد مرت حافلة الشركة وعليه أن يأخذ سيارة أجرة حتى يصل في أسرع وقت وارتدى ملابسه وخرج من غرفته ووقف على الرصيف في الشارع .. الشارع يعج بالمارة والعربات تمر بسرعة .. والأحاديث تصل من هنا وهناك تقول كل شيء ..

إنهم ينتحرون في جميع أركان الدنيا الأربع .. الدمار يحيط بالأرض من جميع الجهات .. الأعاصير تقتلع الأشجار والفيضانات تبتلع المنازل والناس والحيوان لا تفريق بين الجميع .

وتذكر حلمه .. فأخذ يتفحص الجدران والشارع .. لقد كان هذا الشارع البارحة نهر دم .. وهذه الجدران عيون فارغة من الحياة .

ـ صالح تفضل نوصلك ..

قفز من مكانه .. هناك من يدعوه ليوصله .. ولمحها داخل العربة في المقعد الأخير.

شلته المفاجأة إنه لا يعرف صاحب العربة رغم ألفته لتقاسيم الوجه والضحكة الصغيرة المرسومة على الشفاه ، فلم يقل شيئاً وإن كانت دهشته أيضاً أفقدته كل شيء فلم تفقده البلادة التي دفعته إلى التمتمة بكلمات غير مفهومة ، وهو يتراجع ليرتطم بالجدار الذي وراءه ثم ينطلق هارباً .. لقد أخذ يعدو وبكل قوته

وما لديه من عنفوان متجاوزاً صدى ضحكة عالية انطلقت وراءه وضجيج كفرات العربة .

كان الطريق طويلاً ومع ذلك وصل ووجد زملاءه وراء مكاتبهم يؤدون أعمالهم فلم يسلّم ولم يقل سبب تأخيره ولم يحاول البحث عن دفتر الدوام .

ـ صالح لقد شعرت بتأخيرك فوقعت عنك .

كانت قصاصة صغيرة مدبسة بعناية فوق المكتب أخذها بين يديه والعرق يتصبب من جبينه .. ثم أخذ يتلفت باحثاً عن صاحبها ليشكره ، لكن كانت كل الوجوه ترمقه في تلصص تبحث سر تأخره الذي يحدث لأول مرة ، فكلهم لهم سوابق عداه ، لقد كان مؤدباً يسير في هدوء منحني الرأس ينجد كل من يطلب منه المساعدة حتى سمي في الإدارة باسم الملقوف .. وها هو يأتي متأخراً يتصبب عرقاً ..

*   *   *

إنَّهـــــــم يعودون

أخذ قلبه يخفق بالحب، فشعر أن لحياته معنى وأن الطريق الذي يقطعه كل يوم ذهاباً وإياباً إلى دائرته شيء من حياته؛ كانت مصادفة غريبة تلك المقابلة رغم أنها كانت في مكان عام يعج بالناس .

ولكن من حسن الصدف أن تلك اللحظات لم تثر انتباه أي فرد سواه، هي لوحة صغيرة معلقة على باب عمارة مكونة من ثلاثة أدوار تقول: إبراهيم مصباح رسام وخطاط الدور الثالث شقة خمسة.. كثيراً ما كان يتأملها في غدوه وذهابه ثم يتجاوزها بعدم مبالاة ..

حتى كانت المناسبة ورفع رأسه قليلاً، أخذ يتأمل نوافذ العمارة ولمحها تطل في هدوء ورقة .. افترّ ثغرها عن ابتسامة صغيرة عندما أحست بإصراره على تأملها، حتى أنه توقف في رأس الشارع غير مبال بتأخره عن العمل .

طال وقوفه ..

وطال بقاؤها في النافذة ..

ولكن شعر بحراجة موقفه ، فغادر مكانه مواصلاً طريقه إلى العمل .. شعر بالحب.

أجل أخذ يحدث نفسه عن الحب ، وهل هو من أول نظرة ، وأخذ تفكيره يتشتت، وأصبح يتململ في الجلوس على مقعده في المكتب ، وكثر خروجه ، محاولاً أن يجدها فلم يفلح ..

وهداه التفكير إلى أن يصعد باحثاً عنها، كانت لوحة الرسام والخطاط إبراهيم مصباح منفذاً له .. صعد السلم لكن من أي دور كانت تطل وأي شقة، وقف حائراً بين الشقتين الموجودتين في الدور الأول، ثم عاد القهقرى، كان الخوف يلف أطرافه وشعوره بالرهبة يدفعه إلى عدم الإقدام .. ووقف أمام الباب الخارجي يفكر فيما يعمل ولم يشعر بالشاب الذي خرج من العمارة حتى تجاوزه، مادّاً في خطاه، وانتقل تفكير إلى ذلك الذي لا يشاهد منه سوى ظهره، من يكون ؟ أتراه من سكان العمارة وفي أي دور؟

هل يقرب لتلك الحسناء ..

شعر بالغثيان من كثرة الأفكار فخرج عن طوق الهدوء والاستسلام وانطلق هارباً من أفكاره إلى السوق، حيث أخذ يتجول على غير هوادة متأملاً الوجوه .

ولما شعر بالتعب ولج المقهى الكبير .. ثم عاد إلى عمله مرة أخرى .. في صباح اليوم التالي، وفي الموعد الذي شاهدها تطل من النافذة كان يرتقي السلم .. لقد أصرَّ على أن يشاهدها .. قرع الباب الأول فلم يجاوبه أحد ..

وقرع الباب الثاني .. وأطلّ من فرجة الباب وجه امرأة ولكن لم تكن فتاته ..

وأتاه صوت من الداخل ..

ـ من على الباب .. ؟

ـ لا أدري يا سعاد .. ؟

شعر أن سعاد هي المطلوبة، فأخذ يكثر من الأسئلة في ارتباك وخجل حتى افترّ وجه المرأة عن ابتسامة صغيرة .. ثم ودعته وهي ترشده إلى شقة الرسام على أمل أن يريها الصورة التي سوف يطلب من الرسام رسمها له .

لم يعرف اسمها ..

وهناك أخرى يعرف اسمها، لكن لا يعرف صورتها .. وعندما وصل إلى نهاية السلم ووقف أمام باب شقة الرسام سمع لغطاً تحت .. حديث يصله ولكن لا يعرف معناه .. لامرأتين ورجل فسارع بالنزول .. لكن الباب الذي كان يقف أمامه يقفل فأخذ يتلصص، وأحس أنه في موقف مريب فغادر العمارة ووقف على رأس الشارع مترقباً .. طال انتظاره بدون فائدة فأحس بالخجل .. كانت هناك نقاط تدفعه إلى أن يسأل ما معنى هذا الانتظار .. وهل هناك جدوى من الوقوف على قارعة الطريق أمام أنظار المارة .

وعاد إلى العمارة وصعد إلى الدور الثاني حيث يسكن الرسام وقرع الباب في هدوء وتريث وسمع وقع خطوات تقترب ثم المزلاج يتحرك .. لكن لم يفتح الباب .. وعاود القرع مجدداً وتكررت نفس الحركة .

ووجدها فرصة ليعود إلى السيدة التي تحدث إليها سابقاً وقرع الباب .. وعندما سمع أصوات بالداخل لم يعرف بنفسه حتى تم فتح الباب وكانت هي:

ـ سعاد .. ؟

ـ من أنت .. ؟

كانت فرحته أكبر من أن ترسم بالكلمات أو تلون بالخطوط فأغمض عينيه وهو يردد:

ـ إنني .. إنني ..

كان يبدو على وجهها الغضب والانفعال .. فلم تقل شيئاً، وقفت تنتظر مبرراً لقرعه الباب ومناداتها باسمها، شعر بشيء في داخله يدعوه إلى التقدم منها، لكن ساقيه لم تساعده إذ تسمّرت قدماه في الأرض ..

ـ إنني أبحث عن الرسام .. وأدعى عارف ..

ـ إنه في الدور الثاني ..

ـ أجل أعرف لقد أفادتني السيدة الأخرى بذلك وعدت الآن لأنني قرعت الباب أكثر من مرة ولم أحظ بجواب رغم أنني سمعت بالشقة حركات أثارت انتباهي ..

ـ أظنها ابنة الرسام ..

ـ ابنته .. ؟

ـ أجل إنه أرمل ولديه طفلة في الرابعة من عمرها .. يخرج في الصباح إلى عمله وهو نائمة فيقفل عليها الباب ..

ـ يا لها من مسكينة .. ؟

ـ إنها تعرف .. لقد حاولنا .. مساعدته ، لكنه رفض وأرشدناه إلى وضعها في الروضة لكنه أبي ..

ـ ألم تؤثري أنت عليه .. ؟

ـ أنا ..

ـ بجمالك .. إنه عمل إنساني ..

وشعر أنه فاز بشيء كان يبحث عنه .. المرأة تحب الإطراء فهل هذه كذلك ؟ واسترسل في الحديث محاولاً إشعارها بأنه لمحها منذ أيام تطل من النافذة فأثرت نظراتها على قلبه حتى أنه لم يحضر إلى الرسام إلا ليتعرّف عليها .. لانت قسماتها قليلاً .. لكن الصلابة المرسومة في كلماتها زرعت الخوف في أعماقه .. مما دعاه إلى توديعها .. وهو يشعرها بأنه سوف يعود في الساعة الخامسة مساء لزيارة الرسام .. وكأنه يقول إنني أتمنى أن ألتقي بك في هذه الساعة .

ـ عارف إنها جميلة .. أليس كذلك .. ؟

كانت صورة سعاد مع صديق .. أخذ يعرضها على بقية الشلة وهو يتحدث عن غرامه بها وأن المقادير جعلتها تحبه بشكل جنوني ويخشى أن تكون عواقب ذلك وخيمة عليه لمعرفته بأنه غير مستعد للزواج منها .. حسب تقاليد جماعته ومعرفته بأنه لن يحصل على الموافقة من الجهات المختصة لحساسية عمله ولكونها تحمل جنسية أخرى ..

ـ وكيف تعرفت بها .. ؟

ـ إنها ابنة مدرسة تعمل في إحدى المدارس ، وكذلك أختها الكبرى .. ووالدها ضارب آلة في إحدى الشركات وعرف أشياء كثيرة عن أسرتها ، لكن هي ماذا عنها ، لم يكن هناك سوى الصورة وحبها الأعمى ، وشقيقتها ذات الابتسامة الجافة لكل من يتحدث معها .. حتى لو كان الحديث لا شيء .. إنهم يحرقون البخور لتعبق الرائحة في الفضاء لتملأ الجو بروائح عبقة ، لكن البخور يحترق وتصبح الرائحة مجرد دخان يملأ المكان عتمة ويدفع الإنسان إلى أن يكمم أنفه حتى لا يختنق .. وكمّم أنفه ونهض من مكانه غير عابئ بأنه لم يستأذن من صاحب الدار ..

ـ عارف إنها .. تموت ..

ـ من .. ؟

ـ زوجتي ..

كان ضارب الآلة دموعه تسيل على خده ، لقد أصيبت بتسمم في الدم ، ولا يوجد جهاز لنقل الدم هنا ويجب أن ترحل ..

وتورط عارف .. أخذ يركض هنا وهناك .. وسافرت سعاد مع والدها ووالدتها وشقيقتها ..

ومرت الأيام .. توفيت الأم على أثر المرض .. وتأخر ضارب الآلة عن العودة إلى عمله مدة اقتضت فصله من العمل .. لكن هناك مضاعفات يجب إنهاؤها أولاً .. ومعرفة عدم اتخاذ الإجراءات عند السماح له بالسفر ..

شعر عارف أنه واقع في الفخ ..

ـ لقد عدت من أجلك يا عارف .. لقد ساعدتني ..

ـ شكراً ..

وتوقف كل شيء .. عاد ضارب الآلة إلى عمله بعد أن شرح ظروفه، أما سعاد فلم تعد .. لقد بقيت في بلادها .. وضحك عارف كثيراً ..

كان سروره فوق ما يتصور .. وهو يجد في صورته التي لدى الرسام لم تكتمل .. ومشروع حبه .. يتهاوى .. لقد فقد كل شيء ..

* * *

القمر بزغ مرة ثانية

استلقى على ظهره وأخذ يتأمل سقف الغرفة بعد أن أعياه التعب وأتلف أعصابه التفكير .. منذ الصباح وهو قلق غير ميال للجلوس مع أصدقائه أو الاستمرار في حديث ما .. وشعر بالتعب فأخذ يجرجر قدميه إلى الدار وكانت خاوية .. كلهم غير موجودين، والدته وزوجته وأشقاؤه .. فاستلقى على فراشه محاولاً التركيز وأخذ يتأمل سقف الغرفة .. مضت لحظات أخذ الهدوء يدب في جسمه، أخذ تفكيره يتجمع مركزاً هواجسه وآماله وما به من قلق وسأم في بوتقة واحدة ..

كانت الخطوط المرسومة في سقف الغرفة .. رحلة جديدة في تفكيره المتشتت أخذ يعلل وجودها رغم علمه أنها بسبب مياه الأمطار التي تتراكم فوق سطح الدار ولا تجد منفذاً ..

ورن التلفون .. وتململ قليلاً .. ثم رفع السماعة ..

ـ هذا بيت عبد الله سلطان ..

فلم يرد وكرر الصوت .. هذا بيت عبد الله بن سلطان، فلم يرد .. تريث لحظات بينما الصوت يكرر الاسم وأعاد السماعة إلى موضعها .. وافترّ ثغره عن ابتسامة صغيرة.

وسحب جهاز التلفون إلى الفراش وأدار قرص التلفون ..

ـ مساء الخير .

ـ مين !! .

ـ صديق ..

ـ من أنت !!

ـ عاشق ..

ـ كل (....)

كان الصوت نسائياً وشعر بالضيق، فأدار أكثر من رقم .. كل من يعرفه من أصدقائه موجودة لديه هذه الأرقام ويجدون من تتحدث معهم أما هو فلم يحظ سوى بالشتيمة ..

وقفز من الفراش، أعاد التلفون إلى مكانه فوق الطاولة وأخذ يبحث بين الكتب عن كتاب يقرأه .. فلم يجد وتصلبت أنامله على غلاف كتاب أخذ يتأمله وسحبه من بين الكتب، ولكن الغلاف كان فارغاً وبعثر الكتب بحثاً عن الكتاب

الذي جلدته بين يديه .. وشعر برغبة في قراءته ، لكن لم يصل إلى نتيجة ، فألقى بالغلاف بين الكتب وارتدى ثوبه وأصلح من هندامه وخرج من الدار ، قادته خطاه إلى المقهى الذي اعتاد الجلوس فيه مع أصحابه كل مساء واختار كرسياً منفرداً يحجبه عن الأنظار وطلب من القهوجي تعميره – شيشة – كان وجهه قبالة الشرق والساعة السابعة مساءً كل شيء هادئ غير أصوات العربات ومنبهاتها القادمة من بعيد ، وتأمل السماء .. كان القمر كبيراً ونصفه يختبئ وراء عمارة شاهقة وبزغ القمر .. أصبح كاملاً لكن صادقته سحابة أخذت تلتهم النصف العلوي منه، ثم التهمته بأكمله واختفى القمر .. وأخذ يتابعه .. كان هناك بصيص بين لحظة وأخرى يشع من خلال السحابة القاتمة وشع اللون الأصفر باهتاً لكن أخذ يقوى ويقوى وبزغ القمر مرة أخرى ..

* * *

أشيــــــــــاء صغيرة

توقف عن التفكير عندما دخل الدار . كل مشاعره وغضبه الذي كان يعتمل بداخله همد .. عندما وجد الفراغ والصمت .. وعقب أن قام بغسل وجهه .. إنها المرة الثالثة التي يقوم فيها بغسل وجهه خلال ست ساعات .. وبحث عن المنشفة لتنشيفه من الماء ..

ـ نذهب ثلاثتنا إلى السينما ..

كانت آخر ما قاله لرفاقه في المقهى بعد جلوسه نصف ساعة ونقاش في أشياء صغيرة تخللها قرقرة الشيشة وأبواق العربات المارة أمام المقهى ..

هادئاً مبتسماً .. لا شيء في هذا الوجود يهم بقدر ما يتمنى أن يكون سعيداً ..

وأقبلت العربة الثانية تحمل بقية الأصدقاء .. وزاد الضجيج ثم ساد الصمت والهدوء ..

ـ أنا لا أريد الذهاب إلى السينما .. ؟

تخاذل أحد الثلاثة .. فشعر بوخزة في أعماقه .. ماذا يعني هذا .. إنها بداية انفعاله .. فصرخ ..

ـ ولماذا .. ؟

لم يجب المتخاذل .. ضحك إنها مشكلته أجل لقد كان هو آخر المقتنعين بالذهاب إلى السينما .. بعد أن أعيته الحيل في إقناع رفيقيه بالجلوس في البيت ومشاهدة التلفزيون ولعب الورق ماذا حدث الآن .. ؟

ونهض الراغبون في الذهاب إلى السينما .. واحد .. اثنان .. ثلاثة .. أربعة ..

ـ وأنت ..

ـ أنا لا أريد الذهاب إلى السينما ..

ـ إذاً لماذا نهضت .. ؟

ـ لأن عندي موعد .. وعلي أن أذهب إلى أختي ..

ـ وأنت .. ؟

ـ سوف أوصل الجماعة إلى السينما ..

خمسة .. ستة .. ولم يتبق غيره .. وذلك المتردد .. هدأ غضبه بعض الشيء .. وتحمل الوخزة وصمت ..

ـ أين نلتقي ؟ .

قال سائق العربة الثانية .. وتطلع في الاثنين .. محمد وصمته وعلي وحرصه على أن يطلب تعميره حتى يشيش ويصرع رغبته في الجراك ..

ـ هنا .. ننتظرك .. ثم نذهب إلى البيت ..

احترق كل شيء في داخله، لم يعد يدري ماذا يقول .. إن (العذاب فوق الجباه منشور) في ذلك الفراغ الذي يملأ جوفه ، وبدا عليه كأنه على أهبة الغمز بعينيه ، ولكن شحب وجهه وأحس كأن قشعريرة باردة انتابته وأخذ يتمتم وقد كظم غيظه ..

ـ أجل ننتظرك هنا ثم نذهب إلى البيت ..

وطلب الاثنان تعميرتين وأخذ علي يعلل سبب تردده في الذهاب إلى السينما مستغرباً نعته بأنه لا مبدأ عنده لأسباب صغيرة وأشياء مهما تقلب رأيه أو تردد لا تؤثر مهما كانت ..

انتهى الحديث .. لم يعد لدى الاثنين ما يقولانه، وأقبل صالح وتحرك الثلاثة إلى الدار ..

محمد يفكر في قضاء وقت جميل هادئ في الدار ، وعلي يعلل نفسه بلحظات مع ورق البلوت ، ومن الآن يفكر في رابع ، أما صالح فكل همه أن تمضي هذه الساعات الثلاث منتظراً الساعة الواحدة حتى يذهب إلى دار السينما .. حيث أخويه وبعض الأصدقاء الذين أوصلهم منذ لحظات ..

كان أول الواصلين محمد .. دخل الدار ووجد الصمت والفراغ، ثم غسل وجهه وأخذ ينتظر الباقين الذين ما إن فكر في أنهم تأخروا حتى قرعوا الباب ودخلوا .. كانوا أكثر من اثنين ثلاثة أربعة خمسة ستة ، والتف أربعة يلعبون وطلب علي الشاهي ثم نهض إلى المطبخ وأشعل موقد الغاز ولحق به محمد :

ـ أين وجدتم فهد ..

ـ في الدار ..

ـ ولماذا أنت غاضب .. ؟

ـ لقد ضرب زوجته .. عندما لم يجدنا عندك ..

ـ كيف .. !!

ـ حضر إلى هنا أثناء وجودنا في المقهى وعاد إلى المنزل غاضباً، فصبَّ ذلك على زوجته المسكينة ..

وغادر الاثنان المطبخ، وأخذ علي يصب الشاي، أما محمد فقد أخذ يتأمل فهد، كانت الساعة الثانية عشرة ليلاً والجو لطيف والهدوء الغامض المنذر بالعاصفة يسيطر على المكان .. ورنَّ جرس التلفون فأسرع محمد، لكن الجرس توقف قبل أن يرفع السماعة .. فعاد إلى مكانه يتأمل اللاعبين ..

* * *

العيون ذوات الأنف

كانت تلك الحجرة ذات أبواب ثلاثة ، ولكنها كانت شبه ضيقة ولها شباك واحد، بها تلفزيون صغير عادي ، وفرشة نسي أصحابها التاريخ الذي تم شراؤها فيه ..

وعندما قرع أحدهم جرس الباب الخارجي ، دخل فهد من الباب المؤدي إلى داخل المنزل ورمقني بنظرة فاحصة كأنه يتأكد أنني لم أنهض من مكاني الذي غادرني فيه حتى يحضر ما يؤكد صحة ما ذهب إليه من حكايته .

كانت الساعة العاشرة صباحاً من ذات يوم غادر فيه الاثنان المكتب دون إذن من رئيسهم يبحثون فيه عن شيء غير مباح لقضاء وقت تمت سرقته من الزمن في عفوية متناهية وسذاجة ..

قلت: ما الخبر .. ؟

كان فهد يقف أمامي ، وكالعادة يرمقني بنظرته التي يريد من ورائها معرفة ما في داخلي ، كان القلق هو القاسم المشترك بيننا رغم أنني نادراً ما أنجرف في حلقة رعب باحثاً من خلال التقائي به عن هدف فقده ذات يوم وأنا مع مجموعة من الأقزام في طريقي إليه أخذت أتجول في الشوارع الخلفية باحثاً عنه .

ـ لا أدري .. ؟

كانت بين يدي أشياء غريبة أخفيتها خلف المسند (المخدة) التي ورائي وتراخيت عليها بشكل طبيعي ، وشربت دفعة واحدة كأس الشاي الذي قمت بصبه بنفسي تاركاً في قاعه بقايا ..

قلت: أليس من الأفضل أن نعود إلى العمل ؟

رمقني بنظرته الفاحصة وقال :

ـ ماذا تم بشأن صديقك المسجون ؟

هززت رأسي في عدم مبالاة ..

كانت صديقته على حق عندما قالت لي ذات يوم أنه أناني لا يحترم العواطف الإنسانية .. إنه مثل هؤلاء الناس لا يرون الدنيا إلا من نافذة مصالحهم وأنهم لا أمل لهم .. لا أدري كيف تم القبض عليه اتخذت السيارة طريق مطار الحوية كان متوجهاً إلى هناك لاستقبالها بعد هاتف أخبرته فيه بأنها سوف تصل مع أسرتها إلى الطائف لقضاء الصيف ..

وفجأة إذا بصراخ سيارة النجدة .. ومكبر الصوت يدعوه إلى الوقوف فلم يبال ، كان يظن أنهم يلاحقون سيارة أخرى لعلمه أنه لم يرتكب جرماً يوجب مثل هذه الملاحقة ..

ـ لا أعرف بقية الحكاية ، فأخوه أخفى عني الأمر وكذلك بقية أفراد الأسرة ، حتى فاجأني أحدهم بالسؤال عنه وقد استغرب عدم علمي بالحادث ..

قلت : والآن هل تنهض ؟

ـ أبداً إنني في انتظاره .. ؟

كنت أعرف كل شيء .. وطفقت الذكرى تدور في مخيلتي حتى اعترضها حادثة مشاهدة صديقي إبراهيم في سيارة فارهة تربو قيمتها على مئة ألف ريال رغم علمي أنه إنسان مستور الحال يبحث عن لقمة العيش في كل مكان ..

كان الصمت قوياً .. والوخزة أقوى وأدمى .. أخذ الدم ينبعث من أطراف فمي ملطخاً صدري وثوبي وأخذت أركض .. كان لهاثي أشبه بفحيح أفعى أخذت تقترب من فريستها الغافلة عن الخطر ..

كل ما حولي شل فجأة .. الأرض تلف بي ، وأنا أبحث عن جدار أستند إليه أو عمود نور أتلحفه ..

قال : بم كنت تفكر .. ؟

قلت : إنها أشياء ممنوعة .. ؟

صمت .. من جديد .. ثم تمتم وكأنه يحدث نفسه ..

ـ لقد تأخر كثيراً .. سوف أنتقم .. ؟

خرجنا من الدار واتجهنا إلى المكتب حيث كان ينتظرنا الجميع بأسئلتهم المعتادة أين كنتم ؟ .. لقد سأل المدير عنكم .. لقد أشعرنا بوجوب مقابلتكم له إذا عدتم ..

أشياء كثيرة اعتدت عليها من خلال ممارستي للوظيفة حيث سجنت نفسي ذات يوم داخل أحد غرف دارنا القديمة وأضربت عن الدراسة ..

لأبدأ مرحلة الوظيفة والعيون ذات الأنف المتلصص الباحث عن كلمات خالية من الحقيقة المستديرة في مرحلة ..

ـ إنني في حيرة من أمري . كيف أواجه هذا المدير الجديد وقد وجد البطانة الطيبة التي لا هم لها سوى البحث عن الخطل .. المدير السابق .. لم يثبت .. ولكنه شديد الاحتمال جداً .. ولو أن كل واحد لم يبلغ تصوره إمكان حدوث هذا التغير بحق السماء.. إنه التاريخ .. كان هولاكو يتقدم محطماً كل شيء أمامه وفجأة أبلغته

وكالات الأنباء أن قائد سلاح البحرية قام بانقلاب ضده .. وأن التجول ممنوع والمارشات العسكرية تصدح في المقاهي ودور السينما .. والملاهي ..

ـ نعم .. نعم .. لم أثبت بعد ..

ـ وكيف يقال إنك استلمت العمل .. ؟

ضحكت كثيراً .. كان ذلك منذ ألف سنة عندما قام المرحوم ببناء هذه الدار .. كان أخي الأكبر عصبياً .. يبحث في عيون بنات الجيران عن حلوة ترضى به عريساً .. وأنا كنت أبحث في الكتب التي أسرقها من المكتبات العامة وأستعيرها من الأصدقاء عن بطل أستطيع تقمص شخصيته حتى كنت هذا الانسحاق أجل ..

وتذكرت تلك الحجرة الصغيرة من دار المرحوم التي كنت أختبئ فيها عن عيون الجيران وتلصص الفتيات اللاتي يزرن شقيقتي ..

لقد انتصبت نوره في إحدى الرفوف لا أدري كيف دخلت الغرفة .. أخذت تضحك كثيراً من خوفي .. كانت تقول الكثير تطمئنني .. وأخوها شاعر .. وأمها منذ حصلت على الزوج الثالث وهي لا تهتم بالدار .. أما والدهم فلم يثب إلى رشده حتى الآن رغم مرور عشر سنوات على اكتشافه لخيانة زوجته له مع صاحب البقالة الملاصقة للدار ..

وشعرت باليأس من خلق الثقة في داخلي .. فأخذت ترقص على أنغام الموسيقى الصادرة من الداخل حيث يتحدث الجميع .. كان رقصها آية في الإبداع والفن .. واختفت ومعها وجدت أنني إنسان مسحوق .. كان الحلم أكبر مني ، كانت تلك البداية .. ومن يومها .. وأنا أقول : نعم .

كانت نشأتي الأولى في أقصى الجنوب .. حيث يعيش الإنسان الانسحاق بكل معانيه .. إذ لا توجد هناك قيم أو مبادئ .. كانت العفوية هي كل شيء في تلك النواحي .. وكنت الخليط الذي يشك في انتمائه فأنا ممتد من أقصى الجنوب إلى أقصى الشمال حيث يقال أن لي هناك بقايا خلقتها الأيام دون هوادة ..

ـ هل أنهيت معاملتي .. ؟

ـ أي معاملة ..

ـ التي استلمتها منذ أسبوع من موظف الوارد ..

ـ أنا ..

ـ أجل أنت .. ألست السيد فاضل ؟

ـ بلى ..

ـ إذاً أفدني بالإجراء الذي تم اتخاذه ..

ـ أرجو المعذرة ذكرني بمضمون المعاملة ..

وتذكرت كل شيء ، كان يبحث في ملف النظام ذلك اليوم وقرر اتخاذ الإجراء وتدخل أحدهم .. واعترض الرئيس .. ومع ذلك انتهى كل شيء .. وكلف الفراش بتوقيعها من مدير الإدارة .. وأنه طلب منه أن يصدرها من مكتب الوارد العام حتى يكون الجميع أمام الأمر الواقع ..

ولم أقل للمراجع شيئاً .. وهززت رأسي مستأذناً لبضع دقائق .. وأنا أغادر مقعدي لأخرج من الدائرة هائماً على وجهي ..

* * *

عدوى الصمت

إنه التوقف .. لا أدري متى بدأ إحساسي بأنني غدوت أقل من الصفر .. إنهم يقولون إن الصفر عندما يحتل الخانة اليمنى لرقم ما يجعل من الرقم ضخماً ، وكلما تعددت الأصفار ارتفع مستوى هذا الرقم وتضخم تضخم العمارات التي تملأ شوارع مدينتنا وتلفظ الحياة والحب .. تجعل الطفل لصاً وقاتلاً .. يشهر مسدسه ذا الطلقات القاتلة في الوجوه دون تمييز ..

كان ذلك يوم أربعاء ، أما رقمه بالنسبة للشهر .. أو العام .. فذلك ما لم أستطع تميزه .. كنت هارباً من الصمت المخيم على مكتبي في الإدارة التي سرت إليها عدوى الصمت والجدب .. فخيم السكون الذي يسبق العاصفة .. كان الصمت أقوى من إحساسي بالحياة ومن دفتر المعاملات وأوراق المراجعين التي بين يدي ..

لقد تجمدت السحن .. وجرى الجفاف في العروق .. النهاية توشك أن تطل معلنة عن نفسها بقسوة لا صفة لها .

ووجدتك تقفين أمام الباب .. وارتسمت ابتسامتك الصغيرة فوق شفتيك كانت المرة الأولى التي لم تهربي فيها مني ..

من صوت سيارتي ..

وعرفت السبب ، والدك تأخر على غير المعتاد لقد ذهب في مهمة مع أحدهم وهاهي الساعة تشير إلى العاشرة ليلاً .. ولم يطل ..

أخوتك قلقون .. والدتك مرتبكة .. وأنت لم تجدي ملجأ سوى الباب الخارجي ..

ـ إنني لا أعرف أين ذهب .. ؟

ـ إنه مع صديقك ..

ـ صديقي ..

ـ إنه واحد من الأشخاص الذين يسهرون معك لقد ..

وأخذت تصفيته لي .. أكثر .. وأكثر .. حتى طريقة مشيه وشعرت بالحزن وأنا .. ماذا أكون .. ؟ شنقتني بسمتك الصغيرة ، وزرع قلقك في أعماقي وردة بيضاء ..

لكن دمعة الحزن ترقرقت في كلماتي .. وأنا أعدك بأن أبحث عنه ووجدته ..

ـ ما رأيك في صالح .. ؟

ـ إنه رجل طيب .

ـ أين يشتغل .. ؟

وقلت الكثير عن صالح .. كله حق .. وكله واقع .. كان والدك يسأل وأنا أجيب حتى وصلنا ..

لم أحاول الاستفسار ..

وطلب مني والداك أن أدخل معه لشرب فنجان من القهوة .. واعتذرت رغم إصراره، وادعائه أن حدثينا لم ينته ..

كنت تقفين وراء الباب وصراخ أخوتك الصغار يصلنا معلناً أنني فزت برضاهم وحبهم ..

ولولا خوفكم من أبيكم لأشرعتم الباب وشددتم على يدي أنت ووالدتك وكل من في الدار ..

ـ لقد طلب يد حصة ..

وابتعدت رغم يده الممدودة لتوديعي .. أخذت أجري بعيداً .. كل الشوارع المعتمة تستقبلني تشاركني حزني، وإحساسي بأنني عدم .. كنت أقف أمام الباب وألمحك من خلال النافذة ..

ألمحك في ذهابك إلى السوق .. أو الجيران .. وألمح ابتسامتك الصغيرة وأنت تمرين بي .. لقد كنت تقولين ما لم أستطع قوله رغم أنني غارق في وهمي حتى رأسي .. واشتعلت الأضواء في داركم .. لقد وافق والدك على اقترانك بصالح ورحلت .. لتعودي .. غاضبة .. ملتاعة .. تصرخين في وجه كل من يسألك أنك لم تحبيه يوماً .. وأن والدك أرغمك على الزواج منه ..

وضحكت كيف ؟ .. وأنا أعرف بوالدك من الجميع ..

لقد تزوجت طواعية ..

لقد عرفت من وصفك له أنك تعشقينه ..

فهل أنا مخطئ .. ؟

وكشفت الأيام خطئي .. يقولون : إن الاستمرار في انتظار اللحظة المناسبة دون التقدم خطوات يبعد المناسبة ..

وأنا كنت أنتظر اللحظة المناسبة ..

وأنا أقف أمام بابنا ..

وأنا أحاول الاستماع إلى صوتك عبر التلفون .. وإذا بكل شيء يتهشم ..

* * *

الصـــــوت المجهول

بعيون ملأها السهر تعباً "ألقيت بسؤالي هل بقي شيء ؟" .. كانت الساعة الثامنة صباحاً .. الشوارع خالية وصراخ الكلاب ومنبهات السيارات تعلن هنا وهناك أنه توجد حياة ..

وجدتني وحيداً أسير في الطريق الطويل المؤدي إلى المنزل حيث ينتظرني الفراغ والوحشة .. كلهم رحل .. لم يبق سواي في الدار بسبب ارتباطي بالوظيفة .. إذ لم أتمكن من الحصول على إجازة من بداية الأسبوع ..

حذائي يضرب الإسفلت في ارتباك وهدوء .. أنهم الآن يرقصون .. يا لي من إنسان محروم عاش حياته ليحلم أن يخلق شيئاً ! فإذا به يقعي على قارعة الطريق أشبه بكلب أجرب .. أخذ الصبية يلاحقونه في قسوة وعناد ..

ـ سالم ..

ـ نعم ..

ـ ألم تنم بعد .. ؟

ـ وهل هذا يضايقك ..

ـ أبداً ..

وأعاد سماعة التلفون إلى مكانها .. رغم أنه لم يعرف صاحب الصوت أو صاحبة الصوت .. حيث لم يتبين النبرة .. هل هي رجالي أم نسائي ..

كان جرس التلفون يرن عندما أدخل المفتاح في الباب وأسرع .. وبكل برود كانت المكالمة المجهولة ..

وتمدد في الفراش يبحث عن النوم .. إنهم يحاربونه .. أين الإرهاق وشعوره .. بأنه بحاجة إلى النوم ؟ كل هذه الأشياء غادرته عندما تمدد ..

ـ سالم لم تحدثني عن نفسك .. ؟

وميز الصوت كانت امرأة .. لكن من أين قادم ؟ صرخ في سماعة التلفون ..

ـ هل تعرفين من أنا .. ؟

ـ وجدت اسمك في الدليل وأحب أن أتعرف بك ..

ـ .....

ـ لماذا لم ترد .. ؟ أرجو أنني لم أزعجك ..

ـ أبداً ليس هنا إزعاج ..

ـ إذا عرفني عليك ..

وتوقف ماذا يقول ؟ أخذ يفكر ووجدها فرصة مناسبة لإبعاد الهواجس والأفكار من رأسه فأخذ يعرفها بذاته باحثاً عن كلمات منتقاة ليقول إنه إنسان يبحث عن حديث ومصير ، إنما هناك أنياب تجتر كل شيء ترسم بكل قسوة في الفضاء زوابع غريبة الألوان.

ـ هل الكتابات المنشورة في بعض الصحف أنت كاتبها .. ؟

ـ أجل ..

ـ عندي لك فكرة قصة ..

كان الهاتف كبيراً .. وارتفعت في الفضاء علامة النذر .. الباب الخارجي يقرع .. لعله خير .. ودون شعور أعاد السماعة إلى مكانها وأسرع إلى الباب .. ولم يجد أحداً ، كان الشارع فارغاً والهدوء مسيطراً بينما عسكري الحراسة الليلية يتجول بعيداً كالعادة لا شيء يوقفه عن التجوال .. حتى لا يغلبه الكرى ..

وعاد إلى فراشه ومد يده إلى سماعة التلفون في عفوية .. ورفعها إلى أذنه وهو يقول:

ـ آسف .. لقد كان الباب الخارجي يقرع ..

وإذا بصفير حاد يعلن أن المكالمة قطعت .. وتذكر أنه عندما نهض وضع السماعة فوق الجهاز بطريق الخطأ ..

وشعر بألم عميق !! لقد وجد صوتاً يسأله من يكون ؟ فلماذا لم يواصل القول ؟ ودفن رأسه تحت المخدة مفكراً في حزن من تكون !!

لقد كان الصوت عميقاً .. ولكن هل يا ترى يعيش الآن وحيداً .. وفي أي مدينة ؟

* * *

المجنـــــــــــون

الوقوف في وجه الريح أمر صعب .. وحديث الناس الذي لا يترك شاردة ولا واردة أمر أصعب ..

ووقوف عادل هذا الموقف اللامبالي كان أصعب من كل المواقف بالنسبة لذاته التي اعتادت المرور على كل الأشياء باستهانة وعدم اهتمام وبالنسبة للآخرين الذين اعتادوا وبصعوبة كل مشاكله المترتبة على فوضويته في كل شيء ..

في الاستماع إلى الراديو .. في مداعبة أبنائه ومشاهدة التلفزيون ولعب الورق مع أصدقائه ..

سرعان ما يتغير تفكيره ويشعر بالسأم مما هو بين يديه ويتبرم لما يسمع فيقطب حاجبيه بهدوء ويدعي أن الصداع النصفي عاوده ..

- ما رأيك يا أمي .. نهدم البيت ونبني عمارة ..

- فكرة رائعة ..

- تكون من شقتين واحدة لك وللأولاد والأخرى لي ..

- لا بل من ثلاث شقق ..

وخرج من عندها وقد أقنعها بأن الأمور سوف تسير إلى الأحسن حيث سيرتاح هو من البحث عن شقة جديدة عند نهاية كل عام .. وهي ترتاح من الجيران وتندية المطر وارتعاش السقف أثناء العواصف ..

أخذ يرقص طرباً وهو يأخذ طريقه إلى ملاعب كرة القدم في الركبان راسماً أشياء كثيرة، كان يعلم بحقيقتها في طفولته .. تتحدث كل مساء على شفاه شقيقه الوحيد الذي غير مسار تعليمه بناء على مكانته الوظيفية دون أن يأخذ في عين الاعتبار مطامحه وآماله .. وبدأت مرحلة التأخر .. والهروب من المدرسة والرسوب أولاً وثانياً وثالثاً وحتى الحصول على وظيفة صغيرة بالمرتبة الثانية .

شعر بالاستقلال عن شقيقه الوحيد وعن والدته وزوجها وأبنائها .. أخذ يحدث نفسه بأحلامه القديمة ..

وهاهو بعد عشر سنوات من الحياة الوظيفية والكفاح قد أصبح أباً لطفلين يحاول تحقيق أول أحلامه ببناء دار له على أنقاض دار خربة كانت هي البقية الباقية من ذكريات والده الذي توفي وهو في الثانية من عمره لا يعي شيئاً ..

وصل عادل إلى ساحة الملاعب وجلس وحيداً يتأمل الكرة وهي تنتقل من باب لآخر رغم أقدام اللاعبين وقد خيم الهدوء على الجميع .

مر الوقت بسرعة .. وكرت الأيام .. ولم يصله رد والدته بشأن العمارة فأهمل الموضوع لاقتناعه أن كل ما ذهب إليه في أحلامه مجرد خزعبلات جرفها التيار ذات مساء والجميع نيام .. فلم يهتم بالأمر أحد ..

كان الصمت من قبله حكمة وإن كان ذلك على حسابه لمعرفته أنه لن يجد الاستقرار ما دامت الدنيا قد استعارت أربعة إطارات كبيرة لتكون لفتها أكبر وأعرض من المعتاد .

وقتل وقته بالسهر مع الأصدقاء وأمام التلفزيون وفي المقاهي كان يبحث عن شيء .. لا يعرفه ..

شاهده ذات مساء فقرر أن يلتقي به مرة أخرى ..

ـ عادل .. ما رأيك نبني البيت ؟

بعد سنتين من رأيه الذي قدمه .. همست والدته بذلك في أذنيه ذات مساء وهو يتابع أغنية جديدة تذاع لأول مرة من خلال التلفزيون .

هزّ رأسه موافقاً وخرج لم يقل شيئاً .. توقف تفكيره فجأة ..

وأخذت تستنجد بالأقرباء وأبناء أختها في تكملة إجراءات البناء والاقتراض من بنك التسليف العقاري ..

وحضر للتوقيع واستلام أول دفعة من القسط .. وأخذ يركض حتى وصل داره وأخفى المبلغ الكبير في دولاب الملابس .. رغم إصرار والدته على أن تحتفظ بالمبلغ في حجرتها .. وقبع في البيت مع كل أوراق البناء منتظراً أن يطرق الباب من جديد .. ويقال له عثرنا على مقاول لبناء العمارة ..

لم يطل انتظاره .. حضر المقاول الثري الذي وافق على كل شيء .. معتمداً على ما جاء في خارطة البناء ..

تنفس عادل الصعداء .. وأخذ يحدث طفليه وزوجته عن العمارة والاستقرار .. أشياء كثيرة أخذت تعتمل في نفسه ..

ومرت ستة أشهر ولم يتم تشييد جدار واحد في البيت الذي هجره ساكنوه واستلمه المقاول للبدء في التنفيذ ..

شعر بالاختناق .. أخذت الصور تفقد معالمها .. أخذ الحزن يطوقه .. آخذاً عليه كل شيء حتى لحظة جلوسه مع أبنائه وزوجته أمام التلفزيون، كان يخرج بعيداً مفكراً في اللاشيء ..

وكان يوم اشتد فيه المطر أخذت الشوارع تمتلئ بالماء والثلج المتساقط من السماء .. أخذ يتأمل الشارع الذي امتلأ بفرحة الأطفال وعيون الجيران المبتسمة .. وهي تتابع زخات المطر عبر أزيز الرياح وقصف الرعد ..

ووجد في داخله رغبة بأن يرفع ثوبه ويمشي حافي القدمين في برك الماء وأن يأكل من حبات البرد التي أخذت تكون تلالاً من الثلج أمام الأبواب وفوق الأرصفة .

تلفت حوله وبين صراخ الجيران وضحكاتهم أخذ يقطع الشارع ذهاباً وإياباً .. وشيء في داخله يشع وأخذ يتجلى .. عادت الابتسامة الصغيرة إلى شفتيه ..

أحس أنه ينتصر على المشاكل التي تقف أمامه وولج الدار مثيراً القلق بصوته الجاف وأخذ يردد إحدى الأغنيات المعروفة ووصلت إلى أنفه رائحة القهوة فأسرع إلى المطبخ حيث وجد زوجته تقوم بإعدادها بعد أن ملأت صحناً صغيراً بالمكسرات فاقترب منها بهدوء ..

الأمر الذي أثار فزعها لتدلق القهوة فوق النار .. وأمام الاستغراب المطل من عينها وكلمات الاحتجاج المحبوسة على شفتيها أخذ يعد القهوة من جديد ..

* * *

الجراح ذات العمق المنتهي

تحترق في داخل المراجل .. وتذيب الحوادث أحرفي المرسومة بعناء ومعاناة فوق رصيف الحياة لتقول شيئاً من ذاتي المختنقة في شرانق العدم ..

الصورة ما زالت عالقة .. كنزة رمادية ونظارة سوداء تختبئ خلفها ابتسامة صغيرة مجهولة الهوية .. كانت الساعة الواحدة بعد الظهر .. من يوم نسي الزمان رصده التحدي يملأ الوقت .. والشعور بالانتصار لحظة وقوفي أمامك وقد هجر الجميع الشارع .. وأنت تهزين رأسك بالموافقة على أن آخذ لك صورة ..

لقد حرمتني من رسائلك مع أنهم كلهم لديهم أكثر من رسالة، أما أنا فكان الحرمان نصيبي ولحظات مجهولة أجدك فيها تتحدثين عن كل شيء ما عداي ..

- ياسر .. هل رأيتها .. ؟

- من .. ؟

- فتاة الوادي ..

- لا ..

كنت سارحاً .. منذ أسبوع لم أشاهدها .. وهناك من يقول إنها رحلت إلى الرياض للإقامة مع شقيقها بعد أن وجدت أسرتها ذات ليلة شاباً غريباً في غرفتها .. لا يدرون من أين دخل ، حتى هي أنكرت معرفتها به .. مدعية أنه أحد أصدقاء أخيها الأصغر .. لكن لم يستمع أحد إلى هذا الادعاء ..

وغابت عن الأنظار ومع ذلك أصرت الشلة على الاستمرار في السهر كالمعتاد .. ليلياً في مجرى وادي وج .. يتسامرون وإن كانت نظراتهم بين آونة وأخرى تتلصص باحثة عن ظل في البلكونة الزرقاء المطلة على مكان وجودهم ..

حيث كانت كل ليلة تقف تشاركهم سهرهم .. تبحث فيهم عمن تكتب له رسالة جديدة ..

- أنت مسافر .. ؟

- أجل ..

- أتعرف عنوانها .. ؟

- ....

لم أرد على السؤال .. واكتفيت بالابتسام ، إنهم يحسدونني عليها منذ وقفت أمامهم، فكلهم يعتبرونني غريباً ، إني من حي بعيد كل البعد ليخطف منهم فتاتهم التي زرعت الحب في حيهم ، وخلقت شيئاً من الشعور بالذات لدى كل واحد بعد أن كان الضياع موقفهم الذي يقفون على حافته منذ وجودهم ، حيث كان مشوارهم اليومي منذ الأزل النهوض في الصباح بعد ليلة طويلة نام فيها الجميع ملء أجفانهم ثم الذهاب إلى المدرسة والعودة بعد الظهر والخروج في المساء إلى حيث يلعب الآخرون كرة القدم .. ومتابعة الكرة المتنقلة في يأس بين الأقدام لتلج بعد عناء أحد الأبواب معلنة عن هدف استجلب صراخ المتفرجين وتصفيقهم..

والعودة إلى الدار .. والنوم قبل أن ينهي التلفزيون برامجه .. أما الآن فكل شيء تغير، كل واحد فيهم يحاول أن يكون شيئاً ..

وهاهم بعد كل هذا يسألونني عن موعد السفر .. وعنوانها هناك حيث لا يعرف أحد مصيرها..

كان ذلك منذ عشر سنوات أجل..

وكان رحيلي في مثل هذا اليوم أبحث فيه عن ذاتي التي انتهت مرحلة من مراحلها هنا .. في هذه المدينة الصغيرة التي تشنق المطامح ، وتزرع الدموع في المقل عند نهاية كل صيف حيث تموت الأزهار انتظاراً لأدخل في المرحلة الثالثة

.

كانت المرحلة الأولى في قرية صغيرة .. اجتازت مرحلة الاحتضار فجأة عندما أشاع الناس أن وزارة المواصلات قررت في مشروعها الكبير الذي تمهد فيه الطرق العامة أن تكون المرحلة الأولى من خط أسفلت إلى أقصى الجنوب ..

وما زالت تنتظر وكل يوم يشيد فيها معلم جديد ..

كان الانتظام في الدراسة الجامعية شيئاً جديداً ولذيذاً في نفس الوقت هناك أكثر من وجه جديد، وهناك ابتسامة تبحث عن أخرى لخلق حياة جديدة ..

أخذت الأيام تمر سراعاً .. لا تلوي على شيء والصورة ما تزال في جيبي تبحث معي عن صاحبتها التي اختفت في الزحام .. كان الوهم كبيراً جداً لم أستطع تجاوزه ورسائل أصدقائي .. وأسرتي تصلني تباعاً معلنة عن انفعالاتهم وأحاسيسهم المشبعة بالأماني العتيقة ذات الألوان النرجسية لتقف معي في طريقي الطويل نحو الهدف الذي أصبو إليه منذ أن كنت صبياً يمسك أخوه الكبير بإذنه معاتباً على خطأ ارتكبه .

- أبي يموت ..

- إنه أبي أيضاً ..

لكن سوف آخذه معي .. غداً لم يبق غير القليل ..

وأخذت والدي معي إلى أوربا حيث أدرس منذ عامين في باريس للدراسة العليا لفحصه ومعرفة سبب هذا النحول المفاجئ الذي أصيب به منذ ثلاثة أشهر ولم يستطع كل من كشف عليه معرفة العلة التي تحاول أخذه منا ..

ـ ابني لقد انتهيت ..

- ....

ـ لقد تعبت من هذه الفحوصات ..

وأخذت أتأمله .. كان يذكرني بشيء لا أدري ما هو .. إن نظرته واستسلامه وحديثه المرتعش أشياء قديمة تحاول الطفو لمشاركتي حياتي ، أشياء لا أدري كيف تجاوزتها .. رغم محاولاتي في أن أسجل كل شيء منذ بدأت مرحلتي الثالثة ..

مقلداً في ذلك بعض زملائي في الجامعة، وبعد أن شعرت أنني سوف ألج الحياة من بابها الواسع، مشاركاً في الرأي، خالقاً أفكاري وآثار أصابعي فوق ردائها ذي الألوان الصارخة ..

ومع ذلك خرجت من غرفته التي يقيم فيها بأحد المستشفيات الخاصة ناسياً اعتراضاته وحنينه إلى الوطن .. وإصراره على العودة حيث يريد أن يموت هناك بين أهله وعشيرته ..

ـ لقد جرى تعيين مسئول جديد في السفارة عن المنح الدراسية ..

ـ أتعرفه .. ؟

ـ لا ولكنه من مدينتك ..

ـ من الطائف ..

ـ أجل ..

وأخذت أستعرض الصور محاولاً معرفة ذلك الموظف الجديد ، كنت أحاول بسذاجة رسم تقاسيم وجهه ونبرات صوته وتكوينه الجسماني .. وأنا في طريقي إلى السفارة بعد أن ودعت والدي في المطار حيث نجح في إقناعي مؤخراً بأنه بصحة جيدة وزرعت الفحوصات التفاؤل في أعماقي والنضارة تعود إلى محياه معلنة أنه بدأ الحياة من جديد ..

ـ أنت ..

كان الموظف الجديد فيصل الطفل الصغير الذي كان يحمل رسائل الأصدقاء إلى شقيقته التي تقبع وراء الباب كل مساء في الساعة الثامنة .. كانت سنه في تلك

الفترة العاشرة يدرس في المرحلة الابتدائية ويحاول أن يشاركهم سهرهم رغم صغر سنه وإن كان يصر على فهم قضائهم جل وقتهم أمام الدار على امتداد النظر ..

ـ مبروك .. والحمد لله على السلامة .

ـ أهلاً .. منذ متى وأنت هنا .. ؟

ـ منذ عامين ..

إذن لن أتركك سوف تكون مرشدي في هذه المدينة الحمراء (إنهم يبحثون عن معالم جديدة، كل من يلقاهم يعرف أنهم يبحثون عن المعرفة).

كل شيء في أعماقي مترسب أخذ يطفو.. والصورة التي هجرت جيبي منذ سنتين تقريباً واكتفت بالبقاء ضمن ألبوم الصور ترتسم في طريقي كل مساء تشاركني خطواتي، وفيصل يتحدث عن كل شيء ما عدا .. أنه لا يتذكرها .. لقد وأد كل شيء عن الوادي .. والأصدقاء .. وعنها .. واجتاز ذلك إلى مرحلة وصوله إلى هذا المنصب الذي يحلم به الكثيرون ..

ـ لقد أخذت تنزف .. حتى ماتت .

ـ فاتن ؟

ـ أجل .. لقد أصيبت ذات مساء بنزيف مفاجئ ولم تفد كل الإسعافات في إنقاذها.

ـ متى كان ذلك ..؟

ـ منذ أيام ..

لقد كانت الحلم الذي أعيشه .. والطموح الذي رسمت من خلاله خطوطي، كانت ابتسامتها الصغيرة مثار حزني، وكانت صورتها سلواي في وحدتي، كنت أعرف أنك تحمل رسائلهم كل مساء.. وكنت أنتظر يوماً تقول لي فيه هذه رسالة لك..

ـ لقد أعطتني الرسالة .

ـ ماذا .. ؟

ـ كانت رسالة طويلة جداً .. شعرت بثقلها فلم أتعب نفسي في البحث عنك فسلمتها لأحدهم.. وفضها أمامي وأخذ يقرأها حتى آخرها فأخذت أبكي ، لقد كانت تخدعني ..

ـ إذاً أنت سبب كل المشاكل التي اعترضت حياتها أخيراً ..

ـ أجل ..

وعرفت أن النزيف كان من أثر ضرب أخيها الأكبر لها.. حيث ادعى أنها أدخلت أحدهم غرفتها ذات يوم .. وحيث أن لها سوابق فقد انهال عليها ضرباً بكل ما أوتي من قوة وفقدت أعصابي .. شعرت أن الدنيا تدور بي، وأن ساقي تتخاذلان تحتي فلم أشعر إلا وأنا أمسك به.. وأنهال عليه ضرباً .. لا أدري من أين حصلت على هذه القوة.

وعدت إلى مدينتي، لقد قررت أن أقطع دراستي بعد أن رفضت الجامعة نقلي إلى دولة أخرى بعيداً عن فيصل.. لأعود إلى عملي السابق مضحياً بطموحي وآمالي.. من أجل ذكرى ..

* * *

أناس يبحثون عن الحياة

من أين أنت .. ؟ وكيف أتيت .. ؟ وماذا تريد منا .. ؟ ولماذا هذا الاحمرار في عينيك .. ؟ وكيف عرفت أن أسماءنا إبراهيم ومحمد وهيفاء وغادة ودعد ورعد .. و .. و.. ؟ .

لا زالت تلك الأسئلة الكثيرة التي أخذ الجميع يكتبونها على الجدران بخط عريض حتى أقرأها.. ومن وقوفي الطويل أمام كل سؤال أخذت أميز خط كل واحد من الجماعة.. وطريقة تفكيره وماذا يخفي في أعماقه.. وماذا يريد ..

وخرجت بأسئلة كثيرة أخذت أرسمها بخط صغير تحت تلك الأسئلة ، وكنت أحاول أن أرسم كل سؤال على النهج الموجه إليه ، حتى تصلني الإجابة المحدودة ، ومعرفة ذكاء الجميع ، وأخذت الأصوات ترتفع ، وأخذت أتلفت في الجميع كلهم يتحدث كلهم يريد قول جواب على كل سؤال .. بينما هيفاء صامتة.. وانسحبت حتى وقفت قبالتها فارتسمت على شفتيها ابتسامة صغيرة وأخذت بيدي إلى ركن قصي من الساحة..

- أين تقفين منهم .. ؟

- في الوسط ..

- ولكنك هنا ..

كانت هي ما أهدف إليه .. فأخذت تحدثني عن أحاسيسها بهمة والأشياء التي تؤلمها كثيراً وهي تراهم يتجادلون دون هدف أو مصير .. ولكن تعود البسمة عندما نجد الجميع في النهاية يودعون بعضهم في هدوء كأن لم يكن هناك شيء..

- لماذا لم تجيبي على هذه الأسئلة .. ؟

- لا يعنيني منهم سوى سؤال واحد، وقد حفظته وكانت إجابتي عليه هي وقوفي معك في هذا الركن البعيد عنهم حتى نشعر بالهدوء قليلاً، ولكن نكون أمام أنظارهم حيث يراقبون كل حركة تقوم بها .. ويستفسرون عن كل كلمة تنبس بها شفاهنا ألا ترى أن النظام بدأ يعود إليهم، وأن الحديث بدأ يخفت والأصوات تحاول وأد الكلمات .. وران صمت كبير على الساحة فأخذتني من يدي واقتربت من الجميع لا أدري ماذا تريد أن تقول، إنما استسلمت لها..

- إنه يبحث عن زوجة .. ؟

- زوجة..

صرخ الجميع .. وكذلك أنا .. فأنا لم أكن أبحث عن زوجة .. ومروري كان بطريق الصدفة .. ولمحت إحداهن تقف في نافذة دارها .. ترسل قبلاتها في الهواء إلى إنسان لم أستطع العثور عليه .. وأخذت أتلفت باحثاً عنه في عناء ولما لمحتني أغلقت النافذة في غضب ، وفوجئت اليوم بهم يقفون في طريقي ولكن لم تكن بينهم .. وكانت الأسئلة كثيرة ..

ـ لم أقل شيئاً شاذاً ..

ـ إنني أعي ما تقولين .. لكن

ولم تمنحني الفرصة المطلوبة لأستمر في البوح والاعتذار ، وخلق ألف علامة من الكلمات المتناثرة هنا وهناك ..

ـ إنها ترقبك .. لقد تأخرنا ..

وأخذ الجميع يدفعونني أمامهم حتى ولجنا دار بيضاء اللون ذات أثاث فاخر .. وطلب الجميع مني الجلوس على المقعد الكبير في الصدر حيث كانت هناك باقة ورد وسبقني أحدهم وحمل باقة الورد وألقاها بهدوء على المقعد المجاور لمقعدي ..

ـ إنني موافقة ..

لا أدري كيف كانت الأحداث، كل ما أتذكره باقة الورد الملقاة على المقعد، والغرفة شبه خالية من الناس.. إنهم حولي لا أستطيع حصرهم وفتاة جميلة المحيا .. تجلس إلى جانبي حيث كانت باقة الورد ، ورجل يرتدي ثياب شيخ يمسك بيدي وبيدها، لقد كانت جملة إنني موافقة مرحلة صحو جديد ، وحاولت أن أقف على قدمي، لكن كل شيء حولي ثابت حتى الأحداق التي كانت ترمقني مبتسمة كانت فارغة من الحياة .. وصوت صفير: قطار يمر بالقرب من المدينة معلناً الرحيل.

* * *

عـــــــــــودة الإدراك

بدأت الصورة تتضح معالمها بعد مرور عامين من الخصام والتداعي ، الأمر الذي جعل صالحاً يتخذ طريقا شاذاً مخلفاً وراءه كل الماضي والذكريات ، نازعاً من أعماقه تلك اللحظات الحبيبة التي اندفنت في ذاكرته بعد أن توقفت عن العطاء ، منذ أن تخرج في الجامعة حاملاً في أعماقه كل معاني المحبة وهو يعود لمدينته التي استقبلته طفلاً ورعرعته صبيا ولفظته في حب إلى ديار الغربة .. ليعود في يوم قادم مشاركا في البناء ..

كانت بداية التوقف .. عندما وقف حائراً أمام مكتب أحد الموظفين في الدائرة التي وجه للعمل بها .. حيث أشعره أن عليه المباشرة في إحدى القرى النائية ، إذ لا يوجد مكان يناسب مؤهله داخل المدينة .

الصدمة كانت فوق كل احتمالاته ، وهو القادم ومعه كل احتمالات الخير والعطاء من أجل إنتاج أفضل ، وقد عانى كما عانى الآخرون من زملائه وجيرانه من المشاكل التي أوجد الكثير من الحلول لها .

وأصر .. على البقاء ، ومع نجاحه في الحصول على مكان مناسب داخل المدينة توقفت ذاكرته عن العطاء .

أخذ يتجاوز كل عقبة .. ويزرع كل خطوة في هدوء مع الإصرار على النسيان مهما كان الأمر .

حتى لا يكون هناك مأخذ، أو حتى لا تكون هناك لحظة جميلة يشعر بأسى على فقدانها، وأهمل تسجيل الأحداث المهمة في مفكرته السنوية التي اعتاد شراءها مع بداية كل عام ..

وذات ليلة صرخ صالح فيمن حوله .. سوف أتزوج .. كانت صرخته مفاجئة للجميع، إنهم يعرفون أنه غير مستعد لذلك .. ولا توجد لديه الرغبة الكاملة في إقامة دار يكون مسئولا عنها مسؤولية كاملة ، تخلق من ذاته بداية جديدة لشجرة قد تكون جدباء .. أو وارفة الظلال ..

كان للتصريح صداه .. في نفوس الحضور ..فتركوا أوراق اللعب جانباً وأخذ كل واحد يدلي برأيه ، ولم يقل أي واحد منهم – رغم الصداقة الوثيقة التي تربط الجميع – أن العروس لديه ، رغم أن ثلاثة منهم لديه أخوات في سن الزواج .. وخرج لا يلوي على شيء .. كان تفكيره منصباً في الزواج وتناسي الشلة .. وأوراق اللعب .. والحكايات المبتذلة..

لبدء مرحلة جديدة ..

كانت كلا الأسر طيبة وكان شقيقه الأكبر يسير معه باحثاً عن الزوجة المناسبة والأحاديث تتضخم ، والبداية المفاجئة لفكرة الزواج والتي كانت وليدة إحساس منفرد تملأ الكون بضخامتها .. ترسم فوق الشبابيك وأمام الأبواب هالة من المواقف الجميلة ، إنهم يرحبون به في كل مكان ، ووجدها : أطلت نورة باسمة الوجه ضاحكة ، تملأ كل ما حولها بهجة وحباً ..

وغدا مفتوناً بها ..

إنها صورة طبق الأصل لتلك الفتاة التي حاول أن يرسمها ذات يوم وانتهى حائراً أمام بعض اللمسات الأخيرة .. فترك اللوحة ناقصة وأهملها لتضيع مع زوائد العفش المخزون أو المركون في الزوايا البعيدة عن الدار وأخذ يتذكر ..

لعله يجدها .. إنما بعد دقائق تجاوز التذكر، وأخذ يعد لنفسه فنجاناً من القهوة وهي تقف إلى جواره ..

كان إحساسه وهي تداعب ياقته محاولة متابعة حركاته في إعداد القهوة لذيذ إنما هناك وخزات مفاجئة أخذت تشل اللذة التي يعيشها ، وأطل شقيقه الصغير ذو السنتين من العمر ، يبحث عن شيء ، وأطلت من مقلتي نورة لحظات ألم .. وثورة ..

وبدأ كل شيء ينهار، أنهم يكرهونني..

زرعت في البداية .. هذه الفكرة في أعماقه .. ثم أخذت بعد أن علمت أنها استطاعت الاستحواذ عليه تشعره بأنهم يكرهونه أيضاً.. والده صاحب الدكان المتواضع .. وزوجة شقيقه .. وشقيقه الموظف الصغير .. وأشعرته أن كل أفراد الأسرة ينظرون إليهما بعين الحسد والغيرة.. من جمالها .. ومن شهاداته العالية ..

وأخذ يطرح فكرة انتقاله إلى دار مستقلة .. فلم يعارض أحد في ذلك .. ولكن المشاكل أخذت تلاحقه هناك، وقرر مقاطعة أسرته وكل من لهم صلة به، وأخذ يكون صداقات جديدة..

كانت مباركة نورة المبدئية هي الضوء الأخضر لاستمرارها ، وشعر بالغصة من كل ذلك ..

وطفلاهما حصة .. وعبد الرحمن بعيدين عن والده ووالدته وبقية الأسرة، إنهما يعيشان الحرمان، أين الحنان الذي كان يعيشه ؟ فهما يشعران بالنقص .

وقد لاحظ ذلك من تشبثهما بوالدته، عندما يأخذهما مصادفة لزيارتها في يوم عارض من أيام الأسبوع، ومرض عبد الرحمن فجأة وقرر الطبيب المشخص إدخاله المستشفى.

وأصرت نوره على البقاء إلى جواره ، ولكن من يقوم بشؤون الدار وحصة شعرت بالحنق أمام ذلك .

وأخذ يفكر .. في الأمر فلم يصل إلى نتيجة .. واستقبلته والدته مع ابنته أقام معهم، وطالت إقامته حيث تطور مرض الصغير وغدا خطيراً، وكان لذلك الأثر السيئ على نوره.

ولاحظت والدته الإرهاق البادي على الجميع ، وأصرت على البقاء إلى جوار الصغير ، وأن تعود نوره إلى زوجها وطفلتها .. كان التفاف الجميع حول المريض له أثره الفعلي في التحام الأسرة التي انفرط عقدها ، وكان التفاف أسرة نورة السلبي والذي حدث بغير قصد أثره الفعلي ، في عودة نوره إلى التفكير فيما يدور حولها وأخذت تعيد التفكير في كل مواقفها ..

* * * *

كان صالح يقابل كل الأمور بهدوء محاولاً من خلال ذلك سبر غور كل من حوله وإصدار قرار لتحديد هوية كل من حوله، لكن هذا القرار لا يخرج عن دائرة أعماقه.

ومن خلال القرارات التي قرر إصدارها العودة إلى الواقع وخلق مرحلة جديدة في حياته ..

وأخذ يجهز نفسه للمرحلة الانتقالية هذه، لكن توقف عن التنفيذ عندما وجد أن عليه أن يعود لممارسة أشياء نسي كيف يتعامل معها..

* * * *

صرخت نوره فيه هي ترى السيارة تتجه نحو الرجل الواقف في عرض الطريق غير مبال بالخطر الذي يتهدده، وانحرف عن الطريق وأوقف السيارة.

كانت تبكي بحرقة ..

إنهم في طريقهم إلى دارهم وحصة وعبد الرحمن في المقعد الخلفي وقد سلبهم النوم واقعهم، فلم يلاحظوا ما حدث.. والتفت الاثنان نحوهما..

وزرع هذا الموقف الفجائي البسمة على الشفاه، وأخذ صالح يستعيد شيئاً من حياته من الصور القديمة ..

تذكر كل شيء ..

كان الوقوف الفجائي .. وخزة نبهت كل حواسه ومد يده إلى اليدين البيضاويين المكومتين في الحجر من شدة الخوف وأخذ يداعبهما ، وقد أطلت من خلف حجب الظلام المحيطة بالمدينة هالة من النور . &

الشك ورابطة الدم

من فجر التاريخ منذ اليوم الأول الذي افتقد فيه آدم حواء ، وأخذ يبحث عنها بين الصخور والشعاب على أمل أن يمسك بها متلبسة بالجرم المشهود حيث كانت فكرة ملعونة تلح عليه تمنح ساقيه القوة لمواصلة السير والتجوال وفي يمينه عصاه ، كان كل شيء عادياً بالنسبة لصلاح حتى حل العيد أنه الرقم واحد بالنسبة له ولأخيه ، حتى الرفاق كانوا هم هم والأوراق لم تتغير ، واللعبة ما زالت في أقصى لحظاتها فالجميع متقاربون في الأرقام والبراعة ، وفجأة قرع الباب وانتصب صلاح ، كان أحمد أتى لقضاء إجازة العيد معهم ورحب الرفاق بالضيف وانتهت اللعبة وأخذت الكلمات العادية تقرع الأسماع بسذاجتها والتلفزيون يصر على لفت الانتباه وأكواب الشاي الفارغة تبحث عن اليد التي تلتقطها حتى تبتعد عن مواطئ الأقدام .

ـ صلاح ما رأيك نزور الجماعة ..

كانت فكرة لا بأس بها أدلى بها أحمد ، وخرج الاثنان مستأذنين الجماعة ، وفي ثوان كانت سيارة الأجرة تقف بهم أمام باب ابن خالتهم واستقبلتهم الخالة في حرارة وشوق ومر الوقت رتيباً بين الكلمات المعتادة وعبارات الإطراء والنكات التي تشد إلى الضحك ولو من باب المجاملة وغرق أحمد في تأملاته كالعادة ..

ـ أنت كثير السرحان لازم تتزوج ..

وتلفت أحمد يبحث عن صاحب الصوت ، ووجدها ابنة خالته سعاد التي أخذت ترمقه بقسوة وعناد ، ولم يستطع الاستمرار في البحلقة فيها فطأطأ رأسه لتقهقه وكأن شيئاً لم يحدث ، ووقفت أمامه منتصبة وبيدها إبريق الشاي تطلب منه أن يتجرع ما تبقى في كأسه من قطرات لتملأه مرة ثانية ، ومد الكأس دون أن يرفع رأسه مكتفياً بتأمل اليد التي لامست يده بتحرش مكشوف وهي تحتضن الكأس .

كل هذا كان منذ أيام قلائل وفي العيد الصغير وهو ما دفع أحمد إلى مصارحة أخيه برغبته في الزواج فأخذ يعد العدة وتقدم لطلب يد ابنة خالته الوحيدة وأقيم الفرح في جو عائلي بحت ، وتلفت صلاح حوله باحثاً عن عروسه بين الفتيات الجالسات في باحة الدار ، تأمل الوجوه من خلال وهج النار المشتعلة تحت القدور ولكن لم يستطع جمع شتات فكره فخرج ليستنشق الهواء ، وعلى عتبة الدار اصطدم بها ، كانت تركض في الظلام وأخذها بين يديه وعلى النور الباهت لمح وجهها ، ولكن انفلتت منه وضاعت في منعطفات الدار ، وغرق في

تأملاته مع النجوم ، عاد وكأن شيئاً لم يكن لمشاركة الجميع حركاتهم ورقصهم غير أن فشله في الانسجام دفعه إلى الاكتفاء بأن يراقب القدور وحركات الطباخ ..

وتذكرها ولكن لم يجدها بين الوجوه التي مرت به فلم يلق لذلك بالاً وانتهى الحفل وأخذ أحمد زوجته إلى مقر عمله ، ومرت الأيام سريعة وإذا بوالد سعاد وأحمد يدخلان عليه الدار فجأة وأقنعاه بالزواج ، وتنهار كل مخططاته وحقائقه ، وانتهى كل شيء سريعاً وفي دوامة لا يذكر منها إلا تلك اللحظة التي طلب منه الجميع الدخول على زوجته ، أخذت تملأ عليه فراغه ووحدته ، لكن الأيام كانت له بالمرصاد ، اكتشف مقدار غلطته، كانت لا تعي المسؤولية ، جل همها أن يقدم طلباتها على طبق من الشيكولاته ، وفشلت كل محاولاته تعليمها الطبخ واستقبال الزوار والتخفيف من سلطان النوم الذي يكبس عليها في عز الظهر وتحمل كل شيء للروابط التي تربطها به فهي من أقاربه قبل أن تكون زوجته ومشاكلها مشاكله ، وذات مساء في حفل زفاف أحد الأصدقاء كان واقفاً في ركن بعيد عن الأنظار مر بالقرب منه اثنان من المدعوين يتهامسان .

ـ إنها هنا..

ـ وما أدراك ..

ـ لقد شاهدتها تطل من سطح الدار..

وتلفت صلاح حوله باحثاً عن سطح الدار وأخذ يرمق الفتحات فتحة فتحة ولم يجد لها أثراً فغادر مكانه وأخذ يفكر في تلك الكلمات، ولم يصل إلى نتيجة وعاد إلى الدار مرهقاً واستلقى في الفراش وأخذ يتأمل السقف ..

ـ نوال ..

ـ نعم ..

ـ لماذا لا تأتين للنوم .. ؟

ـ أوه ألقيت بجسمي على أحد كراسي غرفة الجلوس فنمت .. وألقت بجسمها على الفراش بقربه فأخذ يتأملها محاولاً الدخول إلى أعماقها ، وقطع عليه تأمله تقلبها وأصبح وجهها في وجه مسبلة العينين تتنفس في هدوء ، تملأ وجهه الصغير بسمة خفيفة ، فأخذ يمر بيده على خصلات شعرها وجبينها وتوقفت يده وهي تداعب الخد المتورد .

ـ إنها هي نعم تلك الفتاة الهلعة في تلك الليلة كيف لم أعرفها إنها نوال ؟

وقفز من الفراش كمن لدغته أفعى وارتدى ثيابه وخرج من الدار، لكن قبل أن يغلق الباب توقف قليلاً مطرق الرأس، وعاد إلى الغرفة وتمدد بثيابه وأخذه النوم . &

الزرقاء تخدع نظرها

الضباب يلف المدينة .. وموجة البرد المفاجئة خلقت شيئاً من الهلع في القلوب فهجرت الأقدام الشوارع وانزوى كل واحد في داره أمام المدفأة يتابع في سأم وملل برامج التلفزيون منفساً عن ما في أعماقه من غضب بالصراخ في وجه أطفاله .. ومجالسيه كأن لا شيء يعنيه من كل ما حوله سوى الهدوء .. الساعة تشير إلى الحادية عشرة مساءً وأنين ماكينة خلط الإسمنت المزروعة في الشارع يصم الآذان حيث مدد العمال المكلفين بتجديد سور المقبرة المتهدم إنهاء المهمة المنوطة بهم هذه الليلة بعد أن طال العمل وتجاوز الوقت المحدد له .

وقف إبراهيم أمام الباب الخارجي يتأمل ما حوله محاولاً تحديد شيء من خلال أفكاره المشتتة ليقوم بتنفيذه .. إنهم يسرقون من عينيه النوم .. إنهم قتلة مرتزقة .. هناك جهات مأجورة تقدم لهم كل شيء .. لقد فوجئ بأن لديهم معدات وأشياء فوق كل تصور وخيال .. وهو خال الوفاض ..

ـ لقد صرفت الشيك ..

ـ ولماذا لم تقل عندما صرفته .. ؟

ـ قريباً صرفته ..

وتذكر كل الأحداث .. كان الشريط يمر في هدوء معلناً عن نفسه .. لم يكن يحتاج إلى عنوان ..

كان ذلك منذ مليون عام عندما دعاه مديره في الدائرة وصرخ فيه:

لماذا .. ساعدت محمودا .

ـ لأنه إنسان يستحق ذلك ..

ـ وهل أخذت الضمانات .. ؟

كانت مفاجأة له .. لقد عرض كل شيء .. ومرت الأزمة بسلام حيث أخذ يضحك من سذاجة الآخرين .. من لا هم لهم سوى اللهو .. وتعقب أعمال الآخرين بالنقد والذم ..

وحدثت حادثة أخرى كان منطلقها وفاة موظف صغير ذي عائلة كبيرة .. لقي في طيبة من حوله فرصة .. شعر فيها أنه سيد الموقف .

أخذ إبراهيم يتأمل .. والعمال الصوماليون يقومون بعملهم في رتابة وصمت بخلاف بقية العمال الآخرين الذين لا ينشطون في تأدية أعمالهم إلا من خلال الغناء والصراخ على بعض للحث على الإسراع ..

إنهم صورة لذلك المسكين الذي وقع فوقه ذات صباح دولابان من دواليب الكتب وارتطم رأسه بالإسفلت .. وعندما حمل رفاقه عنه الدواليب نهض مغمضاً عينيه يمسك برأسه وهو صامت لم يتفوه بكلمة .. ولم يقم بسب زملائه في العمل حيث أهملوا أصول السلامة وكاد يذهب ضحية الموقف .

شعر إبراهيم أنه في حاجة إلى أن يستنشق الهواء بعيداً عن نواحي المكينة الملعونة .. فاتجه إلى سيارته بعيداً يملؤه حزن غريب كان يردد بين لحظة وأخرى ..

ـ أعوذ بالله من الشيطان الرجيم .. لا حول ولا قوة إلا بالله ..

وسرعان ما وجد إبراهيم شيئاً من ذاته الممزقة .. حيث عجز منذ زمن بعيد عن سبر غورها وأخذ يرسم الأسئلة التي يبحث لها عن جواب ..

ولمح مقهى صغيراً على جانب الطريق .. فأخذ يهدئ من سرعة السيارة واقترب من باب المقهى حيث أوقف السيارة على بعد خطوات منه وولج المقهى الذي لم يكن به أحد وأخذ يتلفت حوله محاولاً بعث الدفء في أطرافه المثلجة ..

ـ أمرك يا عمي ..

وقفز من مكانه كمن لدغته عقرب وأخذ يبحث عن مصدر الصوت ووجده ، كان مختبئاً بين كومة من البطانيات والأغطية ..

ـ أريد براد شاي .. وتعميره.

مر الوقت ثقيلاً وهو يحاول الخروج من الأسئلة التي أخذت تتوارد في خاطره بنتيجة..

ـ إنهم يقتلون العصافير .. كل يوم ..

ـ أين .. ؟

ـ في الناحية الشمالية من الوادي ..

ـ المسئولون.. ؟

ـ إنه مكان بعيد عن الأنظار لا يعرفه غير أهل الديرة ..

ـ ما فيه عقال فيكم .. ؟

ـ فيه ..

ـ وماذا يعملون .. ؟

ـ يشاركون في القتل بكل لذة .. إنهم يمتدحون لحم العصافير المشوية .. على نار تلتهم أغصان الأشجار التي يجب أن نحافظ عليها..

وضحك .. لقد عرف كل شيء عن ما يقلقه ودفعه إلى الخروج في هذه الساعة المتأخرة من الليل من داره .. ليبحث لقلقه عن سبب حتى يهدأ ..

مد يده بالأجرة لصاحب المقهى شاكراً إياه على ما قدمه له من خدمة .. وانطلق عائداً إلى المدينة .. التي استقبلته أنوارها كعروس تزف إلى عريسها .. لكن عادت الهواجس والأحاسيس التي كبتته .. إنه ذو شخصية منفصمة لا يعرف كنهها تقبع في أعماقه ويخاف أن يتعرف عليها .. عندما تعود إلى الطفو.. من جديد .. ومع ذلك استمر في الدخول .. وتقصر المسافة بينه وبين الدار ..

* * *

مساء يوم في آذار

فتح محمد الباب على أثر سماعه للجرس يرن ، كانت دليلة في مواجهته تماماً تقف في وجه الباب ..ابتسم ابتسامة صغيرة ..

أهلاً .. بالضوء ..

وكان يفكر في فرح بهذه المفاجأة ، حيث نسي كل محاولاته في جذب انتباهها وإقناعها بأنه كمن فقد شيئاً عندما رفضت مشاعره ، وحاولت في فلسفة وحزن بأنها لا تستطيع أن تكون من نصيبه ، أو تلك الفتاة التي يأمل ، فقد أغلقت قلبها بعد أن عاشت مأساة فقدت فيها حنانها وأحلامها ومطامحها لتكون هنا ..

تبحث .. عن مسافر لعلها تلحق بالقطار الذي تحرك من المحطة منذ آلاف السنين، لاعتزامها اللحاق به في إحدى المحطات التي يتوقف فيها حتى لو لم يتبق من طريق الألف كيلو سوى ثلاثين أو عشرين أو حتى عشرة كيلوات !! .

ـ والدتك فيه .. ؟

هزّ رأسه نافياً .. كان صوت أصدقائه .. يصله لقد طال انتظارهم له ولعبة البلوت متوقفة فهو الرابح والأوراق بين يديه لم يتركها في مكان حتى يمنح أحدهم فرصة اللعب بدلاً منه .. وأطل أحدهم من النافذة ولمحها ..

ـ لقد أخذتك عن أصدقائك ..

أخرتني أنت الذي أخذتني إلى هذا الموقف .. لقد طال انتظاري فقدت كل إحساسي بالحياة.. شعوري توقف عند ذلك اليوم الذي حاولت أن أفرض فيه نفسي عليك ورفضتني..

لقد توقفت عربتي في الطريق العام فجأة .. دون سبب وأعيتني الحيلة في دفعها للسير من جديد، كان موقفاً حرجاً جعل العرق يتصبب من أطرافي ويلفح وجهي بقطراته المالحة..

ـ ماذا تفعلين الآن .. ؟

ابتسمت .. ثم وضعت كفها فوق شعرها كأنها تداري كلمة حاولت أن تخرج، اتسعت ابتسامتها شيئاً فشيئاً..

ـ أنا وقتي من ذهب .

ـ وأنا هل .. وقتي من هباب ..

لكم تغيرت علي، لقد نسيت كل شيء .. غريب .. هل أنا غريب ، لقد أنكرتني وأحس أن بداخله إنسان آخر .. يتلوى ألماً بينما تعمل في داخله سكاكين تمزق أحشاءه تنغرز بقسوة في صدره وفي كل جزء من جسمه ..

الألم شديد وجديد في نفس الوقت وأحس أن يده التي يمسك بها الباب المفتوح ليست يده، إنها شيء آخر وأخذ يتأملها منتظراً أصابعها تتحرك.

ـ أبداً إنما ها هم زملاؤك ينادونك..

نعم نحن نقضي الوقت في لعب الورق، ماذا بقي حتى الإنسان يسعى، لقد غدا وجودنا مجرد لحظة هي الرقاد.. ولقمة العيش بعد أن تم نفي كل المشاعر إلى جزيرة مهجورة في وسط البحر وتم تطويقها بالديناميت والأشعة لقتل كل من يحاول التسلل.

ـ هذا أعرفه .. إنهم فقط يريدون هذه الأوراق ٠٠الشارع يعج بالسيارات والمارة من الجنسين ومن كافة الأجناس، لكنه يعرف أن الأمان مفقود والعمر محدود.

وفي حركة محنقة رفع المزلاج الذي يغلق الباب من الداخل ومال بجذعه إلى الأمام .. لا لماذا الكذب سيقول لها بصراحة أن هذه الكلمات التي تفوه بها والتي سوف يتفوه بها مستقبلاً إنما هي كلمات جوفاء يقولها لكل عابرة سبيل أو قد تدفعها الأقدار إلى الوقوف لسؤاله عن وجهتها..

إن التلعثم الذي يسر بل كلماته إنما هو خنادق حفرها بعض الرعاع ذات ليلة غاب فيها القمر وسرق فيها النعاس حارس حيهم وحجارة كبيرة كانت تقف في وجه النهر مكونة مع الرمل.. والحجارة الصغار.. شاطئاً مهجوراً ..

ـ وأنت .. أنني أخشى مثل هذا الموقف .

لقد أفادني .. إذ فيه أحاول أن أثبت موقفي من جديد لعلي أجد قلباً كقلبك يتسع لسبر أغواري .. يكشف خفايا نفسي .. كنت في الماضي ملء النفس والخاطر فغدوت اليوم ذكرى أكاذيب الأمل .

إذا كان المفهوم أن الحقيقة التي هي عفو دائم في حياتنا سوف تعتمد حق الاعتراض الذي منحه لها موقفك، ومع هذه الفرصة التي أقف فيها معك أمام الباب منذ نصف ساعة .

وقد توقفت عقارب الساعة بالنسبة لي .. ولا أجد معي سوى كلماتك التي أحاول أن أسبر خباياها وابتسامتك التي تصغر .. وتكبر حسب الكلمات التي نتبادلها ونقولها وقد تشتت فكري .. فأنا الآن أمام الجميع .

هناك من يرقبنا من بعيد .. وأصدقائي يرتفع صوتهم المستنكر وذلك القادم ..

ـ افسحي الطريق .. افسحي الطريق ..

دخل صديق جديد ، سلمه محمد ورق اللعب الذي يحتفظ به .

ـ في أمان الله .

إلى اللقاء .

هزت رأسها نفياً

وحاولت أن تعود .. وحاول أن يقول شيئاً .. أخذ يتابعها بنظراته وعند المنعطف رمقته بنظرة أخيرة ثم رفعت كفيها إلى صدرها كانت تريد أن تقول شيئاً وتوقف .. كل الرجال من طين . لقد انشطر قلبي ، إنه الخطأ عودة الإنسان إلى عالمه المبني على اللهو وقضاء الوقت في أشياء تافهة .

يكون فيه أحدهم عرضه للنقد ..

وفي هدوء أغلق الباب وتذكر وهو يعود إلى أصدقائه أنه نسي أن يطلب منها أن تكلمه ..

ومدّ يده إلى السماعة ورفعها إلى أذنه ليطمئن على أن الجهاز يعمل بصورة جيدة وأعادها في هدوء كالعادة .. وأنه حي مع الآخرين في ضجيجهم محاولاً مواصلة اللعب حيث نسي كل شيء ..

* * *

الرحيل النهائي

عندما تحدث الجميع عن مقتل عنتر .. تضاربت الأقوال في الأسباب المؤدية إلى القتل ، منهم من قال إن سيارة مازدا مسرعة اجتاحت جسمه ذات ليلة وهو يقطع الطريق متجهاً إلى الحي الذي تقيم فيه عبلة فصرعته ..

ومنهم من قال صعقه التيار الكهربائي ، حيث التصق بأحد أعمدة النور بالصدفة أثناء عدوه في أحد الشوارع الجانبية بينما كانت سيارة شحن كبيرة تقوم بقطع أسلاك تلفون وكهرباء متشابكة حيث لم يراع فيها المسئولون الارتفاع المناسب وسرى التيار الكهربائي في جسمه فتفحم ، وآخرون أنه اشتبك في عراك مع أحد الأشقياء فضربه بآلة حادة ..

كانت الأقوال كثيرة عن عنتر .. لكن لم يؤكد أحد أن تلك الجنازة التي خرجت من الدار التي يسكن فيها مع والدته العجوز وإخوته أنها جثته .. وقد ألجمت الفاجعة أسرته وهدت من كيان إخوته ..

أما هي فقد كانت تعرف كل شيء عن اختفاء صالح الذي تعارف الجميع على تسميته بعنتر وذلك لسواد لونه وضخامة جثته وأنفه ذي الأرنبة الخاصة ونتوءات وجنتيه التي جعلت على محياه سمة من الجمال الضعيف المستجدي ذي النظرات الشاردة والابتسامة الصغيرة المترددة .

أجل تعرف كل شيء ومع ذلك لم تبح بما يعتلج في داخلها ، ولكن تؤكد أن الجثة تلك ليست له وأن الميت الذي دفن منذ أيام في المقبرة العامة شخصية مجهولة دفعتها الصدف لتكون صالح الذي اختفى من المدينة وهو يلمحها تقف أمام أحد المتاجر في الشارع العام الذي لا يبعد عن المنزل كثيراً ..

إنها تعرفه منذ عشرين عاماً .. بل أكثر .. حيث وجدته يعمل في منزل أسرة زوجها خادماً يقوم بكل الواجبات ولا تدري ماذا شدها إليه بخلاف البقية التي كانت تصرخ في وجهه لا تعرف له اسماً سوى أيها الكلب .. ؟ أو الولد ..

كان الجميع يعاملونه معاملة حسنة .. شاب يافع دائب الحركة في الثامنة عشرة أو أقل من عمره ..

وأطل طفلها الأول .. وإذا به صورة طبق الأصل من صالح لولا اختلاف البشرة، وشعرت بأن العيون حولها تسألها سر ذلك .. ورغم معرفتها أن شكوكهم في غير محلها لم تستطع المجابهة .. ولمح صالح ذلك كله .. عرف مقدار تألمها وهي الوحيدة التي عطفت عليه واعتبرته كأخ لها وليس كخادم رغم أن له علاقات بالآخرين لا يعرف عنها أحد شيئاً ..

أما هي فقد كانت فوق الجميع معاملة وسيرة .. ومع تألم أخذ يفكر في إيجاد طريقة يستطيع معها أن تنسى آلامها .. فاختفى من المدينة فجأة .. كان شعور الذنب بأنه سبب تعاستها يقلقه ويؤرق عليه وحدته وتناسى الجميع صالحاً .

أما هي فقد رزقت بمولود آخر .. وانتقل عمل زوجها من المدينة السابقة إلى مدينة أخرى، كانت الأمور تسير فيه هادئة ورتيبة .

عاشت السعادة كاملة .. رغم ابتعادها عن أسرتها وأهلها وقد غلفت الحنين والماضي بأكثر من سربال لتكون لأبنائها وأسرتها الجديدة .. كانت في محاولة البحث عن ذاتها في غمرة ما انكشفت من أسرار بعد اختفاء صالح .. حيث ارتسمت أكثر من علامة استفهام ..

ـ مريم هل تصدقين أن صالحاً كان يشتغل عندنا خدام منذ عشرين سنة ، مات منذ أيام بسبب حادث ..

ـ كيف .. ؟

ـ لقد كانت صدفة وأنا في المسجد إذا بجنازة وقمنا بالصلاة عليها، ومن الهمس الذي دار حول الميت عرفت أنه صالح فقمت بزيارة والدته وإخوته وواجب عليك زيارتهم .

كان ذلك بعد أيام من وصولهم إلى الطائف حيث تم تعيين زوجها مديراً لإحدى الإدارات العامة ، وفي اليوم الثاني بالتمام لمشاهدتها له وهي تتأمل "فترينة" أحد المعارض في الشارع العام القريب من الدار التي تسكن فيها لمحته واقفاً أمامها يتأملها وقد صعق .. كان يود أن يقول لها شيئاً .. ورغم مرور الأيام لم تختلف صورته من ذهنها .. إنه بداية الإدراك في حياتها حيث لا ينفع الإنسان غير ذاته وقلبه الطيب بخلاف كل المؤثرات الخارجية .

حاول أن يتقدم منها فلم تطاوعه قدماه .. استعصت عليه الخطوات واقتربت منه وهي تردد ..

ـ صالح .. صالح ..

ولمحت دمعتين تنزلان من مقلتيه .. كانت هي كل شيء إذ اختفى عن ناظريها .. أخذ يعدو مبتعداً كأن شيئاً مخفياً يطارده وعادت ذلك اليوم إلى الدار حزينة ..

وها هو يموت .. كلهم يقولون إنه مات .. أما هي ففي أعماقها شيء يؤكد خلاف ذلك .

حيث عرفت من والدته أنه كثير التنقل .. يقرر السفر فجأة .. لقد كانوا في الرياض وفي مكة وفي المدينة وفي الدمام وفي مدن كثيرة ولكنه فجأة يقرر السفر رغم ارتباطاته وأعماله .. وتذكرت أن كل هذه المدن مرت بها .. وأن سفره المفاجئ يتفق مع مرور أسبوع أو أسبوعين على استقرارها مع زوجها بالمدينة الجديدة .. لقد كان يواصل الهروب .

حتى يكون بعيداً عنها .. إنه إحساس في أعماقه اعتبر نفسه مصدر ألم وبؤس لها، الأمر الذي دفعه إلى الهروب واجتياز المسافات، لكن كيف كان يعرف ؟ هل كان من الصحف ؟ أو أنه يلمحها أو يلمح أحد أفراد الأسرة في الشارع فتثور ثائرته ويقرر قراره.

كانت تود أن تقول له كل شيء .. عن حبها الأخوي .. وحنق الآخرين لهذا الحب .. وشبه ابنها البكر له .

أشياء كثيرة .. ولكن ها هو .. عنتر يموت ولمحت عبلة كانت سيدة سمراء اللون في منتصف العمر أرملة تعيش مع والدها شبه مخطوبة له .. تبكي بقلب محروق عليه .. ولكن ما هو العمل لعودته، وقد أنهى كل ارتباط بأسرته من أجل ألا يرهقها بالرحيل معه من جديد .. وشعرت بتفكيرها أنها تنتهك حرمة الموقف الحزين فاستأذنت .. لتجد زوجها يقف بسيارته أمام الباب وقد تكوم أولادها الثلاثة في المقعد الخلفي ..

وانطلقت السيارة إلى خارج المدينة وقد ران الصمت على الجميع بينما كان زوجها يرمقها بنظرة غريبة مملوءة بأكثر من علامة استفهام محاولاً الولوج إلى أعماقها لمعرفة ما تفكر به ..

* * *

عندما توقفت الكلمات

حسن شاب لم يتجاوز الثلاثين من سني عمره .. ألقته الأقدار في طريق البحث عن الهدف فاشتعل رأسه شيباً وغزت الأفكار الهدامة أحاسيسه فلم يعد يؤمن بالمبادئ الإنسانية .. رغم أخلاقه وحرصه على أن يكون وبوازع داخلي إنساناً طيباً .

احترف كل مهنة آخرها صبي في مقهى مهجور على طريق صحراوي طويل ، وجد في الزبائن المرتادين سلوى ولحظة انبساط افتقدها في قريته وفي المدينة التي أغرته بأهوائها المزيفة ، فأصر على أن يقدم إليها رغم حرص والدته على أن يبقى للأرض التي ورثها عن والده .. والتي لم تتنكر في يوم من الأيام لهم .. حيث البئر التي لا ينضب ماؤها والتربة الصالحة لزراعة كل شيء من الفواكه أو البقول ..

لا يدري متى ترسبت الفكرة في أعماقه فكل ما يعرف أن هناك شعوراً غريباً كبر مع الأيام حتى ضجت أعماقه بوساوسه وأحلامه ، والتحق بالشرطة جندياً بسيطاً غرست فيه الشدة وعدم المبالاة راكناً الخوف في ركن مهجور ، وبما أنه حاصل على الشهادة الابتدائية فقد رشحه قائد المجموعة التي ينتمي إليها أميناً للمستودع – بخلاف المعتاد – الأمر الذي خلق له أعداء في صفوف زملائه في الجندية ومن هم أكبر منه في السن والمرتبة ..

خلقت فيه قريته الطيبة الطموح فملأ مكانه بشيء من الحرص والإحساس بالمسؤولية .

مرت الأيام مملوءة بالمفاجآت الجميلة ، وذات مساء بينما كان يتجادل مع أحد زملائه في الشارع العام لمحها ، وحيدة في مقعد سيارة فارهة تقلب صفحات مجلة ، غير عابئة بما يدور حولها ، أحس بوخزه شديدة في صدره وصرخ من الألم الأمر الذي أثار انتباهها فأخذت ترمقه في هدوء بينما أخذ زميله يسأله عن سبب صرخته ..

كان الموقف كبيراً وكان الألم شديداً لم يخفف منه احتضان صديقه له أو تدليك صدره، حيث شنقت الحالة كلمات حاول أن يقولها فوق شفتيه ..

وتحركت السيارة في هدوء وانسياب رغم ملاحقته لها بنظراته وتمنيه بأن تتريث .. وأسرع صديقه إلى إحدى البقالات القريبة وأتى بكأس من الماء ارتشفه في عصبية وانهار على كتف صديقه .. الذي أوقف سيارة أجرة وحمله إلى حيث يسكن مع رفاقه في دائرة الشرطة وتمدد على فراشه في شرود وحيرة !!

الطريق طويل .. وأنوار المقهى الضعيفة تزرع الظلال الطويلة في جميع الاتجاهات لأفراد لا يتجاوزون أصابع اليد الواحدة بينما تراكمت في زاوية بعيدة بعض الفرش المعدة لمن يرغب النوم .. وأكوام من علب الجراك والجبنة والقشطة والتونة الفارغة مع بصيص جمرات في الموقد تحت الرماد .

تذكر حسن تلك الليلة حيث تحطم حلمه على أعتابها ، لقد كانت فتاة العربة عائشة ابنة عمه والتي قام أبوها بتربيته ، لقد انهارت كل أحلامه فجأة ولم يفكر أن ابنة عمه لن تركب مثل هذه العربة الفارهة ولم تكن في يوم من الأيام تحلم بالقراءة وخاصة مطالعة الصحف والمجلات ..

إنما كانت لحظة .. تم فيها سرقة مفتاح المستودع منه واختفت بعض المعدات التافهة ولكن على إثر ذلك تم طرده من العمل ..

كان يتمنى أن يعود يوماً إلى القرية لابساً ثوباً جديداً ناصع البياض يتدلى على جانبه حزام المسدس ليرى في عينها ذلك البريق الذي لمحه ذات مساء وهي تتطلع في أحد أبناء القرية القادمين من الشمال حيث التحق بالعسكرية لكن كل شيء تحطم ..

واختفى .. وارتحل ذات مساء غير مبال على ما يترتب من عواقب متناسياً كل شيء .. المهم أن يبتعد وأن يصبح في الزحام ..

ـ قهوجي ..

ـ أهلاً ..

ولمح اثنين من أبناء قريته فعرفهما .. لكنهما لم يعرفاه .. أخذ يتفرس فيهما بقسوة مستشفاً عبير قريته وأريج أزهارها..

ـ من أين الأخوان ؟

فلم يردا عليه .. لقد أخذوا بدورهما يتأملانه ولكن نفير السيارة التي يستقلانها ارتفع فكفا عن كل شيء..

إنهما علي ومحمد ابنا صالح المطوع .. لقد غادرهما وهما طفلان لكن إلى أين هما ذاهبان .. ؟

جلس مكانهما وأخذ يتأمل السيارة المغادرة.. هناك شيء في داخله عجز تماماً عن إدراكه أو تصوره ولكن لم يجد مفراً من افتراض وجوده، وحلق بعيداً وقرر مغادرة المكان .. صمم على أن يرحل من جديد فاستأذن من رفاقه في المقهى وربط فراشه وأخذ يحصي ما توفر لديه من نقود .. وأخرج من حقيبة ملابسه دفتر التوفير الذي استلمه من البنك الذي أودع فيه نقوده قبل أن يصل إلى هذا المقهى ..

وقف على الطريق وأخذ يؤشر لأصحاب السيارات ومر وقت طويل لم يشعر فيه بأي ألم أو ضيق وتوقفت سيارة صغيرة لم يكن فيها سوى السائق وراكب آخر في المقعد الأمامي .. وسألاه عن وجهته فلما اتفقت طريقهم سمح له السائق بالركوب .

وانطلقت السيارة تسابق الريح وفي لحظة لا يدري ماذا كان، إذا بكل شيء يتغير ويصرخ السائق فزعاً حيث اعترض الطريق جمل هائل .. كانت هذه كل ما تذكر عندما عاد إلى وعيه .. وتلفت حوله إنه ما زال في مكانه على المقعد الأخير والسيارة خالية لا يوجد بها أحد .. وحاول النهوض لكن هناك أكثر من ألم في جسمه والباب الذي من ناحيته لا يساعد على الخروج وتذكر كل شيء فالسيارة مهشمة ورفيقاه ممدان على جانبيها وخرج من فتحة الزجاج الخلفية المهشمة وأخذ الفزع يقيد خطاه يفكر فيما حصل .. السائق ينزف دماً ورفيقه الآخر كذلك ، حاول الاقتراب لكنه شعر برهبة وخوف .. لكن لا أحد هناك ..

وعاد إلى السيارة حيث أخذ يتفقد حقيبته الصغيرة .. فوجد كل شيء في مكانه .. فوضعها جانباً .. وهو حائر في أمره وعاد واقترب من السائق مرة أخرى واجتاز العربة إلى الجهة الثانية حيث يتمدد الآخر .. فوجد بالقرب منه رزمة نقود من فئة المائة ريال امتدت نحوها يده وأخرجها بعد شيء من العناء واتجه نظره إلى السيارة فأسرع إليها وعند المقود وجد حقيبة يد صغيرة شبه مفتوحة مد يده نحوها وأخرجها بعد شيء من العناء ووجد بها رزمة أخرى مشابهة لتلك .. وأسرع إلى حقيبته ودفن النقود بين طيات ثيابه ثم حشى الحقيبة الصغيرة بشيء من ملابسه ووقف على الطريق ..

عاد إلى رفاقه في المقهى وأخبرهم بما حدث وأعاد حقيبته إلى مكانها في مخزن المقهى وأسرع إلى المستوصف الصحي وأبلغ المسئولين بما جرى ..

غادر حسن المقهى من جديد في سيارة أخرى ووصل هذه المرة بالسلامة فأخذ يتجول على غير هدى في المدينة حتى وصل إلى مقر البنك الذي يضع نقوده فيه فقام بسحب رصيده الذي كان فوق ما يتصور ..

وقام بشراء سيارة جيب جديدة استأجر لها سائقاً .. لقد قرر العودة إلى قريته بعد غيبة عشر سنوات وارتدى ثوباً ناصع البياض .. لكن لا يوجد معه مسدس .. فأخذ يسأل الرجل الذي استأجره عن مكان بيعها .. فلم يفز بطائل إذ أن بيع الأسلحة النارية ممنوع منعاً باتاً، ولكن هناك من يبيعها .. فلم يفز بطائل رغم أن هناك من يبيعها في الخفاء .. فقرر شراء المسدس من قريته ..

لم يتغير شيء في غيبته .. غير أن والدته هجرت المزرعة إلى حيث يسكن بعض أقاربها بعد أن سرى الوهن في جسمها وغزا الشيب رأسها واستولى عمه

عليها .. وأخذ يبحث عنها بين مستقبليه .. ومرت سبعة أيام لم يشاهدها .. لم يذكر أحد اسمها .. إنه يريدها ..

ـ أينها يا أمي .. ؟

ـ من .. يا ولدي .. ؟

ـ عائشة .. ابنة عمي ..

ـ لقد تزوجت ..

ـ كيف .. ؟

ـ أحد أبناء البندر .. لكن أصله من قريتنا عنده رزق كثير .. والله لو رأيتها لما عرفتها ..

ـ وهل شاهدتها .. !

ـ أبداً .. إنما عمك يقول وكل من ذهب إلى البندر ورآها .. تسكن في مقر كله ألوان .. وعندها خدم وحشم وسيارات كثيرة ..

ـ وهي ..

ـ خلاص .. ما تعرف أحد جاءت في الصباح وقبل صلاة الظهر ورجعت ..

بعد ذلك الحوار .. أخذ يراقب ما يدور حوله .. في جنون وغضب وأخذ يحدث نفسه بأشياء كثيرة زرعها خياله في طريقه ..

وفي يوم من الأيام أخذ طريقه بين المزارع متجهاً إلى الجبال .. لمح ثلاث فتيات يسرن وهن يتحدثن بصوت عال .. ما أن اقتربن من سور آخر المزرعة حتى صرخت إحداهن ..

ـ عائشة .. عائشة ..

فتوقف في مكانه .. وأطلت فتاة من فوق السور الشوكي .. وفغر فاه .. لقد كانت عائشة التي يبحث عنها وقفزت إلى رفيقاتها فشاهدته وهو يتأملهن .. فلم يبالين به .. إنما أخذن يواصلن طريقهن ..

وتوقفت الكلمات على لسانه .. وهو يحاول الاقتراب منهن .. لكن كانت المسافة تكبر وخيال الفتيات الأربع يضمحل في الطريق الطويل بينما انتصب الجبل المزروع بأشجار اللوز والكينا أمامه في شموخ وكبرياء !! .

* * *

احتراق الزمن الغريب

الدوار يحطم كل محاولة لي في أن أجمع شتات فكري .. منذ أمس بدأ عملي بعد إجازة استرخاء طويلة قررت التمتع بها بعيداً عن معاناة العمل ومكائد الزملاء الذين لم يرضهم أسلوبي الانفعالي في أداء واجباتي الوظيفية ، التي حصلت من خلالها أن أكسر الروتين بكل ما في العالم من مطارق لألقى كلمة إطراء من مراجع أو لو كانت من خلال بسمة صفراء .. وما أكثر البسمات الصفراء في حياتنا التي غدت تعلن عن فشلنا ! .. الأوراق متناثرة حولي .. وأنا متمدد على الأرض في غرفتي الداخلية مع كتبي المتناثرة هنا وهناك .. وصوت مروحة كهربائية لها من العمر تسع سنوات يذكرني بأن الجو حار .. وأن هناك محاولات في مكان ما من عالمنا الكبير تدعو لتحسين وسائل تلطيف الجو أما المذياع .. فقد كان يقول في "مشوار السعادة حلم يمتد في ليل الحنين يزرع الأحشاء بالفرح ينطلق من الداخل إلى الداخل أنت ما زلت حلم العمر .. إلخ" وتتراكم الكلمات .. فالحنان والدفء .. وأمسية سعيدة .. أشياء كثيرة .. قد اضطر يوماً تحت ضغط الحاجة إلى كلمة حنان أن أهجر كل ما حولي في رحلة انتحار إلى عالم غريب في انتظار لحظة موعودة بالأمل بأسرار الغابة العذراء .. والنهر البكر المليء بأعذب الألحان وهو ينساب متغلغلاً في جبروت إلى أعماق البعيد ، حيث يقف كل شيء أمام رحلة جديدة لشيء آخر..

تكدست الأوراق في المكتب معلنة أنه لم يتم شيء من إجراءات إكمال تشييد المشروع الجبار الذي صمم المساهمون على إنجازه في أقرب فرصة .. شعر بالحزن العميق وهو يقلب الأوراق باحثاً عن مخرج يصل منه إلى نتيجة .. يجد معها الحل .. وأن يتقبل العاملون معه ذلك مضحين براحتهم أسبوعاً على أكثر من معدل ليعود مسار المخطط إلى مجراه الطبيعي ..

ـ لقد تم إلغاء عقدي .. ؟

ـ لماذا .. ؟

ـ لأنني رفضت الانصياع للأوامر .. فلم أختر جهة أخرى حيث تم تخيري وزملائي ..

ـ ولماذا .. ؟

ـ لأنني قضيت هناك عشر سنوات .. قدمت فيها كل شيء والآن أرفض أن أستمع..

ـ وهل وعيت معنى رفضك .. هل عرفت لماذا تم النقل .. ؟

ـ أجل ..

ـ إذاً هل هناك خطأ .. ؟

ـ لا أدري ..

ـ بل تدري .. الخطأ هو رفضك .. بالإضافة إلى أنه من الخطأ استمرارك هنا على حساب أبناء هذه المدينة التي قدمت وقدمت في نفس الوقت ..

فلسطيني من أبناء غزة .. يحمل وثيقة سفر صادرة من مصر .. كانت الغربة كبيرة وشعور عميق يؤكد أنه ارتكب خطأ .. أين يذهب الآن .. ؟

فكرت كثيراً فأنا أعرف قصة خروجه بعد هزيمة عام ١٩٦٧م إلى مصر، وزوجته وأولاده نزحوا إلى إحدى مخيمات الضفة الغربية وعانوا كثيراً .. أخبارهم تصل عن طريق الهلال الأحمر .. والغاصب الصهيوني يحرم عليه دخول وطنه دون أن يتنازل عن هويته، بل وحتى عن إحساسه بأنه عربي ..

عانى كثيراً لكن كانت فرصة .. واصل دراسته الجامعية وحصل على الشهادة وتعاقد على العمل في الطائف .. خرج من القاهرة ليواصل وحدته وغربته ووصلته صور لزوجته وأولاده أنهم مشتاقون لكن كيف السبيل إلى جمع الشمل . ؟ طرق كل الأبواب .. وكان الملجأ الأخير نيقوسيا حيث استطاع إضافة زوجته وأطفاله إلى جواز سفره واستطاع الحصول على تأشيرة لهم لدخول البلاد ، لكن الآن كيف يعود ؟ .. إلى أين يتجه ..

ـ الأمور تتعقد ..

ـ إنني أعرف ..

ـ ما هو الحل .. ؟

ـ أن ترضى بالواقع .. فأنت في حال أفضل من الآخرين ..

ـ إني أعرف ..

ـ ما دمت تعرف فابحث عن الحل ..

ـ لقد وجدته ..

وحصل بطريقة غريبة على تأشيرة خروج وعودة (سفر) لزوجته وأولاده حتى يعودوا إلى القاهرة حيث تقيم أغلب أفراد أسرته وأسرة زوجته .. لأسبوع واحد لأنه إذا لم يحصلوا على تأشيرة عودة فلن يسمح لهم بالدخول .. أما هو فقد قرر أن يطرق باب السفارات لعله يحصل على عقد عمل جديد ..

كان الحل جيداً ..

وكانت الفكرة .. مخاطرة .. هذه الحادثة التي مضى عليها أكثر من سنة وأنا أقلب أوراقي فأجد صورته فيها .. صورة كان قد أهداني إياها فلم أهتم بها كثيراً .. إنها تقف أمامي الآن شاهداً على شيء في داخلي لا أدري ما هو.. شيء يقول لي إنني حاولت يوماً مساعدته..

لقد كنت أرغب في الزواج من ابنته البكر التي لم يتجاوز عمرها الخامسة عشر حينذاك..

ـ سالم .. لقد تم الاستغناء عنك ؟ ..

ـ أنا.. ؟

ـ أجل أنت لقد تعاقدت المؤسسة مع موظف جديد يقوم بالعمل.. ؟

ـ وإعارتي .. من دائرتي التي حصلت عليها بمشقة الأنفس ، ما هو مصيرها ألم يعدني مجلس الإدارة بأنه سوف يتم تجديد العقد معي وتمديد مدة الإعارة سنتين أخريين.

ـ أجل .. لكن طرأت ظروف جديدة .

وعدت إلى العمل في دائرتي القديمة .. وأخذت أبحث عن عملي السابق فإذا بأحدهم قد احتله وعلي أن أستلم أي عمل يوجه إلي .. شعرت بالمرارة والسأم إنما رضخت في نهاية الأمر .. وبشيء من التغيير ..

واختلط كل شيء .. أصوات عالية .. وأغان .. وموسيقى صاخبة وهدير طائرة .. يمر بالأجواء .. ومن بين الزحام ظهر لي كل شيء .. لقد كان تأخر القطار عن موعده مرحلة جديدة تعترض طريقي لتنقلني إلى واقع جديد ..

حيث كنت من يبحث عن زوجة .. تحمل عنه الأعباء المنزلية وتخطط ليقوم هو بالتنفيذ دون عناء .. أبعاد خطيرة تقلق كل رجل تعدى العقد الرابع ولم يتزوج ..

عجبت كيف أنني لم أتزوج .. ؟! وشعرت بأنني أتوقف فأخذت أجمع الأوراق المتناثرة بيد .. وأمد اليد الأخرى في تردد إلى المذياع لإغلاقه على صوت يقول قصيدة جديدة من خلال موسيقى غير متجانسة وأمام صراخ أعماقي المتواصل .. نهضت من مكاني لإطفاء الضوء الباهر .. لتختفي ألوان الغرفة في سراديب الظلام المطبق ..

* * *

انتظار الزمـــن الآتي

المكان:

شارع من شوارع هذه المدينة الناعسة ذات الجفن الفاتر المتمدنة مع الزمان منذ أكثر من ألف سنة ، حيث كل الشواهد تدل على أنه ما زالت هناك قرائن لكل الشعراء .. ومحبي الكلمة الوردية، ترد إليها .. الشارع طويل لا نهاية له ، يخترق حيين من أقدم الأحياء وأعتقها ذكراً وتاريخاً ، وفي منطقة تشبه عنق الزجاجة من الشارع تتكون أشياء كثيرة ، منها سوق لبيع اللحم وبيض الدجاج وكل أنواع الخضار ، ومتاجر تنافس دكاكين السوق المركزية في أسعارها ولبيع الجملة .. وكذلك مقبرة مهجورة وكشك لعمال النظافة ..

الزمان:

كانت الوفاة غير طبيعية، فأنا لمحتها ذلك الصباح تقف أمام باب المنزل مرتدية ثياب العمل.. في انتظار حافلة المستشفى، حيث تعمل ممرضة منذ ثلاثة أشهر بعد أن حصلت على تقدير امتياز بين زميلاتها في معهد التمريض .. كانت الساعة الواحدة بعد الظهر من ذات اليوم الذي قيل فيها إنها ماتت بسبب ابتلاعها كمية كبيرة من حبوب الأسبرين.. أودت بحياتها لا أحد يعرف شيئاً عن الأسباب التي دعت إلى ذلك ..

وقد قابل والدها الأمر بهدوء وكذلك والدتها، كأنهم متوقعون منها ذلك .. ومنذ مدة ..

الحكاية:

انتقلت سوسن ذات الربيع الثاني والعشرين إلى رحمة الله على أثر ابتلاعها كمية كبيرة من حبوب الأسبرين إثر مشادة عاصفة جرت بينها وبين والدتها وشقيقتها المتزوجة التي حضرت مع زوجها لقضاء الصيف مع أسرتها.

على إثره ركضت إلى غرفتها حيث أخذت علبة الأسبرين وأسرعت إلى الحمام وابتلعت العلبة بكاملها ، وأغلقت الباب على نفسها ، لم يلاحظ أي إنسان علبة الأسبرين ، ولكن صراخ الأطفال أمام باب الحمام لفت الأنظار وتكوم الجميع يرجونها فتح الباب فلم ترد عليهم ، ولما طال انتظارهم حاولوا فتحه عنوة فلم يتمكنوا .. وسارعت إحداهن إلى التلفون حيث طلبت من والدها الحضور بسرعة .

وحضر وكان كل شيء قد انتهى .. حيث فعلت كمية الأسبرين فعلها في الجسم الغض، ووقف أطباء المستشفى العام أمامها حائرين، ولم يجدوا بداً من كتابة شهادة الوفاة .. ولاعتبارات شخصية جرى الكتابة في خانة الوفاة .. أنها بسبب ذبحة صدرية مفاجئة .

كانت سوسن تحب الصخب في كل شيء في حياتها .. حركاتها داخل البيت ، في المطبخ ، مع أشقائها ، حتى والدتها لم تسلم من تصرفاتها .. المزروعة فرحاً وأماني .. إنما كان هناك شيء في أعماقها يشعرها أنها مذنبة أمام الجميع وذلك من النظرات اللاذعة التي يلسعها بها والدتها ووالدها.. والحديث الجارح الذي كانت تفاجأ به عند كل حركة تقوم بها .. مهما كانت دوافعها ، وكان اليوم الأخير ..

شعرت أنهم كلهم ضدها، لم يفرحهم تخرجها ممرضة وبتقدير ممتاز حصلت على ضوئه على شهادة تقدير ومكافأة رمزية من الآخرين، أما أسرتها فكان الأمر لا يعنيهم بشيء، المهم أنها وصلت لما ترجوه دون أي إزعاج .. وقد يخفف تخرجها من وجودها المستمر في الدار ..

كان هذا تفكير من حولها في المنزل ..

أما هي فقد أحست بأن النور أخذ يغمرها وهي ترتدي كل يوم ثيابها البيضاء وهي تقف أمام الباب في انتظار حافلة المستشفى لنقلها إلى مقر عملها ..

توقف الضجيج الذي في داخلها مع هذه الحالة .. فأخذت تفكر في أيامها وحياتها السابقة ..

وفجأة تحطم كل شيء .. كان الصراخ يملأ البيت .. وكل شيء على غير العادة .. لقد ضرب أحدهم ابن أختها الصغيرة فشج رأسه، وأسرعت إليه لمعالجته بما هو بين يديها من علاجات إسعاف أولية .. وأوقفت نزيف الدم وشعر الطفل بالاطمئنان فنام في أحضانها..

وحاولت والدته أخذه لكنها امتنعت عن إعطائها إياه حيث أحست به يطوقها بيديه الصغيرتين محاولاً الاستنجاد بها والاحتماء من غضب والدته .. فحملته إلى غرفتها وأنامته في سريرها .. وغطته بأحد أغطيتها وقامت بتغيير ملابسها وخرجت من غرفتها لتفاجأ بالأمر ..

ـ متى تقولين لها عن أصلها .. ؟

ـ حرام يا ابنتي هذه أختك ..

ـ أبداً .. أنا أعرف كل شيء عنها ..

ـ استغفر الله ..

ـ أنها تريد سرقة أبنائي مني .. وجعلهم لا يسمعون نصائحي .. و ..

ولم تكمل كلماتها حيث لمحت شقيقتها تقف أمامها ودار نقاش حام بين الجميع كانت تصر فيه على معرفة صلتها بهم .. ووالدتها تحاول تهدئتها ، كانت الأشياء التي في أعماقها تطفو .. وتطفو والبركان الخامد ينذر بالانفجار ..

وانسحب الجميع من أمامها .. لم يبق غير الصغار الذين التفوا حولها، الأمر الذي زاد من غضبها وانفعالها فأخذت تشتم الجميع، وأمام انبهار الجميع بانفعالها وتشنجها ركضت نحو غرفتها النهاية.

وقف الشيخ سالم مبهوراً أمام الصورة التي وقعت من الكتاب الذي سحبه من أحد رفوف مكتبته حيث يرتاح للجلوس ساعات طويلة وحيداً بين الكتب إما يقرأ أو مفكراً بأيامه وذكرياته ومشاكل الحياة..

تناول الصورة والتي كانت لسوسن ومجموعة من زميلاتها في معهد التمريض ، أخذ يتأملها ، وانسكبت دمعة فوق خده ، كانت الدمعة الوحيدة التي استطاعت البوح بما يعتلج في داخله منذ وفاتها .. إنها ابنته كانت ثمن لحظة انفعال محرم ..

كان ذلك منذ زمن طويل أصيب بمرض أقعده الفراش ، وقامت أسرته باستئجار خادمة في مقتبل العمر للاعتناء به ، وكانت ليلة لا يدري كيف سارت فيها الأمور ، إنما شعر بكبر جرمه فتزوجها ، إنما كانت أقوى منه بكل ما تملك من مقومات اختفت بعد أن سلمته إياها في اليوم الأول .. واحتضنها .. لم يقل الحكاية هذه لأحد .. ولكن زوجته أم أبنائه عرفت كل شيء منه عندما طالبته تسليم الصغيرة إلى الشرطة .. وهددته بأنه إن قرر شيئاً سوف تهجره، ولكن رأفة بالصغيرة سوف تصمت .. إنما عليه أن يريها أوراق طلاقه لتلك الزوجة مع تنازل عن أكبر عمارة في ممتلكاته لها ..

ونفذ كل شيء ..

وها هي تتخلص أخيراً من آخر عقبة تقف أمامها وأمام أبنائها حتى يتم التخلص منه نهائياً ..

الخاتمة:

جرى نقل الشيخ سالم إلى المستشفى العام في حالة ذهول مفاجئ ليخرج بعد أسابيع وقد أخرسته مفاجأة أخرى لم يستطع البوح بها .. جعلت الجميع يطلبون له الرحمة .. أما أسرته فلم يتغير من نمط حياتها شيء .. فكل شيء هادئ .. حتى تلك اللحظات المجهولة التي يتم فيها اختفاؤهم عن الأنظار لم تعد تلفت النظر ..

* * *

الأشياء ذات الحروف البارزة

أخذ يتحدث بصوت خافت محاولاً قدر المستطاع شرح ما يقاسي من آلام جسمانية ونفسية ..

فمنذ أربعة أسابيع وهو يقاسي آلاماً داخلية لا يدري لها سبباً زار من أجلها أكثر من طبيب واحتار الجميع في تحديد مصدره، إنما اتفق معظمهم على إعطائه بعض الأدوية المهدئة لعل الألم يزول .

وصرخ في وجهي: كيف يزول الألم وأنا أعيش آلاماً أخرى في منزلي حيث ابني الوحيد ؟ يقرر العصيان بتدبير من والدته ، وأموري المالية رغم أنها جيدة آخذة في التدهور بسبب عدم المبالاة من حولي وانشغالي بآلامي الجسمانية والنفسية .

كثر الحديث عن سفر محمد مخلفاً والدته ووالده وأشقاءه الصغار إلى المجهول حيث لم يستطع أحد تحديد وجهة سفره رغم أن والدته أصرت على أنه سافر مع قريب لها يمتلك سيارة شحن كبيرة لنقل البضائع من الميناء البحري بجدة إلى أغلب المدن الداخلية .

وقد سافر محمد معه ليكون مساعداً له في عمله الشاق، أو يبحث له عن عمل مناسب مع قدراته ..

وانقطعت أخباره .. واختفى القريب .. حيث لم يعد يشاهد بعد سفر محمد معه ، أما سليم الرجل الذي هدته الأمراض الجسمانية فأخذ يتحدث لكل من يقابله عن آلامه الجسمانية التي أخذت تسحق روحه وتمتص بريق الحياة من محياه فقد أخذ يبحث لنفسه عن شاغل يتناسى به غربة ابنه وانتظاره كل مساء له .. ليجلس أمامه كالعادة على طاولة العشاء وأمام التلفزيون .

فابتعد عن الدار وأخذ يرهق نفسه بالأعمال خالقاً لنفسه كياناً جديداً، ووجد في شقيقه أحد العاملين معه في متجره زوجة طيبة لينسى معها همومه وآلامه .. فتناسى زوجته السابقة وأطفاله الآخرين تاركاً الأمور تسير من السيئ إلى الأسوأ بالنسبة لهم غير مبال بما قد يترتب على ابتعاده من آثار .

شعرت أم محمد بغلطتها الكبرى نحو ابنها الذي شجعته على عصيان والده مؤملة من وراء ذلك أن (سليم) سوف يكف عن تقتيره ويغير من نظرته الهمجية نحو الحياة ، وآخذة الأمور بعدم الاهتمام أو مبالاة ، حتى أصبح منظره مزرياً ، وحياة الدار لا تطاق لولا شيء من الصبر ما زال مترسباً في الأعماق أوجدته الحياة ذات يوم ليكون رافداً من روافد الأيام القادمة ، ذات الصور الباهتة ،

والحكايات المجدية الغارقة في السوداوية الباعثة على الحزن والألم حيث تعيش مع أبنائها الحرمان بكل صوره ..

لكن كيف نعيد كل شيء إلى ما كان عليه ؟ وها هي كل الأبواب مقفلة ، أخبار محمد منقطعة ، وسليم اتفق مع بعض الجيران على إعادة المياه إلى مجاريها معها ، فقد قام بتقديم هدية كرد لاعتبارها ، وتعهد بأن ينفق عليها وعلى أبنائها كالمعتاد ، وأن يسافر إلى أقارب الرجل الذي سافر محمد معه لمعرفة مصير ابنهم الغائب ..

عاد كل شيء إلى طبيعته وإن كانت هناك صورة حزينة معلقة في صدر الدار تفرض ظلالها على الجميع حتى وإن حاولوا تناسي ما هم فيه من هموم ..

إنهم يغتالون الأطفال في المدينة ، وبما أن (محمد) ما زال طفلاً فقد توهم الجميع أنه ما أن غادر عتبة الدار في رحلته تلك حتى اغتاله أحدهم ، إنهم وحوش في بحثهم عن الذات ..

وذلك الصغير كل زاده مشاكل والديه وإحساسه بأن شقيقته الكبرى تعيش قصة حب مجهولة المصير مع أحدهم .. تقدم لخطبتها أكثر من مرة عارض فيها والده ووافقت والدته، ولكن جرى التحدي بين الاثنين حتى جعلا المسكينة في دوامة من أمرها .

هذا هو زاده في رحلته الجديدة، إنه يهرب من كل شيء من أجل أن ينسى كل شيء.

وبدأ حياته الجديدة .. بعيداً عن قريبه الذي شعر أنه غدا عبئا عليه وأصر على الاستمرار وحيداً، رغم أنه لا يملك من المقومات ما يدفع الآخرين إلى تقبله إنما أصر على أن يعيش حياته، واختفى في المدينة .

رجع سليم من عند أقارب أم محمد حزيناً ، وهو يعلم اختفاء ابنه وأن الرجل الذي أخذه معه إلى المدينة توفي في حادث منذ ثلاثة أشهر ، أشرقت مقلتاه بالدموع من الحزن وتفكيره في مصير ابنه الذي أصر الجميع على أنه لم يمت في الحادث ولكن على أثر مشادة مع قريبه اختفى وقرر أن يبدأ حياته منفرداً .

وقد استغرب الجميع عدم اتصاله بأسرته حيث أنهم توقعوا منذ اختفائه أنه عاد ، وحاول أن يقول شيئاً ، لكن عبراته فضحته ، وجثم كابوس الحزن فوق الرؤوس وأعلن الجميع الحداد ..

لم يتوقف عن حديثه ، عن آلامه كلها ، ولكن تناسى هذه المدة وهو يجلس أمامي في المكتب أن يقول شيئاً عن آلامه الجسمانية .. متحدثاً عن الشجار الذي دب بين زوجتيه وكان هو الضحية، لم يقل أم محمد.. إنما أخذ يهمس في أذني..

لقد عادت منى إلى عادتها القديمة في خلق الشجار محاولة فرض آرائها على بدرية زوجتي الثانية ليتفقا ضدي.. وجعلي الطرف الخاسر في كل قضية تعيشها .

وكذلك لم يتطرق لابنه محمد أنه بعيداً كل البعد ، ومع ذلك زرعت الأيام في قلوب الجميع وبعد أن تزوجت فاطمة بحبيبها ابن الجيران وجرى إعلان خطوبة شقيقتها سارة لأحدهم ، أن هناك أملاً يقول محمد سوف يعود وقد جعلت منه الأيام رجلاً جديداً ..

* * *

الجـــــوع والحيـــاة

وقف كثيراً أمام الباب الخارجي منتظراً شيئاً يطفو من أعماقه يدعوه للعودة إلى الداخل والتمدد من جديد في الفراش الذي تناثرت على جوانبه الكتب، كان يقلب الصفحات باحثاً عن كلمات تشاركه الوحدة، إن القلق اليوم أكبر والشعور بالانسحاق أعمق.

الساعة تشير إلى السادسة مساء، الدار فارغة فراغ أعماقه، هاربة ألوانها كل ما فيها يثير في داخله السأم .

كانت في مثل هذه الساعة تأتي .. منذ ثلاث سنوات لم تنس يوماً واحداً موعدها .

الساعة السادسة من مساء يوم الأحد وتأخذ في الحديث معه تقول حكايتها منذ أن تزوجت حتى عاد من جديد إلى الطائف، وها هي تعود إليه من جديد .

كان الشارع قبل عشرين عاماً رملياً ، يمتلئ ببيوت الطين وعلب الصلصة ومخلفات المنازل ، حيث كان يبحث معها عن أغطية البيبسي كولا ومكر الخياطة الخشبية الفارغة ، لصناعة عجلات لسيارته التي صنعها من الخشب وجالون زيت فارغ.

الضحكات تملأ الشارع .. وفاطمة التكرونية تحاول شد نظره وهي تقوم بغسل الملابس ، بما يظهر من جسمها أو مطاردته في السطح وهي تنشر الغسيل ، حيث كان يختفي في ركن قصي يصنع لعبة جديدة وساهرة بين يديه تساعده ، تسرق له قطعة قماش من والدتها ، أو وصلة من المطاط لمساعدته في صناعة كفرات سيارته .

أشياء كثيرة أخذت تتوارد على ذهنه، وهو واقف أمام الباب، أنه رجل متزوج ولديه سيارة حقيقة وتلفون وعمارة، كثير من أحلامه وطموحاته تحقق .

أما الجوع الآخر الذي يشعر به نحو الآخرين، ونحو تلك الأحاسيس الطيبة فما زال معه.

إنه آخر من يقوم من فوق سفرة الطعام، ومن يتحدث في الأمور الجنسية رغم حزنه العميق بأنه لم تكن له في طفولته وشبابه مغامرات كالآخرين يتحدث عنها في المجالس الخاصة .

والتلفون رغم وجود أرقام كثيرة في دفتره الخاص لأناس يعرف لديهم الاستعداد للترحيب به يخشى الاقتراب منه.

ـ ستعرف هذا من نفسك حين تعرض لك التجارب التي طالما عرضت لي ..

هذه الجملة ترسبت في أعماقه كثيراً على الرغم أنها حديثة العهد بالنسبة لمواقفه التي يحاول فيها أن يكون كل شيء ، ولكن عندما يأخذ في تحليل ذلك يجد أنها ما زال مواصلاً الهرب من شيء لا يدري ما هو ..

تذكر ساهرة .. قد تكون الآن في الطريق ، إذ لا بد أنها تهم بقرع الباب ، لا شيء يؤخرها ، لقد أشعرته أنها ترتاح عندما تجده وحيداً .

فكل شيء بينهما منذ الأزل ، حتى تلك اللحظات التي يطوقها فيها بيديه أنها ذلك اليوم المدفون في ذاكرة التاريخ ، حيث الرمال والبيوت الطينية .. والسنون العشر ، ومحاولة إدخال رباط المطاط في أغطية البيبسي المثقوبة .. والبحث عن مسامير بين التراب لتثبيت العجلات في القاعدة الخشبية .

الطريق طويل .. كانت بدايته لحظة انبثاق وشعور بأنه كل شيء في هذا الوجود ..

إنه الذكي الوحيد في الأسرة الذي يفكر ، ويخلق الإبداع ، أما الآخرون فكلهم أصفار ، الأمر الذي لفت أنظار والده فأخذ يستعين به في كل شيء ، كان يغيب عن المدرسة من أجل البقاء في المتجر أو حمل رسائل بريدية إلى دائرة البريد ، أو استقبال الضيوف الأمر الذي أثر على مستواه الدراسي ، وتدخل أخوه الأكبر حيث كانت له بعض الصلاحيات ، عندما وجد بين يديه كتاباً يتكون من وريقات ، تحمل أغاني فريد الأطرش ، يتذكرها محاولاً أن يحفظها ، فقرر إدخاله مدرسة خاصة داخلية تهتم بالمتأخرين في دروسهم ..

واختفت الحارة .. رغم أنها في نهاية كل أسبوع يعيش فيها مع أصدقائه وأسرته ..

- إبراهيم .. إنك تبتعد ..

- أجل .. ولكن ..

- إنني أعرف أنهم يريدون لك الخير ..

- كيف .. ؟

- لقد سمعت والدتي .. تحدث أبي بذلك .

- متى .. ؟

- لقد فكرت في إلحاق أخي محمد بالمدرسة التي تدرس بها.

- ماذا .. ؟

- لقد بدأ يتأخر في دروسه.. ؟

- وأنت ..

ـ لقد خرجت من المدرسة ..

كان حديث ساهرة أكبر من مداركه، هذه الكلمات أكتبها اليوم بعد مرور تلك السنين العشرين، لو طاوعت نفسي لأطلقت العنان لقلمي .

إنني أكتب هذه الكلمات من وراء مكتبي الذي شدتني إليه الأحداث فهجرت عادة الهروب من المكتب والانطلاق وراء الأصدقاء، والبحث مع أسرتي في أموري..

كان التلفون يرن، وجاء صوت ساهرة يطلب مني الابتعاد عنها، رغم أنني لم أحاول يوماً أن أطلب منها أمراً .

كان حديثها غريباً كل الغرابة، وأنا كعادتي والجوع يأكل أطرافي، يزرع في أعماقي الهوس، والتخاذل المبني على الصور المجهولة المترسبة في أعماق ذاتي .. أتحدث لاهثاً محاولاً معرفة السر ، أحاول أن أقول شيئاً ، وها هو يوم الأحد يطل .. وها هي زينب وجهاد .. قابعتان بالداخل على غير العادة تتابعان برامج التلفزيون، إن في الأمر شيئاً .

وخرجت من الدار، وإذا بساهرة تسير وحيدة في الشارع متجاوزة الدار وقد سبقها مجموعة من النساء تتلفت حولها.

ـ مساء الخير..

ـ أنت .

ـ اسمحي لي أن أوصلك ..

ـ لا داعي .. شكراً .

وتجاوزتني مخلفة ألف علامة استفهام، فعدت إلى الداخل ووجدت زينب ترتدي عباءتها..

ابني جهاد يصرخ متعلقاً بها .. طالباً منها حمله .

ـ رجعت .. خير .. ؟

- ....

ـ خذ شيل ابنك..

كانت الصورة الكبيرة التي رسمها أحدهم ذات يوم لمجرى ماء في أحد الأودية مكسوة بالخضرة، ولفتت نظري فقمت بشرائها من السوق.. أصبحت داكنة الآن ، إنها باهتة الألوان والمجرى نضب من الماء ، وانتشرت الصفرة في الأشجار الصغيرة ، وأخذت الأحجار الصغيرة في البروز ملطخة بالجدب ، إنها مرحلة اليأس .

وأخذت أنامل زينب، وقد بدت في أحسن صورة مرتدية أجمل فساتينها ما أن غادرت الدار حتى همت بمغادرتها على غير العادة ..

حيث كانت تخرج مع أذان العصر، وقد رن التلفون من قبل أسرتها، أو إحدى صديقاتها لموعد ..

تركت جهاد يصرخ فحملته على مضض ..

وغادرتني في مكاني أبحث عن شيء فقدته لا أدري ما هو، ولحقت بها، كانت أمامي تسير، وجهاد يسير إلى جانبها، لا أحد في الشارع سوانا ..

وخيل لي في هذه اللحظة أن (جهاد) أصبح رجلاً كبيراً وأنني أضمحل، أتلاشى حتى اختفيت عن الأنظار، كانت الفكرة أكبر من كل ما حولي حتى أنني لم ألاحظ السيارة المقبلة من طرف الشارع وهي تقترب من الاثنين .

حتى سمعت فحيح عجلاتها مبتعدة، وزينب وجهاد ملتصقان بأحد الجدران وقد طارت عباءتها وتكشف وجهها، تبكي من الخوف واللحظة الملعونة، وأنا أركض مبتعداً.. أحاول اللحاق بالسيارة ..

* * *

إصدارات ممغنسة

أصدرت الحكم على نفسي بالانقطاع عن الحياة الاجتماعية، ومراجعة مواقفي مع زوجتي التي أخذت تشعرني بالضجر، وها أنا ومنذ ثلاثة أيام أفكر في كيفية تطبيق الحكم الذي قررت تنفيذه بعد سبعة أيام ، إذ عاش اليوم الأول في دوامة يحاول رغم الحبوب المهدئة التي حصل عليها من قبل صديق ، فأخذ يهرب بعيداً بسيارته محاولاً العودة إلى مشاهدة الأفلام السينمائية وملاحقة الصحف ومتابعة آخر الكتب والتجول دون هدف وعلى غير هوادة حتى ساعة متأخرة من الليل ، وعندما عاد وجدها ممدة في فراشها تئن من الألم والأطفال يتابعون التلفزيون بعد أن تجاوزوا وقت نومهم وكل شيء هادئ .

أما اليوم الثاني فقد حاول أن يعيش مغامرة مجنونة مع امرأة وجدها في الشارع أخذ يتابعها بسيارته وهي تتنقل من رصيف لآخر ومن متجر لآخر ، وإذا بها فجأة تختفي لينطلق في غضب وانفعال إلى خارج المدينة ليجلس ساعات في مقهاه المهجور حيث كان الرواد لا يتعدون عدد أصابع اليد الواحدة .. وأخرجت من السيارة كتاباً أخذت أقلب صفحاته .. بينما صاحب المقهى يقدم لي الشيشة، ويسألني هل أرغب في شاي أو بارد وأخذت أفكر.. شاي أو بارد .. ماذا يعني الشاي بالنسبة له وهو يتناوله في مكتبه والدار وفي كل منحى يجلس فيه ؟ وماذا يعني البارد ؟ هل هي تلك المياه الغازية المفرغة من كل شيء ؟ وأفكاره ماذا يكون مصيرها وهو يحدد شيئاً ويفرضه علينا ؟ ثم يصل في النهاية إلى أن كوامنه ورغائبه أخذت تتفجر غيظاً .. لتلك الحياة الرتيبة التي يعيشها ، وتناسى (الشيشة) وأخذت السطور تتراقص أمام عيني وتخيلتها .. فتاة جميلة تتمايل أمامه تهزّ أردافها على وقع موسيقى صاخبة وهو وحيد يهز رجليه طرباً ونشوة ، إنها تتقدم منه تحاول أن تثير فيه كوامنه ، واستجلاب نظره إعجاباً وتشجيعاً ، وتنقطع حبال أفكاره وهو يمد يده إلى (لي الشيشة) الأمر الذي جعل الكتاب المفتوح بين يديه ينطبق ، وصوت صاحب المقهى يرن في سمعه وهو يلبي بصوت عال دعوة زبائن جدد ، وما أن مر من أمامه حتى قال في صوت غير مسموع ..

- حبة ليمون .. !

هي حيلته الوحيدة ، إنه يتذكر أن الليمون يهدئ الأعصاب ، ولكن هل أعصابه ثائرة إلى هذا الحد ؟ .

وفي اليوم الثالث التقى بصديق قديم، لم يكن يبحث عنه ولكن عرف أنه بحاجة إليه الآن للتذكر ومعرفة ما تم في الأيام الجديدة التي لم يلتقيا فيها وكان

السؤال الروتيني .. كيف الصحة ؟ إن شاء الله توظفت ونجحت في دراستك .. عسى الوالدة بخير ..

شعر معه بالسأم وتمنى أنه لم يلتق بهذا الصديق، وفر هارباً عائداً إلى الدار وإذا بها فارغة .. الصمت مرسوم فوق كل ناحية منها، إنهم أشباح يهمهمون .. ومطارق تحطم الفراغ الذي يملأ أعماقه أترى أن تكون كل النتائج هكذا أم أن الحالة التي يعيشها هذه الأيام هي سبب كل حاجة ؟ أم هي حقيقة واقعة أن كل الحيوانات في الربيع تهاجر، وهل هو حيوان يجب عليه أن يهاجر وإلى أين وهل تعني الحيوانية أنه لا يفكر أو أن مجال إحساسه بما حوله تجاوز مرحلة الرضى ؟

.

فلينطلق إذاً .. ويبحث عن زوجة جديدة .. أو ليكتف بالبقاء عازباً من أجل صغيريه الاثنين .. يتركهما على سجيتهما مع أمهما أو معه، حسب رغبتهما، وبناء على ما يقوله أهل الخير، ولكن ماذا سوف يقول عندما يتم مساءلته عن سبب الطلاق ؟ هل يكتفي بهذا السأم الذي يعيشه ؟ أم يأخذ في اختلاق حكايات الأيام.وهو يعرف أن أغلبها كان هو البادئ في خلقها والأخرى كانت الظروف هي المتسالأيام.ل ما هو فيه من إزعاج هذه الأيام..

كان تحديد الأيام السبعة للوصول إلى حل تلقائياً وليس عن سابق إصرار إذ أنه يتوقع فيها أن تخرج عواطف إلى بيت أهلها مع أطفالها وتقرر ألا تعود ..

أو أن أحد المخبرين السريين يطرق الباب ثم يأخذه معصوب العينين إلى حيث لا يدري .. أو تنهار به السيارة في إحدى جولاته التي يسرح فيها كثيراً من فوق أحد الأرصفة فيموت وينتهي كل شيء، ولكن ها هي ثلاثة أيام تمر .. وها هو الرابع يوشك على الدخول ولا شيء حدث مما كان يتوقع .

عواطف أخذت تهدئ من صغيريها .. وأحست أن هناك خطأ مشتركاً ، وشعر هو في ذات الوقت أنه إنسان غير مرتب ، لا يهتم بقضايا الأسرة ، يحاول الهرب إلى المجهول بعيداً عن عيون الآخرين ليعيش أحلامه وأوهامه بعيداً عن كل شيء حتى في جلوسه بالمقهى يفضل أن يكون منفرداً في مقعد جانبي يتأمل ما حوله .. وأخذ ينفجر هل يعود كل شيء كما كان منذ ألف عام ؟ إنه يرغب في التغير لا بد إذا من زوجة ثانية ..

ولكن هل التغير في الزوجة الثانية ؟ أم هو في السفر .. والاطلاع . وخلق صداقات جديدة ، لكن أين الأصدقاء والصديقات ؟ إنهم لا يرون الجديد هم أيضاً، فكل شيء متسلسل بهدوء .. من الساعة الثانية عشرة مساء نوم .. حتى الساعة السابعة والنصف ثم المكتب حتى الثانية ومن الثالثة حتى الخامسة والنصف نوم ثم الذهاب إلى الشلة حتى الساعة التاسعة ، ومن التاسعة حتى الثانية عشرة مع التلفزيون وصراخ الأسرة ولا شيء أكثر ، أما احتياجات الدار فيتم إحضارها

بالصدفة وفي أوقات متناثرة غير معلومة ، ولكن تربك كل شيء في سيرته فإذا بأنفاسه تنقطع وأفكاره القلقة تقتحم صومعته ليعود للانفعال من جديد ..

ـ عادل .. عادل ..

كان صوت عواطف خاملاً .. وفيه شيء من الانكسار والحزن ، بل والغريب أن المرات التي تناديه فيها باسمه المجرد قليلة ، إذ كانت في كل أحاديثها معه تدخل رأساً في الموضوع دون مقدمات ، ولكن ها هي وفوق مائدة الغداء ونوره وفهد هادئان على غير العادة فلم أرد واكتفيت بالنظر إليها منتظراً أن تقول شيئاً .. ثم عدت وأحنيت رأسي .

ـ أنا حامل ..

وكان الهدوء المطبق حولنا أثر فيّ ، فلم أقل شيء ، وعندما أخذنا نتهيأ للنوم ..

ـ ماذا .. منذ متى .. ؟

فطال حديثنا .. كان توقعها للحمل من خلال التوتر الذي أخذنا نعيشه هذه الأيام والإنهاك البادي على جسمها ، تذكرت كل هذه الأشياء وأنا أجلس خلف مكتبي في الإدارة التي أعمل فيها وصديقي علي يشكو من المعاناة التي وجدها في المستشفى العام وهو يبحث عن سرير شاغر لتضع زوجته عليه مولودها الأول ، كانت تتلوى من الألم والساعة تشير إلى الثانية صباحاً والطبيب المناوب يعتذر عن عدم وجود كرسي، ولكن لديه الاستعداد الكامل لتحويل المريضة إلى إحدى المستشفيات الحكومية الأخرى، كانت عواطف .. ساذجة .. وكانت هذه السذاجة في البداية مقبولة .. أما أخيراً فقد أخذت أشعر بالسأم منها، ولذا علي أن أتزوج.. وعندما وصلت إلى هذه الجملة إذا بكل من حولي يضحك.. وتلفت أسألهم عن سر ضحكتهم فإذا بها نكتة قالها رب الدار الذي حضرنا نبارك إعلان زفاف ابنه ، فأخذتني الأوهام بعيداً لأعيش أحلامي .. ويدي في جيبي تعبث بآخر حبة مهدئة بقيت معي ..

* * *

النتائج المرتقبـــة

اعتذر خالد عن مواصلة العمل .. قدم استقالته بعد غياب دام خمسة عشر يوماً .. وضع زملاءه في المكتب أثناء ذلك في حرج فهناك بعض الأوراق الضائعة ورسوم لبعض الإجراءات التي استلمها ولم يقم بإيرادها إلى الصندوق ، وكان المأزق أكبر من كل من في الإدارة حتى أخذ الجميع يقلصون الدائرة لتحديد المسئول عن ذلك وتحديد العقوبة إن ترتب شيء منها حسب النظام ، بينما كان صالح يقف حائراً يقلب أوراقه متمنأ من كل قلبه أن يصل إلى نتيجة .. كانت مجرد محاولة .. لكنه لم يصل إلى شيء .

كثرت في الخمسة عشر يوماً مراجعة أصحاب الرسوم مطالبين بأوراقهم، فليس من المعقول أن تبقى كل هذه المدة دون نتيجة، بل دعا الأمر أحدهم إلى أن يطالب ببعض الأوراق التي سلمها إلى خالد، ولا يدري صالح ورفاقه أين حشرها .

أتت الفرصة عندما شرح رئيس الموظفين على معروف خالد: (الأخ صالح يتم الشرح بالموافقة على استقالته إذا لم يكن بيده شيء) .

ـ لن أكتب لك حتى تحضر الأوراق الضائعة .

ـ وما دخلي .. ! لقد أنهيتها أنا وعلي .. ؟

ـ أعرف ذلك إنما لم نجدها .. !

ـ وما ذنبي، لقد كان علي معي .. ؟

ـ أنا أعرف .. ؟

وخرج خالد غاضباً لا يلوي على شيء، فلقد وجد وظيفة جديدة والآن يرغب في إخلاء طرفه وصرف مرتبه للأيام الماضية .

أحسست بدوار في رأسي .. وشعرت بشيء في قدمي .. إذ خيل إليّ أنني أقف على أطراف أصابعي منذ مليون عام، كان الجميع مشغولين بالكتابة والحديث، الوقت يسير بسرعة نحو النهاية، كل منهم يشعر بذلك إلا أنا فلم أكن أشعر بشيء إلا .. بوجودها قربي .. أجل كانت في البداية صورة وجدتها ضمن الأوراق، ثم شعرت بها تقف أمامي فجأة عندما قال صديق يركب معي السيارة وهو يلمح أحد يحييني:

ـ هل هذا صديقك .. ؟

ـ أجل .. حسب ظروف العمل ..

ـ إن له زوجة حسناء اسمها سارة !!

يقال (الدماغ وهو المكان الذي تتمركز فيه عملية الحس والشعور والانعكاس لقرب صلته بالروح) وهنا أخذت أفكر فيها وأستخرج صورتها لتقف أمامي .

ودون أن ينتظر جوابي .. هتف به :

ـ تفضل معنا ..

وما أن سمع الدعوة حتى لبى دون ممانعة .. كان مبتسماً يتحدث في كل شيء يتمنى اقتناء سيارة .. وشراء بيت، والبحث عن فريق لكرة القدم يلعب معه، حيث أنه لاعب قديم، ولولا خصامه مع المدرب لكان الآن يمثل بلده في المنتخب ..

نظرت إلى قدميه .. كان الرباط الطبي الأبيض ظاهراً من داخل حذائه .. وكان يريح قدميه بالتناوب فوضح أن قدمه قد أصيبت في حادث ما، فلم أقم بسؤاله عن ذلك وإن اكتفى بمعاودته النظر إلى قدميه بين لحظة وأخرى، وإذا التقت أعيننا كان ينظر إليّ مبتسماً، وكأنه يعاتبني على عدم سؤالي عنه .. وقد شعر أنني أعرف إصابته فلم أجشم نفسي بمعاودته ومعرفة سبب ذلك فأخذت أعاني من هذه المشكلة أشد معاناة:

ـ هذه الأوراق ..

كان خالد ينتصب أمامي وقد تقطر العرق من جبينه .. يبتسم .. لقد انتصر علي أجل .. كان كل تفكيره في أن أمنحه الإخلاء المطلوب حتى يسارع إلى وظيفته الجديدة ويستلم ما له من نقود لدى الصندوق:

ـ والرسوم .. ؟

ـ اخصمها من مرتبي ..

ـ والسندات .. ؟

ـ أكتب لك إقراراً بأنني سوف أحضرها .. ؟

وتوسط أهل الخير .. كان الحديث على أشده .. كلهم يريد الفكاك من هذه الدوامة والارتياح بعض الشيء من الضجيج الذي أخذ يشد انتباه بعض موظفي المكاتب فأخذوا يتكومون على باب المكتب متسائلين عن سر الشجار .. ومرة أخرى اقتحمت سارة دماغي .. انطلقت من عالم المجهول لتدافع عن نفسها حيث وقف زوجها أمام الباب .. كانت الأفكار الفجة تتزاحم في دماغي ، لكن كيف الحصول عليها .. هل هناك فكرة بديعة تحقق ذلك .. رفع خالد رأسه وتأمل الواقفين أمام الباب وأسرع إليهم ومد يده طالباً من زوج سارة الدخول لإنقاذه .. وتلفت حولي في فضول وبلادة ومسحت عيني، الفرصة حلت:

ـ أهلاً محمد ..

ـ ما الأمر .. عسى خير .. ؟

ـ أبداً كل ما في الأمر .. خالد ولم يمر على توظيفه لدينا أكثر من شهر يطلب الاستقالة .

ـ لقد وجد عملاً .. بمرتب أفضل .

ـ أنا لا أحسده ولكن هناك بعض الأوراق المفقودة والرسوم التي استلمها ولم يسددها .

ـ وما قولك يا خالد ..

ـ هذه هي الأوراق الضائعة ، والرسوم تحسم من راتبي ..

بكل برود أوجد خالد الحل فكان إصراري على موقفي ، الأمر الذي دفع محمد إلى التدخل كأنه يعرف ما يجول بداخلي .. إنما كان يتجاهلني ويوجه حديثه إلى خالد ويهدئ من روعه .

لم يكن هناك بد من الوصول إلى نتيجة خرج على أثره محمد ويده في يد خالد بينما بقيت وراء مكتبي أقلب الأوراق التي بين يدي .. ثم ضربت بيدي في عنف على المكتب أحدث صوتاً قوياً لفت أنظار زملائي .. ثم نهضت من مقعدي واتجهت بخطى بطيئة نحو الباب وقد أطرقت برأسي ..

* * *

٢٤ ساعة بدون هوية

أخذ يقلب دوسيهاته وأوراقه باحثاً عن شيء يشغل الفراغ الذي يعيشه ويبدد القلق الذي أخذ يتسرب إلى أعماقه رغم محاولته فرض الهدوء على ذاته متجاوزاً كل ما يعاني من الألم وتحدى ..

الساعة السادسة والنصف صباحاً .. يصرخ منبه الساعة في إصرار لينهض الجميع حتى يتم تنبيه الصغيرة "فاتن" من النوم وتجهيزها للذهاب إلى المدرسة .

ورغم أنه دفن رأسه بين طيات المخدة والأغطية الثقيلة إلا أن تلك المحاولة لا تفيد إذ يخيل إليه أن صغيرته تترجى والدتها أن تسمح لها بالنوم قليلاً والتغيب عن الدراسة كالمعتاد ، فيطير النوم حتى يسمع صوت الباب الخارجي يفتح ثم يغلق معلناً أن "فاتن" استسلمت لواقعها وأخذت طريقها مع بنات الجيران إلى مدرستها التي لا تبعد عن الدار سوى أمتار قليلة .

عاد "فريد" للنوم من جديد لكن صراخ وليده الجديد "عماد" يعيده إلى مرحلة الانتباه غير المرغوب فيه والذي يمتلئ بلحظات من الحنق التي تعني أن مرحلة القلق بدأت تتسرب إلى أعماقه .

ويقفز من الفراش في عدم مبالاة وإهمال يثير به حنق زوجته "حنان" التي احتضنت في هذه اللحظات الصغير وأخذت تهدهده حتى عاد للنوم من جديد .

وارتدى ملابسه ثم مسح وجهه بطرف الثوب ، وقف أمام الباب الخارجي لحظات يتأمل السيارات المارقة .. والمارة في شيء من الفتور .

لقد كانت سيارته الصغيرة تكفيه مئونة هذه الوقفة مترقباً مرور صديقه "حامد" لأخذه إلى مقر عمله حيث يعمل الاثنان .

الوقت يمر مملاً والأحاديث وكما هي معادة منذ ألف سنة ، أوراق يحرر عليها ومعاملات لا يجد في الإجابة عليها مبرراً ، وأخرى يكون الحفظ مصيرها الأخير بعد دورة صامتة بين المكاتب وأيدي الفراشين والموظفين لا تعي معنى السطور المسجلة عليها سوى أنها تتحدث عن شخص جعله القدر ضمن هذه الأوراق .. والدوسيهات، لا لشيء إنما لأن أحدهم سجل عليه ملاحظة اقتضى معها الروتين أن تكون هناك أوراق وأرقام يقال لها معاملة ويجب أن تمر على أكثر من شخص حاملة الآراء وطالبة في نفس الوقت تحديد المصير حتى يكون الحفظ وتسجيل بعض الملاحظات والتوضيحات لتكون ضمن ملف المذكور إذا كان حظه سيئاً ، أما إذا كان حظه جيداً فإنها سوف تحفظ في ملف الحفظ العام الذي لا يكون فيه معنى سوى أن هناك أوراق متراكمة وسطور تحتاج إلى تنسيق ..

ـ فريد رأيت المباراة التي جرت البارحة ؟

ـ نعم ليت الفريقين تعادلا ..

ـ من أجل أن يحتل الفريق الذي تشجعه المقدمة .

ـ أبداً .. فالفريق الذي أشجعه يحتاج إلى ثلاث نقاط حتى يلحق بفريقي . البارحة، فلو تعادلا لأصبح قريباً منهما، إذا فاز في مباراة اليوم .

ـ وهل هناك مباراة اليوم ؟

ـ أجل ولكن حسب ما أظن أنها لن تنقل بالتلفزيون .. !

وتدخل بعض الحضور في الحديث، وكما أن الكرة مستديرة فقد استدار الحديث عن نواحي شتى وأخذ بعضهم يسطر بعض الملاحظات الكروية على بعض الأوراق تتضمن ما مر من مباريات والنقاط التي حصل عليها كل فريق وما تبقى من الدوري.

وتناسى الأوراق التي بين يديه شاعراً أنه فقد إحساسه بالرغبة في اتخاذ بعض الإجراءات ، فقرر إعادة ما بين يديه إلى الدوسيه المرماة فوق مكتبه لاحتواء كل معاملة توضع أمامه .

وأخذ يفكر في لا شيء كعادته عندما يتسرب السأم إلى أعماقه ، متأملاً بعض الأحداث غير المرئية مغلفاً ذاته بهالة سماوية من الأحلام النرجسية المستحيلة التحقيق والتي لا يعود منها أبداً مهما كانت الظروف ، حتى ينشله شيء قوي من واقعه مثل قدوم أحد الأصدقاء أو مفتش الدوام الذي يدور على الأقسام باحثاً عن المكاتب التي غادرها أصحابها دون إذن مسبق أو إصرار فراش المكتب على أن يتناول كوب الشاي وارتشافه قبل أن يبرد ..

والأشياء القوية التي تستطيع انتشاله من أحلامه كثيرة، لكنها الآن تقعي في إحدى الزوايا تتأمله ضاحكة من طفولته واغترابه الذي فرضه على نفسه .

الساعة الثانية عشرة والنصف ، ارتفع صوت المؤذن معلناً وقت صلاة الظهر قد أزف ، وعليه أن ينهض لأداء الفرض المطلوب منه لله ، ومن ثم يعود للقيام بالغرض المطلوب منه أن يؤديه لمراجعة الأوراق المتراكمة على مكتبه والتي يجب أن ترحل من على مكتبه في أسرع وقت .

الساعة الخامسة مساءاً أزف موعد الذهاب إلى الورشة التي أدخل السيارة فيها لمعرفة ما تم إنجازه، وقف وقفته الصباحية لعل أحدهم يأتي لأخذه .

ـ أهلاً .. فريد ..

ـ أهلا .. علي ..

ـ كيف السيارة ..

ـ والله لا أعرف شيئاً .. هل تذهب معي إليها ..

وقبل أن يتحرك الاثنان من مكانهما إذا بأحدهما يصرخ ..

- فريد .. فريد ..

والتفت الاثنان إلى مصدر الصوت وما أن لمحا صاحبه حتى أسرعا إليه .

كان خالد صديق الاثنين وصاحب السيارة الأجرة يتجول بها بعد نهاية الدوام داخل المدينة باحثاً عن لقمة العيش ..

وبدون أن يتم سؤاله عن الصحة أو سبب صراخه ركب الاثنان ..

- الورشة لو سمحت .. ؟

- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته .

- على فكرة .. ماذا تريد .. ؟

- أربعة ريالات .. أجرة المشوار .. ؟

- أي مشوار ..

- هذا ..

وضحك الثلاثة بينما السيارة تتحرك في بطء متخذة مساراً مضاداً للوجهة التي يريدها "فحاول أن يتناسى أنه قرر الذهاب إلى السيارة والصراخ في وجه صاحب الورشة، إذا لم ينجز شيئاً، واقتنع بأن يصمت حيث تكون الفضيلة بعض الأحيان .

وانطلقت السيارة إلى خارج المدينة محاولاً قدر المستطاع الابتعاد عن طريق الإسفلت لتختفي بين الأشجار حيث كان الجو لطيفاً.. والحديث مؤنساً ..

الساعة السابعة مساء ..

أدخل فريد المفتاح في الباب الخارجي، ودخل في هدوء لا أحد هناك، السكون مخيم على الدار، فشعر بالحنق، وأخذ يفكر في الأمر وهو يبحث في الراديو عن أغنية أو أي شيء يرتاح إليه..

- هل سمعت بما حدث .. ؟

كانت زوجته "حنان" تقف فوق رأسه وبين يديها طفلها الرضيع، ولم يتفوه بشيء.

- لقد ولدت جارتنا ولدين .. ؟ توم يعني ..

- مبروك .

- على إيه .. لقد طلقها زوجها لأنها عاتبته في الدخول عند جيرانهم سيء السمعة وكذلك مهددة .. بالموت ..

- ماذا .. ؟

- لقد ولدت في المنزل لكن حدثت مضاعفات وتم نقلها إلى المستشفى بعد أن أغمي عليها ..

شعر بالحزن، ونهض من مكانه واتجه في تخاذل إلى فراشه باحثاً عن النوم، رغم أن الوقت ما زال مبكراً، فأحاسيسه الداخلية المنهارة شلت كل شيء .

* * *

الهـــدوء الممــــل

كل شيء يثير الملل، صوت آلات النسخ يقرع سمعه في رتابة والأوراق المتناثرة على مكتبه تشعره بالسأم حتى في الدار صورة طبق الأصل ..

فالقرف يلاحقه في كل مكان ، وصداع عميق يحطم رأسه ، يملأ شرايينه بشعور مجهول الهوية ، إنهم يبحثون عن شيء يحطم كبرياءه .. توقف قليلاً وهو يرتشف آخر قطرة في كوب الشاي الموضوع على مكتبه منذ أكثر من ساعة .

أخذ يتأمل فراش المكتب العجوز الذي أقبل ما أن لمحه يمد يده نحو الكوب كان أول شيء وجده في المكتب عند قدومه للعمل هو العم سعد قليل الكلام ، لا يتحدث كثيراً ، يسير أشبه بآلة وقد يحتاج في بعض الأحيان إلى تعبئة المفتاح ، إنما يفي بكل خدمات المكتب ، بالإضافة إلى إتقانه خلق الأعذار للمراجعين عندما لا يوجد أحد من موظفي المكتب في الغرفة .

أخذ صالح يحفر ذاكرته باحثاً عن الزمن السحيق الذي التقى فيه بهذه التقاسيم ، ففي داخله إحساس بأن هذا الرجل رغم أن معرفته به مضى عليها ثلاث سنوات منذ استلم رئاسة هذا المكتب ، لكن في داخله حواراً يقول إن معرفته به أقدم بكثير من ذلك التاريخ .

تقول: لقد حدث في مكان ما تعارف أولي وكل واحد شد على يد الآخر مقدماً نفسه .

ارتشف بقايا الشاي ومد يده بالكوب لتناوله اليد المعروفة في هدوء وصمت، كان يود أن يقول .. زدني كوباً آخر .. إنما توقفت الكلمات في حلقه وأخذ يتابع العم سعد الذي اتجه إلى الطاولة حيث يقبع إبراق الشاي مع بقية الأكواب، ليستقر كوبه بجوار الأكواب بينما تناول الإبريق وخرج من المكتب في هدوء .

ـ ماذا حدث اليوم ؟

وضرب رأسه بيده محاولاً أن يتذكر أن يجد ما يبحث عنه : إنه يتذكر كل شيء في حياته حتى الصغائر ، لقد عاش يتيماً مع والدته وزوجها ، ودرس حتى حصل على شهادة الكفاءة لكن الملل الذي تسرب إلى أعماقه دفعه إلى هجر مقاعد الدراسة والبحث عن وظيفة توظف متنقلاً من دائرة إلى أخرى وقبل أن يصل إلى هذه المحطة قرر الزواج ووجد فتاة طيبة ، كان لوالدته الأثر في اختيارها وتزوجها .. وتزوج هذا العمل .. ليجد العم سعد، لكن ماذا حدث هذا اليوم، حتى يصل إلى نتيجة أنه على معرفة به منذ زمن سحيق..

مساء الخير .. العم سعد هنا العمر، في مقتبل العمر، وهز صالح رأسه موافقاً، ثم دعا الشاب إلى الجلوس وما أن هم بذلك حتى كان العم سعد داخلاً، فهب الشاب من مكانه وسارع إلى تقبيل يد العجوز وأخذه جانباً ..

اسمح لي : الولد صار له حادث اليوم وأبغى أروح أشوف القصة ..

وخرج الاثنان ، بينما كان صالح يتأمل لمعرفة أخبار الحادث ومضاعفاته ونسي ما يعيش فيه من ملل وسأم .

مر الوقت طويلاً .. أخذ المراجعون يزرعون فيه مساميرهم بقسوة وعناد لم يغير شيئاً من هدوئه وملله .

وقبل نهاية الدوام بدقائق وصل صالح .. إلى الحقيقة فجأة : كان ذلك منذ عشرين سنة وفي مدينة بعيدة حيث كان البحر يلطم الشاطئ بصورة يومية من غير أن يشعر بالملل ، وصالح في العاشرة من عمره ، شب حريق كبير في الحي الذي تعيش أسرته فيه وطوقت النار دارهم ضمن الدور الأخرى .. وتأخرت سيارات الإطفاء، وأخذ يركض كان كل همه أن يعرف مصير رفيقة صباه والتي تكبره بعامين أو ثلاثة .. إنه لا يذكر الآن ووجدها فوق أكتافه مستسلمة في هدوء وهو يعدو بها بعيداً عن النار لتصبح بعد شهرين زوجة له وتختفي لكن الوجه احتفر في أعماقه بقسوة رغم أنه لم يحاول أن يسأل عنها يوماً ما مع علمه بسكناها في ذات المدينة لكن في حي آخر .. يجتازه كل يوم وهو في طريقه إلى المدرسة .

وترحل أسرته ويرحل .. وينتقلان إلى أكثر من مدينة حيث اقتضت مصلحة عمل والده ثم زوج والدته ثم هو أخيراً بعد أن دخل المعترك وليستقر أخيراً في الطائف.

ـ عم سعد أين كنت قبل عشرين سنة ؟ .

ـ في الطائف .

ـ ألم تغادرها ؟ .

ـ أبداً من يوم كنت في العاشرة من عمري نزحنا من قريتنا التي على طريق الجنوب والتي تبعد عن الطائف ثلاثين كيلو وأقمنا هنا .. وأول ما اشتغلت بناء .. وصبيا عند أحد العوائل حتى توظفت منذ عشر سنوات .

ـ وكوثر ؟

ـ من يا وليدي ؟ !

ـ زوجتك كوثر .

ـ هداك الله هل تمزح علي .. أنت اليوم مستأنس أنت تدري أن ولدي فهد أخذ اليوم سيارة زميله في المدرسة وصدم بها ، لكن لله الحمد جت سليمة وقد سامحه صاحب السيارة !! .

غادر صالح المكتب مسرعاً لم يحاول أن يلتفت وراءه كان يفكر في أشياء كثيرة لا يدري مصدرها تجعله يمد خطاه.

* * *

الرغبـــــــــــــة

لماذا قتلت .. ؟

وران الصمت ، أحس صالح بأن كل شيء حوله مليء بالنفايات والبقايا ، والأضواء ذات الألوان المختلفة ولكن المسافة بعيدة لقد دب التعب في مفاصله وكل ذرة من جسمه والمسافة ما زالت كما هي منذ البداية التي لا يتذكر متى كانت ولكن يعرف أين وقعت ، إنه في الشارع العام حيث فقد شعوره وأخرج المسدس الصغير من جيبه وأفرغ منه ثلاث رصاصات في رأس ابن عمه وفر لا يلوي على شيء .

البداية مجهولة، إنما شيء في داخله ارتاب من كل ما حوله، هناك من يقول إن الرائحة الكريهة تكشف عن نفسها وتدل الباحث على مصدرها ولو تأخر، إنما كل شيء يبرز خالقاً في الوجود ألف علامة استفهام .

شعر بشيء من الحزن وهو يتسلم إيجار الشقة التي قام بتأجيرها على أحد الوافدين للعمل هو وأسرته ، كان العطف يملأ قلبه والشعور بالمحبة أشياء إنسانية كثيرة اختلجت في أعماقه حاول بقدر المستطاع أن يجعلها شيئاً ملموساً ..

ولمحها امرأة جميلة لم يكن لديه أي شعور غريب نحوها .. لمحها مرة وثانية وثالثة وأخيراً وجدها كل صباح تقف في طريقه تسأله عن الصحة والأولاد .. وذات مساء عاد وحيداً من حفل زفاف ترك أسرته فيه على أمل أن يعود إليهم في ساعة متأخرة من الليل ووجدها تقف أمامه ، لا يدري كيف حدث ذلك ، إنما لحقت به إلى شقته وأشعرته بحبها وأنها لا تستطيع أن تعيش يوماً واحداً دون أن تراه ، وحاول صدها وإشعارها بأن ذلك حرام لكن لم يفد ، لقد عربدت في أعماقها الغريزة وأعمت بصيرتها الشهوة فقررت الانتحار في معبد رغباتها غير عابئة بما يترتب على ذلك ..

وأمام دموعها استسلم في هدوء لا يدري ماذا يفعل ، إنما شعر أنه يقدم شيئاً جديداً بالنسبة له، وتكررت اللقاءات ، وشعر أن العيون تلاحقه هنا وهناك .. لم يعد ذلك الرجل الطيب ..

حيث أصبح يدخل شقة جاره في حضوره وفي غيابه وكأنه صاحب البيت .. بينما الرجل الحقيقي يقف صامتاً غير مبالي واتسعت الدائرة .. تعرف بأخرى .. وأخرى ووجد وجوهاً يعرفهم ويلتقي بهم صباح مساء هنا وهناك ، ووجد حمود ضمن الجميع.

مرت الأيام سريعة وانتهت السنة الأولى والثانية وشعر بغلطته أخيراً وأحس أن الجيران متضايقون منه بسبب حمايته لجاره سيء السمعة فقرر أن يقف

وتوقف فجأة .. زرع الغضب على جبينه وأنذر جاره بوجوب إخلاء الشقة مهما كان الأمر.. فوجئ الجميع بقراره فأخذ أهل الخير يتوسطون راجين منه أن يأخذ الأجر الذي يناسبه ويترك الجميع في حالهم ..

وأصر على رأيه وفجأة ..

ـ لقد حضرت أم سمير اليوم تبكي وترجوك تمهلهم..

ـ ماذا .. ؟

ـ أرجوك علشان خاطري خليهم في الشقة .

ـ يا امرأة ..

ـ إنها امرأة طيبة وما شفت منها إلا كل خير ..

ـ أنا أعرف أنها طيبة .. ! لكن ماذا بينك وبينها .. ؟

ـ أبداً ما بيننا إلا كل خير ..

ـ وهل شكت لكِ منّي .. ؟

ـ أجل .. قالت إنك أنذرتهم .. وأنهم ما يقدروا يرحلوا ويرجونك قبل أن تتطور الأمور أن تحمل المشكل بنفسك..

شعر أنهم يهددونه ، وأنها محاولة ابتزاز ، وفوجئ بحمود يتدخل ويطلب منه بصيغة الأمر أن لا يخرج أبا سمير من الشقة وأن يضرب رأسه بالحائط .

تفاعلت الأحداث في أعماقه ، وبرزت إلى السطح ذات يوم عندما عاد إلى الدار وشاهد سيارة حمود تقف في موقف سيارته ودخل فلم يجد أحداً .. أخذ يتجول في الغرف هنا وهناك، كل شيء خاوٍ، ووقف أمام الباب الخارجي يفكر أين تكون زوجته.. ولمحها تخرج من دار أبي سمير، كانت تقهقه بصوت مرتفع داعية لأم سمير بالخير واعدة إياها بأنها سوف تعمل المستحيل لأن ترغم زوجها على أن يوافق على بقائهم في الدار.

دارت به الدنيا فأسرع إليها وصرخ فيها ..

ـ هل أذنت لك بالخروج .. ؟

فوجئت به يقف أمامها فارتبكت .. وتوقفت أم سمير عن الحديث وأطل حمود من ورائها يستفسر عن سبب الجلبة .. ودفع زوجته ودخل الدار فارتكب حمود .. شعر أن حياته في خطر ، لكنه تمسك بشيء من الشجاعة الوهمية فوقف أمام غضب صالح دون مبالاة الأمر الذي خفف من غلواء الأحداث .. وانهار وهو يسمع صوته وصوت أم سمير في حديث غريب لا يدري كيف تم تسجيله بالإضافة إلى صورة لزوجته ملقاة فوق الطاولة في غرفة الجلوس وأخذها بين

يديه في عنف جاعلاً منها كرة صغيرة وأمام قهقهة حمود .. ونظرة أم سمير الشامتة خرج مطأطئ الرأس ..

دخل البيت في هدوء ووجد زوجته في غرفتها تنتحب وقد أغلقت الباب على نفسها فألقى بجسمه على أحد المقاعد في غرفة الجلوس يفكر ثم وضع الصورة بهدوء فوق الطاولة الصغيرة التي أمامه ثم نهض من مكانه وخرج .. أخذ يتجول في الشوارع دون هوادة معلناً أن جميع حواسه مشلولة، توقفت عند مشاهدته لزوجته خارجة من باب الشقة الأخرى متخيلاً أشياء كريهة وقعت خلف الباب .. صور كثيرة تجعل الدم ينبثق من مسام الجسم مكونة أنهاراً معربدة تسحق كل شيء .. تزرع الجدب ..

ووجده يقف أمامه .. وأخرج المسدس في هدوء وأفرغ ثلاث رصاصات في جسمه وأخذ يتخبط في دمائه.. وفر اختفى عن العيون .. علق أكثر من علامة استفهام ..

وها هو يعود .. طواعية سلم نفسه، لكن ماذا يقول .. هل يقول إن السبب زوجته التي وجدها ذات يوم تخرج من بيت سيء السمعة كانت فيه مختلية برجل غريب وامرأة موبوءة .. ومزق الشك جسمه بخناجره فأقدم على عمليته ..

ـ تكلم .. ومن قتلت .. ؟

ـ قتلت ابن عمي حمود ..

ـ حمود إبراهيم ..

ـ وأين كان ذلك .. ؟ ومتى .. ؟

ـ كان ذلك منذ ثلاثة أشهر في الشارع العام حيث دب بيننا شجار عنيف لم أتمالك نفسي من أن أقتله بمسدس ثلاث طلقات شعرت بعدها بالارتياح، لقد كان يعارضني في كل شيء حتى في بيتي.. كان يقف أمامي فيه .. كان يقول كل شيء ويجد من يقول له نعم .. وأنا أقول كلمة واحدة فأجد من يقول لي لا .. آخرها عندما طلبت من أبي سمير إخلاء شقتي نعتني بالمجنون وكون علاقة خاصة بأم سمير علاقة مريبة .. أراد من خلالها أن يستولي أيضاً على زوجتي ..

ـ يا رجل .. وقتلته .. ؟

ـ أجل قتلته ..

ـ هل تعرف ماذا حدث بعد ذلك .. ؟

ـ أبداً ..

ـ نشكرك على إفادتك .. ولكن أعطنا عنوانك ومقر سكنك وعد إلى أسرتك ونحن سوف نكمل الباقي ..

وخرج مستغرباً، لماذا أطلق سراحه مع اعترافه بكل شيء، فأخذ يجرجر خطاه إلى داره وقرع الباب في هدوء واستقبله الجميع في فرح ونواح .. ولكن ها هو حمود .. ها هي زوجته ووالده وكل الأسرة ..

ماذا حدث .. ماذا حدث وأخذ يتفرس في الوجوه بينما ابنه الصغير يتمسك بساقيه محاولاً الوصول إلى ذراعيه .. إنه لا يعي ما يدور حوله .. شعر أن هناك أشياء غريبة لكن فرح من حوله أنساه ما يريد أن يقول .. إنما هناك سؤال في أعماقه يقول من قتل ما دام حمود حي يرزق ..

* * *

عبث الحيـــــــاة

عندما يتحدثون عن الجمال يتخذون مني مثالاً في مجالسهم ، لا أدري لماذا .. لكن حرصي على أن أبدو في أفضل حال وبأبسط الأشياء ، أتحدث قليلاً مانحة الفرصة للآخرين لقول ما يشاءون رغم عدم رضائي عن بعض ما يدور حولي ..

وأن زوجي محظوظ بي ..

أما أولادي الأربعة .. ذوو السحن المختلفة فقد تجاوزهم الجميع .. وذلك ببحثهم في سر جمالي ومعنى سعادتي وماذا بيني وبين زوجي ..

إنهم يتمنون قتل الفرح المزروع في عيوني رغم أنه ساتر عجيب لما تعيشه أعماقي من قلق وحزن مرده نظرة الآخرين نحوي وشعور البعض بأنني امرأة رخيصة في متناول يد الجميع ..

لقد وجدت ذلك فجأة ذات مساء ، فلقد لمحت الرغبة القوية في حديث أحد المسئولين عندما أقنعته زوجته بأنه يجب أن يبحث لزوجي عن عمل ، كان لقاء صدفة في أحد البقالات ، كنت مع زوجي لشراء بعض الأشياء وإذا به ينتصب أمامنا ، لا أدري من أين خرج ، إنما لمحته يبحث عن يدي مسلماً في هدوء وتربص .

وتحدث كثيراً عن استعداده ..

وبين لحظة وأخرى يرمقني بنظرة .. فاحصا فيها مقدار أثر ووقع حديثه في نفسي .. فوجدت نفسي في مأزق جديد لا يعيه زوجي ذو المزاج المتقلب الذي قرر البحث عن وظيفة جديدة .. إنهم ينعتونه بالمجنون .. بسبب أفكاره وطموحاته التي لا تحتاج إلا للمال ومن أين المال .. ؟

فنحن منذ الأزل .. نسكن دار مكونة من أربع غرف لا أدري كيف استولينا على هذه الدار، إنما كانت كل شيء بالنسبة لي ولأبنائي مع إتقاني بعض الشيء لفن التفصيل الأمر الذي خفف من وطأة الأيام علينا..

حياتنا بحبوحة من العيش في نظري .. وفي فرح أبنائي .. أما عادل فإنه يتمنى الكثير، يرغب أن يحطم كل شيء ليقف في وسط الجميع لكن في مكان مرتفع حتى يكون الأعلى.. إنما الإهمال والاضطراب في تحديد الخطوات والتنفيذ يعيده كل مساء إلى الدار منكس الرأس حزيناً .. يشكو إليّ همومه متمنياً أنه مات ولم يخلق ولم تكن له حياة ..

وحلت الزوبعة .. لا أدري كيف .. إنما شعرت بالسكاكين من كل ناحية تنصلت فوق جسمي وأن دمائي تنزف لتملأ مساحة كبيرة من المدينة .. وأن الأضواء تختفي .. بينما صراخ أطفالي الأربعة يملأ سمعي ..

أخذ فاضل يتردد علينا كثيراً .. هكذا اسمه فقط حسب بوح عادل، ويسهر إلى ساعة متأخرة من الليل .. كان حديث الاثنين يصلني لكن لا أفهم منه شيئاً ..

إنه مشروع كبير هذا الذي يخططون له ، لقد تنبأت بذلك من نظرة التفاؤل المرسومة على وجه زوجي والبسمة المزروعة على شفتيه منذ اللقاء الأول ..

ـ أمينة .. إنني أحبك ..

ـ ماذا ..

ـ أجل .. أحبك ..

كانت السكين الأولى .. وذلك الصوت المجهول الذي باح باسمي .. في التلفون وادعى أنه يحبني .. أما السكين الثانية فكانت صورة فاضل التي عثرت عليها في غرفة الجلوس داخل منديل ورق ملفوف بعناية لتقول لي إنها وضعت عن قصد ..

أما السكين الثالثة فكانت امرأة غريبة قرعت الباب .. وما أن فتحته حتى طالبتني بإغلاقه سريعاً مدعية أن أحدهم لمحها تنزل من سيارة صديقها فأخذ يتابعها وتخشى أن يكتشف دارها فيشي بها عند أسرتها ..

كانت تتحدث كثيراً عن صديقها الذي أخذ يتغير راجية أن تكون هذه المناسبة ذات خير لنا جميعاً وتكررت زيارتها ولم أحدد موعداً لهذه الزيارات .

أما السكين الرابعة جلسة عادية في داري مع بعض الجارات وحضرت الغريبة التي لم أسألها حتى عن اسمها ولمحت في عيون جاراتي نظرة غريبة ملؤها الاستغراب وعندما غادرتنا عرفت منهم كل شيء، إنها امرأة سيئة السمعة .. وشعرت بالدوار .. إنني أنزف، كل شيء حولي ينبئ بالانفجار وحضر عادل ، أشعرني أن فاضلاً أخذ يتهرب من لقائه ، لم يعد يعثر عليه وأنه أصبح الآن ملزماً بأن ينفذ ما تم الاتفاق عليه ، إنما المال الذي تعهد فاضل بدفعه تأخر وأصحاب المحلات التجارية يريدون نقودهم ، عاد الحزن ليخيم على دارنا ..

ـ ماذا بك .. ؟

ـ لا شيء .. زوجي تعبان .

ـ أنا عارفة ..

ـ ماذا .. تعرفين عن ذلك ؟

ـ لقد كان فاضل البارحة عندي وقال لي كل شيء .. والحل بيدك ..

ـ كيف .. ؟! .

ـ إنه يتمناك ..

أشياء كثيرة احتبست في داخلي .. لم أعرف كيف أفرج عنها، إنها المرحلة الأخيرة من خلال مأساة عشتها منذ وجدت ووفقت بدون شعور مني وكل ما أعرفه بعد ذلك أن زوجي أدخل السجن بسبب التزاماته وطموحه..

كانت القصة كبيرة ، لكن شعوري بأنني نقية دفعني لأن أبحث عن مورد حتى أستطيع إخراجه من السجن رغم إصرار أهلي على أن أطلب منه الطلاق ، إذ أنه رجل غير مسئول ولا مبالي بمصيري أو مصير أبنائي .

* * *

الضيـــــــــاع

إنني أحبها .. أكمل حديثه بهاتين الكلمتين ، ثم أخذ يبحث في عيون مستمعيه عن وقع ذلك عليهم منذ عشرين عاماً وهو يكتم الحب في قلبه عن أقاربه حتى كانت هذه المناسبة .

لكن من تكون هذه الفتاة التي جعلته يتحدث عنها بهذا الشجن والشوق ، وكيف التقى بها ، وأين .. ؟ أشياء كثيرة تحتاج إلى تفسير، ولكن الصمت الذي وجده في عيون من حوله دفعه إلى الهروب إلى المطبخ حيث تقوم زوجته وأكبر أبنائه بإعداد العشاء فانهمك في إعداد الشاي دون أن يتفوه بكلمة ..

كان عمر هذا اللقاء عشرة أعواموصل،ا يدري محمد كيف رتب له ومتى وصل، إنما وفي الساعة التاسعة من مساء ذلك اليوم كان يدور بدون هوادة في المدينة يسأل عن عنوان شقيقه، شعر بالملل والغيظ يطوقانه، ولمحها تقف وراء باب قرعه فجأة..

استغرب وجودها في هذا المكان ، إنها بذاتها تلك الفتاة التي أحبها ذات يوم ، تقف غير مبالية به ، مستغربة سؤاله وإصراره على الوقوف ، فلم تجد بداً من إغلاق الباب في وجهه بعد أن سمعت صوتاً من الداخل يسألها عن هوية الطارق ولمح سيارة شقيقه تقف منزوية خلف العمارة المقابلة فأسرع غير مبال بصراخ من معه في السيارة وكان خوفه في غير محله إذ تبدد من الاستقبال وصراخ وفرح الأطفال بالوصول .

أشياء كثيرة ترسبت في أعماقه تحاول أن تقول إنه يجب أن تكون القناعة ذلك الكنز الثمين هي قدره ، ولكن كيف تكون القناعة وقد شعر بعد عشرين عاماً من المشاكل والمعاناة والغربة أن كل شيء تدهور بعد أن عثر عليها وكما تركها ذات مساء ، كانت تقف عند الباب الخارجي ، ترتدي فستاناً طويلاً أحمر وفانلة صوف ذات عنق طويل ..

- هل أنت مسافر ..

- أجل ..

- ونحن أيضاً ..

- سوف نلتقي هناك .. ؟

- لا أدري ..

- ولماذا ..

ـ هناك همهمة بشأني تدور في الدار .. ؟

ـ ماذا تعنين ..

ولم يعثر على الجواب .. سافرت قبل أن يرحل وتغيرت وجهة سفره، قضى أربعة أشهر في جدة ثم توجه إلى الرياض .. حيث يجهل كل شيء ووصف باهت لموعد كان مقرراً أن ينفذ منذ زمن طويل ..

أخذ يتجول في الشوارع باحثاً عنها وأخذ يقلب دليل التلفون باحثاً عن اسم والدها.

أخذ يطلب الأرقام التي تحمل لقب أسرتها فإذا وجد فتاة سألها عنها فإذا كان الرد من رجل أعاد السماعة إلى مكانها ..

وأخيراً عرف أن الجميع لا يعرفون عنها شيئاً ..

لقد تلاشت في الزحام وها هو يقف وحيداً يتلفت في بلاهة وحزن قد يجدها ..

كان يردد كثيراً الأمل ، حتى في فرح أصدقائه بأنه محظوظ بسفره إلى الرياض تلك المدينة الكبيرة التي تدفع مرتادها إلى السعادة الكلية بما فيها من أضواء .

ووجد شقيقها فهد في إدارة الجوازات حيث كان يقوم مع صديق على إضافة زوجة وهمية إلى حفيظة نفوسه حتى يتمكن من مضاعفة بدل النقل ..

وسنحت الفرصة .. أخذ يعدو وراء فهد الذي لم يلاحظ متابعته، ولكن فجأة اختفى، لقد انشقت الأرض وابتلعته وأخذ يطل في فجوات الشوارع الجانبية، لم يصدق ما حدث، إنه سر غريب، كيف وقع هذا رغم إصراره .

وعاد إلى إدارة الجوازات ، حيث عثر على صديقه ما زال في طابور الانتظار أمام الموظف المختص .. فوقف بجانبه رغم نظرات المراجعين ، كان يبكي في داخله، دموعه تتساقط في أعماقه وصوتها يقول ..

ـ هناك شارع جانبي يؤدي إلى حي المربع ، وفي ذلك الحي تسأل عن مسكننا ، إنها حارة صغيرة .

إنه شارع الوشم .. والشارع الجانبي هو الشارع الذي دخل فيه فهد، إذاً لقد اقترب من الهدف ..

ـ موسى ..

ـ من .. هذا أنت ..

ـ أجل إنه أنا ..

- منذ متى وأنت هنا .. ؟

- منذ أسابيع .. أشهر .. أعوام .. ؟

- وماذا جاء بك إلى هنا .. ؟ كان السؤال عادياً جداً ، لكن في طياته سؤال غريب، إذ أن موسى هو الشقيق الثاني لمن يبحث عنها منذ زمن .. ماذا يجيب .. على سؤاله هل يقول إنه يبحث عنهم ..

- إني قادم من إدارة الجوازات ..

- وأين تعمل .. ؟

- في دائرة الأشغال ..

وولج مع موسى الدار ، حتى رحب به فهد وخرج بسرعة ودار الحديث بين الاثنين ، عرف أن نورة تزوجت وأن والده توفي ، أما والدته فهي مع شقيقه الذي يعمل في القاهرة بالسفارة ، كل شيء انهار ولكنه يسمع صوتها ..

- إنها هنا منذ طلقها زوجها ..

- ماذا .. ؟

- لقد كانت زيجة خاسرة أرغمها أبي رحمة الله عليه على الزواج بابن عمي ناصر، لتكون زوجة ثانية له ، فلم تحتمل ذلك ، وأصيبت بانهيار عصبي وأدخلناها المستشفى، لقد كانت تمنى الزواج من شقيقه المبتعث للدراسة ..

- وأنا ..

- أنت .. ؟

لقد وقع في المحظور ، هل يكشف عن ذاته ، بهذه الكلمة، وشعر أن موسى لم يعط لهذه الأنا أي التفاتة فواصل حديثه محاولاً الاستفسار منه عن بقية الأصدقاء والإخوان..

كان الحديث شيقاً وصوتها القادم من فتحات الأبواب من خلف السدف يزرع في أعماقه رسوماً جديدة .

- وسوف ترحل غداً مع زوجها الذي حضر وتزوجها .. وقفز من مكانه، إنه لم يعد مرغوب فيه الآن .. لا بد أن موسى يعرف كل شيء عن غرامه وأن نورة باحت له بكل شيء ..

أم أن الصدف هي التي كشفت كل شيء ..

وخرج يجر أذيال الخيبة ..

الذكريات جميلة وأجمل منها أن تقف في يوم من الأيام القادمة لتقول شيئاً يلطف من واقع الأيام الكئيبة .

ـ وهل ترغب في الزواج ..

ـ أجل .. ؟

ـ وأولادك وزوجتك التي عانت معك ..

ـ سوف أوفر لها كل ما ترغب ..

ـ يعني بعد أن أصبحت ذا ثروة لم يعد لديك اهتمام بمشاعر الآخرين ..

ـ إنها حبي ..

ـ أنا أعلم ذلك ، لكن تستطيع أن تقول من هي .. ؟

ووقف أمام النافذة .. ولمحها .. كانت هي بذاتها التي استغربت سؤاله وأغلقت الباب في وجهه، إنها نورة تلك الفتاة التي ضاعت منه في الزحام منذ عشر سنوات .

ـ منذ متى وهي حبك ؟

ـ منذ عشرين عاماً ..

ـ كيف .. ؟

ـ تذكر مدينتنا القديمة وتتذكر عندما كنت أنا وصديقي رشاد وإبراهيم نهرب من ملاحقتك وأنت تصر على الذهاب معنا حتى أنني اضطررت في آخر الأمر إلى أخذك معنا في بعض رحلاتنا .. كان عمرك عشر سنوات حينذاك وكنت تحمل رسالتي لها ..

ـ أنا ..

ـ أجل أنت ..

ـ لقد كانت تسكن في البيت المقابل مع شقيقها وزوجته، وجدتها ذات يوم تقف أمام الباب، كانت جميلة بكل معنى الكلمة، وما زالت جميلة حتى اليوم، إنها كما قالت لي عند أول لقاء بعد الغربة ما زالت تنتظرني ..

ـ نورة ..

ـ أجل نورة ..

ـ ولكن أنا أعرفها ..

ـ من خلالي طبعاً .. وغداً سوف نذهب سوياً لخطبتها من والدها .. الساعة الثانية عشرة ليلاً ، وكل شيء هادئ هدوءاً غريباً ، بينما الأفكار تتعامل في داخله

، إنها نورة ، لم يكن يشك في ذلك منذ لمحها وهي تفتح الباب لك ، كيف كل هذا يحدث .. ؟ حقاً إنها من الطائف تلك المدينة الجبلية التي يغرق فيها عشقاً وهياماً .. لكن كيف .. ؟

وقفز من فراشه على صراخ ودبيب وحركة في الشارع، وأطل من النافذة، كانت النار تلتهم الدار المقابلة .. بينما الصراخ والعويل يعم الشارع وأقبلت سيارات الإطفاء .

وتلتهم النار ثلاثة من سكان العمارة لم يستطيعوا النجاة كالآخرين ..

وانسحب في هدوء، لم يحاول معرفة من هم المتوفون .. إنما انحدرت فوق خده دمعة كبيرة لا يدري لماذا نزلت، هل هو شعوره بعظمة المأساة، أم أن هناك وازع داخلي أغراه بأن يسكبها .. وعاد إلى فراشه ..

* * *

يوم بدون ساعات

ارتفع صراخ الجماهير المكتومة في الشارع منذ ثلاث ساعات حول سيارات بوليس النجدة والإطفاء التي أغلقت الشارع وتناثر رجالها فوق أسطح المنازل وأمام الأبواب وهم يرون قائد الحملة يرفس الباب في قسوة وعناد لينفتح على مصراعيه ويقتحم الدار مع مجموعة من رجاله في محاولة نهائية لإلقاء القبض على الرجل الذي أثار كل هذه المشاكل.

كان هاشم كعادته هذا الصباح هادئ البال، غير مبال بما حوله، وقد جلس على عتبة الدار يضحك مع المارين من معارفه متفرساً في وجوه الغرباء، متوقعاً أنه سوف تكون هناك لحظة غريبة ..

وفجأة تغير كل شيء وهو يلمح ابنته التي تأخرت عن الذهاب إلى المدرسة في الشارع تلعب ، إذ أخذ الغضب بكل أطرافه ، وصرخ فيها بأن تدخل الدار وأقبلت الصغيرة وجلة خائفة تقدم رجلاً وتؤخر أخرى .. بينما رفيقاتها من بنات الجيران يشيعنها بنظرة أخيرة .. وإن صرخت إحداهن ..

ـ منى .. لا تتأخري .. نحن في انتظارك .

ولجت الصغيرة الدار ثم عادت خارجة مع جدتها، لكن هاشماً وقف في وجه الاثنتين مستفسراً .. وعلا صوته يطالب والدته بأشياء كثيرة، الأمر الذي لفت انتباه المارة وجعل الجيران يطلون من النوافذ .

وتكوم حوله البعض في محاولة للتهدئة، وكأنه يحاول خلق المشاكل وأمسك بخناقه أحد جيرانه .. وأخذ يهدده بأنه سوف يضربه إذا لم يدخل داره وفجأة تغير كل شيء ..

فقد علا صريخ منبه سيارات النجدة .. الأمر الذي أثار الرعب في داخل هاشم فأسرع بالولوج إلى داره وقد أمسك بيد والدته في قسوة ساحباً إياها وراءه رغم توسلاتها.

وفرت الصغيرة إلى دار أحد الجيران، وأغلق الباب وراءه وهو يصرخ طالباً منها الدخول ..

وتكدس رجال البوليس أمام الباب في محاولة قاتلة لإلقاء القبض عليه .. وأطل من النافذة وهو يتحدث إليهم في انفعال وغضب مطالباً إياهم بمغادرة أماكنهم وتركه في سلام، مهدداً إياهم بأنه سوف ينتحر ويشعل النار في بقية أسرته بواسطة الغاز المتوفر لديه..

وتكوم الناس .. أخذ كل واحد يروي حكاية عن الوضع .. وأخذت سيارات الإطفاء مكانها في الشارع .. وتطور الأمر إلى محاولات ومحاولات من رجال البوليس النجدة والإطفاء في الاقتحام وإلقاء القبض على الجاني .. وكلها تذهب أدراج الرياح.

وفي هذه الساعات الثلاث التي جعلت الشارع يتجاوز حالته الطبيعية منذ تم تأسيسه حتى الآن .. امتلأ بأكثر من حكاية حول الموقف .

واستقر الحديث أخيراً أن "هاشماً" شاب غير طبيعي تصيبه نوبة من الانفعال غير الشعوري .. وذلك من جراء حادثة خطف تعرض لها وهو في السابعة من عمره عندما كان في قريته .

حيث كان يلعب مع مجموعة من رفاقه لعبة الاستغماء ، ودله تفكيره إلى أن يختفي في إحدى السيارات الكبيرة الواقفة في ساحة القرية .. ولم يكن يدري بشيء حوله وإذا بالسيارة تنطلق مغادرة القرية وانحبس الصراخ في حلقه من هول المفاجأة ، فانزوى مع دموعه في ركن السيارة حتى اكتشفه السائق .. الذي فوجئ بالأمر وأخذ يهدئ من روعه.

ولم يفصح عن الجهة التي ركب منها السيارة .. وأضرب عن تناول الأكل مما دفع السائق إلى ضربه بقسوة حتى أخذ اعترافه ولكن بعد مرور ثلاثة أيام كانت عصيبة فقدت أسرته أثناءها الأمل في عودته .

كان ذلك منذ عشرين عاماً وها هو .. يقف الآن موقفاً عصيباً وكلهم يطوقونه من كل ناحية ، هناك من يقف على سقف الدار والآخرون متعلقين بالنوافذ والباب الخارجي.

ووالدته التي اعتادت على كل ما يحدث منه متحملة كل ما يصدر منه بقلب الأم .. تحاول من خلال دموعها استعطاف الجميع ترك ابنها في حاله، وإخلاء الشارع من سياراتهم ومن المارة لأنهم بعملهم هذا يهددون حياة ابنها المسكين الذي تنتابه بين آونة وأخرى حالة من الانفعال العصبي .. والذي كانت تعالجه بحنانها .. وملاطفتها لمعرفتها لأسبابه ..

وحانت ساعة الصفر .. امسك أحد الجنود بيد المرأة العجوز وسحبها في قسوة إلى سيارة النجدة الصغيرة حيث أمر باحتجازها من قبل بعض الجنود .. ثم تعاون مع اثنين آخرين في فتح الباب ومن خلال صراخ الجمهور أخرج هاشم بعد لحظات ترقب وصمت لثوان .. وقد حملته مجموعة منهم كما تحمل الشاة المذبوحة ..

وأخذ الجمهور يصرخ ..

- إيه .. إيه العب .. يا .. ؟

كانت الصورة أكبر من كل الكلمات والحالة أعمق، وأنا أتأمل كل ذلك مع الواقفين وأخذت ابنتي تبكي .. من هول الموقف ..

وفي كلمات صغيرة .. أخذت أطمئنها .. وأنا ألمح الواقفين في الشارع يتسربون محاولين اللحاق بسيارات الإسعاف والنجدة، وتلفت حولي أبحث عن ابنتي وإذا بي ألمحها تقف في وسط الشارع تحادث ابنة هاشم التي في سنها .. ؟

وقررت الانسحاب في هدوء .. محاولاً معرفة كل شيء من خلال ما دار من حديث أثناء وقوفي..

* * *

الــــــوبــاء

أنا لست غريباً ، وحياتي رغم البؤس البادي عليها والشقاء الذي أنشب مخالبه في صحتي حتى هرا جسمي ولون السقم وجنتي بلون الصفرة ، وأرهق عيني فتحول الاحمرار فيهما دون رادع ..

كان ذلك الحديث منذ ألف عام .. سرت شائعة لا أدري مصدرها ، أخذ الجميع يتناقلونها معلنين في الحي بأن "ابتسام" تلك الطفلة الصعبة المراس ذات اللون الأبنوسي هي زوجتي المقبلة، كان الحديث أكبر من حياتي الطافحة بالآمال المتخاذلة في بئر عدم المبالاة ، كنت أضحك مصدقاً ما يدور حولي ..

الأمر الذي أثر على علاقتي العاطفية .. التي كنت أعيش عنفوانها في أحلامي وبين جدران غرفتي فقط .. لأمر بمراحل مع العديد من اللاتي سئمن خوفي وأرهقن خجلي وتخاذلي ..

كانت ابتسام تغار من كل ما يدور حوالي .. ترسم الخطط لمواجهة ما يقوم به بنات الحي من رسومات وأمان لإيقاعي ، وكنت آخر من يعلم ، فأنا كثير الابتعاد عن المنزل لأسباب تافهة لا يحق لها أن تسجل في الذاكرة وغير مهمة بالنسبة للآخرين سوى أنها تخلق آلافاً من علامات الاستفهام ..

وأخذت الأيام خطواتها .. إلى الأمام ، تزوجت فيها من فتاة أحلامي التي رسمتها الأيام في طريقي فجأة ، كانت نورة هي الابتسامة التي عشت فيها معنى الحياة .

وأخذت حياتي تأخذ مساراً جديداً بدأت الآلام تفارقني والحياة تفتح لي بابها على مصراعيه مستقبلة الفنان الجديد الذي أخذ قلمه ينزف حكايات ومعاناة باحثاً عن الابتسام في عيون الآخرين محاولاً خلق ابتسامته الجديدة التي أخذ يعيشها فوق كل الوجوه .. لم يعد غريباً في أعماقه وقد أخذت كلماته تطرق الأسماع ومواقفه تتجسد مواقع ملفتة للنظر معلنة عن واقع جديد وإنسان مبدع .. لا يريد من الحياة سوى الابتسام بعيداً عن تسجيل مواقف وهمية .. وإن كان الاحمرار يملأ وجهه ، يبدو عليه الارتباك والغضب ..

- لقد شكت منك ابتسام ..

- ... ...

- تدعي أنك أخذت تلاحقها عبر الهاتف .

- ... ...

لقد قالت لي الكثير .. عن تصرفك غير الواعي معها .

- ... ...

- أرجوك ابتعد عنها ..

- ... ...

- إنها زوجة وأم لعشرة أطفال الآن .

- ... ...

- أنت إنسان عاقل أنا لم أصدق كل ما قيل .. ولكن حديثي معك من باب الأخوة.

- ... ...

ورحل .. لم أقل كلمة ، كان الموقف مفاجئاً .. كان أكبر من كل الصور والتوقعات، ودخلت الدار واستقبلتني نورة بسؤالها المعتاد ..

- عادل .. ماذا كان يريد عبد الله.. ؟

- لقد عزمني على الغداء .. غداً ، واعتذرت ..

لكن الصور المرسومة على محياي تختلف عن الجواب ، الذي لا أدري كيف ألفته وصمتت لم تحاول قول شيء .. وأخذت أفكر ، كان الموقف كبيراً ومرحلة الاختبار صعبة.

- نورة .. لقد اتهمني بأنني أعاكس ابتسام .. ؟

- ماذا .. ؟

- هذا هو الأمر الهام الذي تردد من أجله ثلاث مرات حتى يكلمني فيه ..

- وأنت ماذا قلت .. ؟

- لم أقل شيئاً ..

- غبي ..

كانت هذه أقوى صفعة توجهها نورة إليّ منذ زواجنا ، كان الانفعال بادياً على وجهها ، وأسرعت إلى التلفون وأدارت القرص ثم ناولتني السماعة وهي تهمس ..

- إنه عبد الله .. طالبه بالدليل المادي .. أوقفه عند حده .. لقد اتهموني بالكثير، ولكن كنا أقوى وكنت أنقل لك بعض ما يقولنه عني من خلال أحاديثهم المتناثرة، فلما أعيتهم الحيل بدءوا يشنون الهجوم عليك ..

- عبد الله .. لقد فكرت في كلامك كثيراً وها أنا أتصل بك بعد أن وصلت إلى حل، أرجوك أن تحدد متى أخذت أعاكس ابتسام وهل هناك وقت محدد .. لن

أسكت على هذا الاتهام ..سوف أدافع عن نفسي .. أمامك أمام كل من يجازف بدون وعي ..

وأغلقت السماعة في وجهه .. كان يريد أن يقول شيئاً فلم أمنحه الفرصة، لقد وجدت أن صمتي وهو يحدثني .. تخاذل .. والآن فلأجرب هذا التخاذل معه .. ولكن بفرضه عليه ..

وشعرت بأنني انتصرت وأنا أحتضن نورة التي أخذت تحدثني بأشياء جديدة رواها لها البعض عن حياتي السابقة وكيف كنت أعيش ومعنى حياتي الجديدة .

ولكن مع ذلك لم تستطع أن تصل إلى شيء واضح كنت أعيشه وإذا بيدي نورة تطوقني في حنان تدعوني إلى الفراش حيث ينام صغيرنا في هدوء متناسياً أنني أهوي إلى القاع .. من خلال انتظاري الرد من أشخاص اسودت الدنيا في أنظارهم ، وكانت مرحلة فقدان الذات المبنية على الضياع .. بعد فقدانهم كل شيء، والشعور بأن هناك امرأة سيئة السمعة تحاول جمع شملهم، وخلق وجود له من خلال إعادة اسمهم إلى الحياة في صورة جديدة كتابعين .

وغرست قبلة قوية فوق الشفتين المنفرجتين عن ابتسامة حب ، لقد كانت كل نجاحي ، وها هي تبكي معي وتناسينا أن النور حولنا ، فكانت لحظة الحب التي لم تنطفئ شعلتها رغم مرور عشرة أعوام على زواجنا تضيء كل شيء ..

(الصورة الأولى)

* * *

الـــــوبـــاء

عندما تكون الأحلام كبيرة تتوقف الأيام عن العطاء لتشعر ذلك الحالم بالجوع والحرمان والتشرد، محاولة قدر المستطاع نزف جراحه حتى آخر قطرة من الحياة .

وإلقاءه فوق رصيف مهجور، في مدينة كل القلوب فيها آلة تسير وفق مخطط غير مراعية المشاعر والأحاسيس ..

وكأن "عادلاً" هو الوحيد ذو القلب الطبيعي .. ينبض بالدم .. ويتدفق من خلال الشرايين .. والدماغ .. سارياً بكل قسوة إلى الأعماق لتجد العيون شيئاً تتأمله، والعواطف أحاسيس وحب تبحث عن نهاية له .. تضخمت الأفكار في رأس عادل حتى إنه لم يعد موجوداً في مكان معين، فجل وقته ساهم .. يتلفت يمنة ويسرة باحثاً عن معينه الذي لم يفكر في يوم من الأيام أنه سينضب ..

مرت الأيام سريعاً وها هي عشر سنوات، وكل شيء في عادل يتغير ما عدا عواطفه، ومشاعره الحالمة المسربلة برداء جديد هو التردد والخوف من الوقوع مرة ثانية ضحية للأيام .

- عادل .. لقد حضر عبد الله .. ثلاث مرات يسأل عنك..

- من .. ؟

- عبد الله .. حضر ثلاث مرات يسأل عنك ..

- وماذا يريد .. ؟

- لم يقل شيئاً ولكن الارتباك بادٍ على محياه .. و .. و ..

لم تكمل نورة جملتها حتى كان جرس الباب يرن بشكل مزعج فلم يهتم عادل ببقية الحديث ولم تحاول إكمال جملتها حيث جرت إلى الباب فزعة .. فالساعة تشير إلى الثامنة مساء وأطفالها الثلاثة لم يحضروا من عند جدتهم .. فانشغل بالها رغم قرب الدار .. لكن الظلام المخيم على الكون أثار قلقها ..

ووجدته كان هو.. فلم تنبس بكلمة .. إنما التفت إلى عادل الذي يقف وراءها ..

- أهلاً تفضل ..

- شكراً .. إني أريدك في كلمة ..

- طيب نشرب الشاهي ..

ـ شكراً ..

ـ بارد ..

ـ آسف أنا مستعجل ..

وخرج عادل من الدار مع عبد الله وركب السيارة التي ما زال محركها دائراً..

ـ عادل .. إنني في غاية الحرج .. ولكن لا بد أن أتحدث معك في الأمر ..

ـ لقد ذكرت لي نورة أنك حضرت ثلاث مرات ..

ـ أجل ..

كانت الحكاية مفاجأة .. لم يكن يتوقعها أو تصل الأمور إلى هذا التردي بعد أعوام ثلاثة من المناوشات والمناقشات حول زوجته وعلاقتها بأسرته .. ها هم يعودون من جديد عن طريقه لخلق حالة من الشك ..

ـ أنا أعاكسها .. ؟

ـ هكذا قالت .. ولكن أنا غير مصدق ..

ـ ولماذا نقلت الكلام لي ..

ـ أنت أخي وهي أختي .. وأريدك أن تكون على بصيرة .. ولم يستطع المناقشة، اكتفى بالصمت والإنصات، واتفق الاثنان على كتمان الأمر حتى يتم معرفة حقيقته والوصول إلى بر الأمان .

ـ ماذا كان يريد .. ؟

ـ لا شيء .. عنده ضيوف .. ودعاني للغداء غداً .

ـ ما هو معقول .. من الساعة الثامنة حتى العاشرة تقريباً لمجرد "العزيمة".

ـ أجل .. ؟

ـ ليه أنا .. إيه دوري كان من الواجب خلال تردده في المرات الثلاث يقول لي ..

ـ هذا اللي حصل ..

انتهت برامج التلفزيون الساعة الواحدة .. ولم يتحرك عادل من مكانه .. ونهضت نورة لإنهاء بعض الأعمال في المطبخ ..

ـ أعطني كوب ماء ..

وباح لها بكل شيء .. إنه متهم بملاحقة ابتسام .. ومكالمتها بالهاتف رغم أنها متزوجة ولديها أطفال ..

ـ من قال هذا ..

ـ عبد الله ..

ـ لقد عرفت .. إنها لم تكن عزيمة .. لكن ماذا تريد أن تفعل الآن ..

ـ لا أدري ..

ـ كيف ..

ـ لقد اتفقت معه على أن أنتظر حتى نهاية الأسبوع ..

ـ إذا بدأت حملة الإشاعات هذا الصيف .. عن طريقك ..

أخذت الأيام تكشف الكثير من الأحداث العميقة التي كان عادل يتخيلها مجرد أوهام، فكل الأصابع تشير إلى أن قريبه يعترض طريق كل شيء له بصفته موظفاً في إدارة حساسة ليستأثر بها ..

ولكن شيئاً واحداً لم يستطع الحصول عليه، وهو المكانة التي وصل إليها عادل عن طريق كفاحه والمركز المرموق الذي وصل إليه، فأخذت الصحف تتحدث عنه وتبرز صوره في أكثر من مناسبة، إنها مرحلة التخاذل الحقيقي .. إذ لم يبق شيء وقد اتضحت الأمور .. وعرف الجميع مصدر الإشاعة، لقد كانت صفاء .. مصدرها ..

حيث كانت تبحث عن حياتها من خلال البحث عن ذات جديدة حالمة .. عاشتها في طفولتها ومرحلة معاناة في مرحلة الشباب حيث انفصل والدها وعاشت إحدى شقيقاتها قصة حب أقدمت بسببها على الانتحار .

فكانت تبحث لذاتها عن موقع قدم فوق رصيف الحياة .. وكان زواجها عن قصة حب لكن هذه القصة تراكم عليها الرماد، فكان الحزن عميقاً وهي ترى قصص حب من حولها تتوهج يومياً، فأرادت أن تكون لها قصة حب جديدة، ولكن مع من .. معه هو على حساب كل المبادئ والحياة لتشعر من حولها بأنها ما زالت فتاة الموقف، وشعرت بالخسران، وهي تلمحه بعد لحظة انفعال .. وساعة تجلى قدمت فيها كل شيء يهرب من بين يديها خالقاً في أعماقها ألف خنجر .. واختفى بعد أن شعر بعظم خطئه وقذارة تلك اللحظات التي لا يدري كيف كانت وقد سلبته إدراكه وشعوره بدون وعي ..

وأخذت تجري وراءه لاهثة .. خالقة المواقف والمناسبات وكان يواصل رحيله وهربه ..

لقد علم أنها مصدر الإشاعة بعد عامين من الغياب والانقطاع بعد أن أخذ يسأل من حوله عن حقيقة ما قيل على لسان ابتسام .. اتصل بجميع أقاربه محاولاً التوصل إلى النتيجة ..

ـ عادل .. أتعرف ماذا حدث .

ـ ماذا حدث .. ؟

ـ صفاء .. انتقلت إلى رحمة الله .

ـ ماذا .. !!؟

ـ لقد اتصل بي أخوها وأخبرني .. أن عبد الله اصطدم بإحدى الشاحنات منذ يومين وأدخل الاثنان المستشفى في حالة إغماء ..

ـ يا لله ..

كان القدر أكبر من كل شيء ، وأخذ يتأمل في عيني نورة متذكراً ماضيه منذ آلاف السنين ، حيث كان يصارع الأمواج وحيداً في زورق بلا مجاديف .. كان الموج عاتياً، وكانت الأنواء شديدة .. وأطلت هذه العيون من وراء السحب تناديه .. تدعوه إلى الاستمرار ، كان لا يعرف عنها شيئاً سوى أنها طفلة تسكن الشارع الذي تقيم فيه أسرته .. وكانت الأسرتان أسرة واحدة .

وكان الاثنان طفلين لم يتجاوزا مرحلة الإدراك .. وها هما وبعد عشرين عاماً يلتقيان من جديد .

(الصورة الثانية)

* * *

الدوامـــــة

إنه الربيع حيث ارتفعت الثريا، وأخذت الأوراق الصفراء تتساقط من فوق الأغصان بفعل الرياح الشديدة، وأخذت السماء بين الفينة والأخرى تتبلد بالسحب الداكنة معلنة عن موسم المطر ..

وأخذ يتحدث .. استرسل ، يشتكي ذلك القادم من هناك وجعل كل شيء في الدار ينقلب رأساً على عقب بعد السعادة التي كانت تملأ الزوايا .. والأحلام الربيعية المشنوقة التي أخذت ترقص جذلاً على بشائر قدوم المولود الأول بعد انتظار وعناء عاشه ألف عام ..

كانت البداية فكرة صغيرة لم يدر كيف حضرت .. إنما وجد نفسه في ساحة مطار القاهرة يتلفت باحثاً عن سيارة أجرة تقله إلى أقرب فندق، يقضي فيه بقية ليلته ثم يتصل بالأرقام التي زوده بها أصدقاؤه ليجد شقة مفروشة.. إنها المدينة الساهرة ذات الأنف والعيون الثلاث الأضواء تشد الانتباه والزحام يزرع الفرح في الأعماق ..

وأمام باب الفندق وجدهم اثنين من موطنه .. إنه يعرف هذه السحن ، لقد شاهدها أكثر من مرة لكن أين .. ؟

وتعرف بهم ..

لقد قدم الأول للعلاج .. والآخر للترفيه عن النفس .. وأنت .. ؟ لم يكن يتوقع السؤال بهذه الصلابة أو القوة ..

من أجل الزواج .. ؟

رحب بهم صاحب الفندق .. وأخرج كل واحد من جيبه مفكرته فكلهم يحمل في جيبه عدة أرقام .. وخطرت فكرة جديدة، لماذا لا يتم مقارنة الأرقام في المفكرات الثلاث لعل هناك رقماً لدى الجميع، لكن كان التنافر .. والبون شاسعاً، إنما اتفقوا على الإقامة معاً مهما كانت الظروف ليعيش كل واحد فيهم على سجيته ..

وقال ... !

وجدتها وديعة هادئة، كل شيء فيها يثير الطمأنينة في النفس، وقلت لها إنني أبحث عن ولد .. أرغب زوجة دائمة ، ولكن كذبت وادعيت أنني موظف كبير .. رغم أنني مستخدم .. وبمرتب ضئيل، لكن لدي دخل آخر من دار أملكها وأقوم بتأجيرها ومتجر صغير يقع في الحي الذي أسكن فيه ..

وودعت رفيقيّ على أمل أن ألتقي بهما مرة أخرى .. وعدت يحدوني الأمل في أن أعيش حياة كلها هناء، ووجدت ما أبحث عنه من خلالها فلم أجد حرجاً من أن أقول لها حقيقة وظيفتي، كانت تبحث عن الاستقرار من خلال قناعتها بما أقدمه لها .. وأشعرتها بالاحترام، حاولت أن أقول لها إنها كل شيء في حياتي وتريثت قليلاً .. ثم واصل حديثه وهو يهم بإشعال سيجارة .

وذات ليلة لا أدري ماذا حدث هرب النوم من فراشي فأخذت أتقلب .. أحاول بشتى الطرق وحطم الصداع رأسي .. كانت هناك أكثر من مائة مطرقة وآلة حفر تشتغل في داخلي معلنة الأرق والإزعاج مقدمة لحظاتي إلى حارس السلطان الجلف الذي أمسك بي من شعر رأسي وأخذ يسحبني فوق الأشواك غير مبال بما يصيب جسمي وأخذ دمي يملأ الطريق بلونه ورائحته ..

ـ أظن الأستاذ صالح عبد الرحمن ..

ـ أجل أي خدمة يا عزيزي ..

ـ أنا ابن عم فائزة .. ؟

ـ أهلاً وسهلاً ..

ولم أجد في داخلي قبولاً للمدعو محمد، إذ أنه زرع في أعماقي دائرة ضخمة من النفور والاشمئزاز .. وعلامات استفهام لا تحصى .. أخذت تشاركني خطواتي معلنة في قسوة عن بداية مرحلة جديدة من الصراع، ورغم ذلك رحبت به ..

وجعلته يقيم في داري حتى عثر على منزل استعداداً لاستقدام زوجته وابنه، لكن الأمور تغيرت كثيراً .. أخذت فائزة تتذمر من الحياة، وتطالبني في نفس الوقت بالسفر لتضع هناك .. آخذة عليّ أنني تغيرت وأن الكذبة التي قلتها عن عملي سوف تجعل أسرتها إذا علمت أنني مجرد مستخدم في الدائرة التي أعمل بها تطالب بتطليقها مني حيث أن مستواهم المعيشي والوظيفي أفضل مني بكثير .

وأخذت كل يوم تقول شيئاً جديداً .. حتى أسرار المكتب الذي أعمل فيه كانت تصلها أولاً بأول .

وقررت مفاتحة محمد بذلك .. غير أنني ترددت كثيراً ووصلت زوجته وابنه ولم تمض أسابيع حتى شب خلاف بينهم ، فأصرت على العودة إلى أسرتها ..

وأصر هو على أن يبقى ابنه معه، وسافرت الزوجة وبقي الابن يقضي معظم وقته عندي ..

وحصلت على إجازة استثنائية لأسافر مع فائزة لقضاء بعض الوقت ولتضع بين يدي والدتها وشارحاً ما جد في حياتي من ملابسات لعل أسرتها تعيد إليها صوابها.

كانت الفرحة كبرى ..

ـ هل تتهم أحداً بالسرقة ..

ـ أبداً ..

ـ ما مقدار المبلغ المسروق.. ؟

ـ عشرة آلاف ريال..

ـ ولماذا تضع مثل هذا المبلغ الكبير في شقتك..

ـ لأنني أنوي السفر في الإجازة ..

ـ وهل يعني هذا بقاء المبلغ معك .. ؟

ـ سوف أدفع منه ستة آلاف ريال تأمين ضمان للعودة..

ـ كيف ..

ـ بصفتي متعاقد وطالب إجازة طارئة لظروفي العائلية فلا بد من دفع هذا الضمان.

ولم يسفر التحقيق عن شيء، لقد دخل أحدهم شقة محمد وسرق منها عشرة آلاف ريال وبعض الدمى وأشياء لا يستحق الذكر.

إذا كان هو مسافر أيضاً في الوقت الذي أنا أخذت فيه إجازة للسفر ماذا يعني هذا.

وأنشب الشك مخالبه في صدري، وأسرعت إلى الدار حيث وجدت عند فائزة بعض السيدات وحاولت أن أصرخ فيها معلناً اكتشافي حقيقة خيانتها.

لكن الهدوء المرسوم على محياها وآثار الإرهاق البادي في عينها من آلام الحمل جعلني أكتم غيضي وأردم الشك المترسب في أعماقي ..

وسافرنا ..

أجل سافرنا .. ولكن

عدنا .. مع طفل جميل اخترنا له اسم عبد الرحمن جميعاً ، كانت محاولة ترفيه من فائزة لي ، وقد وجدتني أبحث عن رضاها ، وإن كان ذلك ذا أثر عكسي عليّ ومن خلاله شعرت أنني أقترب نحوها أكثر ، رغم أنها في مرحلة من المراحل خلقت بيننا جداراً صلباً من الحديد ، ذهبت معه صرخاتي أدراج الرياح وشعرت بالعطف عليها .

لا أدري الدافع إلى ذلك ، لكن كانت في داخلي رغبة أن أطوقها بيدي وأحميها من وهج الشمس ولفح الرياح ..

كانت بداية فصل ربيع جديد .. أخذت فيه أشعر بجمال ما حولي، وأن الحياة مجرد أغنية جميلة يجب أن يغنيها الجميع من خلال الابتسام والحب ..

ـ لقد تدهورت به السيارة ..

ـ متى كان ذلك ..

ـ منذ أسبوع ..

ـ لقد انتهى التحقيق في السرقة .. وقفل المحضر لأن الشرطة لم تستطع معرفة الجاني.

ـ وهو ..

ـ تنازل عن القضية ..

ـ يعني ..

ـ لا أحد يعرف كيف وقع الحادث، لقد مات متأثراً بجراحه بعد إدخاله المستشفى يومين، أما ابنه فقد سلم رغم أنه مصاب ببعض الكدمات ..

وأسرعت إلى المستشفى حيث يرقد الصبي ، ووجدت أنه خرج ، استلمه أحد زملاء محمد من المستشفى في الصباح على أمل إرساله إلى والدته في القاهرة ..

وعدت أدراجي .. إلى الدار غير مهتم بباقي الوقت في العمل، كان الحزن أكبر من أن يحتمل ..

وقررت أن أصمت ..

فالمرحلة التي عشتها تدفعني إلى أن أكتفي بعد هذه النهاية بأن أقف أمام فائزة ..

والكلمات المحبوسة في داخلي تبحث عن مخرج مكتفياً بتأمل زرقة عينيها .

* * *

انتظار الرحلة الملغاة

الطريق طويل .. والأحداث اليومية تلهب المشاعر ، فكل شيء غدا غير طبيعي رغم المحاولات الميتة التي تدعو إلى إعادة النظر ، والبحث في بؤبؤ كل عين عن مستقر، ومنتجع هادئ يملأ الفراغ والقلق المترسبين في أعماقنا سعادة .

وأخذ يتلفت حوله ، لقد تأخرت الطائرة المقلة لها عن الوصول ، ها هي الساعة الخامسة مساء ، وكل شيء عادي في المطار ، أترى كانت الرحلة سرية ، لذا كل شيء عادي أم أن في الأمر شيئاً .

الساعة الخامسة والدقيقة الخامسة ..

شعر بأن هناك عينين تراقبانه، أترى ارتباكه فضحه فمشت قادمة مع والدها ووالدتها وشقيقها الأكبر لحضور عقد قران قريب لهم، هكذا قالت الساعة الثانية عشرة ليلاً ..

إنه سوف يشاهدها .. سوف يحتضنها .. ويقبّل جبينها ووجنتيها .. وعينيها وشفتيها .. سوف يستولي على كل قطعة من جسمها حقيقة الآن، لقد شعر بالغربة، هو يراها تزف لابن عمها، كانت الدموع في عينيها ولكن ماذا تقول ؟ هل تصرخ بملء فيها، إنني أحب .. وهل سوف تمر هذه الصرخة مرور الكرام، أم تكون لها عواقب وخيمة وشكت لوالدتها، التي تطاير الشرر من عينيها .. شكت لصديقاتها فلم تجد العون وها هو يهاجر .. ويتركها لليل الطويل تتقلب في فراشها وحيدة ، لقد اقتنص أول فرصة للهرب فرحل دون كلمة وداع حقيقة ، تركها للضياع .. وتذكرت "صالح" .. رفيق الأحلام الذي التقت به ذات يوم يقف أمام سيارته في السوق العام، محتاراً يبحث عن منفذ للخروج وبالمصادفة كانت السيارة التي تمنعه من الخروج سيارة والدها.

لم يقل شيئاً .. إنما كان هناك حديث سري دار بينهما خلال النظرات المتبادلة والابتسامة الصغيرة التي رفت فوق العيون، ومن خلال أخيها الذي أخذ يعتذر فطال الحديث بين الاثنين . ليكون موعداً جديداً، تعاطف مع الأيام وأحاطته الليالي بالكتمان، ويتطور الأمر، فإذا بكل شيء ينهار بمقدم ابن عمها لتتزوج وتسافر مع أسرتها إلى الرياض للإقامة هناك .. لا شيء كان يشدها لابن عمها سوى رابطة الدم .. وإصرار والدها على أن يجازي أخاه الأكبر خيراً لقاء قيامه على شؤون الأسرة عندما غاب والدهم منذ ثلاثين عاماً عن الوجود ..

الساعة الخامسة والنصف ..

لم تعد العينان المتلصصتان تراقبانه، وشعر بحركة في المطار فنهض من مكانه واقترب من موظف الاستعلامات ..

ـ طائرة الرياض متى تصل ؟ .

ـ ألغيت الرحلة ..

وخرج لا يلوي على شأعوام.ان ذلك منذ أربعة أعوام .. الانفجار في داخله دعاه إلى ترك عمله وشراء سيارة أجرة، والحصول على بيان برحلات الخطوط الجوية اليومي ليكون كل يوم في الساعة الخامسة مساءً في المطار.. ينتظرها لعلها تصل .. فرحلتها الملغاة لم يحدد لها موعدٌ جديدٌ وهي لم تتصل به حتى تخبره بالجديد ..

إنه يعرف أن زوجها سافر ذلك اليوم في مهمة عمل وهمية للخارج، اكتشفت كذبه عندما اتصلت بالإدارة التي يعمل بها، فوجدت أنه مجاز لمدة شهر، لذا قررت أن تقابله بشيء من الخطايا التي يرتكبها في حقوقها كامرأة ..

كان الوهم كبيراً ..

فلم يستطع الخلاص منه ..

كانت الصدمة كبيرة بالنسبة لمنى ووالدها .. ووالدتها عندما ألغيت الرحلة وتأجل السفر .. أيضاً الفرح الذي كانت ذاهبة مع أسرته لحضوره ألغي لأسباب خارجة عن الإرادة ..

وتطوع صديق والدها بإعادتهم إلى المنزل في ساعة متأخرة من الليل ولرغبتها في تحطيم كل القيود التي عاشتها ، طلبت من الصديق الذي التصقت به ووجدت فيه صورة طبق الأصل من فارس أحلامها الذي كان الخوف يسربله فلم يهتم برجائها أن يقوم بزيارتها ..

ـ إنني أنتظرك هذه الليلة الساعة الحادية عشرة ..

إنها الساعة التي كانت تعيش فيها حبها إما من خلال التلفون وإما من خلال لقاء سريع أمام الباب ، أو في السوق حيث تكون برفقة إحدى أخواتها .

وفي الساعة الحادية عشرة كان الصديق يقرع الباب، وكان أيضاً زوجها الذي عاد بعد أن سرق أحدهم كل ما معه من نقود..

التقى الاثنان أمام الباب ، فاحتار الصديق الذي لم يعرفه وصرخ فيه ..

ـ وهل أنت على موعد معها ..

وشل الموقف الرجل فانهار .. ماذا يعني هذا وأدخل المفتاح في الباب ودخل بهدوء إلى الدار وتسلل على أطراف أصابعه إلى غرفتها فوجدها نائمة نوماً عميقاً .. فأخذ يهزها ويصرخ باسمها ، فلم ترد وأسرع من في الدار على صوته وأخذ الجميع يرحبون به ، متناسين منى التي تناولت قبل أن تنام قرصين مخدرين لترتاح من الأفكار التي عششت في داخلها ، وأسرع الجميع إليها فلم تشعر بهم

وحملها الجميع إلى السيارة لنقلها إلى المستشفى ، حيث جرى عمل فحوصات لها واكتشف الجميع أنها مخدرة بالمنوم ، وأن صحتها بأحسن حال وجرى إعطاؤها منبهاً فأفاقت لتجد زوجها أمامها .. وجميع أفراد الأسرة فأخذت تتأملهم واحداً واحداً وأجهشت بالبكاء عندما التقت نظراتها بنظرات زوجها ..

لقد كان الطريق طويلاً .. وغدت المحطة التي التقى فيها الاثنان في عالم النسيان وها هو.. وفي الساعة الخامسة تصل أسرة .. قدمت على رحلة الساعة الخامسة القادمة من الرياض في هدوء ولم يلاحظ أن من بين هذه الأسرة الجديدة منى ، فقد كانت تضع حجاباً كثيفاً على وجهها ، ولم تتفوه بكلمة منذ ركبت السيارة حتى ترجلت ، ولم يلاحظ وهو يأخذ أجرة المشوار أنه يقف أمام الدار التي كانت منذ سنوات سبع مضت من الطين والخشب ، وكان يأتي كل مساء الساعة الحادية عشرة للقاء جديد .. نسي كل شيء من ذلك وأصبحت الدار عمارة شاهقة لها باب جديد.. وأضواء تضيء عتمة الشارع.

* * *

البحث عن عبير

قال: كان ذلك منذ عشر سنوات وأنا في بداية نشاطي الثقافي مسئولاً عن مكتب الجريدة التي أعمل فيها في مدينتي لا أدري الآن تقريباً كيف كانت البداية حيث كان المكتب الحالي في عمارة أغلب سكانها من الأطباء.. والعمارة الحالية نصف سكانها أطباء وعيادات خاصة .. لقد كان الأمر مختلفاً جداً فقد كان مكتبنا هو المكتب الوحيد في هذه المدينة ورغم الإغراءات التي حصلت عليها من الجريدة بالميزات الخاصة التي أستطيع الحصول عليها عندما يكون عملي بالمكتب الرئيسي ، فقد وقفت أمام كل المغريات .

كانت بدايتي في صفحة الثقافة والأدب ، حيث بدأت أكتب وأنا في مقاعد الدراسة التحليلات الأدبية ثم تحولت إلى كتابة القصة الأمر الذي جعل الكثير يسأل عن صاحب هذا الاسم ويحاول التعرف إليه ، وأنا في زاويتي في أحد المقاهي كل يوم بعد أن أتخلص من كتبي المدرسية وأصدقائي أقبع باحثاً عن شخوص لتلك القصص ، أو من خلال دخولي صالات السينما الموبوءة التي يداهمها رجال الشرطة بالإيعاز من رجال الهيئة، كنت أحياناً من خلال الدخان الذي تعبق به الصالة والصفير الذي يتعالى عندما ينتصر البطل في أحد المشاهد .. كانت هذه الصالات السرية لا تتقيد بالتعاليم أو التعليمات ، المهم تكتظ بالمرتادين أطفال ورجال ..

وذات يوم إذا بجرس التلفون يرن وإذا بإحداهن تسأل عن اسمي ..

وأخذت تحدثني عن حياتها وطموحاتها ، محاولة أن تجد فرصة للحياة من خلال الجريدة وبواسطتي ، كان صوتها ينبثق عن فتاة مثقفة تمتلئ حيوية ونشاطاً ورغبة في أن تكتب مهما كان الأمر بخلاف كل التوقعات وأن لديها الكثير مما كتبته من خلال ممارستها الحياة حسب ما يقتضيه المجتمع الذي تعيش فيه والروابط الأسرية التي تحتم عليها الاكتفاء بالحديث عبر التلفون ومع شخص معروف يثق فيه من حولها ..

كان لاسمي فعله عندما عرفت من أنا ، فطلبت مني مساعدتها ، ورحبت بها كناشئة تبحث عن الطريق الحقيقي ، للوصول إلى الهدف المنشود وشعرت بالغرور الذي يفاجئ به أي إنسان عادي عندما يجد من يمتدحه ، وكيف بي وأنا كاتب معروف أستسيغ عبارات الإطراء وأبحث عن الحقيقة من خلال ما أجده وأعيشه في الواقع الذي أعيش كل متناقضاته وسلبياته لإحساس داخلي فضل أن يعود إلى الأعماق والتي فرض عليها كل شيء حتى رضيت بالواقع المؤلم ليس

لطموحات ريادية ومواجهات متعصبة، ولكن لاقتناع بأن هناك مجتمعاً أفضل يحب الوصول إليه .

فكان لهذه الفرضيات المترسبة في أعماقي أثرها المر الذي امتصت بموجبه كل الطموحات والصور الجمالية للرضاء بما هو موجود ، فكان أن هجرت مقاعد الدراسة ورحلت بعد موافقة على الاستقالة من كل ارتباط عائلي مهاجراً إلى مدينة أخرى ، ولكن لأعود بخفي حنين ، وأعود في نفس الوقت للرضا بأن أكون ممثلاً للجريدة التي عاشت كل أحلامي من خلال نشرها لما أبعث .

ـ ياسر .. هل أستطيع إسماعك آخر ما كتبت ..

واستمعت إليها كانت قطعة وجدانرائعة.ة .. طلبت منها أن تعيد إلقاءها بعد أن أشعرتها برغبتي في كتابتها ونشرها في الجريدة..

ـ لا مانع لدإياها. أن أمليك إياها .. ولكن النشر يجب أن أفكر فيه.

فكرت كثيراً في النشر .. أو أنها تناست ذلك ، وهذا ما لمسته من خلال اتصالها المستمر بي ، وإصرارها على سماع صوتي من خلال أسئلتها القصيرة في شتى المعارف إذ أنها تحولت إلى مستمعة ..

ـ أشكرك .. على كل المواقف المشجعة ..

ـ أنا الذي أشكرك .. لمنحي فرصة للتعرف على شريحة من المجتمع كنت أجهل الكثير عنها ..

ـ ماذا ..

ـ أبداً وإنما هي محاولة .. لإيجاد مكان في مجتمعنا الفاضل الذي يرغب أن يصل إلى مصاف المجتمعات المثقفة المتكاملة ذات الخلفية التاريخية الثرية العابقة برائحة الإيمان الزكية ..

كان حديثنا لا يخرج عن مواضيع محددة بذاتها ، وذات يوم عرفت أن اسمها عبير، فقط كان عبيراً .. كانت لها كل يوم حكاية، ومع مرور الوقت أخذت أرتاح لها.. أبحث عن صوتها مع ارتفاع رنين التلفون.

واختفى صوتها ما يقارب ثلاثة أشهر .. وجاء مجدداً .. كانت في رحلة مع أسرتها إلى الخارج حيث تعالج والدتها من مرض مزمن، أجل كانت في رحلة طويلة.. شعرت فيها أنها بالغربة وأخذت أبحث لأحاسيسي عن موضع، فلم أجد شيئاً لأن التبلد الذي يقبع في أعماقي والخوف الدائم كانا قيداً يطوقني بقسوة ؟ فلم أعد أبالي بهذا القيد، ولكن رضيت أن أكون مجرد شاهد، يتأمل ويستمع فقط ثم يخلق ابتسامة صغيرة، علامة التعجب .. وبعدها يروي حكاية استمع لها من أحدهم في مجلس آخر، كانت هذه مشاركتي ..

ـ ياسر .. لقد كتبت قصة جديدة ..

ـ أسمعيني إياها ..

ـ لا سوف أحضرها .. بنفسي إلى المكتب .. هذا المساء .

ـ وحضرت، كان معها شقيقها ووالدتها، كانت تقف منتصبة أمام الباب الخارجي للمكتب بكل ثقة واعتزاز تتلفت حولها تبحث عن صورة هي أنا .

كان اللقاء قصيراً وكان الحديث مبتوراً، وكانت القصة في أربعة أوراق من دفتر مدرسي قديم، وبدون توقيع وأخذت أقلب الصفحات أبحث عن البداية والوسط والنهاية، وحاولت أن أسلمها كما هي مرتبة لناسخ الآلة في المكتب.. فأعادها إليّ طالباً فك رموزها، وأعدت كتابتها بخطي حتى يستطيع نقلها، وأمام الأمر الواقع أخذت أقرأها، تحدثت القصة عن حلم جديد، عاشته.. لكن الحقيقة صدمتها، فعادت لغرفتها وأوراقها تدفن فيه آلامها وتكتب بمداد من الدموع لهول المفاجأة ..

ـ عبير لماذا تتحدثين عن نفسك كثيراً .

ـ إنها الحياة ، ومتطلباتها ، فأنا لم أجد سوى نفسي كمثال كبير أستقي منه أفكاري ..

ـ ولكن .. يخيل لي أنني أنا البطل..

ـ ... ...

ـ هل تحدثت إلى أحد في المكتب ؟ هل أهانك أحد برد مقذع ؟ إنني أعتذر عن كل بادرة حصلت من هذا النوع ، وأرجو اعتباري كما قلت في السابق صديقاً أو أخاً تلجئين إليه عندما تحتاجين إلى ذلك ولن أكون أكثر من ذلك .

وقدرت ذلك من خلال ما لمسته من أحاديثها المتكررة ، ولكن لم أصل إلى معرفة اسمها كاملاً وعنوانها مكتفياً باتصالها ، حيث لاحظت أنها عرفت عني كل شيء من خلال ما كتبت وعبر الأحاديث التي دارت بيننا ، فوصلت إلى مرحلة طرح أحلامها جانباً والالتصاق بالواقع الذي مثلته أنا أخيراً بأبشع الصور ، إذ وجدتني رغم وسامتي رجلاً متزوجاً لا أستطيع محادثتها عندما تتصل بالمنزل أو تفاجأ بأن الذي يرد عليها كلما اتصلت زوجتي أو صوت أخرى يشتمها عندما لا تتكلم .. ومع ذلك استطعت أن أعرف رقم تلفونها وأن أعرف اسمها كاملاً وأين تقيم .. وكان تحديد موعد للقاء أمام باب الدار ، فوصلت قبل الموعد بنصف ساعة وأخذت أبحث في الأسماء المعلقة على الأبواب على اسم والدها فلم أعثر على شيء وشعرت بصدمة كبيرة حلها صاحب بقاله صغيرة في نهاية الشارع ، إذ دلني على المكان ، وفي الموعد المحدد كانت تطل من نافذة غرفتها ، ووجدتها أمامي في فتحة الباب الموارب هادئة لا تتحدث بخلاف الصفات التي رسمتها في

مخيلتي من خلال مجيئها إلى المكتب وهي متلفعة بالعباءة والحجاب السميك جميلة المحيا ، ناحلة العود ، ولم يستغرق اللقاء سوى دقائق وإذا بحركة في الداخل فطلبت مني النفاذ بجلدي حيث افتقدتها أسرتها وسلمتني بعض الأوراق مطالبة برأيي ..

قلت ..

ـ وماذا كانت أفكارك عنها ..

ـ قال ..

ـ انتظر ..

لقد تكرر اللقاء المختلس كثيراً وكنت أشعر بالطمأنينة في البداية، ولكن عندما أعود لواقعي أفكر كثيراً من خلال جمالها .. وصمتها عند كل لقاء ومحاولتها الإسراع في إنهاء اللقاء حتى تكونت لدي فكرة أنها تخدعني وأن الفتاة التي ألتقي بها عند الباب هي أخرى غير تلك التي تحدثني بالتلفون أو التي تحضر مع والدتها وشقيقها مرتان في الأسبوع إلى المكتب لإطلاعي على مسودات ما تكتب من أجل التقويم ، وترسبت هذه الفكرة في أعماقي ومع ذلك ما أن يتم تحديد موعد للقاء حتى أكون في نفس اللحظة هناك إما لإيصال ما تم تدوين ملاحظات عليه ، أو لاستقبال هدية صغيرة منها كقارورة عطر أو شريط أغنيات ، تمثل سمو روحها وصدق معاناتها ، ولم نتحدث عن الحب .. لأنني طلبت منها ذات يوم أن تقول أحبك فلم تقل هذه الكلمة مكتفية بكلمات الترحيب الصغيرة الوجلة .. وصممت على معرفة الحقيقة والوصول بمرحلة الشك التي ترسبت في أعماقي إلى بر الأمان .. هل هذه الفتاة التي أقابلها هي عبير التي أتحدث معها ، كل يوم تقريباً ساعة في نقاش حول الحياة والمجتمع ، أم أن الحالتين واحدة ولكن لاختلاف المواقف خلقت هذه الهوة ، ولم أتسرع راضياً بما أنا فيه للخروج بالنتيجة المرتقبة .. موطناً نفسي على القبول مهما كانت المفارقات وقد استسغت هذه الازدواجية التي خلقتها لي شكوكي .. وكان يوماً وجدتها تطلب مقابلتي بعد مرور سبع ساعات على آخر لقاء .

ـ وهل .. ألقاك بذات الملابس ..

ـ أجل ..

وأسرعت فوجدتها كما هي ، إنما هذه المرة طبعت قبلة خاطفة على خدي وحاولت إصلاح غترتي التي وقعت من فوق رأسي ، ولانتهاء اللقاء كسابقه سريعاً وإن كان موعده يختلف عن بقية المواعيد السابقة حيث كان في الساعة الثانية عشرة ليلاً ومرت الأيام انقطعت فيها عبير عن الاتصال ورغم محاولاتي العديدة في الالتقاء بها لزياراتي المتكررة للشارع في المواعيد المحددة ، واتصالي

المستمر الذي أجد فيه تلفونها إما مشغولاً أو لا يرد أحد ، وانتقل مكتب الجريدة إلى هذه العمارة القريبة من سكنها ودوامة البحث عنها ضاعت في زحام العمل ورحلاتي المفاجئة في مهام صحفية وإصداري لأكثر من كتاب ، لم أذكر فيه اسم عبير على أي بطلة مؤملاً أن تعود حيث أصبحت قدري الذي ألجأ إليه هارباً من ضجيج الحياة وطلباتها التي لا تنتهي .. ولكن كل شيء فشل .

قلت : ولكن المعروف عنك أنك تكتب من الواقع ..

قال : أجل وأغلب كتاباتي تلامسني .. وتعيش على السطح ومع ذلك لم أتجرأ في الكتابة عن معاناتي هذه ..

قلت : وهل وصلت إلى النهاية ..

قال: أبداً .. لقد كان بين يدي كتاب جميل أقرأ فيه بشغف وحب ولكن لم أستطع تجاوز عشر صفحات منه ، كانت المفاجأة كبيرة فها هي قصاصاتها بين يدي أقلبها كل مساء أبحث فيها عن نهاية فلا أجد ، لقد حدثتني عن زوج تقدم لها ، ولكن كانت لا ترغب في الزواج ، ليس هروباً من الزواج كمبدأ ، ولكن لمشاعر أخرى هي أحلام الفتاة الجميلة التي تبحث لها عن موقع قدم في الزحام ، كانت أفكارها السامية فوق كل شيء وشعورها بثقة من حولها بها هالة من النور ترسم خطاها فلم تعد تستطيع رسم أي خطوة من ذاتها ، لقد وجدت كل هذا وأنا أراجع الأحاديث التي دارت بيننا ومع ذلك كنت أترقب خطواتها المفاجئة وإذا بي أفاجأ باختفائها ..

قال .. إذا كان مردود ذلك ما يتعامل في أعماقي فجوابي نعم ، وإذا كانت إجابتي مرتبطة بما عشته من لحظات سموت فوق الكون فإجابتي غائمة في السحاب الذي يلبد مدينتنا كل خريف ؛ لأنه سحاب خير ، وأنا أنتظر هذا الخير ذات يوم ، لأشعر بالارتياح فأجد نهاية لهذه القصة فأعيد كتابتها من جديد ، فأنا لا أريد منها سوى أن تشعر بأنني وفيٌّ لتلك الكلمات التي قلتها لها في بداية تعارفنا ، اعتبريني صديقاً وأخاً ليس لإزجاء الوقت ولكن لطول العمر ، يلجأ أحدنا للآخر عند الحاجة وأنا الآن بأمس الحاجة لها في غربتي هذه ووحدتي ..

* * *

الانتمـــــــــــاء

لم يلاحظ في بداية الأمر عندما التقى بها أنها تعيش في قمقم من الأوهام والخيالات العالية التي عصفت بها دون أن تدري حتى وصلت إلى هذه المرحلة .. التي غدت معها تحلم بأن كل من يقابلها سوف يكون فارس أحلامها رغم الاستعداد للمغالطة وحذف كل أرقام التاريخ من أجل إثبات معادلة غير مقنعة لدفع من تتحدث معه إلى الاستسلام والإيمان بواقعها ..

كانت (آمال) كبرى بنات الأسرة وإن كان ترتيبها الخامس بعد أربعة صبية لم تتوقع الأسرة قدومها، وإن كان الجميع يحلم بفتاة لزرع الدار ورداً ونعومة وكون صخب الأطفال الأربعة فاصلاً موسيقياً يلطف الجو ويزرع البهجة ..

اتخذ إبراهيم الفتى الغر المهاجر من الجنوب إلى الطائف التي كانت أول مدينة توقفت فيها السيارة التي ركب فيها خلسة في المساء مع مجموعة من الركاب الوافدين إلى موقف السيارات من قرى مختلفة وأوهم السائق بأنه قريب لأحدهم أخذ يبادله الحديث موطناً له وتقبل كل عمل يسند إليه محاولاً التنصل من انتمائه إلى تلك القرية الغارقة في التخلف والظلام وكون لنفسه اسماً جديداً أخذ المحيطون به يدعونه به حتى أن سيده الذي ارتاح له أشاع بأنه ابنه في كل مجلس وقرر ذات يوم أن يخرج له بطاقة من إدارة الجوازات تؤكد صحة بنوته ، فغدا لا يخشى شيئاً وأخذت حالته المادية والاجتماعية بفضل هذا الانتماء تتحسن ويكون لها وزنها في المجتمع الجديد الذي عاشه بكل ما فيه من أهواء ، وتزوج إحدى ربيبات الأسرة ، فتاة يتيمة ، كل ما يعرف عنها أنها ابنة أخت سيده الذي فتح أمامه أبواب الحياة ، كانت السعادة طاغية وكل شي يسير على أجمل ما يكون .. وحلت (آمال) لتجد الجميع يتلقونها في لهفة وشوق أخذ يتلاشى مع وفود الابنة الثانية والثالثة حتى وصل عدد أشقائها وشقيقاتها إلى عشرة ، الأمر الذي لفت الأنظار بطموحهم وسعادتهم الوافرة خاصة وأنهم متقدمون في حياتهم الدراسية ومعاملتهم مع من حولهم بخلاف بقية أفراد الأسرة الكبيرة التي ينتمون إليها الأمر الذي خلق نوعاً من الهمس الخفي الغارق في الذاتية ، مما جعل أحد الأبناء الحقيقيين للسيد من خلال مناقشة والده في صحة انتماء إبراهيم إليهم .. وتوفي السيد دون أن يذكر شيئاً من الحقيقة وإذا بإبراهيم يفرض على الجميع وصايته بصفة المسئول الأول عن الأعمال التجارية والعمرانية فتفجر الموقف وأخذت الأسئلة التي كانت تدور في السر عن انتمائه للأسرة تطفو.. وواجهه الجميع بأنه لقيط ، الأمر الذي زرع الحزن في صدر زوجته وأبنائه ، فأخذ يتلفت حوله باحثاً عن مخرج حقيقي لهذه الوصمة ، إنه يريد العودة إلى أصوله ، لكن ذلك يفقده هذا الجاه وهذه الثروة .. وأيضاً يجعله في موقف لا يحسد عليه أمام القانون لتزويره

هويته وانتحال اسم يختلف عن الحقيقة ، فتقوقع وأخذ يخفف من غلوائه ومواقفه الصلبة أمام أفراد الأسرة ، مما خلق في عيون أبنائه أسئلة عديدة تطالبه بكشف الحقيقة .

كانت آمال الابنة المدللة .. تفرض عليه أن يحدثها بكل شيء، ولكن كان يتهرب من الالتقاء بها رغم الحب الكبير الذي يكنه لها بخلاف بقية الأبناء ، وذات ليلة عاد متأخراً إلى الدار ووجدها تجلس في غرفتها تبكي بحرقة كان يعرف سبب البكاء ، يعرف ما يدور بخلدها .. فاحتضنها وطلب منها أن تسامحه .. وأمام باب الغرفة همس ..

ـ آمال .. سوف أقول الحقيقة .. فليس في أبيك ما يعيب ، إنما سوف ترهقكم الأيام لا يزعجك غيابي ..

وغادر الدار من جديد ، عاد إبراهيم إلى قريته وأخذ يبحث فيها عن من يعرفه فالتقى بإخوته وأبيه وتعرف الجميع عليه وطلب عفوهم بعد أن وجد زوجة أبيه عجوزاً عمياء لا تستطيع الحراك في فراشها أخذت تمسح رأسه مطالبة إياه أن يعفو عن قسوتها .. وأخذ شهادة تثبت نسبه وحقيقة مولده وعاد إلى الطائف بعد أن أمضى أياماً شعر بحقيقة انتمائه ..

ما أن لمحت آمال والدها يغادر الدار حتى أسرعت إلى الباب الخارجي مطالبة إياه بالرجوع ، لكن كان قد ركب سيارته الفارهة وانطلق لا يلوي على شيء فأخذت تتأمل السيارة وهي تختفي غير مبالية بما حولها ، بينما كان (فهد) الفتى الذي شعرت بعاطفة قوية نحوه يقترب من الناحية الأخرى فطوقها بذراعيه مما أثار الرعب فيها، ولكن عندما تأكدت من شخصيته ألقت برأسها على كتفه وهي تردد .

ـ لقد رحل أبي .. لقد رحل ..

كانت كلمات فهد المهدئة تسري في جسمها برقة ونعومة وشعورها بأن والدها سوف يعود أعاد السكينة إلى فؤادها ولم تدر ماذا حدث ، لقد كانت اللحظة عارمة والهدوء المطبق على كل شيء يساعدان على أن يتم العطاء في أكمل صورة في لحظة حب نادرة غاب عنها عين الرقيب ..

هاله المفاجأة .. آمال وهي تعود لواقعها وقد غادرها فهد فجأة وصوت المؤذن يدعو إلى صلاة الفجر، كانت غرفتها تروي كل ما حدث.. ملابسها المتناثرة .. في أرجائها تدل على بشاعة ما وقع، فأجهشت بالبكاء وهي تلملم نفسها والهدوء المريب يزرع الشك ..

وأطلت من باب غرفتها تتأمل الدار فإذا بوالدتها في وسط صالة الجلوس فعادت في هدوء إلى غرفتها وأغلقت الباب لتغلق على كل ما حدث في أعماقها ..

كان للأيام الثلاثة التي اختفى فيها إبراهيم عن الأنظار أثرها في الجميع إذا انقطع الأبناء جميعاً عن مدارسهم وكلياتهم في اليوم الثاني والثالث ، للبحث عن والدهم الذي لم تسأل عنه آمال بتلك اللهفة التي ارتسمت فوق الجميع ، كان في داخله شيء يقول إنه سوف يعود ولن يتغيب أكثر من هذه الأيام فكانت تصرفاتها هادئة وأحاديثها مشبعة بالأمل رغم أنها غدت شيئاً آخر ، لا تدري أن ما هو مشكلتها هي فعليها أن تحتفظ بها لنفسها .

عاد إبراهيم .. وقدم في مجلس جمع أفراد الأسرة أوراقه متنازلاً عن كل شيء من أجل خلق الثقة في نفوس أبنائه وأصالته ولم يلاحظ في أثناء الحديث تلك الدمعة التي أخذت تنزل من مقلتي آمال تنساب على خدها في هدوء ، كان كبيراً في موقفه وهو يعلن أنه ابن تلك القرية وأن أمانته وحسن خلقه جعل السيد الذي يعمل لديه ينسبه إليه ويعتبره أحد أبنائه ..

وغادر إبراهيم وأسرته البيت الكبير إلى منزل متواضع ليبدأ من جديد ، كانت البداية قاسية ولكن خفف منها وجود اثنين من أبنائه في المرحلة الجامعية الأخيرة، ووجود زوجة قوية العزيمة أخذت تعوض من خلال شعورها بمسئولية المرحلة الجديدة فزرعت الدار المتواضعة حباً وتفانياً حتى لا يشعر الأبناء بالنقص المفاجئ في الموارد المالية والمكانة الاجتماعية ، وإن كانت هذه البادرة من إبراهيم قد خلقت الثقة في عيون من حوله مجداً وهو الرجل الذي يتنازل عن كل شيء من أجل إثبات حقيقة ليرفع أبناؤه رؤوسهم عالياً أمام الآخرين ..

حدث ذلك منذ عشر سنوات تخرجت آمال من الجامعة واشتغلت بمهنة التدريس وحلت مكان والدها ووالدتها في حياة أشقائها فغدت أماً وأباً لهم غير مبالية بكل ما حولها ، حتى من تقدم لخطبتها وإذا بالأيام تقف في وجهها من جديد .. حيث أصبحت وحيدة وتشتت شمل الأسرة في أرجاء البلاد من أجل العيش لتعيش مع شقيقها الأصغر الذي لم يتزوج بعد .. شاعرة بأنها عبء عليه، لكن كيف وهي تلك الصرح الصامد الذي جعل من حياة والدها نبراساً تسير عليه في كل خطوة مذكرة كل من تلتقي به بأنها أقوى من الزمن ..

ـ آمال .. لقد أصبحت في الثامنة والثلاثين من عمرك .. ؟

ـ ماذا ..

لم تكن تدري بأن الأيام .. سوف تسجل كل شيء بالأرقام رغم تناسيها .. سوف تكون بارزة فوق الأرصفة وفي كل ناحية ..

ـ ولكن هل تتزوجني ..

ـ ... ...

ـ إنني أبحث عن الزوج الذي يسعدني .. فأنا .. ؟

وأخذت تتحدث في مكابرة عن آمالها وطموحاتها واستعدادها لأن تضحي وتقدم ولكن لتقول.. وفر أحمد .. ابتعد .. إنه لا يستطيع تقديم سعادته على طبق أبيض من أجل أن يعيش سعادة أخرى واختفى مكتفياً بأن يتابع من بعيد حياتها من أجل معرفة النهاية..

وذات ليلة وهو بين مجموعة من الأصدقاء يلعب الورق إذا بأحدهم يدخل ويحيي الجميع، إنه يعرفه، لكنه لا يتذكر من يكون..

ـ إنني أدعوكم غداً لحفل زفاف شقيقتي .. آمال ..

ألقى أحمد بالأوراق التي بين يديه وأخذ يتأمل الداعي والذي لم يجد لنفسه مقعداً يجلس فيه ، وتذكره إنه الشقيق الأصغر لآمال ، والذي حاول ذات يوم التعرف عليه ولكن منعته لأنها تخشى على سمعتها وأن يزرع الشك في نفسه صوراً أخرى عنها إذا تم التعارف من خلالها ..

ونهض أحمد من مكانه ودعاه إلى الجلوس .. واستأذن من الجميع ليركب سيارته وغادر المدينة قاصداً مقهى اعتاد الهرب إليه عندما يشعر أنه بحاجة إلى الجلوس مع نفسه..

* * *

المـــــــــــوت

عدت منذ أيام إلى مرتع صباي .. وموطن أحلامي ولم أكن قد حددت كيف سأتدبر أمور غدي .. وإن كنت أعلم أن والدتي سوف تتدبر كل شيء ، حتى أمر إقامتي معها، فسوف تشرح كل شيء لزوجها ، تفهمه بأن إقامتي لن تطول .. وأن الأمور سوف تفرج عندما يشعر أصدقائي بعودتي ..

وهكذا وجدتها فرصة ، كنت أهز رأسي عند كل حديث بالموافقة ولا شيء أكثر من ذلك حتى عندما قالت والدتي لقد طلبت مني جارتنا سعاد أن أخبرك بأنها ترغب منك تعليم بنتيها .. أمل .. وحنان ..

هززت رأسي بالموافقة وبرحت الدار ودون أن أشعر قادتني خطاي حتى أوصلتني أخيراً أمام دار سينما صغيرة .. كنت أحد روادها المدمنين عندما كنت طالباً في المرحلة المتوسطة والثانوية ..

وقفت كثيراً أتأمل الإعلانات الملصقة في الممر المؤدي إلى صالة العرض ثم خرجت وسرت بي قدماي في الطرق والأسواق العامة .. وأمام عيني وفي مخيلتي يتراقص شيء واحد هو غربتي والحال التي أنا بها ، وطرأت في رأسي عشرات الأسئلة والافتراضات.

كنا بمفردنا لا أحد يجاورنا ، وبينما نحن كذلك إذ قرعت سمعي أنّة مكتومة منبعثة من وراء الشجرة التي وراءها حاجياتنا فما كان مني إلا أن عدوت بسرعة لأرى، ورأيت فائقة ممدة على الأرض صفراء شاحبة كالأموات لا تكاد تستطيع حراكاً أو تنفساً وركعت بجانبها ..

ووقفت ساعة جامداً مأخوذاً .. أنظر إلى هذا كله .. ثم أسرعت .. أخذت أعدو ولكن كان الطريق طويلاً .. والأشباح تتراقص أمامي تحجب عن الرؤيا تخنق حتى حركات يدي التي شلت فلم أعد أشعر بها ..

كنت بطبيعة الحال لا أرغب إلا في عمل الشيء الذي يمكنه أن يجلب إلى نفسها السرور كنت أقول لها..

ـ لن أخطو خطوة واحدة قبل أن أحظى برضاك وموافقتك.. فكل شيء سيان عندي طالما أني بقربك .

ولكي أكون عند حسن ظنها هجرت مدينتي .. فقد أحيل والدها إلى التقاعد ولم يعد هناك رابط يدفعه للبقاء في الطائف.. هجرت مدينتي عند أول رسالة وصلتني منها تاركاً مدرستي وكتبي، مع أنه لم يبق على اختبار الشهادة الثانوية سوى أسابيع معدودة.

وفي زحام الرياض وجدت عملاً بسيطا إذ لفت نظري في صحيفة اقتنيتها صدفة عنوان عن وظائف شاغرة.. وللفور بدا لي أن الفرصة قد واتت على غير انتظار مرتقب حيث يكفي أن المتقدم يحمل شهادة الكفاءة المتوسطة مع بعض الإلمام بطبيعة العمل .. وحالفني النجاح ..

وسارعت إلى التلفون أزف لها توفيقي في إيجاد عمل مناسب، وكأني أزف لها تتويجي على العالم وحصولي على أشياء لا يتصورها العقل، ومن يومها كنت أحاول طاقتي أن أبدو على أحسن ما يرام، لا أدري ما هو الدافع.. ولكن هناك شيء داخلي يدفعني إلى ذلك، يدفعني إلى أن أبدي من نفسي خير صورة، وأن أكون في دائرة الضوء.. ومرت الأيام سريعاً ، كانت فائقة تملأ كل فراغ فيها ..

ضحكتها الرنانة .. حديثها الخلاب .. اندفاعها السريع للموافقة على طلباتي، إذ إنها وحيدة أسرتها المكونة من أم وأب عجوزين وأربعة أبناء ترتيبها الثالث بالنسبة لميلادهم فالكل يعاملها معاملة صبي لا معاملة فتاة ، ولهذا كان الاهتمام بها منحصراً في أن تبقى في المنزل ولا تهمل دروسها ومدرستها ..

كانت جذلة وهي ترى اسمي مكتوباً في الصحف وتقرأ ما نشرت مرة وأخرى، ثم تطلب المزيد وفي عيد ميلادها ..

كانت هديتي بالإضافة إلى باقة الزهر قصاصة من صحيفة يومية بها مقطوعة شعرية تحمل اسمها بخط عريض، ولم تقل شيئاً، لم تعر ذلك انتباهاً.. لم تهتم بقراءة القطعة بقدر ما حاولت دفن شعورها باللامبالاة باستنشاق الزهرات والتساؤل عن مصدرها.

ولم أعر الأمر لحظتها أي اهتمام بل لم أقل شيئاً، فاكتفيت بذكر بعض أحلامي العريضة التي وضعتها نصب عيني.

واكتفت بهز رأسها فقط .. وكأن الأمر لا يعنيها من قريب أو بعيد .. وقبل ذلك اليوم بأربعة أشهر وعلى التحديد في أول السنة الجديدة فاتحتها بطلبي.. قررت أخيراً الزواج، وعليها أن تمهد لكل شيء، حتى إذا قابلت والدها تكون مهمتي يسيرة ومبسطة.

وأخذت تتأملني على غير عادتها .. تنبش جيوب ثوبي ملتهمة ما في الأوراق من أسطر .. حاصرة ما في محفظتي من نقود، وتوقفت عند صورتها التي أهدتني إياها منذ بداية تعارفنا وأخذت تقرأ الإهداء.. ووقفت عند توقيعها تلك الشخبطة التي عجزت عن إتقانها .

ـ إنه غامض أليس كذلك .. ؟

وتوجت جملتها بتوقيع آخر .. في الطرف الثاني من الصورة .. وأخذت قلمي وخطت توقيعاً ثالثاً ربط بين التوقيعين السابقين، وإن كان أقل إتقاناً من سابقيه.

وعدت أدراجي وانطلقت وحيداً أفكر في ما سوف أقوله، وما يجب عليّ عمله وعدت متأخراً إلى المنزل الذي أستأجر به شقة صغيرة مكونة من غرفة ومطبخ وحمام، لقد كنت سعيداً.. وألقيت نظرة سريعة اكتسحت كل ما حولي ثم استقرت أخيراً على الطاولة حيث تكدست بعض الكتب والصحف واصطدمت بقصاصات الصحيفة التي أخذت منها القصاصة المهداة والتي لا شك أنها جاءت بغير ما يرجى منها ..

وماطلت فائقة .. كانت تطلب مني التريث .. بينما كانت تخفي قلقها وسر شحوبها عليّ مدعية أن سبب ذلك هو تفكيرها المتواصل فيما طلبت منها.

وحل اليوم الملعون .. رن التلفون في مكتبي .. وإذا بها هي .. لم تقل شيئاً وإن كنت أشعر من نبرات صوتها أن في الأمر شيئاً، إنما اكتفيت بتأكيدي على إلزامي بوعدي .. وهو أخذها إلى أحد الأحراج المحيطة بالمدينة .. حيث تمني نفسها بقضاء لو ثوان في ظل شجرة برية أو الضياع في طريق ضيق تحيط بها الأشجار تمرح فيه مع أحلامها وأمانيها.

كان القدر يترصدنا .. فقد نصب حبائله واختار النوع الجيد هذه المرة إذ طوقنا وخنق كل شيء فينا .. نزلت فائقة من السيارة وتركتني وحيداً مع الحاجيات التي أحضرتها معي وأخذت تتلفت حولها مبهورة الأنفاس محتقنة الوجه يطل من عينيها بريق عجيب، وجدته فجأة ينتصب أمامي .. وعندما أنهيت مهمتي تفقدتها فلم أجدها فأخذت أتأمل ما حولي وإن كنت مهتماً بالبحث عن مكان مناسب للسيارة ، ووجدته ولكن قبل أن أغلق الباب قرعت سمعي الأنّة المكتومة ولما سارعت وجدتها ممدة وشعرت بمقدمي فرسمت ابتسامة على وجهها ، لكن الألم عاودها فأخذت تئن ، وحملتها بين يدي واتجهت مسرعاً إلى السيارة وقبل أن أضعها في المقعد همست ..

ـ إني أموت سامحني ..

والتفت لوالدها العجوز وأخذت أتأمله دامع العين ، لا أدري هل أعزيه أم أطلب منه تعزيتي وقبل أن أترك يده قال ..

ـ لقد كنت خير صديق .. كنا نعرف أنها سوف تموت ..

ـ تعرفون .. ؟

ـ نعم نعرف .. إنها مريضة وأيامها معدودة ، ولديها حساسية من الأشياء الخضراء.

ـ لقد طلبت مني ..

ـ أنا أعرف يا بني لقد سمعتها والدتها .. فطلبت مني الاتصال بك حتى لا تنفذ رغبتها ولكنه القدر .

ـ ولكن ..

ـ أعرف أنك لا تعرف عن مرضها شيئاً ..

ـ أجل يا سيدي .. أجل يا سيدي ..

وارتعت لهذا واستبد بي جزع ، ولكن رغم ما انتابني ساعتئذ من مخاوف وهواجس نمت ليلتي كأعمق ما يكون وعندما صحوت تذكرت كل شيء .. فأخذت أطوي حاجياتي وطرأت عشرات الأسئلة والافتراضات .. وأنا في طريق عودتي إلى الطائف، لكن كل شيء تلاشى وقبل أن أقرع باب مسكن والدتي .. أخرجت من جيبي حافظتي وأخذت أتأمل صورة فائقة ثم مزقتها ونثرتها فوق الرصيف ..

* * *

الانفصـــــال

كلما اقتربت الأضواء كان وجيب قلبه يرتفع .. لا شيء يشده لهذه المدينة التي تتلألأ أنوارها من بعيد سوى ذلك الحب الذي يعيش في أعماقه كطفل لا يدري ماذا يفعل رغم تخطيه سن الرشد ، إنها الآن تقف في شرفة دارهم تنتظر أوبته في نهاية كل أسبوع ، لقد غدا الآن دورها في الانتظار بعد أن كان هو ينتظر نهاية كل أسبوع لمشاهدتها، ها هي الصورة تنعكس .. وبعد أن تم فتح فرع الكلية التي تدرس بها في الطائف، ولكن ما إن مر شهر على ذلك حتى تم انتدابه من قبل عمله إلى جدة لقضاء عام في دورة على الأجهزة الجديدة التي سوف يتم استخدمها في مواقع العمل ..

كان الشارع منذ عشر سنوات رملياً .. والبيوت التي على جانبه من الطين وذات الدور الواحد ، أما دارها فقد كانت حديثة ومكونة من دورين ذات ألوان جذابة وواجهة إسمنتية حديثة تنتصب بقسوة وسط الحي المتواضع معلنة عن وجاهة أصحابه، رغم أن كل شيء بداخله بسيط حتى ساكنيه كانت صفاتهم محبوبة من الجميع، لمحها أول مرة عندما سكن مع والدته وأخيه الكبير إحدى دور الشارع الرملي ، حيث قرر بعد أيام وخلال ما تبقى من أيام العطلة المدرسية أن يبيع الحلوى وبعض الألعاب الصغيرة فوق صندوق انتصب أمام باب الدار ، كانت في مثل سنه تقرأ التعليمات المكتوبة على الألعاب فيشعر بالحنق حيث لا يعرف القراءة والكتابة .

ومع بداية العام الجديد التحق بإحدى المدارس ، ولكن الشعور بالانفصال دفعه إلى هجر الدراسة في الصف الخامس ليلتحق بإحدى المدارس العسكرية حيث اختفى عن الحي لمدة ثلاثة أشهر ثم عاد وإذا بها تلقاه ..

ـ أين كنت .. ؟

ـ في المعسكر ..

ـ يا لله لقد أرعبني اختفاؤك ..

ـ لماذا .. ؟

ولم تجب على سؤاله، فأخذ يتأملها، لقد أصبحت جميلة أكثر وكبيرة جداً، لقد غيرت الأشهر الثلاثة فيه كل شيء .. لم يعد يشعر بما حوله .. ولكن ها هي تعيده إلى الواقع الذي حاول الانفلات منه .

ـ سمر ..

وتطلعت فيه .. حاولت أن تجد لديه الكثير .. ولكن توقف أمام اسمها فلم يقل شيئاً آخر وهربت من أمامه .. لكن ها هو ينتظر كل صباح مرتدياً بزته العسكرية يلقي عليها تحية الصباح ثم يراقبها حتى تختفي في منعطف الطريق المؤدي إلى مدرستها ..

لا شيء كان يشد الاثنين إلى بعض سوى ذلك الشعور الغريب الذي أخذ يدب في الأعماق .. مجداف زورق يبحث عن مرفأ أمين بعيد عن العيون .. وكيف يكون هذا المرفأ وكل الجدران عيون .. كل الفضاء عيون تتلصص بقسوة محاولة سبر غور عبد الرحمن ومعرفة مشاعر سمر التي أخذت تحدث نفسها عندما تختلي بكتبها المدرسية في غرفتها ، عن ذلك الشعور الغريب الذي يتعامل بداخلها ، أتراها .. تحب ولكن كيف .. ألم تجد غيره حتى يكون فتى الأحلام المرتقب، إن البون شاسع والمواقف غير مؤكدة لكن الشواهد وإن كانت مشجعة فماذا يكون موقف الآخرين .. وحملت حنان الأخت الصغرى أول رسالة حب منه .. لم تحاول معرفة ما بداخلها بقدر الفرح الذي ارتسم فوق شفتيها وأختها تحاول دس الرسالة في يدها ..

ـ إنها من عبد الرحمن ..

لم تقل شيئاً أكثر من أن تطبع قبلة فوق خد الصغيرة التي لم تع ماذا كانت تعمل فانفلتت هاربة إلى الشارع قبل أن تسمع كلمات أختها مكتفية بالريال الذي حصلت عليه لقاء مهمتها ..

زرعت الأيام الطريق الذي أصبح الآن معبداً .. تحف جوانبه البيوت الحديثة ، ولم يبق من البيوت الطينية سوى القليل التي هجرها أصحابها ، واتخذها الآخرون مكاناً لربط مواشيهم ومرمى لنفاياتهم وتجاوزت سمر مرحلة الطفولة فالتحقت بالجامعة معلنة عن إصرارها لمواصلة التعليم ، حتى لا تمنح المتقدمين لخطبتها فرصة الاقتران بها، حتى يتمكن عبد الرحمن من الوصول إلى مرحلة القناعة ليتقدم هو ووالدته لخطبتها من والديها .

ـ أنا موافقة .. ووالدتي لا تخالف لي رأياً ..

ـ ووالدك ..

ـ تستطيع إقناعه بأنك موافق على شروطي ..

ـ وما هي شروطك .. ؟

لقد كانت تخطط لكل شيء ، ولكن القناعة التي تبحث عنها لديه لم تجدها رغم إصراره على القسم كل يوم بأن الحب الذي يعيشه هو الطموح الذي جعله يواصل دراسته في المساء والبحث عن كل ما فيه تحسين مستواه الثقافي

والاجتماعي حتى وصل إلى المرحلة هذه ، ولم يتحدث من خلال كل ما يقول عن موعد الزواج ومتى سوف يتقدم ، وهل هناك ترتيبات خاصة لذلك بعدها .

أخذت الأضواء تقترب .. إنه يستطيع الآن عدها .. واحداً واحداً .. والتحدث معها ، إنها تنقل له أخبار سمر وتحدثه عنها بكل صدق وما أن يصل حتى يجدها لتواصل معه بقية الحديث الذي بدأته منذ أن شعرت بأنه غدا قريباً وأنه سوف يمر قبل أن يذهب إلى دار أخيه حيث يقيم مع والدته ..

ـ عبد الرحمن لقد خطبنا لك ابنة خالك علي..

ـ ماذا .. ولماذا .. ؟

ـ لقد زارنا خالك أمس وشعرت بأنه شعر بغلطته نحونا وأنه لا يغفر لنفسه تركه لنا في أحوج الأوقات ..

ـ ما هو ذنبي ..

ـ ابنة خالك جميلة وفي سنك ومتعلمة ..

ولم يقاوم .. إنه يعرف ابنة خاله زينب، لقد شاهدها كثيراً عندما كان يذهب مع والدته إلى القرية لزيارة خاله، لقد حصلت على المرحلة الابتدائية ولعدم وجود مدرسة متوسطة جلست في الدار لخدمة إخوانها، كانت الصدمة كبيرة .. ها هو الأسبوع الرابع يمر وعبد الرحمن مختفٍ ، وكل شيء يثير القلق والريبة .

أخذت سمر تتلفت حولها باحثة عن ملجأ ..

ـ لقد تزوج عبد الرحمن ..

دخلت حنان صارخة وفي يدها بطاقات دعوة .. وقفزت سمر من مكانها أمام التلفزيون وخطفت البطاقات من يد حنان وأخذت تقرأها ثم انهارت على الأرض فسارع الجميع إليها ونقلها إلى غرفتها وطلبت منهم والدتها مغادرة الغرفة ثم نهضت وأغلقت الباب وراءهم ..

ـ سمر ماذا حدث .. ؟

ـ لا شيء يا أمي .. مجرد إرهاق من المذاكرة ..

ـ اصدقيني القول ..

كانت ترد على استفسارات والدتها وهي تتهرب من نظراتها الفاحصة، إذ لم يعد شيء في أعماقها لقد أصبح كل شيء فارغاً ميتاً حتى هذه الأسئلة أيضاً هي ميتة، والحقيقة التي كانت تحاول من أجلها غدت جثة هامدة .. وأخذت تتلفت حولها .. تحاول اختراق جدران الغرفة وغادرت فراشها .. ثم اتجهت إلى رف المكتب الذي دائماً ما كانت تناجيه وهي واقفة تحاول الإجابة على واجبات الكلية،

ووجيب قلبها حيث تختفي خلف الكتب صورة مكبرة لعبد الرحمن ورسائله التي كانت تصلها عندما يطول غيابهما، أو لا تساعد الظروف على اجتماعهما .. كانت الكتب ضخمة والدفاتر سوداء كالحة ، لقد وقف الحلم أمام طريقها عشر سنوات معلناً عن ذاته وإذا به .. مجرد سراب أخذ يتلاشى عندما اقترب الجميع منه ..

اختفى عبد الرحمن من الحياة فجأة ، لا يدري أحد أين ذهب هو وزوجته زينب حتى والدته التي هدّ الكبر جسمها كانت لا تعرف أين يقيم ، وإن كانت تقول بين لحظة وأخرى إنه سوف يعود ، واستطاعت سمر أن تنهي دراستها الجامعية لتلتحق بإحدى المدارس كمدرسة .. ويتقدم لها أحد أصدقاء شقيقها يوسف فتوافق رأساً على الزواج ولكن لتبقى هنا في ذات الشارع الذي أصبح الآن مرصوفاً بشكل جميل ، تحف بجوانبه الأشجار وقد أضاءت الأعمدة الطويلة البيضاء كل زواياه ..

وذات ليلة وهي عائدة مع زوجها وأبنائها الثلاثة من زيارة صديقة ، لمحت شبحاً مكوماً فوق الرصيف رغم البر يتكئ على أحد أعمدة النور ، لم تبال بذلك ون كان هناك في داخلها إحساس غريب دفعها إلى فتح نافذة غرفتها والتطلع إلى الشارع حيث يقف الشبح الذي ما أن لمحها حتى انتصب في وقفته ، ثم غادر المكان بهدوء ، ومرت في تلك الأثناء سيارة الشرطة التي تجوب الشوارع حتى الصباح للمحافظة على الأمن وسمعت صفارة الحارس الليلي بينما كان الشبح يسير ألهوينا في خط مستقيم ليتلاشى في البعد ..

* * *

أسطورة حُــــــبْ

من أين اشترى لك نجمة وكل النجوم عالية في المرقى ، وإن كان بعضها يهوى ولكن ليستقر في موطن العدو لولا متناثر من الشظايا عديمة الفائدة التي يتساقط عليها الأطفال لهفة من أجل صناعة وسيلة حادة للدفاع بها عن النفس ضد كل شيء من أجل لا شيء .. فلا مواقف محددة تستطيع أن تبيح عن سرها .. كانت القطعة الصغيرة التي حصلت عليها من كل هذه النجوم التي أتمنى أن أمسكها بيدي وأزرعها في أرض حياتنا ثريات تضيء درب لقائنا ، وترصع بالكلمات ليل انتظارنا .. هي (رنا) ذات السنوات الأربع في موقف عجيب ، فكل شيء هوى ما عداها .. كانت صلبة الموقف مثل موقفنا نحن وأنا وأنت أمام كل الأعاصير منذ الأزل .. لقد أخذت الفيضانات والأعاصير والزلازل كل شيء ، حتى الأشجار الصغيرة التي كانت الحشرات عديمة الفائدة تجعل من جذورها مساكن لها ، لم يبق سوانا في تاريخ نسميه الجميع ، ولم يبق في ذاكرة أحد سوانا نحن الاثنان أنا وأنت ..

نتذكره كل عام، ونقرر أن نحيي وجوده عيداً كبقية الأعياد .. وفي آخر لحظة تقف أمام الورقة التي ترغب في تدوين أسماء المدعوين فيها حائرين .. فقد انسحبت من الذاكرة كل الأسماء ، ولم يبق غير اسمي واسمك في رأس القائمة ، فنكتفي بذلك، ويكون الحفل مقصوراً علينا نحن الاثنان أمام التلفزيون ، ومع فلم جديد تم جلبه من محل الفيديو اخترناه معاً حيث ذهبنا إليه بالسيارة بعد تجوال في أطراف المدينة لم نستطع أن نتغلب على بشاعته بالحديث لما فيه من صمت رهيب وصور غامضة الألوان ..

وفي العام الثالث كانت (رنا) .. بعد محاولات يائسة من أجل إضافة وافد جديد إلى هذا الكيان الصغير، الذي تم تكوينه بالحب والخوف من الفشل ..

كان إبراهيم يقف على رأس الطريق الذي تذهب من خلاله كل يوم إلى المدرسة ويعود لإيصالها إلى المنزل دون أن يتفوه بكلمة ، حتى كان يوم سمعت فيه صوته عبر الهاتف لم يطلب شيئاً محدداً ، وإن كان يرسم الخطوط العريضة لحياته وأمانيه محاولاً إشراكها في طموحاته مرشداً لموقعه من الحياة .. كانت المعاناة كبيرة وموقف والدتها عندما تقدم طالباً يدها الرفض صورة طبق الأصل لحكايات ألف ليلة وليلة ، فأخذت تحلم بأنها الأميرة النائمة ، وأنها ذات الشعر الذهبي التي تقف كل مساء في نافذة غرفتها مترقبة قدوم فارس أحلامها من خلال السحب فوق حصان أبيض لخطفها والهروب بها إلى جنة الأحلام .

وذات ليلة .. لم يكن الجميع يتوقع أن تكون أحداثها، إذا بوالدتها تأخذها جانباً ..

- هل حقاً ترغبين في إبراهيم .

- أجل .. إذ لم يكن هناك مانع ..

- ولكن يا ابنتي أتمنى لك الأفضل .

- ولكن يا أمي .. ؟

- قولي الحقيقة أنت تعشقينه .. لقد عرفت الحقيقة كلها اليوم .. ؟

كانت اللحظات رهيبة .. والخشية من انفجار الموقف لم يترك (لمنى) الفرصة المناسبة لمعرفة من أين وصلت المعلومات إلى والدتها ، أترى إحدى شقيقاتها باحت بالسر أم جارة من الجارات الثرثارات كالعادة ، لكن الأمر يحتاج إلى تفكير أكثر وأعمق ، لماذا البوح في هذا الوقت ، أتراه كمن لم يجد علاجاً سوى الكي بعد أن أعيته الحيل ..

وأنكر إبراهيم أنه اتصل بوالدتها ، كما أنكر الجميع ذلك الموقف الغريب وإن رسم علامة استفهام كبيرة ما ظلت مرسومة حتى اليوم وبعد أن انهار كل شيء ..

مرت ثلاثة أعوام على الزواج يئس فيه الجميع من أن يكون هناك أبناء .. وأخذت المجالس تتحدث عن الحب الذي لم يثمر حتى الآن .. وإن لم يترك الاثنان طبيباً معروفاً في البلد أو مستشفى إلا زاره لمعرفة أسباب عدم احتفاظ (منى) بالجنين أكثر من ثلاثة أشهر ، وأطلت (رنا) لتكون بادرة خير ، ولكن الوضع ما زال كما هو ، وها هي رنا الرفيق الثالث في حفلات مناسبة الزواج تصل إلى الرابعة من عمرها ، تتلفت حولها باحثة عن أخ أو أخت لمشاركتها غرفتها ..

- إبراهيم .. طلق منى ..

- وماذا .. ؟

- إنها أختك ..

وأغمي على إبراهيم من هول المفاجأة .. وأخذ يهذي .. منى أختي كيف يكون هذا ولماذا يحدث ذلك الآن بعد مرور ثمان سنوات اغترف فيها من الحب كل مواقف السعادة والحياة الباسمة التي أخذت تفتح له الأبواب على مصراعيها للوصول إلى الأفضل رغم شعوره بأنه يتمنى أن يكون له ولد أو أكثر من ذلك ..

- يعني الآن أنا والد وخال رنا ..

- أجل ..

كان الحقيقة أكبر من الأوهام والانتصارات التي جرى تحقيقها في ظل جدب الأيام إذ كان هناك .. من يراقب بصمت ولم يقل شيئاً، هناك من أراد لهذه المواقف أن تكون، رغم السلبيات والموانع، فكانت، ولكن ماذا يريد من ذلك وما هو موقعها الآن، أتراه الانتقام ..

ـ لم أكن في البداية متأكداً من أن منى هذه هي الطفلة التي أرضعتها ذات يوم في الحج ..

ـ وأنا ..

ـ أنت ابني وهل تنكر ذلك ..

لم يكن إبراهيم ينكر ذلك والجميع يعرف أنه ابن أم صالح من الرضاع ، وأنها قامت بإرضاعه أكثر من ثلاثة أشهر عندما مرضت والدته مرضاً شديداً كاد يسكنها القبر ذات يوم ، وأخذ يبحث عن مخرج للوصول إلى نتيجة ، أخذ ينظر إلى منى وهي ترتعد من شدة المفاجأة التي ألزمتها الفراش منذ اليوم الأول بعين الإشفاق والحب ورنا التي لا تفقه شيئاً ما هو مصيرها .. وفجأة همس أخوه الأصغر ..

ـ سوف أتزوجها .. لن تغادر من دارنا ..

ـ أجل لن تغادر .. دارنا .. وكيف تتزوجها .. ؟

ـ من الواجب بعد أن اتضحت الحقيقة أن تعود لمنزل أسرتها .

أجل من الواجب، ولم يعد لموقفه أي سند، حتى لو أصرت على البقاء، فما هي الدواعي وهل هناك مبرر للبقاء في دار وأسرتها في دار .

وتزوج كامل منى لتبقى في الدار مع ابنتها رنا .. وحتى لا يشعر أخوه بفداحة الحياة وظلم القدر ..

ـ هل أنت سعيدة ..

ـ أجل .. وكيف لي أن أكون سعيدة ..

ـ من هذا الطفل ..

ـ إنه ابني ..

لقد مرّ على زواج منى من كامل ثلاث سنوات رزقت فيها بثلاثة أطفال ، ولدان وبنت اعتبرهم إبراهيم أبناء له ، وأخذ يشعرهم بالحنان الذي لم يجدوه لدى كامل وإن كانت السعادة ما زالت ترفرف على الدار ، فقد كان موقف كامل جيداً بالنسبة لي وبالنسبة لأخيه إبراهيم ، فغدا كل شيء في حياتنا ..

ـ وإبراهيم ..

ـ غدا رجلاً معروفاً في المدينة، يبحث عن الحياة في كل شيء ..

وانفتح باب عيادة الطبيب وأطلت الممرضة من الباب وصرخت في صوت بشع رقم خمسة ورقم ستة .

ونهضت منى من مكانها وقد أمسكت بيد طفل في الثانية من عمره ودخلت غرفة الطبيب وتلفتت تبحث عن الأخرى التي سوف تدخل الغرفة حتى يصل دورها، وتطلعت في الوصفة التي بين يديها وإذا بها تحمل الرقم خمسة فأسرعت إلى الباب وفتحته دون استئذان وقد رفعت بيدها الأخرى الوصفة التي تحملها حتى لا تفاجأ الممرضة بدخولها غير المرتقب ..

* * *

أوراق من مذكرات رجل في الخمسين

أنت أينك منذ ثلاثة آلاف سنة وأنا أبحث عنك بين هذه الأكوام لأقول لك شكراً على الموقف الذي اتخذته مع نفسك ، فلم يعد هناك موقف يفصح عن نفسه بمثل موقفك الذي تعيشه فقد أثيرت حول هذا الموقف الأقاويل ومع ذلك لم تحاول أن تدافع عن ذاتك متخذاً موقفاً آخر مشابهاً لهذا الموقف مشعراً الآخرين بعدم المبالاة رغم ما يعتمل في داخلك من تيارات لا تدري أين هي من الحياة ..

* * * *

كان عبد الرحمن يبحث عن ذاته من خلال ما حوله بعد أن يئس في إيجاد رائد ممن يعيشون حوله ، فقد سربلت الأيام حياته بالضلال فغدت الرؤيا معدومة انعداماً كاملاً .. بدون هوية رغم التصاقه بالواقع الذي حوله بكل قوة .. حتى فقد تصوراته واستسلم منذ ذلك التاريخ أي من قبل أن يولد لتوجيه الآخرين ، كل ما لديه هو عدم الاعتراض حتى سحقت الأقدام الراكضة نحو الهدف كل شيء فيه فأخذ يتلفت حوله باحثاً عن ظل شجرة تقيه وهج الشمس وسفو الرياح .

* * * *

استقر عبد الرحمن في الطائف المدينة الحالمة بدون أضواء لعله يجد في الطرقات المهجورة رفيقاً يشاركه وحدته .. لكن التخاذل المترسب في أعماقه فرض عليه الهروب من كل شيء حتى من اسمه شعر أنه عالة عليه فحاول أن ينزوي في غرفته بعيداً عن العيون رغم استعداده المبدئي للمسير قدماً ، فكان أن شارك في نادي لكرة القدم أسسه بعض الأصدقاء من خارج الحي ، أخذ يتسلل إليهم كل مساء عبر الطريق الطويل الذي يخترق وادي وج ، حيث كان الأهالي يلقون ببقاياهم ، ويحتل جزء منه أعشاشا من الخشب وألواح الزنك كمساكن لبعض الأسر الفقيرة النازحة من الجنوب ..

* * * *

كانت فائقة ذات الربيع الرابع عشر تقف في بلكونة دارها كالعادة ، ولكن لا شيء يشده نحوها ، إنها تتأمل الأفق ، تتأمل كل شيء سوى ذلك الفراغ الهائل الذي يمتد أمام ناظريها من الوادي الذي كان في تلك الأيام موطناً للكلاب المسعورة ، يقلقه الظلام كل مساء بقسوة فتنعدم الرؤيا سوى بصيص مصباح عابر مجهول الهوية يقطع الوادي إلى الجهة الأخرى من المدينة مختصراً الطريق ..

وذات مساء التقى الاثنان ، كانت تقف أمام باب الدار ، لم تقل شيئاً ولم يحاول هو أيضاً قول شيء ، كل ما في الأمر أن فائقة اختفت ذات يوم في الظلام

ولم يعد يلمحها حتى تلك الزمرة من الشباب التي كان يمر بها في بعض الأحيان تقف في زاوية أحد الشوارع تراقب البلكونة الخضراء اختفت هي أيضاً ..

شعر عبد الرحمن أن هناك أشياء تحاك حوله ، ولكن لم يقم بالمقاومة المطلوبة تخاذلاً فتغير مسار تعليمه ، واشتغل ما يقارب الشهرين كصبي لدى أحد الوجهاء بناء على رغبة شقيقه الأكبر .. لم يحاول أثناءها معرفة الأمر وما هو الدور المطلوب منه، وإن طلب منه ذات مساء وفي ساعة متأخرة من الليل إحضار نسخة من صحيفة جديدة صدرت في تلك الأيام من منزل صديق لرب الدار يبعد كثيراً .. فكابر الخوف وذهب لإحضار الصحيفة ووجد سيده قد نام، أما سيدته التي شعرت بعودته فقد نهضت من فراشها ولمحت الشحوب البادي على وجهه من جراء الخوف، كان في الخامسة عشرة من عمره.. نحيل الجسم .. جميل التقاسيم ، ولم تتفوه بكلمة واقتربت منه ماسحة بيدها على رأسه في عطف وحنان وشعر أنه بحاجة إلى البكاء ، وقاوم الدموع التي طفرت من عينيه ووضع رأسه فوق صدرها باحثاً عن الحنان ، فأبعدت رأسه أول الأمر عن صدرها ولكن وهي تتأمل عينيه المغرورقتين بالدموع أعادته إلى مكانه فكان لطراوة جسمها وعبق الرائحة التي تنبعث منها أثرها عليه فأخذت شفتاه المرتعشتان تزرع القبل في المكان المكشوف من الصدر في صمت وحذر ..

* * * *

اختفت الآن تلك الصورة ولم يعد لها أي بقايا سوى انقطاع عبد الرحمن عن الحضور إلى دار سيده رغم محاولة شقيقه أعادته أو معرفة السبب الذي دفعه إلى ذلك..

ورغم حديث السيدة الطيب المؤثر الذي لم يجد أرضاً خصبة في أعماقه للاستمرار في الخدمة ، فإنه مشدود إلى الهاوية بكل قوة ، إنه مجهول الاسم والتاريخ ، تنقل في الحياة كثيراً ، إنه مجموعة أرواح عاشت فوق الأرض منذ بدء الخليقة فأخذت تهيم من غير أن تصل إلى قرار فتقمصته بكل ما فيها من متناقضات ، لكن الموقف الذي وقفه كان أكبر منه ..

* * * *

هرب عبد الرحمن من المدرسة بعد أن فشل ثلاث مرات في الامتحان والتحق بإحدى الوظائف منذ ثلاثين سنة ، كل زملائه في المدرسة الآن في أماكن مرموقة ، وكذلك زملاؤه في العمل الذين كانوا يغامرون من أجل الوصول إلى الأفضل ، وما زال يترقب اليد التي تنتشله ، تخلى عنه الجميع ، توفي والده فجأة أثناء مهمة رسمية كلف بها، وعلى أثر ذلك تزوجت والدته وانتقل أخوه إلى مدينة أخرى وبقي وحيداً هو رب لأسرة لا يتمكن من توجيهها إنما تريد منه أن يقدم شيئاً .. ؟ .

بلغ عبدالرحمن الخمسين من عمره اليوم فأخذ يفكر في ما استطاع تقديمه على بساط الحياة الذي استمر هذه الأعوام كلها ، كانت الذكريات تختلج في داخله صوراً باهتة وأشياء مبتورة لا تتجاوز في مجموعها أصابع اليد الواحدة وإن ترسبت في أعماقه أوهام لحياة كان يمني النفس بأن يعيشها ، ومع هذا اليوم التقى بها كانت تسأل عن مستوى ابنها في التحصيل المدرسي ، أخذ يتأملها في العقد الرابع من عمرها ..

ـ وأين والده .. ؟

ـ سافر ..

ولم يطرح سؤالاً آخر .. طلب من الفراش دعوة ابنها الذي لم يتجاوز العاشرة ، ارتبك عندما شاهد ولدته فأجهش بالبكاء ، واحتضنته والدته .. أخذت تربت على رأسه وهي تدفنه في صدرها المختفي تحت العباءة ، وجحظت عيناه تذكر هذا الموقف منذ ما يزيد عن عشرين عاماً ، لكن بشكل مختلف ، وأخذت الهواجس تتجاذبه ، تأمل ساعته ، كانت الحادية عشرة لم يبق على دوام المدرسة سوى ساعة ونصف ، أمسك بيد الطفل وطلب منه العودة إلى فصله .. وأخذ يتأمل المرأة .. إنها مرسومة في أعماقه، لكن لا يدري من هي، تلفت حوله ثم لحق بها .. ترك كل شيء وراءه ، منذ ثلاثة آلاف عام قرر أن يعلن شيئاً ، لمحته وهو يسير خلفها فأبطأت من خطواتها حتى حاذاها واختفى الاثنان في أول منعطف قابلهما ..

* * *

الصــــــراع

كان يلهث وهو يصعد الجبل باحثاً عن مكان يجلس فيه ، ليفكر بعيداً عن ضوضاء المدينة وصخب الشوارع ، لا شيء في أعماقه سوى أفكاره التي نشبت في داخله ودفعته إلى التقلب في الفراش بحثاً عن النوم وحيداً مع همومه وأحاسيسه الفجة ، وهو يسمع حكايات من حوله ..

إنه وحيد ترسبت هذه الفكرة ولم يخرجها زواجه أو حتى أصدقاؤه وهو يدعوهم كل ليلة للعب الورق معه ، يحاول الهروب من واقعه ، ومما حوله ، لكن لم يستطع الفكاك، فكل ما في الأرض من مسامير وحبال ثبتته مكانه حتى البسمة الصغيرة الدائمة كانت أحد هذه المسامير التي وخزته بقسوة وعناد ولم يستطع الفكاك منها ..

تلفت خالد حوله علّه يجد شيئاً يثير حماسه حتى يتغلب على الصراع الذي بداخله وعاد إلى صراعه رغم الهدوء المخيم ..

ـ وجدتها ..

كانت سيارة تلوح في الأفق البعيد تسير ألهوينا متجهة إلى المكان الذي يجلس فيه، ومر وقت طويل وإذا بها تقف بالقرب من الصخور المتناثرة حول الحبل ونزل أصحابها في هدوء ، وكانوا ثلاثة من الشباب وامرأتين وطفلة صغيرة .

صوتهم يصله وصدى ضحكاتهم يجرح وحدته ، توقف عن التفكير وحاول استراق السمع غير أن محاولته فشلت ، فكل ما وصله كان صدى لا يفهم منه شيء ووجدها أمامه في ثوبها الأحمر ، لم يثر اهتمامها جلوسه وحيداً فأخذت تواصل صعود الجبل والآخرين وراءها ..

تابعها بنظراته بلهفة وهي تختفي بين الصخور وتلفت بقسوة ..

ـ إيمان .. أين أنت ..

وتردد الصدى الذي معه، عادت المجموعة إلا هي مرت لحظات وإذا بها أمامه تحاول النزول لكن شعرت بالخوف وترددت في طلب النجدة، فسارع إليها وأمسك بيدها حتى تجاوزت المكان الصعب ولم تتفوّه بكلمة ..

لم تقل له شكراً .. ولكن قبل أن تختفي عن أنظاره التفتت وأخذت تتأمله قليلاً ثم رفعت يدها ملوحة ..

سمع صوت ماتور السيارة مبتعداً ، وحاول اللحاق بها وطرد الفكرة من رأسه ثم عاد إلى وحدته ..

حتى هنا وحيداً .. وشعر بالسأم فركب سيارته الممتلئة بالأوراق .. والخرائط الممتلئة بأفكاره الوحيدة وحدته .. فرغم أنه موظف ومسئول غير أن أعماله كانت تقابل بالرفض المؤدب..

له أربع سنوات موظف في شركة الأثمار، كانت الوظيفة الثانية التي يتقدم لها، وينجح وقد فضل العمل في الشركات لشعوره أنه سوف يكون له قيمة لمعرفته أن نجاح الشركات مرتبط بنشاط العاملين بها وتقبل الأفكار الجديدة.

لكن رغم الأربع سنوات واجتماع المدير العام بالموظفين الدوري ومحاولته إيجاد الجديد لم يصل إلى بغيته..

كان صالح كل شيء في الشركة، ورغم الصداقة التي تربط بين الاثنين كان دوره ثانوياً، مجرد موظف يجلس وراء أحد المكاتب يوقع على الأوراق والخرائط ويشرف على التنفيذ ملاحظاً..

وصل خالد الدار وقد قرر مواجهة المدير العام بمشاكله لعل ذلك يغيِّر من وضعه، ودخل على المدير وفاتحه بالأمر، لكن كلمات المدير كانت هادئة ومؤدبة جعلته يتلعثم في الحديث، ودخل صالح المكتب وسلم عليه ..

- خالد .. بارك

- مبروك ..

- لقد وافق المدير على طلبي يد ابنته ..

وتحول الحديث إلى المناسبة السعيدة وخرج من المكتب حتى يفسح المجال أمام صالح والمدير لترتيب أمر الزواج ..

وغادر الشركة رغم نظرات زملائه ، مرت الأيام سريعة ، ووزع صالح بطاقات الزفاف ، وفي صباح يوم الزفاف انقلبت به السيارة التي كانت محملة بالهدايا والزهور والتي سافر خصيصاً بسيارته إلى جدة لجلبها من هناك، ووقع النبأ المشئوم على الجميع وأجل الزواج ، لكن الحالة تضاعفت وتوفي صالح ..

شعر بالحزن العميق ، رغم أنه فرح بالحادث حيث أصبح المسئول في الشركة، وقرر المواصلة ، تقدم للمدير طالباً يد ابنته ، ولكن تردد في قبول طلبه لعلمه أنه متزوج.

- ولكن زوجتي عاقر .

- وماذا فيها ..

- سيدي لقد فكرت كثيراً واتفقت معها إما على الزواج من أخرى أو الطلاق فأنا أريد أولاداً أفرح بهم ..

ـ لكنها مشيئة الله .

ـ أنا أعلم .. وأيضاً مشيئة الله هي أن أفكر في صالحي، وأن لا أعذب ابنة الناس بالهواجس والأفكار، لقد قررنا الانفصال يا سيدي .

نفذ خالد فكرته ، ووافق المدير على زواجه من ابنته التي لم تعارض وأخذت ترتيبات الزواج تقام على قدم وساق .

ـ خالد .. هل تحبني .. ؟

ـ أجل ..

ـ أرجو أن تكون صريحاً معي ..

ـ إني صريح ..

كان هناك شيء بين الاثنين، لم يحاول أحدهم التفكير فيه أو البوح به.

وأنيرت الثريات ووزعت بطاقات الدعوة، وتم الزفاف وانتقل خالد وزوجته إلى داره وهو في نشوة لا توصف.

ـ خالد ..

ـ عيون خالد ..

ـ أرجوك يجب أن أقول لك شيئاً ..

ـ إنني تحت أمرك ..

ـ هناك شيء يشغلني وأريد مفاتحتك به ..

ودار النقاش طويلاً .. كان الاثنان أثناءه يلفون غرفة النوم رغم محاولات الإمساك بها ووضع رأسه على صدرها ، وتطمينها بأنه مهما كان الأمر فلن يبدل ذلك من مقدار حبه ورغبته فيها ..

ـ خالد .. أنت لست الأول في .. ؟

ـ ماذا .. صالح هل .. ؟

وهزت رأسها موافقة ، وتصلبت الكلمات فوق شفتيه .. بينما جلست فاطمة على مقعد صغير أمام مرآة التسريحة تتأمل وجهها في هدوء ..

* * *

أشيـــــــاء صغيرة

كانت ليلة كل شيء فيها هادئ رغم الأنين المكتوم الذي تنقله الرياح لمكائن الكهرباء التي تقبع في ضاحية المدينة والبرد القارس يلف الشوارع وقد هجرها المارة، وحركة الصيف العارمة .

وأحمد جالس وراء مكتبه ذي الأدراج المتداعية في مكتب استقبال البرقيات وحيداً منطوياً على نفسه بعد أن صرف جميع المراجعين الذين كان يعج بهم مكتبه البارد ذو الشبابيك الزجاجية التي احتار في أمرها ، فمرة يفتحها ليخفف من رائحة الاختناق وكتل دخان سجائر المراجعين ، وتارة يغلقها وقد سرت في جسمه قشعريرة اثر نسمة باردة رقصت لها مفاصله .

تطلع إلى الساعة في سأم وكلل وهو يشعر بحرارة غريبة في صدغه أخذت تنتشر في جسمه كدبيب النمل، ثم تطلع إلى مكتب زميله في الغرفة والذي لم يحضر ليقوم بعمله كالمعتاد.

سرح بطرفه من النافذة المفتوحة في هذه اللحظات مخترقاً الظلام الذي يلف مدخل العمارة المقابلة ذات الباب الموارب وقد صورت له بنات أفكاره أن هيام التي لمحها في مرات سابقة تختلس النظر إليه من نافذتها أو من خلال الباب الموارب ، وشعر بتضايق من المطارق التي تتردد في رأسه معلنة الهجوم عليه .

أخذ يتململ في مقعد ، ثم نهض ، لقد صمم على مغادرة المكتب رغم بقاء دقائق على نهاية فترته وانطلق يسير في الشارع الطويل وقد لف رأسه بغترته وأدخل يده في جيب ثوبه ومشى مترنحاً كسكران عائداً إلى داره .

كانت المفاجأة في الصباح عندما ولج الإدارة إذ قابله زميل له في مكتب آخر صارخاً..

ـ إنها مصيبة يا أحمد .. !

وأخذ يشير بيده عن كبرها .. ولج عليه ما هي هذه المصيبة التي حدثت رغم إهمال السؤال.. وهمس آخر ..

ـ لقد حضر أشخاص بعد مغادرتك المكتب، فلما لم يجدوك أخذوا في الصراخ وسارع أحدهم للاتصال بالوزير وكلمنا وكيل الوزارة وسأل عن الشخص المنوط بالعمل ثم حضر المدير ومراقب مكتبكم فقام بعملك..

ودارت الأوراق .. كان التحقيق مع أحمد الذي اعتذر بالمرض وأن هذا الارتباك حدث عفواً ولو حضر زميله لما كان كل هذا، ونظرات مديره ترمقه في شيء من الرياء والتشفي..

استلم أحمد مغلفاً مختوماً من يد موزع المكتب المرتعشة ، لقد كان يحوي ورقة الفصل من العمل ، واعتصر الألم قلبه ، وأخذ يهمهم كيف لهذه السنة التي عشتها على روحي وذاتي في أرض بعيدة عن داري مخلفاً ورائي أم دامغة وأسرة تتطلع في وله .. تترقب يوم عودتي وقد نلت كل الآمال .. توشح بهذه الورقة الصفراء التي كانت أشياء صغيرة تافهة وتصرف أحمق مهد لها الطريق لتكون في يد فتى بائس حرمه القدر نعمة الراحة النفسية فأغرق نفسه في لجاج الحياة .. مبتعداً عن مراتع طفولته ورفاق صباه ليعيش مرحلة من مراحل الحياة ، مرحلة المسئولية والاعتماد على النفس تنهار فجأة .. بكل بساطة..

* * *

البحث عن بقية

* لا يعرف الكتابة. وماذا ترمز إليه الحروف. كل ما يريده من الحياة أن يظـــل الرخـــاء. وأن يستمر الفرح مزروعاً في الأحداق. متحدثاً عن النعمة التي افتقدها في طفولته وصباه.

والقسوة في المعاملة التي كان يتلقاها. من جماعته بعد أن أكلت الوحوش والده ذات شتاء حين تاه في الشعاب والأودية. لم يستطع الكشافة المرسلون من القبيلة تتبع آثاره. واسترجاع (ألبهم) منه بعـــد أن همس صوت مجهول بأن (رافع) قرر سرقة أغنام جماعته والهجرة إلى الشرق حيث يستطيع. بما يحصل عليه من قيمتها شراء أرض. وبناء مقهى. في إحدى المدن التي يتوافد إليها العمال بحثاً عن عمـــل لـــدى شركة الزيت الذي نبع مؤخراً في تلك الناحية من البلاد.

* * *

* لم يستطيع الكشافة. الوصول إلى نهاية الأثر حيث أخفت الرياح. مواقع الأقـــدام. والعثـــور على جزء من الأغنام.

* * *

* إنه ابن رافع. الذي أكلته السباع. كل مشكلا يحدث بين الأطفال. هو مصدره حتى وعندما شب وتجاوز مرحلة الطفولة؛ كان أيضاً مصدر المتاعب والمشاكل رغم طيبة والدته التي تزوجت وأنجبت غيره.

إنما كان الولد الأبق الذي يرتاح للتجوال في الأودية باحثاً عن أي أثر لوالده.

* * *

* تناست القبيلة (رافع) وإن كان يرد ذكره بين لحظة وأخرى في مجالس الـــسمار وقـــد ازورَّ الجميع عن ابن رافع.

* * *

* بيّت (ناجم) أمر أخذت الهواجس تشغل باله فلم يعد يهتم بالتجوال للبحث عن بقايا آثـــار والده. ولم يعد يحرص على ملاقاة (جمانه) عند (القليب) أو في (الخلا) حيث تقـــوم بجمـــع الحطـــب والأعشاب ورعي الماشية.

* * *

* ذات ليلة حيث الجميع يتأهبون للتوجه إلى مجلس الشيخ إذ بناجم يتصدر المجلس في ملابـــس نظيفة جديدة. و(بشت) لا يستطيع غير مجموعة قليلة توفير ثمنه.

ارتسمت الدهشة فوق الشفاه. لعدم مبالاته وحرصه على النهوض من مكانه لمن هو أكبر ســـناً أو أفضل مكانة. وبدأ حفل السمر بالحديث عن الصحة. ثم إنشاد الأشعار. وعنـــدما اســـتعد عـــازف

الربابة لتقديم وصلته تنحنح (ناجم) ثم خلع (بشته) من على أكتابه ونهض تاركاً (البشت) مكانه وغادر المجلس.

* * *

* ترقب الجميع عودته إنما مر الوقت. وانفض السامر قبل عودته. وبقي البشت.... غادر القرية دون رجعة. لم يأخذ معه مؤنا إنما اكتفى بإرشاد النجوم. حتى وصل إلى مركز يعتبر محطة لقوافل العربات.. والمسافرين.

* * *

* افتقدت الجماعة (ناجم) الذي وصل إلى الشرق، بعد أشهر أخذ يبحث فيها عن عمل. لم يكن معه. ما يدل على الطريق الذي يجب أن يتخذه.

إنما أقدم على التوجه مع العمال. من خلال الحديث الذي التقطه في الطريق. واستخرج بطاقة عمل من الشركة. حيث أخذ يتنقل من موقع إلى موقع.

* * *

* وجدها كانت (جمانة) بعد أن وخط الشيب فوده.. تزوجها على ذكرى (جمانة) الصبي. اعترض مخيم والدها طريق أعمال الشركة.. وقرر الإقامة في المخيم والتخلي عن عمله في الشركة.

افتتح مقهى على الطريق الجديد. واستعان بأطفاله الثلاثة. الذين لم يتجاوزوا مرحلة الطفولة في تأمين طلبات الزبائن..

ــ هل يدرس أبناؤك..؟

ــ ماذا ..؟

لا يدري ماذا؟ كان يجب على. أسئلة موظف الإحصاء الذي زاره فجأة في المقهى وأخذ منه معلومات وافرة عن حياته وأسرته.

* بيّت أمراً. وأخذ يتطلع في أبنائه الثلاثة بعد أن غادره موظف الإحصاء وهم يقومون بتأمين الطلبات. وقبيل غروب الشمس باع المقهى بما يحوي.

* * *

* غادر مع أسرته الموقع إلى الشرق مرة أخرى لقد أصبح لديه نقود الآن. بحث عن مسكن صغير في أطراف المدينة. ثم التحق بإحدى الدوائر الحكومية على بند العمال وتقدم بطلب الالتحاق أطفاله بأقرب مدرسة. وطالبه مديرها بشهادات ميلادهم. أو صورة من حفيظة نفوسه إذا كانوا مضمومين فيها. لم يعرف ماذا يعني ذلك سوى أن العراقيل وقفت أمام وجهه.

كان حريصاً على تسجيل أبنائه بالمدارس. فقرر أخذ أوراق توصية من إدارته. جهز ثلاثة

ملفات لكل صبي ملف استطاع بموجب هذه الملفات ضمهم في حفيظة نفوسه وتسجيلهم في المدارس.

* * *

* تذكر كل هذا. وهو يتجه بعربة أكبر أنجاله إلى القرية التي غادرها. ذات ليلة بعد أن تخلـــى عن (بشته). كانت اللوحات الإرشادية تملأ الطريق المعبد الذي امتد حديثاً.

* * *

* أخذ يسأل عن كل سهم يخترق لوحة إرشادية وبعد عدة كيلو متر رملية. وجـــدها أرضـــاً بلقعاً.. خالية من السكان. وآثار بيوت طينية مهدمة تراكم الرمل فيها وبقايا آثـــار قـــوم.. يتربـــع في الساحات.. انداحت دمعة كبيرة من مقلتيه وتدارى عن وجه ابنه الذي ارتسمت فوقه أكثر من علامـــة استفهام.. ثم توجه إلى العربة التي عادت إلى الطريق المعبد مواصلة طريقها في رحلة عمـــل. فـــضل أن يشارك ابنه فيها للترويح عن النفس بعد أن أحيل على التقاعد وفقد (جمانة) وغادر أبناؤه الباقون الدار.

في انتظار الحافلة

أعي أنني عمل مصادر. حتى في عيون أبنائي. حيث استباحت الهواجس واقعي فغــدت ذرات يصعب متابعتها تنسكب كل صباح مع أشعة الشمس. التي تلج الدور كل صباح عبر فتحات وهمية.

* * *

أنهم يقتلون مرحلة الصحو التي تنتابني أحياناً فأخذت في الهذر حتى يصمت من حــولي رغــم المقاطعات الواضحة التي ترتسم فوق الشفاه. حروف وكلمات. ثم جمل اعتراضية غــير واعيــة تنتــهي بابتسامة صغيرة باهتة. ذات ألوان صفراء متفاوتة في الحدة.

* * *

يقال هناك ناحية من الوطن يقتلون فيه الجياد الأصيلة والكلاب الضالة. حتى القطط لم تــسلم من حجارة الأطفال. إذ أن كل ذات في تلك الناحية. مشوه أو مبتور أحد الأطراف. لــذا لم يعتــرض أحد على وجود دكاكين الأطراف الصناعية.

* * *

استقريتِ في أعماق الندى زهرة برية. ذات أشواك لطخها الدم. تنمو.. تنمو.. رغم الجفــاف والجدب. وهجرت المزارعين في شاحنات النقل. حيث تم غرس مداخن ذات دخان أبيض لف أســطح المنازل حجب الرؤيا.

* * *

لم أستطع اللحاق بالحافلة التي كنت أحد محتلي مقاعدها ذات مساء كانت الساعة تــشير إلى الخامسة. في كل مرة كنت أرحل قبل موعدنا بثلاثة أيام حتى أصل في الموعد المحدد. إنمــا هــذا اليــوم كانت ساعته خربة. أما بقية الساعات فقد كنت أشك في صدقها. لذا فات الموعد وعندما سألت بــائع القسائم عنك قال.. لقد رحلت.

* * *

أجل عرف أوصافك قبل أن أسترسل في شرح معاناتي. لقد كنت الرجل الذي يحمل رقم مئة. في قائمة السائلين. الذين يلطخ الدم أناملهم لقد كنت زهرة برية شرسة.

* * *

ارتفع صوتا أجش عبر مكبرات صالة الانتظار معلناً عن موعد إقلاع ثلاث رحلات إضــافية. بجانب الرحلة الرسمية.

* * *

كانت الأطراف الصناعية أكبر عدداً وكماً من الزحام الذي أخذ يكون طوابير مــن الأعمــال

الباحثة عن مقاعد شاغرة.

* * *

من المفروض حسب رقم البطاقة التي أحملها في يدي أن أجلس في مقعد بجانب النافذة. وفي المكان المخصص للأشخاص الذين لا يدخنون ومع ذلك. وجدتك تحتلين مقعدي.

* * *

الساعة الآن التاسعة تأجلت الرحلة ثلاث ساعات بسبب عطل في جهاز الحاسب الآلي إذ أن المبلغ المدون على شاشة الكمبيوتر غير حصيلة الصندوق. وأقل بنسبة كبيرة من الأعمال التي حصلت على تذاكر. ومن ثم احتلت المقاعد الفارغة.

أنت. وكنت المجيب الأول لا أدري لماذا أجبت رغم أن عيون السائل الذي يقف على باب الحافلة تتأمل الفراغ. ترصد السحب التي أخذت تملأ السماء.

وأخذت أبحث عن تذكرتي أو بقية التذكرة التي سلمني إياها معاون القائد في جيوبي. نثرت حصيلتي من الأوراق والنقود فوق المقعد وعبثت بحقيبة الملابس. فلم أعثر على التذكرة.. وهنا طلب مني الترجل. وأفسح لي الطريق للعودة إلى صالة الانتظار.

* * *

أقلعت الحافلات الأربع فارغات هذه المرة أنهم لا يريدون تأخير الرحلة أكثر. فالوقت من ذهب.

* * *

عدنا إلى طابور الانتظار أمام شباك التذاكر للبحث في قائمة الأسماء عن اسم مدون. إذ أن من يجد اسمه يعود للصالة ومن لا يجد اسمه يقطع تذكرة جديدة.

وصلت أمام الموظف. تأملني قليلاً. ثم ذكرني بسؤالي عنك وأشار إلى اسم تحته خط أحمر..

ـــ أليست هي ..

تأملت الاسم. تذكرت أنني لا أعرف اسمك. هززت رأسي نافياً.

ـــ هل معك أطراف صناعية ..

ضحك قبل أن أجيب. كيف يكون لي أطراف صناعية ويدي اليمنى فوق الطاولة تحمل الأوراق النقدية والأخرى تحمل حقيبة الملابس. ثم أنني أرتدي سروال رياضة قصير وفانلة صيفية.

* * *

تسلم البطاقة. هذه المرة لم تكن تحمل رقم المقعد أو المكان المخصص. وتلفت حولي. كانت الصالة فارغة. تمددت فوق أحد المقاعد. متوسداً حقيبة الملابس.

أهازيج ميلاد جديدة

تتناثر الأفكار. تنهال الرؤى باحثة بقسوة عن لحظة حب. هي إيمانا راسخ لموطن عاثت فوق ثراه أيام الطفولة والصبا. في سذاجة مبنية على وهم كبير هو خليط من الخوف والطيبة.

* * *

كان عليه أن يستكين. فهو ذات مطيعة لينة تقول ـــ نعم ـــ قبل أن يصدر إليها الأمر.

* * *

الربيع الثامن عشر أطل هادرا. بدون مقدمات. ومع هذه الإطلالة حلت الصدمة. التي أعادت المعايير إلى لولبها. لتنصهر في هاجس من الرفض. أكد معنى أحلام أخذت تحيط بواقعة. مهددة بنهاية بشعة.

* * *

الرحيل كان هاجساً جديداً. رغم الخوف. وأصرت الجدة العجوز مرافقته في رحلة الغربة. حيث يبحث الجميع عن الذهب.

* * *

الطريق طويل وشاقا أخذت العجوز معه تبكي. صوتها يصله منهداً يعلن بؤس الأيام. وشقاء الطريق. الذي أخذت ترصعه عيون مشاركيه الطريق فأخذت تقدم لجدته يد المساعدة. وقد أقام الرفض متاريسه في أعماقه. من خلال عدم إدراك.. بأن هناك شيئاً رهيباً قادم.. فأخذ يلتصق بجدته أكثر.

* * *

الشوارع كما هي. رملية تنتشر في جوانبها الأغنام السائبة والدجاج والبقر والقطط والكلاب في خليط عجيب يعلن تقبل الإنسان لكل العوامل. وإمكانية تهجينه للحياة في كل الظروف.

* * *

الصراخ يملأ الشوارع. والجديد الذي كون خطاً أخر مواز لخطوط الرفض التي أخذت في الاضمحلال رغبة الحياة التي هي بدورها دافع للبحث عن عمل. أنهم.. يذبحون الأبقار في الشوارع ويلطخون الجدران بالبقايا. بينما نادل المقهى. ذي المقاعد الشريطية والجدران المتهرئة يصيح بصوت عال. معلناً تلبيته لتقديم طلبات المرتادين في إحدى يديه إبريق للشاي والأخرى تحمل شيشة أخذ الشرر يتطاير من رأسها.

* * *

الأيام في عنفوانها. وفاطمة التكرونيه التي تعمل في دار مخدومه أخذت تهتم به تقوم بزيارته في الدكان حيث يعمل وتهتم بجدته كثيراً بينما تبحث في عينيه عن عين الرضا.

* * *

ثارت ثائرة الشارع. أخذ الهرج يرتفع إلى عنان السماء حيث تم العثور على قتيل مجهول الهوية في إحدى الدور الخربة التي يأوي إليها الغرباء أثناء الليل بحثاً عن الراحة.

* * *

تكون خيط آخر. لماذا يموت الإنسان. لقد شاهد الموت إنما بين جنيات الأهل حيث يكون البكاء. ورش الطريق بالماء. وتكوم الناس لمواساة أهل الميت في صمت ودموع تنداح فوق الخدود حارة تحرق الأنامل بصدقها.

* * *

التوى طريق حياته. أصبحت المخارج مسدودة. وهاجس من الرعب يطوق خطواته بطوق الترقب. أخذ يتلفت حوله كثيراً. يسارع بين آن وأخرى إلى الدار حيث تقبع جدته وتقوم بصناعة المراوح اليدوية و«الطواقي» المخرقة.

* * *

لاحظت الجدة ذلك. فأخذت تقلب الأفكار. حتى وصلت إلى مرحلة الشطط فتوقفت عن مواصلة عملها.

* * *

الطريق الطويل الذي أخذت العجوز معه تبكي. أخذ يتلوى أمام عربة النقل التي حوتهم في صندوقها. بينما الحديث بين الاثنين لم ينقطع منذ أن غادرت العربة موقف الشحن.

* * *

أدلهم الظلام. اختفى الطريق. وخيم الوسن على الجميع فعلاً الشخير كما نقيق الضفادع.

* * *

وضع رأسه فوق فخذ جدته التي أخذت تداعب شعره. كان الارتياح يخيم بداخله راسما صوراً جميلة لمرحلة مقبلة. فأغمض مقلتيه عنوة حتى لا تهرب مرحلة الصحو في داخله.

* * *

لم يكن هناك أحد يبكي. فالساعة تشير إلى الحادية عشرة ليل. الظلام دامس يخيم على المكان لولا ضوء كشافات تشتعل بالبطارية أحضرها رجال السير لانتشال جثث الموتى. وإعانة رجال الإسعاف في مهمتهم لم يكن هناك أحد يبكي. فقد خيم الصمت.

هروب

استافت الرؤيا أحداقاً غارقة الدم. تلتهم أجر الجدران وتلعق في نهم. مراشف حياة.. أخــذت تعج بها الشوارع الترابية.

الوقوف على الأرصفة في ذلك الزمن المندس في دهاليز الحياة؛ وصمة بالنسبة لحسناء يطل ضوء وجهها. من وراء حجاب شفاف.. تنتظر حافلة العمل.

إنهم يحرقون ريش الطيور في النار. حيث يتم دفن العصافير الصغيرة في الجمر. لتعبــق رائحــة الشواء في الوادي. حيث يرتاح للجلوس مع أصفياء السعد. في مرحلة هروب من الواقع المــؤلم الــذي انداح قلقاً في غياهب الوجود.

ـــ أنت..

ـــ أنا..

ـــ وهل .. هناك غيرنا..؟

لم يكن هناك سواهم.. حديثها عابق بالروائح والأماني.. بينما أخذ يبحث في الوجـــوه الــتي خلقها عقله الباطن عن شبيه. ليتذكر هاجسا في أعماقه يقول ذات يوم التقي (سهام) تعبث بــضفائرها تبتسم في وجه المارة. تقذف الحجارة في جميع الاتجاهات لتخلق الشغب في شارع الحي الرملي تــصطاد زجاج النوافذ والعربات المارة تزرع الخوف في العيون. يهابها الأطفال، أما هو فقد كان فتاهــا الــذي تختفي معه عن العيون. حتى اختفت فجأة.

كل شيء فيها لا يذكره. بما هو فيه. فحديث الروائح والأماني. نبع جديد يحف به سياجا مــن الزهور المهجنة..

ـــ أنت..

ـــ نعم.. أنني أستطيع.. مواصلة الطريق وزرع الطريق. الذي أصــبح الآن مزفتــا. بزجــاج المشروبات الفارغة لتمر من فوقها دواليب العربات.

ومن ثم تحدث أصوات مفزعة تربك الجميع.

ـــ ماذا ..

ـــ لا شيء..

الاندهاش المزروع في (ماذا) بركان أخذ يقذف حممه فوق الأشجار لتحرق الجميع في دوامــة أعاصير ثارت فجأة غير متباينة الجهات تجتاح كل شيء مخلفة الرماد فوق الأرض..

الرماد. منتشر في الأنحاء يزكم الأنوف. يلطخ الأطراف في غاية لا يدرك الجميع أنها النهاية.

توقفت عربة أجرة أمام الاثنين فاندسا في المقعد الخلفي لم يحاول أن يسبقها إلى الــدخول. ولم

تحاول دفعه إلى الداخل قبلها.

تحركت العربة. لم ينبس السائق بكلمة. كأنه يعرف الوجهة التي يقصدونها. وفجأة توقف ثم التفت إلى الخلف فإذا بالمقعد خال وأوراق بيضاء متناثرة فوقه. تحرك قليلاً من موقفه حتى وجد مكاناً أميناً.

ترجل من العربة.. فتح الباب الخلفي.. أخذ يجمع ورقة.. السطور في بعضها غير مرئي والأخرى بيضاء. كومها بين يديه ثم أغلق الباب وتلفت حوله. ثم وضعها فوق الرصيف بهدوء.

مرت إحدى الحافلات التي تحمل شعار إحدى المؤسسات العامة. وقد احتل مقاعدها مجموعة من الموظفين والموظفات أخذت أصواتهم الخافتة تنتشر في القضاء.

أنهم يغرقون المقل في الكحل الأسود لتبدو مستديرة تسبي عيون الناظرين كما يجب أن يكون لها محور ارتكاز. وبداية انطلاق لترسم خطوطاً عرجاء محدودبة فوق الزفت. تقشع ما سبقها من رسوم تسابق أصحابها على إلقاء أجسادهم أمام العربات المارقة ليرسم الدم المتطاير من الشرايين صوراً صادقة لواقع مؤلم.

ــ أنت.

وتلفتت حولها (كان يقف هنا) همست بذلك لرفيقتها التي وقفت في التوالي جوارها في انتظار الحافلة.

الزهور الصفراء

[١]

ارتسمت ابتسامة صغيرة في المكان وأخذت الزهور الصفراء تهتز في خيلاء معربة عن النشوة القادمة من الشمال. حيث أخذت الثلوج تذوب لتجري بين الصخور في طريقها الأزلي نحو النهر الذي تحف به المجمعات السكانية. التي لم تعد تبالي بالفيضان. إذ أصبح موسم خير تتلألأ فيه الثريات معلنة عن مقدم موسم الزواج.

[٢]

(أزاد) تتجول في غرفتها تقلب الأفكار. فلم تسمع النقر الخفيف الذي استمر دون هوادة على باب الغرفة. اتجهت إلى الباب لتفاجأ بشقيقها الصغير وبين يديه زهرة صفراء تناثرت بعض أوراقها بين قدميه. جلست القرفصاء وأخذت تناغيه تحدثه بلهجته. فغرز بقايا الزهرة في شعرها. ثم أخذ بيدها واتجها إلى غرفة الجلوس. حيث بدأ التلفاز يبث حلقة جديدة من المسلسل العربي الذي تتابعه وتحرص عليه. حتى أنها كانت تكلف الآخرين بتسجيل الحلقة التي لا تتمكن من مشاهدتها (بالفيديو) حتى لا تفوتها الأحداث.

[٣]

كانت الزهور الصفراء تملأ الشوارع والحدائق المنزلية الصغيرة في مرحلة انتشار عجيب. أوله سكان المنطقة إلى انجراف التربة من جبال الشمال حيث رسمت بصماتها على شواطئ النهر.

انفض السامر. وانهالت الرؤى فوق الرؤوس توزعت الخطى متجهة إلى المخادع. الساعة تشير إلى الثانية عشرة.. منتصف الليل. وحفيف نسمة الشمال تداعب الأغصان تقلق القطط المتجولة بين براميل النفايات.. حراس الليل.. وزوار الفجر .. الذين يختفون مع بزوغ أول أشعة الشمس. لإعادة الحياة إلى هذا الشق من الأرض.

[٤]

لم يلاحظ المواطنون الأنفاس الغريبة التي أخذت تتسلل وتندس بينهم وقد ارتدت كمامات ضد الغبار المسموم.

[٥]

النهر أخذ يرتفع منسوبه. المياه قدمت من الشمال بلون داكن تعبق منها رائحة غريبة نافذة تصرع من حولها.. تقتل الحياة.

[٦]

(أزاد) تقف خلف زجاج نافذتها المطلة على النهر تسرح شعرها تترقب مرور قوارب

الصيادين. وقوارب الأطفال الذين ينقلون الحاجيات والركاب على ضفتي النهر.

كان النهر مهجوراً وأشعة الشمس تعكس اللون الجديد للمياه. قربت وجهها من زجاج النافذة تتأمل الحدث الغريب وفتحت النافذة أزكمت أنفها الرائحة الغريبة فأغلقت أنفها بيدها ثم سارعت إلى إغلاق النافذة. وهنا لمحت مجموعة من الخوذات المكممة تركض في جميع الاتجاهات وأخذت تمخر عباب النهر قوارب مطاطية ذات لون داكن.

شعرت (أزاد) بالخدر يسري في عروقها فاتجهت إلى فراشها ثم تمددت وأغمضت عينيها وهي تتدثر بالغطاء. وراحت في سبات عميق.

[٧]

توقفت الحركة على ضفتي النهر ..

[٨]

الزهور الصفراء. أخذت تقاوم الغبار المسموم. باهتزازها الناعم في خيلاء رغم انسحاق البعض تحت أحذية الغرباء الذين أخذوا يتجولون بحرية في كل مكان.. يبنون المتاريس.. يوزعون الأفراد.. يحتلون المواقع الحساسة وتمركز أفراد القناصة في مآذن المساجد.. فوق أسطح الدور العالية وخزانات المياه.

عندما انتهت المهمة أخذ كل فرد يفتح أزرار قميصه.. ورباط حذائه.. ثم ينزع الخوذة من فوق رأسه.. ويزيح الكمامات عن أنفه والقناع عن وجهه.. ليتم تبادل الحديث بحرية وهدوء بعد انتهاء المهمة التي لم يكن يتوقع الجميع أن تكون بهذا اليسر.

وتوقفت الكلمات فوق الشفاه التي تهدلت فجأة .. وجحظت المقل.. وأخذت الأنفاس تتلاحق .

[٩]

الزهور الصفراء تهتز.. تعبر عن وجودها وحبها لضفتي النهر الذي وهبها الحياة فأخذت ترقص جذلاً مستقبلة الفيضان من الجديد الذي كان أقل منسوباً من الأعوام السابقة بفضل السدود المقامة حديثاً.

[١٠]

(أزاد) أخذت تتململ في فراشها. نزعت الغطاء عن جسمها. ونهضت من الفراش وارتسمت على شفتيها علامة استفهام ـــ حيث نامت بكامل ملابسها ـــ وتذكرت مياه النهر الداكنة فأسرعت إلى النافذة. فإذا بالماء صاف يلمع كالرصاص والزهور الصفراء تهتز والقوارب الصغيرة تمارس عملها اليوم فأراحت جبينها على الزجاج لتلمح بزة داكنة مكومة في نهاية الممر.

أوراق اليانصيب

أنهار المبنى وتناثر الغبار في الفضاء. أخذت الشظايا تهشم جباه المارة، وزجاج العربات ونوافذ وأبواب العمائر المجاورة.

* * *

صبي صغير يبيع ورقة اليانصيب. شاهد العربة التي دخلت من بوابة المبنى.

* * *

قائد العربة فتاة شقراء ترتدي بزة عسكرية. ونظارة شمسية قبل أن تلج المبنى اشترت ورقتي يا نصيب واحدة لها وأخرى لمرافقها في العربة. وتنازلت عن بقية القطعة النقدية للصبي ثم مسحت على شعر رأسه واندفعت إلى داخل المبنى.

* * *

أقبلت عربات الإسعاف والدفاع المدني ودوريات الشرطة. وتكوم المارة. يبصقون الغبار الذي أخذ يكتم أنفاسهم.

* * *

بائع أوراق اليانصيب. تناثرت أوراقه فوق الرصيف من أثر قوة الانفجار فلم يهتم بجمعها وإن كان يمسك على الورقة النقدية الكبيرة التي دسها في أحد جيوب بنطالة.

* * *

أقتحم الصبي الجموع. يبحث عن قائدة العربة. وقلبه يتمنى أن تكون سليمة لم يمسها سوء متذكراً كلماتها الرقيقة ومسحها على شعر رأسه.

* * *

خرجت أول جثة من تحت الأنقاض. بدون رأس. كما استطاع رجال الجيش إخراج أجزاء متناثرة كونت جسداً واحداً أخذ الجميع يتأملونه مبهوتين. إذ أن الأطراف مختلفة الألوان.. والسماكة.

* * *

الصبي يحشر رأسه في كل فتحة يستطيع أن يجد فيها ممراً يقترب فيها أكثر من المبنى المنهار.

* * *

شعر الصبي بالإرهاق فعاد إلى مكانه. في زاوية الشارع حيث كان يبيع أوراق اليانصيب. وأخذ يجمع بقايا أوراقه المتناثرة والتي مرت فوق البعض أحذية المارة لم تلفت أنظارهم ببريقها والحظ القادم من خلال أحد الأرقام. ثم تمدد في مكانه مستنداً على الحائط الذي خلفه.

* * *

قفز الصبي من مكانه. صرخ. إنها هي وأخذ يعدو نحوها. أجل كانت هي مع رفيقها تغـــادران المكان بعد أن تم تنفيذ العملية بهدوء.

القدر يتربص بالصبي الصغير الذي أصر على اللحاق بهما. لم يسترع انتباههم نداءه المتكرر.

* * *

اتجه الاثنان إلى عربة تقف في أحد المنعطفات. جلست خلف المقـــود وأدارت المحـــرك. هنـــا شاهدت الطفل يعدو نحوهم اكتسي وجهها الأشقر بالفزع أعدت العربة للانطلاق ثم تأملت رفيقهـــا في المقعد. كان صامتاً. تجلدت تقاسيم وجهه تحجرت أطرافه وانصب نظره على الصبي الذي أخذ يقتـــرب من العربة.

راقبت اتجاه نظرات رفيقها المتجلدة. لم يبق للصبي سوى خطوات ويلامس العربة. وهنا رفعت قدمها من فوق الكابح. مرت العربة فوق جسد الطفل الذي تضرج بدمه وهو يلفظ أنفاســـه الأخـــيرة. بينما يده تمسك بالجيب الذي يحوي قطعة النقود الكبيرة.

* * *

اختفت العربة في الرخام. لم يشاهد المارة الطفل المقتول.

* * *

تحدثت الصحف في اليوم التالي عن البناية المنهارة وعدد الضحايا وأسباب الحادث الذي كـــان عن طريق عربة جيب محملة بمتفجرات أوقفت أمام مدخل العمارة. وفي الصفحات الأخيرة منها بيـــان بالأرقام الفائزة في السحب الشهري لأوراق اليانصيب .

رجل يبحث عن وظيفة

أنت مقتول. سوف تسمل عيناك وتحرق أطرافك بمحاليل حارقة تذيب الحديد. وعندها سوف يتوقف ذلك الصوت القادم من أعماق الفضاء عن النداء باسمك. ومحاولة إرشادك الطريق. حتى تصل وتقول في هدوء لها.. إنك الآن اكتشفت بأن الحب يملأ كيانك. وأن الدنيا لا شيء بدونها..

* * *

رفع سماعة الهاتف. وأخذت أصابعه تضغط على أزره الأرقام التي تكون رقم هاتفها..

ــ الوه.. ألوه..

ــ كيف الحال ..

ــ وارتفع صوتها. معلناً الاحتجاج على غيابه الذي طال أكثر من المتوقع..

ــ أنها أربعة وعشرون ساعة فقط.

ــ ماذا ..

عادت إلى هدوئها.. وأخذ يبحث من خلال صوتها عن سبب خروجها مبكرة من الدار. وعودتها في الحادية عشر مساء ثم انشغال الهاتف حتى الواحدة بعد منتصف الليل.

* * *

أنهم يسرقون الأطفال في المنتزهات العامة.. كان الحديث يدور هامساً في التلفاز الذي يقبع مع زوجين افترشاً أرض إحدى حدائق المنتزهات العامة في المدينة. وعلى مد البصر كان سمير وعبير يتسابقان في طفولة بريئة في امتطاء المراجيح والألعاب المزروعة هنا وهناك.

* * *

أخذ أحمد يتأمل ساعته. أنها السابعة صباحاً. لا شيء في الوجود أمر. من ترقب أزفان موعد على شخص فوضوي يشعر أن النظام قبر. والتعليمات غرف من الجبس لا منفذ فيها. سوى شبابيك تم تسويرها بقضبان حديدية رغم ارتفاعها وعدم الاستفادة منها.

الموعد الساعة الثامنة. سوف يدخل صالة الامتحان ليبحث من خلال الأوراق التي سوف تقدمها اللجنة المختبرة عن موقع في ملاك موظفي الدولة العام. أنها المرة السابعة التي يدخل فيها الامتحان في محاولة صعبة. قرر فيها التخلي عن وظيفة على بند العمال ــ استطاع الحصول عليها ــ بواسطة ــ ليعمل موزعاً لصور المذكرات الرسمية في إحدى الإدارات الحكومية للحصول على وظيفة داخل الهيئة.

* * *

انتهت مباراة كرة القدم. وقام رئيس الاتحاد الدولي مع رئيس الدولة بتسليم الكأس المذهب

للمنتخب الفائز. بينما يقف تحت سارية العلم ـــ علم الاتحاد الدولي ـــ أربعة من رجال الشرطة ومجموعة كبيرة من مصوري التلفزيون والصحف لتسجيل حدث إنزال العلم من فوق السارية وتسليمه للدولة المضيفة للمسابقة القادمة بعد أعوام أربعة.

ارتفعت الأكف مصفقة. وأفراد المنتخب الفائز يركضون بالكأس المذهبة أمام مدرجات مواطنيه. بينما لاحظ المنتخب الحاصل على المركز الثاني أن عدسات التلفزيون والصحافة تتابع الأقدام الراكضة وبعين أخرى تنتظر إنزال العلم. فأهملت متابعة صعود أفراده إلى المنصة هنا قرر قائد الفريق الانسحاب. ثم صرح في غرفة الملابس بأن الانسحاب كان حرصاً على سلامة لاعبيه. حيث أهملت الدولة المنظمة تأمين الحراسة الكافية بسبب الخلافات الأيدلوجية بين الدولتين.

* * *

رن الهاتف مرة واحدة.. تطلع في ساعته أنها السادسة مساء إذا هي في انتظاره.. تململ في الفراش. وأخذت حواسه تتنبه الهدوء المخيم على الدار. تذكر أن زوجته وأطفاله غير موجودين وأنه وحيد منذ ألف عام.

تذكر أنهم طردوه من الفردوس الذي كان يعيش فيه عندما شعر بالسأم من الحياة الهادئة المملة فأعلن حبه على الملأ صارخاً بملء فيه أنه يحب وأن حبه هو الهواء والدم والحياة وما عدا ذلك لا شيء.

فوجئ الجميع بجنونه أنه مجنون الآن. عليه أن يرحل ورحل مخلفاً كل شيء حتى مفاتيح عربته تركها على الطاولة التي يقبع عليها التلفزيون. وغادرهم ماشياً على قدميه. مترقباً أن يلحق به أحدهم. وعندما طال انتظاره التفت إلى الوراء لعلهم يودعونه .. أو يتلصصون من النوافذ وعبر الأبواب المواربة. وإذا به لا يجد أحد تخلى عنه الجميع حتى قطط الحي وكلابها السائبة.

* * *

منذ زمن لم يذق طعم الدموع. ولم يحاول الاغتراف من ذلك المنهل الحزين. ومع ذلك تكونت الصور القاسية في أعماقه تذكر. تهديد القتل وأخبار سرقة الأطفال وبيعهم في أماكن كثيرة من العالم.

تذكر الأكف المصفقة. وهو يزف خبر نجاحه في المدرسة وتفوقه في مادة الحساب والهندسة. أنهم يضحكون منه حتى آخر قطعة نقد ورثها من أسرته.

هنا نفرت دمعة صغيرة أخذت تنساب على خده. وتذكر أنه لم يبق على نهاية المهلة لتقديم أوراق الإجابة سواء عشر دقائق وهنا أغمض عينيه. وأخذ يملأ الفراغات بدون مبالاة ثم نهض من المقعد وقدم الورقة ملطخة بخطوط وفراغات في غير مواقعها. ثم وقع في كشف تسليم الأوراق. وأمام الباب الخارجي أصلح من وضع غترته ثم ولج الطريق العام واختفى في الزحام.

أوراق من يوميات امرأة عاملة

* من بين الأشياء الرائعة التي أحسد عليها الحظ الذي خدمني في كل عمل أقدم عليه حتى لــو أدى ذلك إلى تصدع الجدران على من حولي.

إنما هذه المرة خدمني بشكل آخر. قدم لي تضحياته الكبيرة ولكن لأفقد عقلي. فأخذت أشــك فيمن حولي. وأنهار لأقل صوت مزعج أو صراخ يصلني عبر نوافذ المسكن الــذي ســكنت مــؤخراً أو خلال الفتحات الصغيرة الموجودة في الأبواب متوهمة أن كل من حولي يتمنى موتي. حتى الخادمــة الــتي أصبحت ملكي بدون عناء أخذت أخاف منها. أخشى أن أبقى معها وحيدة فتقوم بقتلي وأنا متمــددة في فراشي من الإرهاق عندما تغفو عيني لحظات.

* * *

* تسرب هذا الوهم القاتل إلى أعماقي مؤخراً بعد أن وجدت في عيون من حــولي الــشك في تصرفاتي كامرأة مثقفة ومتعلمة.. تستطيع من خلال ما تلقنته من المدرسة أو الجامعة أن تفرق بين العمل الطيب والعمل السيئ المكروه الذي يفقد الإنسان كرامته.

* * *

* أنا امرأة مهجورة. هجرها زوجها فجأة دون سبب يذكر وبحث عن أخرى لإشباع غرائزه. لا أدري ما هي الأشياء التي افتقدها في. فتزوج أخرى. رغم الألفة التي بيننا والتفاهم الكبير حيث كنت أتمسح به كجارية عاشقة لأتفه الأسباب حتى يصفح عني وهاهو يهجرني..

ــ أنني أبحث عن السعادة.

ــ وهل كانت السعادة مفقودة في حياتنا.

ــ لم تكن مفقودة. إنما لاحظت أن طباعنا متنافرة.

ــ متنافرة.

ــ الأشياء التي أحبها.. تكرهينها.

ــ الأشياء السيئة.

ــ ولماذا. لا نتهادن حتى نصل إلى منحى السعادة.

ــ وكيف يكون التهادن.

ــ تتنازلين عن كبريائك قليلاً.

ــ أنا..

ــ أجل أنت.. السعادة التي اغترفنا منها الكثير. في أيامنا الأولى.

ــ لقد كنت غرة.

ــ وأنا كنت مغروراً بك ..

لم نكن نصل إلى نتيجة في كل حوار يدور بيننا. إذ أننا نتشابك بالأيدي وإذا كان صافي الذهن ولديه موعد مع أصدقائه يرمقني بنظرة ثاقبة ثم ينسحب ويرتدي ملابس الخروج ولا يعود إلا في الساعات من صباح اليوم التالي.

* لن أتوقف عند الأشياء الصغيرة والبديهية في حياتي. منذ أن قدمت إلى هذا العالم. حيث الفرح الغامر الذي انتاب والدي فقد كان مقدمي بعد خمسة أعوام من الجدب والبحث عن مكان يوجد فيه علاج من أجل الحصول على طفل.

أطل ــ عبد الرحمن ــ وأنا في نهاية المرحلة الثانوية من أسرة غنية تعرف فجأة على والدي من خلال العمل. ارتاح له والدي كثيراً في بادئ الأمر. وأخذ يتحدث عنه كثيراً.

إنما عندما قلت ــ نعم ــ اعترض كثيراً وخاصمني وأمام دموعي أصدرت والدتي أمرها بالموافقة. واستسلم على مضض لم أكن أعرف سر الرفض المفاجئ.

* * *

* مع مرور الأيام اكتشفت الحقيقة التي كانت غائبة عن ذهني لحظتئذ إذ.. وأوقعت والدي في حرج إذ أنه كان ــ عبد الرحمن ــ يشارك والدي وبعض الأصدقاء سهراتهم التي لا تخلوا من المحرمات في نهاية كل أسبوع خارج المدينة. أو في دار أحدهم. ولم نلاحظ ذلك على والدي الذي كان يأوي إلى غرفته وحيداً في الهزيع الأخير من الليل ومن هذا المنطلق. كان خوفه علي الذي حطمته بحبي الأعمى وعدم التروي في الاختيار الصحيح.

* * *

* القصة كبيرة.. والحظ الذي كان يتهادى أمامي جذلاً يقدم لي على طبق من الذهب كل ما أشتهي اختفى الآن بعد مرور أربع سنوات. جاوزت فيها المستحيل. تغلبت فيها على طموحي وواصلت دراستي حتى غدوت موظفة. وتغلبت على وساوس زوجي الذي يأتي بعد منتصف الليل فاقداً الشعور. يطالبني بالعشاء وإكمال السهر معه حتى الصباح. دون احترام.

ولكن الحظ .. ذلك الإنسان الوهمي تقدم لي هذه المرة في صورة صديق لزوجي. أخذ يواسيني في المحنة التي أنا فيها عبر الهاتف ويخفف من آلامي.

شعرت بقربه مني والتصاقه بي رغم عدم إفصاحه عن اسمه ولكن تأكد لي أنه قريب ينتمي لإحدى الأسرتين.. أسرتي.. أو أسرة زوجي. لمعرفته بكل الخفايا الأسرية وحتى الصغيرة منها رغم ادعائه بأنه صديق زوجي..

* * *

* لم يتسرب الشك إلى نفسي. ولكن في لحظة انفعال بحت بكل شيء لعبد الرحمن قلت له كل ما كان يدور بيني وبين صديقه في الهاتف وعندها ثار..

أخذ يركلني بقدميه.. ويصفعني على وجهي بكلتا يديه ويسحبني من شعري وهو يصرخ..

ـــ خائنة.. خائنة.

ـــ أنا..؟

ـــ أجل .. أجل.

وانهار يبكي. بعد أن لطخ الدم وجهي وانسحبت إلى غرفتي أجمع ملابسي وخرجت من أمامه وهو يتأملني خلال دموعه. دون أن ينبس بكلمة.

عدت إلى دار والدي. الذي استقبلني بالدموع. وشعر بأنه السبب في كل ما حصل لي رغم أنني لم أتحدث كثيراً عن الأشكال الذي دفعني إلى مغادرة داري.

ـــ لن أعود إليه ..

ـــ كل شيء خير يا بنتي.

ـــ لقد ضربني .

ـــ ما رأيك أخذك للمستشفى حتى يتم كتابة تقرير بذلك نقدمه للشرطة.

وقفزت من مقعدي.. الشرطة.. لن يكون ذلك.. حدثت نفسي بهذا وأنا أتخيل الأحداث السيئة تمارس رغم أنفي. كشريط سينمائي.

ـــ الأمر لا يحتاج إلى ذلك.

ـــ وعملك.

ـــ سوف أتصل بهم. واعتذر عن الحضور حتى تزول الكدمات.

تذكرت. كل هذا بعد عشر سنوات من الوقوف وحيدة في مهب الريح لأحمى أطفالي الثلاثة من نوائب الزمن وقد رفض عبد الرحمن تطليقي.. أو الصرف على أطفالي وخوفاً من أخذهم مني رضيت بالواقع. الذي شعرت فيه بأنني امرأة مهجورة فشلت في أن تعيش. وها هي الآن تقف على مفترق الطرق تبحث عن من يقف إلى جانبها. حيث كنت في بعض أوقات الوهم القاتل أهرب إلى الهاتف أشكو لصديقاتي ولأشخاص لا أعرفهم ولا يعرفوني. مصيريا لأجد لحظات من السعادة. الموءودة ووجدته.

إنما الوهم القاتل كان يقف بيننا. أخذت أشعر بقربه مني ومدى إحساسه بما أعاني لكن الخوف المترسب في أعماقي يدعوني للهرب خوفاً من واقع مظلم.

كان والدي في هذه الرحلة رفيقي الوحيد بعد أن رحلت والدتي إلى العالم الآخر. يشعر بما

أعاني يحاول أن يقول شيئاً لشعوره بالخطأ الذي ارتكبه في حقي.

إنما لم أعطه فرصة لأن يعتذر لإحساسي بأنه لو اعتذر فلن يكون هناك شيء أعيش من أجله.

الليل الذكرى المرتخية

أين الضوء.. احترقت الثريات.. لم يعد في المكان سوى انفعال الحضور. من الكيد الذي يبدو أن مرتكبه ثقيل الظل. لا يهمه العبث بمصير الآخر من أجل الوصول إلى هدفه.

* * *

عاد الضوء مجدداً. إنما بعد أن خلا المكان من الحضور لم يبق سوى أفراد يعدون على أصابع اليد. هم أهل الفرح الحقيقيون يستمعون إلى حكايات نادرة الوقوع يرويها شيخ خرف لا يدري الجميع من أين جاء. حيث وجده الجميع أمامهم يجلس في صدر المجلس يرحب بالقادمين يسأل جلساءه عن الأهل والصحة.. مردداً أن الموسم موسم خير. معززاً توقعاته بالسماء الملبدة بالغيوم والتي اختفت نجومها وأقمارها بسبب ذلك فلم يبق أمام الساهرين سوى الذهاب إلى دورهم قبل أن يهطل المطر ويجتاح السيل الطرق.

* * *

أطل عابد على المجموعة الجالسة وسرت في جسمه رعشة خفيفة وهو يلمح الرجل العجوز يتوسط الدائرة الذي ما أن لمحة حتى كف عن الحديث وأخذ يتأمله بعين حادة كعين صقر لمح فريسته من شاهق. فأخذ يركز حتى يحدد مكان الالتقاء والانقضاض وجد عابد أنه مدفوع إلى التقدم من الحلبة. فقام الجالسون مرحبين به. يباركون زواجه. متمنين له الرفاه والبنين من خلال السعادة المتوقعة فهناء جميلة بنات الحي وكبرى بنات جابر مثقفة معلمة بإحدى المدارس الأهلية تساهم بقسط وافر من أسهم الشركة التي أقامتها.

* * *

جلس عابد بالقرب من الشيخ حتى لا يشاهد البريق المطل من عينيه أنهم يقتلونه الآن. أجل سوف يموت الليلة لا محالة. فالشيخ رسولهم الذي يتابع خطاه منذ أن قدم إلى هذه المدينة. يحمل قرار تعيينه في إحدى الإدارات الحكومية بعد أن شارك في الامتحان الذي أعلن عنه ديوان الخدمة المدينة...

قرر التروح من بلدته وأهله والهجرة إلى الجنوب حيث لا يتمنى إلى أحد وها هو في ليلة فرحة يجدهم أمامه من خلال بريق حاد. سمر قدميه في الأرض.

* * *

الفقر المدقع.. واليتم .. وزوج أم متلاف أتلف.. تركه أبناء زوجته على أقاربه. وتنقل ممجوج لا داعي له من خلال حياة أفضل يلغي كل الارتباطات.والقيم. .. فغداً خدين حياة العبث ... الليل نهار.. مضاء رغم أن الشوارع الخلفية الآن.. ومنذ ملايين السنين تعيش الظلام الدامس طيلة أيام الشهر. معربة عن رفضها لهذا الوجود الرافض الذي يسكن منازلها الصغيرة. غرفها الملطخة بصور نساء

ملونة اقتنصها السكان من المجلات والصحف الواردة من وراء الحدود.. بـــشكل شـــرعي.. أو بطـــرق أخرى..

العجوز يسكن إحدى هذه الدور. وعابد مع مجموعة من رفاق الليل يسكن الدار المقابلة. الأمر الذي لفت نظر إحدى سيدات دار الشيخ. فأخذت تتسلل بين لحظة وأخرى إلى الدار المقابل. بعيداً عن العيون بحثاً عن الحياة التي فقدتها وراء البوابة الحديدية الكبيرة.

* * *

دخلت المجموعة العابثة السجن. بعد مداهمة مفاجئة لرجال الشرطة. لم يكن هناك أحد ســـوى عابد. يقوم بترتيب أثاث الدار وبصمات رفعها رجال التحقيق. أنكر عابد وجودهم وبما أن لهم سوابق. فقد تم الوصول إليهم ومواجهتهم بما تم العثور عليه من ممنوعات.

* * *

شعر أنه لا يستحق الحياة.. النظرات مصوبة إليه. حيث دار الهمس.. في الحي بأنه اعترف على رفاقه حتى لا يسجن مدى الحياة.. رغم ما تأكده محاضر التحقيق بأنه لم يذكر أي أسم فلم يتم ســـجن أصحاب البصمات الباقية وكانت منهم إنما الباب الحديدي. تغير بعد أن خرج بعد خمس سنوات سجن والدار تحولت إلى مستودع لأدوات السباكة، محابس.. براغي.. مواســـير.. أكيـــاس مـــن الليـــف .. البويات..

لم يكن الرجل.. قد وصل إلى هذه المرحلة.. تلفت عابد حوله.. وهو يهمهم.. يا الله أنه عامل الزمن.. كم تأخذ الأيام منا.. خمسة عشر عاماً.. الأيام ليست طويلة إنما بالنسبة.. لإنسان هذه الأيام.. مرهقة.. مملة.. زحام.. زحام يقف فيه الفرد طيلة حياته حتى يصله الدور.

أنه دوري أنا.. ولكن هناء عانس .. يقال إنها مطلقة.. يقال .. اكتشف زوجها أنهـــا ليـــست عذراء.. أجل أعرف ذلك.. ومع ذلك سوف تكون شريكتي ما تبقى لي من أيام في هذه الحياة..

* * *

أنت مجهول .. لا نعرف عنك شيئاً .. أين أهلك.. أهلي أنتم.. أمك.. أبـــوك.. أخوانـــك .. أبناء عمومتك.. كلهم هنا.. أين يقيمون.. داخل هناء.. لم تحاول هناء الوقـــوف في طريـــق الـــسعادة القادمة. التي كبلتها من كل ناحية لذا رفضت كل التوصيات.. لتنفرد برأيها.

* * *

نهض الرجل المجهول .. أصلح عباءته فوق أكتافه وأمال عقاله قليلاً ثم لف غترته حول وجهـــه الأشيب حتى لم يعد يبدو من محياه سوى عينيه.. مد يده نحو السمار مودعاً .. يشد على كل يد.. رمق عابد الذي لم ينهض من مكانه حيث كان يفكر ساهماً.. غير عابئ بما يدور حوله.. انتفض عابد وعـــاد

إلى الواقع ونهض من مكانه ثم مد يده إلى الرجل. ثم شده إلى صدره..

انهالت دمعة صغيرة فوق خدا عابد.. تأملها الرجل قليلاً ثم رفع يده ومسحها بأنامله واحتضن عابد مرة أخرى وهمهم بصوت متهدج.. مبارك يا ابني..

* * *

تلفت الساهرون حولهم .. محاولين معرفة سر الرجل فقابلتهم الدهشة المرسومة علــى محيــاه.. وابتسامة صغيرة أطلت فجأة كومض برق شلت السؤال.. واتجه إلى الباب مغادراً المكان.. أمام همهمــة متقطعة. لتسأل تلاشى عبر زغاريد نسوة يؤكد للجميع أن هناء أكملت زينتها. وهي في طريقهــا إلى قاعة الحفل الكبرى لتقف مع عابد أمام عدسات المصورين من الأقارب. لتسجيل حدث خالد.

أخذ عابد.. بيد هناء واتجه إلى القاعة. كانت تقول شيئاً وهو كان يقول شيئاً. إنما هذه الأشياء لم يستطع أحد الوصول إليها. رغم التصاق الجميع بهم. وأخرج من جيبه عقداً ذهبياً قديماً. زرعه فــوق صدرها. أدهش الحضور أمام باب العربة التي أقلت العروسين إلى منزل الزوجية.. وقف أطفال يرتــدون الملابس البيضاء يحملون الشموع وسلات الزهور.

وقف الاثنان.. بينما كان الرجل العجوز يتأمل المشهد من مكان منزو في الشارع.. لمحه عابــد فأسرع إليه.. شده من يده..

هز الرجل رأسه رافضاً.. اختفى في الظلام.. بينما هناء تكرر السؤال.. من يكون.. لم يقــوى على الجواب لأنه لا يعرف. إنما في نظراته شيء يقول أنهما كانا معاً..

النار وأعياد الميلاد

توقف ... صرخ ... صوت أجش.. أعلن الرفض ساقاي تساعداني على الجري.. حتى أغادر المكان، توقف.. ذات الصوت الأجش، وقد كان هذه المرة مصحوباً بعيارات نارية. أخذت تتناثر حولي.

الخط المستقيم الذي أعدو هارباً من خلاله أصبح متعرجاً.. ساقاي تنبعث الروح فيها... روح ملاك أخذ يطير فوق البسيطة.. كفراشة ربيع... تنتقل من زهرة إلى أخرى... يشدها صخب الأطفال .. فأخذت تقترب.. رويداً رويداً.. وإذا بهم يلاحقونها بعد أن هجروا لهوهم لضمها إلى محتوياتهم.

سائل حار أخذ يترُّ من تحت الكتف الأيمن لابد أنه دم. حاولت أن أتلمس ذلك إنما تذكرت أن هذه الحركة سوف تعطلني عن المواصلة والاختفاء عن عيون المطاردين.

لا أدري كيف دخلت الحرش الذي تسللت إليه قواهم. أين الحرس. وصفارات الإنذار.

أنه الميلاد. حيث يأوي الجميع إلى دورهم.. للاحتفال بتوديع عام واستقبال آخر.

هناك كوخ.. لا أتذكر أني شاهدته رغم إحاطتي بالمكان. يشكل النور المنبثق من نوافذه عيون قطة سوداء. رغم صوت الموسيقي الذي يشق الظلام.

الصوت الأجش توقف عن النداء. والعيارات النارية صمتت هي الأخرى.. دفعت الباب بقوة.. تأملت الجميع.. أعرفهم.. إنما أين شاهدتهم لا أحد يتذكرني.. أو يمد يده مصافحاً. وأثناء.. التأمل انبثق الدم من العيون. عندما فتح الباب مجدداً.. قفزت من مكاني على الأرض. جرى تبادل إطلاق النار.. أخذ النور يغمر المكان طلقات نارية.. طلقات.. طلقة واحدة.. عاد الصمت للمكان.

الصورة

وقفت أتأمل أكشاك العصافير الملونة. على مدخل أحد المحلات التي تقوم ببيع الزهور والعصافير الملونة.. فوجدت يدي تمتد له مسلمة... دافع في داخلي شدني إليه... يدفعني إلى الالتحام به.. هاجس يقول هذا توأم، مشاعر انكفأت ذات يوم.

صحوت على صوت شقيقتي وهي تدعوني إلى مغادرة موقعي. لإكمال جولتنا في السوق من أجل إرشاد أخي للأشياء المطلوب اقتناؤها.. حيث أنه تقدم لخطبة صديقه لنا. وتكفلنا لمعرفتنا لذوقها بتوجيهه رغم معارضة والدتي لنا. وتركي أطفالي الثلاثة عندها مما حرمها مشاركتنا في التجوال والاختيار.

* * *

أسامة لا أعرف ماذا حدث له هذا المساء. رغم تضحيته بأن أشارك أسرتي فرحها. وجدته صامتاً على غير عادته. أخذ يتأملني وأنا أغير ملابسي.. وأنا أتجه إلى غرفة أطفالنا للتأكد من أغطيتهم. ولمعرفتي به كفنان. رضيت بالصمت الذي انتميت إليه حتى لا أشغل لحظات سعادتنا بأمور بسيطة. أدرك أن نهايتها ليست جيدة وخاصة من خلال أسامة الفنان الذي يهرب إلى ألوانه بهستيريا غير مقبولة.. هاجرا عمله الرسمي.. منطوياً في مرسمه. لا يكلم أحداً.. وإذا شعر بأنني سوف اعتذر لما بدر. يعود لحالته العادية... إنما هذا المساء هناك أمر مستجد.. رغم إدراكي بأنه لم يحدث خطأ بعينه.

الساعة تشير إلى الثانية صباحاً.. أسامة يجلس وحيداً في مرسمه... أنا أقلب صفحات كتاب جديد بدأت تصفحه منذ أسبوع ورغم لهفتي على هضم محتواه. تأخرت في التهام سطوره شعرت بالبرد يقرص أطرافي. فأطبقت الكتاب ونهضت من الفراش توجهت إلى المرسم.. وجدته مشدوها يتأمل لوحة جديدة.. انتصبت فوق الحامل. بينما الفرشاة بين أصابعه... لا أدري بما يفكر ... حفيف منامتي.. ووقع إقدامي الحافية.. ودفعي للباب الموارب شدوا انتباهه فأخذ يتأملني.

* * *

طفت صورة الرجل الذي قابلته في محل بيع الزهور إلى السطح.. أنه قبالتي.. تسمرت في مكاني وقد احتبست صرخة مجهولة في داخلي .. الرجل يتأملني.. أنا أقف في فتحة الباب يد أسامة تفلت الفرشاة... تتناول يد أخرى قلم رسم أسود أخذت تخطط على اللوحة بشكل مذهل. بدأ التكون يظهر .. تكرر بروز وجه الرجل على اللوحة.. أخذت صورة أسامة تبرز.. العرق تصبب من جبينه. والإرهاق باد على محياه.. أسرعت نحوه انحنيت القى برأسه على صدري.. أخذت أداعب شعره بأناملي. وأنا أتأمل الصورة..

اللعبة

تلاشت الصور أمام ناظريها بعد أن حرمت من السعادة التي كانت تتوقعها من خلال موافقتها غير المتوقعة بالزواج من أحمد الذي ما أن سمع موافقتها حتى أخذ يتحدث بشكل هستيري عن السعادة التي سوف يجنيها من هذا الزواج.

اشتعلت الثريات في الشارع الموازي لمنزل أسرتها — رغم أن الحفل الذي تم التعاقد لإحيائه مع أشهر مطربات الطائف (بنادر) التي صعدت سلم الشهرة من خلال تمسكها بخط واضح في حياتها الفنية توشح ابتسامتها الصغيرة الأبدية ظلال من الحزن مقره أحد الفنادق الكبيرة.

لم يطرح أي سؤال على (سماهر) التي طوحت بكل الأحلام والمواقف رغم علامات الاستفهام التي أخذت ترتسم بينها وبين زميلاتها في الجامعة، إذ إن هناك بالإضافة إلى المفاجأة في القرار أختين تكبرانها بالسن لم يتم تزويجهن.

ولكنها تجاوزتهن لتكون الأولى.. لتغلق على كل الأفكار والأماني والطموحات باب سرداب أعماقها وكأنها في مرحلة تحدٍ مع وهم لم يستطع حتى الخيال تكوين معالمه.

* * *

أخذت تقلب الصور التي أخذت أثناء حفل الزفاف وحيدة في غرفتها التي تقبع في ركن بعيد من الدار الكبيرة التي تسكن فيها أسرة أحمد.. إنها تبتسم في كل الصور. لكن هذه الابتسامة غارت مع مرور الأيام لتعلن عن مقدم الجدب الذي فرت منه ذات يوم. فإذا به يطل من كل ناحية ليخنق صوتها ويواصل امتصاص إكسير الحياة التي غنت لها ذات يوم غير مبالية بما يترتب عليها، رغم نظرات الحقد التي كانت تتابع خطواتها الناجحة في إيجاد بديل لصديق انهزامي وفي الاستحواذ على حب زميلة جديدة تشاركها أفكارها وترتاح لجرأتها في مناقشة شتى الأمور حتى تلك التي يحمر لها الوجه ويندي الجبين عرقاً.

* * *

أطل (أحمد) كالعادة باسماً.. إنما هذه البسمة والتي تعتبر امتداداً لصوره الصامتة أثناء حفل الزفاف جاءت في غير موعدها بعد أن سرت همسات بين المدعوين بأنه مرغم على الزواج منها بعد أن سلبها عذريتها حيث شاهدها أكثر من شخص وهي تترجل من عربته.

كانت كل شيء في الدار حتى لتبدو أمام الجميع بأنها (البنت الكبيرة) رغم معرفة الجميع بأنها الصغرى. إلا أنها المخطوبة في كل زيارة للبحث عن زوجة — سماهر — هي الفتاة المطلوبة مما ولد الضغينة في صدر الجميع. رغم الاحترام والتقدير المتبادل.

* * *

أحمد عرفته عن طريق إحدى الزميلات حيث كان ينتظرها أمام بوابة الكلية.. شعرت بارتباك زميلتها عندما لمحته فابتعدت عنها حتى تمنحها فرصة الذهاب معه. وأصرت الصديقة على مواصلة السير معها.

تكرر تواجد أحمد الأمر الذي أصبح قدومه من أجلها وليس من أجل صديقتها التي أشاعت عندما علمت بخطوبته وترتيبات الزواج السريعة بأن في الأمر ما يستوجب التأمل.

* * *

كانت تراقبه أثناء حفل الزفاف.. بعين متلصصة لمعرفة تأثير حضور صديقتها الحفل. فكان صمته وارتباكه والرهبة المسيطرة عليه ستاراً أخفى كل ما يعتمل في داخله.

* * *

سماهر.. سماهر.. كان الصوت مألوفاً، لكن من يكون؟. إنه وجودا ينتمي إليها، يعيش في كل قطعة من حياتها. ولكن من يكون؟! أخذت تسترجع الذاكرة التي لم تسعفها.

: بدر..

: بدر.. بدر من ..؟

: كنت أتوقع . إنك نسيته.

وتذكرت رفيق الطفولة الذي اعتبرته الأسرة منها فلم يتابعوا لحظات وجوده في الدار التي كان يعرف كل زاوية فيها فلم يهتموا بدخوله أي غرفة مهما كان وضع من فيها. ووجدت فيه الغر الذي أخذت تداعبه من خلال لعبة العريس والعروسة وإذا اكتشفهم أهل الدار يضحكون في سذاجتهم ثم يقررون في بلاهة أن سماهر لبدر وبدر لسماهر . ولكن انتقال عمل والد بدر إلى مدينة أخرى خفف من حدة هذه الجملة التي تلاشت برحيل بدر إلى الخارج لمواصلة الدراسة وانقطاع أخباره عن أسرته وبالتالي انقطاع الاتصال بين الأسرتين.

* * *

قررت عدم الاتصال به، ولكن صوته الذي يصلها كل مساء عبر الهاتف أخذ يغريها بتحديد موعد للقاء. لم تكن تبالي بأنها غدت في وضع آخر غير الذي كانت.

لم يكن بدر يملك عربة فأخذت تتجول معه في الطرقات يسرق الحديث وقتهما فلا يباليا به. وفجأة وجدت أنهما في مسكنه المهجور الملاصق لدار أسرتها وتذكرت لعبتهما المفضلة العريس والعروس. وتذكرت أنها هي العروس لكن العريس شخص آخر في مكان آخر يترقب عودتها فلم تكمل شرب عصير البرتقال ونهضت مستأذنة.

* * *

تزوج بدر من عبير الأخت الكبرى لسماهر والتي تعمل موظفة بإحدى الوظائف العامة. وأخذت بقعة الجدب تكبر ملتهمة مساحات أخرى من الوجود معلنة النكبة الشاملة إذ إن بدر وجد في سماهر فردوسه المفقود فاستغل زواجه لمواصلة البحث عن أبواب يعود منها إلى كيانها كوجود مزهر، غير أنها لاحظت ذلك فأخذت تعيش هواجسها الأمر الذي أثر على صحتها وعلاقتها بالآخرين.

: لقد كنت تتحدثين عنه.

: من؟

: بدر.

: متى؟

: البارحة كنت تترجيه أن يبتعد.

كان حلماً لا تدري ماذا دار فيه. إنما كيف انطلقت كوامن نفسها ولمحت في عينيه حديثاً آخر. إذ أخذ أحمد يذكرها بالحلم ويطالبها بالإفصاح عما في داخلها وشعرت بأن الشك تسرب إلى أعماقه فأخذت يحاصرها بمراقبته الأمر الذي دفعها إلى العودة إلى واقعها الذي كانت تعيشه قبل أن تتزوجه مستخلصة منها الصور التي عاشتها من خلال أحمد فإذا بها تتردى في مهاوي الجدب.

: إنني أبحث عن ذاتي.

: وهل وجدتها في ..!

: قد يكون ذلك.

كانت مرحلة جديدة. وجدته يقف أمام عربته في باحة المستشفى العام. أخذ يتابع خطاها وهي تدخل ثم لحق بها وهي تقوم بأخذ بطاقة مراجعة من مكتب الاستعلامات. وانتظرها حتى خرجت من عيادة الطبيب ونهض عندما لمحها تتجه نحو بوابة المستشفى. كانت تتابع حركاته منذ البداية فلم تنفعل أو تثور.

بعد أن قررت رفض ذاتها فإذا بها تعود إلى مرحلة الطفولة التي تبحث فيها من خلال أي طفل في الشارع عن عريس لتكون هي العروس...

انثيال حلم شاهق

استقر رأيه أخيراً على تنفيذ ما جاء في أمر النقل. إنها محاولة أخرى لمعرفة الجديد؛ لذا ارتدى (البالطو) الملقى على مقعده وأحسن قفل إدراج المكتب وغادر الدائرة.

اتجه إلى عربته القابعة في ساحة الدائرة حيث يحرص على إدخالها يومياً رغم احتجاج البواب والمسئولين لحاجة في أعماقه. لم يصل إلى تصور كامل لها رغم انتمائه الوظيفي للدولة. وقبل أن يترجل آخر درجة في سلم الباب الخارجي للدائرة شنق الموقف نظراته فتسمر في مكانه.

العربة محشورة بين رتل العربات، والمنفذ الوحيد تقف فيه عربة صغيرة بشكل عشوائي.. وأكوام من أصحاب العربات يلتفون حولها. إنهم يريدون الهرب ولكن إلى أين؟ قد يكون هو الوحيد الذي قرر الهروب إلى مرحلة التلاشي إذ لم يكن هناك هدف من خروجه من المكتب سوى عدم وجود العمل في هذه اللحظات وفي الزمن المتبقي من وقت الدوام. إنما يجب عليه أن يقعي في مقعده يتأمل الوجوه في بلاهة متناهية محاولاً أن يستشف من الحديث الدائر وحركات المراجعين للموظفين الآخرين نقاطاً أزلية تتلاشى فيها مرحلة الزمن الضائع في مدينة حاول المستكشفون سبر أغوارها ورسمها فوق خريطة الوجود الذي كان هلامياً فكانت الأيام والشهور والأعوام تجتر حالها بصورة متكلسة تقول التداعي.

اقترب من العربة المحاصرة وتلفت حوله باحثاً عن مخرج لكن كل الحراب مصوبة نحو صدره وعليه أن يرفع يديه مستسلماً حتى لا تسقط قطرة دم تزرع القذارة في الساحة المزروعة.. عربات وأجسام بشرية تحاول إيجاد محكمة ومنصة شهود ومدعين عموميين للنطق بالحكم في غياب القاضي الذي فضل في مثل هذه الساعة أن يواصل نومه، فالقضية! مهما كانت، تحدد مصير أفراد. إنما ذلك لا يهم بالنسبة للحظة رقاد فالسجن مؤبد وقرار الحكم صريح يحرم الخروج من الغرفة التي سدت منافذها بالستائر الذهبية لتخلق مع الضوء الأخضر الخافت مرحلة حلم.

استطاع المكومون حول السيارة التي تقفل المدخل فتح أبوابها المغلقة، وتعاون الجميع في زحزحتها من مكانها إلى موقف شاذ في عرض الساحة لتعلن كشاهد إثبات عن موقع صاحبها.

يكفي هذا...؟

كانت كلمة موقف لردع أحدهم عن القيام بإفراغ دواليب العربة من الهواء. رمقه الجميع بنظرة فاحصة، وعندما لاحظ أن علامات الاستفهام المزروعة في عيون من حوله تحاول وصمه بالعمالة غادر مكانه في هدوء وهو يخرج من جيبه، في حركة مكشوفة، مفاتيح عربته ليعلن بها أنه أيضاً له بالداخل عربة وأنه مثلهم واقع في المشكلة.

الساعة تشير إلى العاشرة صباحاً.

خط السير كالتالي:

١ ـــ المرور من جانب البناية البيضاء الضخمة حيث تقف الآن تحتها مجموعة من نساء العالم يترقبن حافلة العمل.

٢ ـــ اجتياز الطريق العام الذي يقسم سوق المدينة إلى قسمين لمشاهدة ما تحفل به واجهات المحلات وقد تكون إحداهن أزاحت الخمار عن وجهها لتفحص سلعة تهم بشرائها وقد تكون ـــ بيان ـــ التي انسلت من حياته بعد لقاء دام عامين امتص فيها رحيق الحياة شهداً، بعد أن قرر الجميع قتله على ضوء اختفائه من مرحلة العدم (!).

٣ ـــ الوقوف أمام مبنى البريد للبحث في صندوقه الخاص عن رسالة قد تصل يوماً، رغم علمه أنه انقطع عن كتابة الرسائل منذ احترقت في داخله مرحلة البحث عن الذات فلم يعد أحد يهتم بأخباره.

٤ ـــ الدخول إلى مقهى للاستجمام وطلب (شيشة) وزجاجة من عصير الليمون. ثم تكون النهاية كالتالي وحسب حالته النفسية:

أ ـــ العودة للعمل.

ب ـــ العودة للدار.

* * *

ما زال في المرحلة الأولى وإشارة السير حمراء بينما نساء العالم في أزيائهن المختلفة مستكينات فوق رصيف العمارة في حديث لا يفهم منه شيء.

كانت إحداهن تتلصص تدعوه إلى الترجل من العربة ودعته إلى احتضانها، فافتر ثغره عن ابتسامة صغيرة كان لها أثرها في تحديد مسار الدعوة، وإذا بها تندفع نحوه.

مد يده نحو الباب الآخر للعربة لمساعدتها على فتحه رغم أن المسافة ما زالت شاسعة، واشتعل الضوء الأخضر وأزعجته العربات التي وراءه بمنبهاتها .. فأخذ يدفع العربة إلى الأمام في تثاقل باحثاً عن موقف ولكنها اختفت. فكان الإحباط المتناهي.

* * *

ولج المرحلة الثانية حيث يكون الزحام في ذروته في الشارع إنها هي! وصرخ: بيان.. بيان..

التفتت طفلة في الرابعة من عمرها نحوه ثم توقفت وشدت المرأة التي تمسك بها. بينما عسكري السير يتأمل رتل العربات داعياً في أدب جم الجميع إلى السير وعدم تعطيل حركة المرور.

: أهلاً بيان.

ردت الطفلة بسذاجة.

: أهلاً كيف الحال.

غادرت العربة مساحة المرحلة الثانية والسيدة لم تتفوه بكلمة.

: لماذا هذا الهروب يا بيان؟

ردت الطفلة..

: لم أهرب..

: بلى لم أشاهدك منذ ألف عام..

كان هذه المرة يحدث نفسه ويتأمل الطفلة التي ارتاحت في المقعد الخلفي من خلال المرآة المزروعة أمامه، ثم توجه بنظراته إلى السيدة التي أخذت تتحرر قليلاً من عباءتها وتصلح من جلستها في المقعد بعد أن كانت ملتصقة بالباب.

مد يده إلى اليد المزروعة على المقعد بالقرب منه وأخذ يصهرها ثم شدها نحوه، مانعت قليلاً ثم اقتربت. وأخذ يداعب أطراف كفها، بينما نظراتها التي لم يستطع تحديد لونها لكثافة الغطاء تتابع يده.

: لماذا لا تتكلمين؟؟

في هذه المرة لم ترد الطفلة التي تمددت في المقعد الخلفي وغفت، هنا شد الغطاء من على الوجه الذي أطل جميلاً إلى أبعد حدود الجمال وقد أغلقت مقلتيها في مرحلة احتجاج أخيرة.

صرخ فيها:

: من أنت..؟

: أم بيان..

: أم بيان.. ولكن أنا أبحث عن بيان ...!!

رمقت الصغيرة بنظرة سريعة.

: إنها هناك في المقعد الخلفي.

: من أنت..؟

: لقد قلت لك .. أم بيان.

الطريق المؤدي إلى المطار طويل، ومع ذلك لم يجد ما يقوله سوى الصمت، وكان اقترابها منه أخيراً بعد أن أصبحت العربة خارج المدينة يدفعه إلى زيادة السرعة، ويدها التي تعبث بشعر ذراعه تدعوه إلى الهرب.

: إلى أين..؟

: لا أدري..!

: ولكن علي أن أعود.

لم يقلق الطريق الترابي (الجانبي) الصغيرة التي رفعت رأسها في حركة احتجاج على اهتزاز السيارة ثم عادت لمواصلة نومها. وتذكر أن زوجته هناك تنظر عودته الساعة الثانية من كل يوم.

* * *

ترجل الاثنان من العربة. ألقت بعباءتها وغطاء رأسها على المقعد ثم أخذت تركض فوق التراب حافية محاولة دفعه إلى اللحاق بها والتعلق بالأشجار التي تملأ المكان. شعر بالارتياح فأخذ يجري خلفها محاولاً الإمساك بها.

: الساعة الثانية.

صفعته بذلك واتجهت إلى العربة بينما رفض النهوض من مكانه وأخذ يتأملها وقد رفعت فستانها عن ساقيها في محاولة أخيرة لتلافي الأشواك المنتشرة على الرمل.

ونهض من مكانه بعد أن أعياه التفكير في تكوين صورة لها ولحق بها ثم طوقها بيديه من الخلف واتكأ عليها فأطلقت فستانها وأخذت تقاومه..

* * *

تخيل أنه عجوز يتكئ على آخر لإيصاله إلى المرحاض. وضحك من هذه الفكرة فالتفتت نحوه مستغربة ضحكة ولم تجد بداً من مشاركته وهو يصر على الالتصاق بها حتى وصلا العربة، حيث كانت بيان تجلس في المقعد الأمام تعبث بعجلة القيادة والتي ما أن شاهدتهما حتى ترجلت من العربة واندفعت إلى والدتها التي احتضنتها.

* * *

الساعة الثانية والنصف بعد الظهر..

كان يدخل المفتاح في قفل الباب الخارجي للدار الذي ران عليه الهدوء وتعلق في عنقه ابنه الذي انحنى لتقبيله في مهده.. فأخذ يداعبه بينما أخذت زوجته تمد سفرة الغداء دون أن تتفوه بكلمة..

علبة العلكة

ارتقت أحلامه سلم عدم المبالاة للوصول إلى سراديب العدم حتى تتمكن من حصر الرؤيا المبنية على ملاحظات زمن غابر استقر في قعر التاريخ لتحديد سمة الحالة التي عاشها منذ آلاف السنين. إذ علم رغم سنيه العشر أنهم يبحثون عنه. منذ أن تم تسجيل اسمه في سجل المواليد في دائرة الصحة التي بدورها قامت بإبلاغ وزارة الداخلية والسفارات في جميع أنحاء العالم بالوافد الجديد، الذي ظل يصرخ وحيدا منذ مشاهدته للضوء باحثاً في كواليس الزمن عن مكان يعود للاختباء فيه.

انطلقت صفارات الإنذار معلنا عن اقتحام طائرات العدو لأجواء بيروت الحالمة ذات الأشلاء المتناثرة من جراء اغتصاب مستمر من جهات مشبوهة لجسدها. المعلول الذي أنهكه إصرار القادم الجديد على أن يكون غذاؤه من ثديها فامتص مع الحليب الشرايين. والأوردة.

انطلق يعدو..! .

وعلبه ــ العلكة ــ التي قام بشرائها مؤخراً لم تزل ممتلئة.. إذ لم يهتم أحد بصراخه في الشوارع معلناً عنها. إنهم فقط يقرؤون الصحف إذ لم يعد لديهم وقت لمضغ العلكة.

انطلق يعدو..!

وحبات العلكة تتناثر فوق الرصيف وأزيز الطائرات المغيرة يقترب بينما قذائف المدفعية المضادة تضيء الأجواء تشتعل حبات العلكة اللامعة كالثريات فوق الرصيف الذي أصبح الآن مهجوراً.

تلفت حوله..!

يبحث عن كلمة مواساة في عين حانية.. وإذا بالخوف المطل في الأهداب المقرورة يصفعه بقسوة ليعلن استسلامه لليأس..

إنهم يقتلونه..

تخلى عنه الجميع في ليلة مشابهة. انهالت فيها القذائف من كل صوب وأخذت الطائرات المغيرة تشعل ليل الشتاء القارص.. ثريات.. ونواح.. وأخذ يتذكر نتفاً من أيام عاشها تسلقت زمنه المجدب.. لقد وجد نفسه وحيداً بين مجموعة من الصبية الذين فقدوا المقدرة على النطق.. كان الوحيد الذي يتكلم .. يصرخ في الوجوه بقسوة.

أخذ يتلفت حوله وانفلت خارجاً من المخبأ بعد أن لمح الخوف يقف في وسط المجموعة المتكومة بشكل غريب في ركن قصي من المخبأ.

وقف وحيداً في ركن منزوٍ وصل إليه من خلال محاولة الجميع الوصول إلى أقصى مكان في المخبأ.. بعيداً عن المدخل خوفاً من الشظايا.

كان عدم مبالاة الجميع به دافعاً لمواصلة السير بهدوء إلى المنفذ حيث يطل بصيص من الضوء

أخذ من خلاله يتفقد علبة العلكة حاسباً الحبات الباقية ومقدار خسارته. فوجدها أقل من النقود التي دفعها ثمناً للعلبة.. أدخل يديه في جيوبه فإذا بها فارغة.. شعر بالفراغ من جراء ذلك.. تجمد فيه كل شيء. تبلد الإحساس في جسمه فلم يعد يشعر بقدميه اللتين أخذتا تسحبانه إلى المنفذ.. وقد التصقت بظهره عيون الجميع.. أخذت تتابعه بصمت حتى خرج من الملجأ انتصب فوق الرصيف وأخذ يلتقط حبات العلكة المتناثرة بهدوء بعد أن كف عن البكاء لقد كان الصمت المطبق حوله وخلو الشارع من المارة فرحاً جديداً تولد في أعماقه دفعه إلى العدو مرحاً وهو يلتقط حبات العلكة من فوق الرصيف. كان فرحه بأن الأيدي لم تمتد لها فوق الخوف.. والغضب المتناثر حوله. من خلال مواصلة الطائرات المغيرة تحديها للمدفعية المضادة واقتحامها أسوار المدينة لخطف الحياة من فوق جباه غير مبالية بوجود إنسان.

انطلق سهم ناري، تجاوزه وهو منحن لأخذ حبة أخرى من فوق الرصيف. وأخذ يعد الحبات. إنها المرة العشرون التي يحاول حصر ما استطاع جمعه. لقد تمكن من تجاوز رأس المال الذي دفعه. وقرر العودة إلى المخبأ..

عاودته الرغبة في البكاء من جديد. وهنا شعر بالخوف عندما وجد الشارع مهجوراً.

وعويل القنابل من حوله يسرق الليل صمته. فأخذ يعدو نحو الملجأ وإذا بسهم ناري آخر يخترق صدره. أخذ الدم ينبثق من جسمه. وتهاوى فوق الرصيف.. لكن هذه المرة كان قد خبأ علبة العلكة في صدره تحت القميص . خوفاً من تناثرها مجدداً حتى لا يفقد رأس المال فيعود للاستجداء من جديد.

جراح ليلة فرح

أخذ يبحث عنها على الشاطئ متذكراً مواقف كانت مترسبة في أعماقه منذ ثلاثين عاماً.

كان في السادسة من عمره يلعب (البرجوه) و(الكبوش) و(الليري) لم يصل بعد لمرحلة لعب (الكرة) مع أبناء الحارة في (الزقاق) الرملي حيث كانت الكرة في أغلب الأحيان تقع فوق سطوح المنازل الطينية ذات الدور الواحد أو الدورين فيسارع إلى تسلق أعمدة الكهرباء في غفلة عن عيون الرقيب.

* * *

(عائشة) تكبره بثلاثة أعوام تسابقه نحو البحر لمراهنته على الغطس والبحث عن قطعة النقود التي يقومان برميها في اليم. إن وجهها ينبثق من الماء كل مساء معلناً عن قدومها.

* * *

دار الحديث عن رجل قدم من الشمال يمت لهم بصلة قرابة بعيدة يرغب في الزواج. عرف ذلك من خلال الأحاديث المبهمة التي استمع لها أثناء جلوسه في مجلس الضيوف بين يدي والده بعد صلاة المغرب و لم يثره كثرة اهتزاز رأس والده الذي كان يعني الموافقة على كل كلمة تقال. وفجأة إذ بالدار تعيش حركة جديدة والنواح يملأ المكان..

كانت تبكي.. لا يدري لماذا.

إنما كان يتسلل كل مساء إلى الغرفة التي قامت والدته بإغلاقها عن العيون لينام فوق الحاجيات التي يتم جلبها من السوق.

النواح شديد، رغم محاولة كتمه، وصوت جلبة حيث انزوى. ففرك عينيه بقسوة. كانت تقاوم وتلفت حوله. تذكر أنه في الدار فشل الموقف صوته.

شعر أنه بحاجة إلى البكاء. فأخذت دموعه تنداح فوق وجنتيه بصمت..

مر الوقت بطيئاً لا يدري مقداره أو ماهيته وانتصب شبح وتحرك نحو الباب. رفع رأسه في ظلام الغرفة الذي تسرب إليه شعاع النور من الباب الموارب.

* * *

منذ ثلاثين عاماً.. وهاهو يعود بعد غربة دامت عشرون سنة في دنيا بعيدة لا يدري كيف، إنما كانت هناك (سفينة) ترسو في الميناء احتوته في أحشائها ذات مساء بدعوى مرافقة والده في رحلة عمل ، تم عرضه فيها على مجموعة من الأطباء لفحص حالة الهستريا التي تنتابه أثناء النوم.. حيث ينهض مفزوعاً وقد جحظت عيناه وشلت أطرافه.

تغير كل شيء ما عدا تلك الحالة وإن أصبحت نادرة. حيث أخذته الحياة بمشاغلها فلم يعد

يطفو ما في الأعماق وإن كان في بعض الأمسيات يأتي إلى الشاطئ بعربته يناجي وجهها. فيأخذه لعب الأطفال وقهقهات مرتادي الشاطئ.

ــ إنني أخشى ذلك..

ــ إنني أحبك..

ــ سوف يرضى بالواقع.

ــ لا أستطيع.

ــ إنها فرصتنا الأخيرة .. حتى ندفعه إلى الموافقة.

استمع عنوة إلى الحديث. فأخذ يراقب الاثنين تابعهما بصمت حتى رجعا لعربتهما. ولحقهما بعربته أنهما يسابقان الزمن. واختفى الاثنان في الزحام.

جن جنونه وعاد إلى الشاطئ. فأخذ يركل الماء بقدميه في قسوة محاولاً إهالة التراب على الموج. كان وجهها هذه المرة يبكي ليس كعادته كل مساء يناجيه يحدثه. . إنما دموعها فوق وجنتيها وشعرها أشعث وأطرافها باردة. وتقدم من الموج. دخل البحر بملابسه بين ضحكات المرتادين وصراخ الأطفال الذين انتشلوه من الحالة التي يعيشها فعاد إلى العربة وتناول بعض الأقراص الطبية المهدئة وألقى برأسه فوق المقود وذهب في سبات عميق.

* * *

تكوم حوله إخوته وبعض العاملين في المؤسسة التجارية التي أسسها حال وصوله بالتعاون مع بعض أصحاب المصانع والمؤسسات المصدرة حيث كان يعالج من الصرع. فلم يهتم بقلقهم. وأخذ يستغرب خوفهم عليه.

* * *

أرسل باقة ورد مع بطاقة تشعرها بمعرفته أن زوجها مسافر. طفت صورة (عائشة) التي ماتت أثناء غيابه إلى السطح. وتذكر تلك الليلة وتذكر زوجها الذي لم يحاول أن يلتقي به منذ أن عاد. فأخذ يسأل عنه لمعرفة كل شيء عنه.

ــ هل وصلت البطاقة.

ــ أجل.

ــ أرجو أن.. أفوز برضاك.

لم ترد على رجائه واستمر الحديث طويلاً في أشياء مهمة منذ قرر شيئاً في أعماقه.

محاولة ناجحة. دفعته إلى الاستمرار في تنفيذها مع كل سيدة تربطها بزوج عائشة روابط أسرية أو اجتماعية.

وفي الموعد المحدد كان يقف بعربته في عرض الطريق. وإذا بها تسرع إليه غير مبالية بالعربات المارة. وإذا بإحداهن تداهمها فقفز فزعاً من مقعده وأخذ يعدو نحوها وشق لنفسه طريقاً بين المتجمعين حولها.

انحنى فوقها أخذ يتأمل وجهها الذي انزاح عنه الغطاء فمرر كفيه على وجنتيها. وتأمل شعرها المتشعث والدم ينبثق من أطرافها الباردة.

سحب عباءتها فوقها.. وأخذ يبكي عند قدميها.

السّاعة الحادية عشر

الأضواء تملأ المدينة. وأصوات العربات يزعج المارة. حتى الأطفال في أسرتهم يصلهم كل ما يدور في الخارج رغم النوافذ المغلقة. عليّ أن أسرع في الخطي فالساعة تشير إلى الحادية عشر ليلاً والطريق طويل. غريبا يتجول وحيداً. بعيداً عن غرفته التي يأوي إليها كل مساء في الساعة الثامنة تاركاً كل معاناته خلف الباب.

من أجل معاناة أخرى.

أخذت أحدث ظلي الذي يمشي معي مرة متقدماً وأخرى على جانبي الأيمن، ومرة خلفي وأحياناً على الجانب الأيسر. كنت أتلفت باحثاً عنه عندما أنسى في أي جانب يسير. وأضحك من الخواطر التي أخذت تنثال معلنة عن نفسها لمعرفة سبب هذا الاغتراب الذي لا داعي له في ظل الحياة التي أعيشها والتي تعني الاستكانة إلى حد التخاذل.

كانت (بنان) ــ صورة باهتة عن المرأة التي أبحث عنها.. وقفت ذات يوم في الطريق الذي أجتازه يومياً إلى مقر العمل لمشاركتي الطريق. كانت غير مبالية بما يقال.

ــ لماذا لا تشرب عندي فنجان قهوة.

ــ ليس لدي مانع.

ــ إذاً لن تتأخر.

ترددت كثيراً ومع ذلك شربت فنجان القهوة ليكون مرحلة جديدة أخذت تسم أيامي القادمة.

تطلعت في ساعتي. مازالت كما هي الحادية عشرة والأضواء تؤكد أن الطريق طويل. وسيارات الأجرة.. والخاصة.. وحافلات النقل تجتازني غير مبالية بالرجل الوحيد الذي أخذت الرياح تعبث بغترته وثوبه. مفضلاً السير فوق الأرصفة متلفتاً حوله لعله يجد في الوجوه الراكبة وجهاً يعرفه.. وقد تخيل الجميع يعرفونه لكن أحداً منهم لم يحاول.. إجلالاً وتقديراً، تعكير لحظات زاهد يتبتل في محراب المشي على قدميه.

هكذا توهمت، فبحت بذلك لظلي الذي كان في هذه اللحظات يسير معي من الجانب الأيسر. انحرفت يميناً وتوقفت قليلاً قبل أن ألج أحد الشوارع التي توصلني إلى مقصدي.

وشدني طفل في الرابعة من عمره أطل صارخاً في وجهي من نافذة سيارة تقف أمام أحد المتاجر.

ــ أين أبي..؟

ــ ....

ــ أين اختفى ؟

لم أبال بذلك.. وإن تذكرت بكاء طفلة أحد الأصدقاء كانت معنا في عربته، ثم نزلنا لمشاهدة

إحدى الدور المعروضة للإيجار، فلم نبال بها. وبعد غياب ساعة تقريباً وجدناها خائفة تدفن نفسها تحت المقعد الأمام وهي تبكي بدموع غزيرة أثارت حزني .

كان علي أن أبحث عن مقهى لشرب فنجان من الشاي وطلب ـــ شيشة ـــ إذ قصرت الطريق وتطلعت في ساعتي: إنها الحادية عشرة. إنني أنثال من الداخل وبنان تعيش الآن بين يديه لقد حدثتني عبر الهاتف منذ ثلاثة أيام بتعرفها على شخص آخر تقدم لخطبتها وها هي اليوم تذكر لي اسماً جديداً.

ماذا تريد من كل هذا؟ هل تطلب مني العودة وطرد مرحلة الغضب. وأنا الذي هرب. وفضل هذه الحالة هارب من أشياء كانت أحدها.. أحضر نادل المقهى كأساً من الشاي أولاً ثم أحضر الشيشة ـــ وأخذت أتأمل سحن المرتادين وفي داخلي صوت ملعون يحاول شنق اللحظات التي أعيشها بتذكيري بوحدتي، من خلال المجموعات المتناثرة في المقهى.

تأملت ساعتي مجددة، وأنا أستعيد بقية الريالات العشرة من نادل المقهى. وأخذت أواصل طريقي بينما ظلي يسير أمامي حيث أن أضواء المقهى كانت من القوة بحيث تغلبت على أضواء أعمدة النور في الشارع وفجأة تلاشى ظلي. أخذت أبحث عنه لأواصل حديثي معه وظهر مرسوماً فوق الجدران التي أمر بها على يميني. الرصيف خال من المارة والسيارات مزروعة في كل مكان.

ـــ غسان.. غسان..

تلفت حولي أبحث عن مصدر الصوت الذي أخذ يتكرر .

وتذكرت أنه اسمي فتوقفت عن السير وأنا أبحث عن مصدر الصوت كانت تضحك داخل عربة صغيرة.

ـــ إلى أين؟

ـــ لا أدري..

ـــ منذ متى وأنت تسير..!

ـــ لا أدري .. آه تذكرت منذ ثلاث ساعات.

وتطلعت في ساعتي.

ـــ شكراً.

وهممت بمواصلة السير فقفزت من مكانها من العربة ولحقت بي وأمسكت بيدي وأخذت تدفعني إلى العربة التي لم يكن بها سواها. وأجلستني في المقعد الذي تجلس فيه ثم أغلقت الباب ووقفت فوق الرصيف وقد انحنت حتى تستطيع تأملي وهي تحدثني وارتسمت الحيرة أمام ناظري وأنا أبحث عن اسمها وهي تعرف كل شيء. ثم تركتني ودخلت البقالة التي تقف أمامها العربة.

ـــ من أنت؟

صوت أجش يسألني عن اسمي وسبب جلوسي في العربة. أخذني الموقف ولكني شعرت بقـوة تأخذني إلى أعلى ثم انفتح باب العربة.. ولفظتني إلى الرصيف ثم انطلقت بسرعة. الباب مغلـق ولافتـة صغيرة معلقة وراء الباب الزجاجي تنبئ بأن المحل مغلق. تطلعت في ساعتي.. وواصلت السير إلى المكـان الذي آوى إليه. لم يبق سوى خطوات.

ها هو كشك هاتف العملة المنصوب أمام باب البناية يعلن عن النهاية وزحف السيارات المـارة يقلص خواطري والهواء ما زال يعبث بغترتي لكن كل الخطوات توقفت وأنا ألمح باب البناية التي أقيم في إحدى غرفها مغلقاً. تأملت الساعة وإذا بها ما زالت الحادية عشرة. ماذا يعني هذا؟ أين ذهب البـواب؟ وأخذت أتلفت حولي.

ــ لماذا الباب مغلق؟

سؤال وجهته إلى شخص أطل من إحدى النوافذ. لا أدري هل أحس بحرجي فأطل أم أنه كان يتأملني منذ قدمت من آخر الشارع؟

ــ إنها الواحدة بعد منتصف الليل.

تأملت الساعة طويلاً فإذا بعقارب بها واقفة.. لم تتحرك منذ تأملتها أول مرة وعدت القهقـرى. ولكن إلى عربتي التي تقف أمام البناية. لأتمدد فوق مقاعدها حتى الصباح.

السُّلَّم

الهاجس تضخم.. أصبح عملاقاً ظلاله فوق كل شيء ومع ذلك لم يتم سحق الحزن المتمركـز في أعماقه منذ آلاف السنين.. أخذ يلتهم الكتب التي اقتناها مؤخراً، في ظرف ساعة ونـصف التـهم مجموعة قصص ومجموعتين من الشعر ذات الحجم الصغير، وثلاث قصص من مجموعة أخرى.

أدار مؤشر المذياع باحثاً عن صوت يعرفه يأنس به في وحدته ومع ذلك كان القرف من كـل ما في المذياع من أصوات يدعوه إلى الهرب إلى النوم.. أو إلى (بلكونة) الغرفة التي يسكنها وحيـداً مـع لحظة الهروب التي قررها.

ــ أخشى أن يكون سفرك هرباً!.

ــ أبداً..؟

ــ إذاً اكتب لي رسالة تشرح فيها حالك..

ــ لا أستطيع ..!

في الأسبوع الأول من رحيله، قرر أن يبتعد، ومع ذلك ما أن وصل (جدة) حـتى أسـرع إلى صندوق هاتف العملة. وأخبرها بأنه تجول في المدينة حتى الساعة الثامنة عشرون يبحث عنها. وأخـذت تضحك، كانت جذلى باتصاله. وكان ــ هو ــ أيضاً مسروراً بذلك. عرف ــ أنـه ــ لا يـستطيع

مغادرتها رغم كل الموانع...

تذكر البدايات..

وتذكر اللحظات التي كان يستسلم فيها للهاتف يصله صوتها الشاكي من قسوة الحياة. كانت تبكي لبكائه. وتحاول أن تساعده في اجتياز الصعاب. كما كان يواسيها في شكواها يتمنى لها النجاح في حياتها وأن تعتبره صديقاً محباً يساعدها في الوصول إلى الهدف الذي تصبو إليه وتبحث عنه.

تذكر كل هذا ..

وحاول أن يقول شيئاً. ولكن مرحلة القلق والترقب المترسبان في أعماقه يشلان كل صور الحياة..

نهض من مكانه في ركن الغرفة وألقى بالمجموعة القصصية التي بين يديه جانباً واتجه إلى (بلكونة) الغرفة.

قد تكون المرة الألف..

ولكن في هذه اللحظة تأمل الفضاء من الدور الخامس، وقد شع الشارع بالأضواء وامتد على مد النظر خط طويل من الأضواء الصفراء أطول من المتوقع. كما تناثرت كاشفات ذات أضواء باهرة في أماكن متفرقة من المدينة. بينما أبواق العربات المارة من تحت العمارة التي يطل من ـ بلكونتها ـ على امتداد الشارع تحاول لفت نظره إلى ما تحمل من جنسيات مختلفة وأفكار وحشية وحكايات قد تكون مضيئة وقد تكون منغلقة مثل الحالة التي يعيشها هذه اللحظات.

استرعى انتباهه وقوف عربة أحد أصدقائه أمام باب العمارة المجاورة لسكناه. وتخيله دخل عليه من باب الغرفة الموارب. ثم دفعه من فوق سياج ـ البلكونة ـ وأخذ يتخيل جسده في الهواء في طريقه إلى الارتطام بالإسفلت. هل في إمكانه أن يكور جسمه كالبهلوان ويخفف من واقع الارتطام ويستمر في الحياة. أم لا يتمكن من ذلك وتكون النهاية؟ وهنا أخذ يترصد الباب خشية أن يتمكن صديقه منه وينفذ ما جاشت به أفكار.

ـ إبراهيم.. إني أبحث عنك منذ أسابيع ثلاثة..!

وكذب .. ادعى ـ أنه ـ اتصل أكثر من مرة كان الهاتف فيها مشغولاً ثم اتصل بشقيقة أحمد وطلب منها أن تخبرها بذلك وحدد أكثر من موعد لمعاودة الاتصال لكنه يجد الهاتف مشغولاً.

ـ لقد أخبرتني بذلك وحضرت ..!

ـ لكن لم أتمكن من الاتصال.

وهنا وهو يستعيد بعض ما مر به من أحداث مع ـ إيمان ـ إذا بصديقه يخرج من باب العمارة المجاورة وقبل أن يفتح باب العربة خرجت إيمان من العمارة ووقفت أمام باب العربة الآخر.

كانت هي، لا يدري ماذا أتى بها إلى جدة ــ وهي التي اعتذرت عن مشاركته غربته. ارتدى ثوبه فوق سروال البيجاما وأسرع إلى مصعد العمارة وما أن خرج من الباب الخارجي حتى غادرت العربة مكانها إنما استطاع التأكد من شخصية الاثنين.

ــ آلو .. آلو .

ــ نعم ...

ــ إبراهيم.

ــ أهلاً منذ زمن لم تتصل..؟

كانت المجيبة على الهاتف ــ إيمان ــ وتذكر أنه يشعر برابط قوي يشده إليها. ولكن كيف يستطيع العيش لها وهو لا يستطيع تحديد خطواته، رغم استعدادها للتضحية بكل شيء من أجله. وتذكر من خلال انثيال الأفكار أنه ترك غرفته مفتوحة .. والمذياع مفتوحاً .. فأهمل المصعد وأخذ يعد درجات السلم الذي تطاول إلى عنان السماء في محاولة للعودة إلى غرفته.

رباط لا يعني شيئاً

انتظر كثيراً هذه المحصلة التي وصل إليها. كانت كل المواقف التي عاشها صوراً باهتة تلاشت معالمها في الزحام بحيث غدت عند تذكره لها سقماً جعله يهتز من أخمص قدميه حتى مفرق رأسه.

كرر النظر في المرآة وهو يستعد لحلق ذقنه بعد ثلاثة أيام من الترقب المجحف.

[١]

أربعون عاماً من الأوهام والخيالات المشنوقة فوق صليب الوطن الذي هام حباً بـه. محـصلتها شعرات من الشيب.

[٢]

أربعون عاماً عاشها غير مبالٍ، في حركة وجود فوضوية كان فيها في معظم الحالات في جانب السالب. فرحه نادر وإحساسه بالحياة موءود. يعيش الضياع في أبشع صوره.

راسماً في مخيلته صوراً أسطورية لحياة ما قبل التاريخ مع شخوص وهمية أحياناً يخالطها الجن والعفاريت التي كثيراً ما يلتقي بها في زوايا المدينة. وفي المقاهي التي يرتادها. أثناء لحظة هروب من القرف الذي كانه الجميع.

[٣]

أربعون عاماً محصلته منها هذا الشيب الذي غزا رأسه وأقوال غريبة ما زالت تشاركه أيامه هي وهم كبير. باحت به شفاه عجائز المدينة.

ــ والدك رجل شجاع.

ــ ....

ــ يتخيل لي أنك لا تعرفه... لقد توفي وأنت في الثانية.

ــ أجل ..!

ــ لك ثلاث أخوة..؟

ــ نعم ..!

ــ هل ما زالت المزرعة كما كانت ..؟

كانت الأقاويل وهذا الشيب الذي يطل بعنف من خلال المرآة هي باقي أيامه القادمة. والتي قرر الآن أن يتعامل معها من خلال الشيب.

[٤]

أربعون عاماً عجافاً. من غير امرأة تشاركه فراشه أو طفل يزعج وحدته. كانت الفرصة متاحة ذات يوم. أما الآن فقد غدا كل شيء هباءً.

استلقى في فراشه. وأخذ يعد على أصابع يده الأيام الباقية من الشهر.

كانت الإجازة طويلة ثلاثة أشهر. عندما واجهته أول مشكلة حقيقية لم يستطع من خلال الحوار الدائر أن يدافع عن نفسه.

ـــ لقد كنت عندها تلك الليلة..

ـــ أي ليلة..

ـــ الليلة التي توفي فيها زوجها على سلم الدار.

لقد كان زوجها مسافراً في مهمة عمل. وفي الصباح وجده الجميع مستلقياً أمام باب العمارة وقد تصلبت أطرافه. مات بالسكتة القلبية.

[٥]

غادر الإدارة في إجازة لمدة ثلاثة أشهر. وها هو يعد الأيام الباقية من الإجازة. والتي اختفى فيها عن عيون الجميع. إنهم يقتلونه بأسئلتهم. عن لحظة هروب شارك فيها امرأة موبوء فراشها.

[٦]

أربعون عاماً.. فحص شعراته البيضاء وهو يتأمل المرآة ثم أخذ يفرز الشعرات واحدة واحدة. وأمسك بشعرة اجتثها من مكانها وعندما قربها من ناظريه. كانت شعره سوداء.

أخذ يضحك ثم غادر مكانه.. واتجه إلى الباب الخارجي .

قالت إنها قادمة

[١]

كان القدوم متأخراً جداً، لذلك زرعت الحالة في مقلتيه دمعة كبيرة انساحت فوق وجنتيه .

لم يحاول مسحها ولم يهتم بالاندهاش الذي أنزرع في عيون من حوله إنها قادمة. قالت ذلك منذ ثلاثة أيام فقط. فرح كثيراً. لم يكن يتوقع أنه سوف يرفض كل أيامه الراحلة والتي لا يتذكر منها سوى أن العام ثلاثمائة واثنين وخمسين يوماً. وإن العام أيضاً اثنا عشر شهراً والشهر ثلاثون يوماً، والأسبوع سبعة أيام ثابتة ثبات الانسحاق المزروع في أعماقه منذ أول يوم أطل فيه على هذا العالم.

[٢]

قالت إنها قادمة. قالت ذلك منذ ثلاثة أيام فقط. أجل ثلاثة أيام ولكن هل حقاً هي قادمة. ماذا تريد منه أنه شيء بال، انتهى منذ خمسين عاماً. وسوف تتراكم أعوام الانتهاء. حتى تصل النهاية الأخيرة..

تلفت حوله.. تذكر صباه. طفولته البائسة، وطريق المدرسة الرملي وقدمه الحافية.. ثيابه المهلهلة.. زوج أمه الذي لا يعرف شيئاً سوى أهل زوجته السابقة ومقدار اعتزازهم باحترامه لهم، حتى لو كان ذلك ضياع زوجته الثانية وأبناؤها من زوجها الأول.

[٣]

احترقت المراحل في داخله. إنها ثلاثة أيام وهي في طريق الآتي. دقت الأبواب.. فانساحت جميع الأقفال . ومع ذلك أجهش بالبكاء لا يدري ماذا يقول..

(إنني أقف وحيدة. لا أحد يهتم بي. أبي أيضاً لا يعي أن لي دوراً وأنني كيان من لحم ودم، لي مشاعري.. وأحاسيسي. لي مقدرتي في أن أقول لا.. بكل ما في أعماقي من مقدرة).

وتذكر أنه لم يقل في حياته — لا — كان عليه أن يذهب إلى المدرسة حافي القدمين.. أن يترك الدراسة.. أن ينتقل من مدرسة إلى أخرى .. أن يبحث لذاته عن وظيفة.. أن يتزوج .. أن يتناول عن كل شيء.. وذلك من خلال — نعم — التي انسحبت على أيامه منذ مليون عام. دون أن يعترضها مانع. حتى انهيال الصخور في طريق الأبدية كان يترقب مروره، ثم يغلق الدرب حتى لا يشاركه الآخرون خوفه.

(ذات يوم وجدت والدتي صورته معي. أقامت الدنيا ولم تقعدها. قررت إحراقي بمنعي من الذهاب إلى المدرسة. أغلقت جميع الأبواب في وجهي، حتى وأنا قادمة إليك كانت تأتي معي).

[٤]

كان الخوف.. مصلوباً فوق الأشجار التي أمر بها، ينذرني بأن التعب أخذ يسري في جسمي

كما تسري العثة في الثوب البالي. وأن عليّ أن أتوقف لأسترد أنفاسي. لكن صراخهم يصم أذني، يحرق توقفي، يحرق الأرض تحت قدمي لأحث السير..

(البارحة أخذت أقلب كتبي وأوراقي تذكرت أني كنت أكتب أشياء لنفسي وأخـــذت أقـــرأ. وشاهدتني والدتي أبكي وحيدة في فراشي. فأخذت تتأملني بحـــزن موقـــوف ثم ضـــمتني إلى صـــدرها وشاركتني البكاء).

أنا لم يشاركني أحد البكاء. تذكرت ذلك .. وصلتني برقية بأن إحدى أخواتي دهمتها ســـيارة وهي عائدة من المدرسة.

تركت عملي.. خرجت لا ألوي على شيء وإذا بي في موقف السيارات. لم تكن في عيني دمعة واحدة إنما قلبي كان يبكي، وركبت عربة أجرة متجهة إليك. كان بجواري شخصان في المقعد الخلفـــي أحدهما قدم من وراء البحار للعمل والثاني لزيارة أسرته.

كان الطريق طويلاً .. ونحن نجتازه اختفت الشمس، تسرب الظلام إلى العربة التي تسير وحيدة وإذا بيد الثاني تتسلل تبحث عن شيء لا أدري ما هو. لم أقل ـــ لا ـــ صمت.. قـــررت أن أتجـــاوز المحاولة.

(أخذت والدتي تهتم أخيراً بي. سمحت لي بالعودة إلى المدرسة ... ذهبت معي واعتذرت عـــن سبب غيابي. قررت أن تمد لي يد العون).

أصبحت تلك الرحلة شيئاً وهمياً لأنني كلما تذكرتها أشعر بالحزن والاشمئزاز في ذات الوقـــت. إذ إنه ما أن وصلت العربة حتى ترجلت منها هارباً.. وأخذت أبكي وأنا أبحث عنها بين المـــستقبلين .. كانت أجملهم.

وكانت أقرب الجميع إلى نفسي.. ولم يشاركني أي وجه من المستقبلين البكاء فقـــط كنـــت الوحيد الذي يبكي. حتى وأنا أستقبل رفاقي السابقين الذين علموا بمقدمي. وكانت السلوى الوحيـــدة أن أعود من حيث أتيت لأكون غريباً..

(تزوجت أختي. لم يبق غيري في الدار. سوف يزوجوني في يوم قادم).

[٥]

قالت إنها قادمة. قالت ذلك منذ ثلاثة أيام. وتذكر أنه لا يستطيع عمل شيء.

انتماء آخر لمرحلة متقدمة

[١]

توقف عن الغناء. تذكر أنه لم يعد وحيداً وأن الإشارة الحمراء أوقفت عدداً كبيراً من العربات وأن أصحابها قد يعتبرونه معتوهاً أو فاقداً للشعور.

تحول الضوء الأحمر في إشارة الطريق إلى الأخضر وحاول أن يكون انطلاقه هادئاً ذا ميزة خاصة، ولكن محاولته تعثرت عند أول محاولة لكثرة العربات والسابلة... فانصب تركيزه على أن يضايق عربة تجاوزته وكاد يرتطم بتا توقفت الآن أمامه..

عند إشارة طريق أخرى حمراء ..

قرر الترجل من العربة والتوجه إلى العربة الأخرى غير أن مرحلة التفكير لم تصل إلى أن يترجل من العربة ويتجه إلى هناك ثم يمسك بخناق الرجل.. وينهال عليه صفعاً ولكماً..

قد يتدخل رجل السير..

وقد يتدخل أهل الخير .. ويذكرونه أنه كان يغني بصوت عال عند إشارة السير السابقة.

وينقسم الحضور إلى جبهتين.. الأول تقول إنه فاقد الشعور.. والأخرى تقول إنه مجنون.. وفي النهاية تأخذه عربة الشرطة إلى المستشفى للتأكد من حالته..

وهنا سوف تتداعي الأحداث.. وقد تسير في غير صالحه بدعوى الصالح العام..

[٢]

انتظر أمام الباب كثيراً، ويده على مفتاح الجرس الذي أخذ يعلن عن قدومه.. لكن لا أحد يرد.. الأضواء مشتعلة بالداخل .. لكن الهدوء مسيطر على كل شيء..

كان منذ زمن انقضى يجد أطفاله ينتظرونه بشوق أمام الباب.. يترقبون عودته، وإذا سمعوا صوت منبه عربته يتسابقون إلى فتح الباب والتعلق برقبته ومطالبته بالمصروف.. وحمل ما بين يديه من أشياء. أما الآن فلم يعد هناك أحد ..

إنه يعلم أنه لا يوجد أحد ولكن إلى أين يذهب.. إنه يخشى فتح الباب والدخول إلى الدار الخالي..

لقد غادرها الجميع..

إلى غير رجعة..

إنهم يطالبونه بالعودة عن خطئه.

[٣]

حتى أنت يا والدتي تطردينني.. إنني ابنك البكر والقائم على شؤونك .. لماذا كل هذا؟.. لست أول من يتزوج امرأة أخرى على زوجته.. هل نسيت والدي؟. لقد غادرنا أطفال لا نعيي ما حولنا.. وهاجر دون أن يدرك مسؤولية وجود أطفال وعندما غدونا رجالاً عاد مع زوجة أخرى .. وأطفال آخرين هم أخواني الآن وأنا المسئول عن استمرار وجودهم حتى يعرفوا طريقهم..

لقد عرفت معنى وجود المرأة الثانية.. لذا كنت أتوقع ترحيبك وأنت تدركين مقدار معاناتي منها ..

وحرصي .. على استمرار حياتنا من أجل أطفالي، ولكن كان عليّ أن أهرب من الجحيم الذي أنا فيه..

[٤]

ساهرة.. لقد وجدت فيك كل الأشياء التي فقدتها .. إن سكن إخواني والدتهم بالقرب من داركم دليل على أن الحظ بدأ يبتسم لي.. ساهرة إنني أجد في هذه اللحظات التي أجدك فيها نعيم الدنيا.. والجنة الموعودة.. لن أفر منها كما فر آدم ..

فأنت .. من أختار وأنت من تختارين، وهنا لن يكون لاختيارنا خيار. إذ إنه الوجود.

ساهرة هل تتزوجينني..؟

أجل .. علينا أن نفكر..

وقرر أن يفكر، لكن أوصله تفكيره إلى تحطيم كل الأسوار التي تقف أمامه، ولم يجد غير ساهرة، ولكن ترددها وشعورها بالذنب يؤخر الرد..

وفي لحظة لقاء غرس أنيابه في كتفها وأخذ يمتص دمها وانهارت مقاومتها وغابت عن الوجود لا تدري ماذا حدث.. وعندما عادت إلى وعيها سمعتهم يقولون إنها أصبحت زوجته ولولاه لما تم إنقاذها من الموت .. فاستسلمت لواقعها الجديد رغم أنها كانت مخطوبة منذ الصغر لأحد أبناء عمومتها.

[٥]

عاد إلى عربته.. بعد أن تجاوز باب والدته الملاصق لسكنه وقبل أن يدير محرك العربة انحدرت فوق خده دمعة كبيرة شعر بحرارتها فوق وجنتيه..

سحب منديلاً من علبة المناديل ومسح الدمعة ثم رمى به من نافذة العربة وانطلق بعيداً. خارج المدينة.. الطريق طويلا يتلوى مثل ثعبان عمره أكثر من قرن.. وأطلت أضواء مقاهي ومطاعم على جانب الطريق.. أخذت الأضواء تقترب ومع ذلك تململ في مقعده.. إنه يتمنى الوصول .. إنها قريبة..

والإسفلت ما زال يتلوى .. يعلن عماً تبقى من مسافة..

طال الوقت واستغرق في سبات عميق .. وهو يغني .. إحدى أغانيه المفضلة لطلال مداح وقـــد تسرب إلى داخله شعور مفرح يعلن عن قدوم الفرج الآتي الذي افتقده منذ الطفولة.

الاختيار

انهالت الرؤى من كل ناحية معلنة عن ساعة الصفر التي جرى فيها إعدام تلك الحالة الميئوس من شفائها.

كان مجلس العائلة أشبه بلجنة من الأطباء المهرة إذ تم في جلسه واحدة تشخيص المرض وإصدار القرار. لم يكن هناك تحفظ من أحد. إذ إنه تم رفع أصابع الجميع معلنين الموافقة بشكل جماعي لم يسبق له مثيل.

وفي ثوانٍ..

فتح الباب. ودعوتها للدخول حتى تسمع الحكم الصادر بحقها. دخلت بخطوات ثابتة وفوق جبينها مسحة حزن طارئ قد يكون مصدره الموقف.. وقد يكون لشعور داخلي قرر أن يطفو على السطح.

ــ لقد قرر الجميع الرفض.

ــ لقد كنت تعلمين مسبقاً بذلك ومع ذلك جاوزت الأعراف.

ــ كيف؟

ــ لقد أعلنت الحب لشخص لا يستطيع أن يحدد أهدافه بالإضافة إلى أنه مجهول النسب.

ــ ولكن.

ــ الأمر لا يحتاج إلى مناقشة.

ــ ولكنه سوف يطالب بدمي الذي أهدرتموه..

ــ بصفته ماذا.؟

ــ بصفته زوجي ..

ران الذهول على المجلس. وانسلت بهدوء وغادرت الدار ثم اختفت من المدينة لا أحد يدري أين رحلت. بينما كانت تعيش سعادتها في كنف زوجها ومواصلتها لدراستها الجامعية حيث وجدت في الطريق المفروش بالسعادة من يدفعها إلى ذلك حتى تنسى همومها وما قاسته من أسرة والدها التي كفلتها بعد وفاة والدتها و لم يسأل عنها. كل ما تعرفه عنه هي صوره التي تصل من خارج الحدود والرسائل النقدية التي تصل باسمها كمصروف لمواجهة الحياة.

تخرجت من كلية الطب ووجدت أن رغبتها تتفق مع رغبة زوجها للعودة إلى مدينتهم القديمة.

وعملت بالمستشفى العام. لم يحاول أحد البحث عنها و لم تحاول الاتصال بأحد.

مرت الأيام غريبة غرابة الأحداث التي تلوثها. قدمت من خلالها البسمة الأولى (حنان) والبسمة الثانية (عاطف).

وهنا تذكرت والدها .. لم تتذكر .. أحداً غيره .

وبينما هي تتجول بين المريضات في الأقسام الداخلية برفقه أحد الأطباء، اختلست النظر إلى أوراق كانت بين يديه رمى بها جانباً وأخذ يشاركها في تشخيص مرض مريضه. عجوز أخذت تئن بشكل محزن. تسمر نظرها على الاسم أنه اسمها. وخطفت الأوراق الأمر الذي أثار انتباه زميلها وأخذ بشرح لها وهما في ممرات المستشفى حالة المريض وأصرت على مرافقته لمشاهدته وتذكرت الصور وإيصالات النقود المحولة..

وانداحت دمعة صغيرة فوق وخدها وهي تمد يدها لجس نبض المريض الذي ما أن فتح عينيه حتى همس بصمت..

ـ كيف حالك يا ابنتي.

وانكبت عليه تلثمه أمام المرضى غير عابئة بنظرات الجميع وهي تبكي بشكل لم يكن له مثيل في حياتها. وتذكرت مقعده الخالي في مجلس الأسرة منذ أن أدركت الحياة وشعرت أنه قدم متأخراً ولكن ليكون لحياتها معنى بوجوده.

احتضار زمن الوداعة

الزمن غير موجود إذ إنه تلاشى منذ وقت غير معروف. لا أحد يعي الحالة التي كانت عليها البلاد في ذلك الزمن المدفون تحت ركام وقت آسن أغر؟ أخذت الأحداث بـ — أذنه — إلى هاوي الندم .

عصام.. صورة زمنية لوحدات غير مترابطة وجد نفسه داخل اللهب لا يدري كيف وصل..

إذ إن كل ما يعلمه أنه استلم خطاباً بالبريد المضمون يدعوه للحضور..

الوقت بالنسبة له كان غريباً.

بحيث لا يميز بين صفارات الإنذار من غارات جوبه للعدو ومنبهات العربات.

أو صفارات حراس الليل في مدينته التي تقبع منذ بدء التاريخ على الطرف الشرقي من سلسلة جبال السروات.

عصام..

احتل مساحة كبيرة من قلبها الذي يحتله العديد من الرجال .. كلهم يخطب ودها..

يتقرب إليها . وكان عصام منهم.

غير أن نداء الوطن أضخم من جميع الاحتمالات.

ــ غداً أسافر.

ــ لماذا لا تبقى أسبوعاً آخر فقط؟

ــ لا أستطيع .. إنهم ينتظرونني .. على أحر من الجمر.

لم ينس أن يعطيها عنوانه.. وأن يتعهد بمراسلتها ولو من خلال التهنئة بالأعياد.

عيد ميلادها ..

عيد رأس السنة.

وبقية الأعياد.. التي تمر كل عام.. بدون كلل . كان وفياً.

* * *

تماضر.. احتل الفراغ مساحات قلبها .. فلم تعد تعي ما يدور حولها. أحست أنها مرتبطة بـه. وارتباطها هذا أفقد الأشياء طعمها ولونها فأخذت لهجة رسائلها تتغير .

غدت شعلة من العواطف تتحدث عن ثوب الذكريات .

أيام جامعة بيروت العربية .الشاطئ. .. الروشة .. الجبل.. أشيا كثيراً .

دفعته إلى تأجيل عقد قرانه بابنه عمه.. وإصراره على أن يكون الزواج بعد أن يتم تحقيق ولو جزء بسيط من أحلامه وطموحاته من خلال تكوين مكتبة التجاري الذي قام بافتتاحه حال عودته..

فيما تواصل خطيبته دراستها الجامعية .. ويكون الزفاف حال تخرجها من الجامعة وعندما يكون له اسم في السوق.

(احترق كل شيء.. لقد سلب مجموعة من المقاتلين مجهولين الهوية منزلنا..

كما احتلت إحدى المنظمات مكتب والدي في الحمراء لقد قررنا الهجرة إلى فرنسا).

جاءت رسالة أخرى.

(أبي أصيب برصاصة طائشة ..

نزحنا إلى بيروت الشرقية. هناك من يغلق الأبواب في وجوهنا..

الرصاص ينهمر من كل اتجاه. لم يعد لبيروت وجود).

لم تذكر الهجرة..

* * *

قرر السفر إلى دمشق .. من هناك يستطيع الوصول إلى تماضر ومعرفة ما تبقى منها...

الطريق البري المزفت طويل .. إنما ساعده على تكوين صورة كبيرة لها .. وإطار متكامل للحرب الدائرة بين الأحزاب والمنظمات ذات الهويات المتعددة.

لمعرفة أيسر السبل للوصول إليها..

سوف يتصل بها من دمشق ..

ويدعوها للحضور .. لن تتأخر يعرف أنها سوف تطير.. ولكن لماذا دمشق .. لماذا لا يذهب إلى بيروت؟ إنه يعرف المكان الذي تقيم فيه.

اجتاز الحدود بعربته.

وأمام أحد الحواجز اقتاده بعض الأفراد إلى غرفة صغيرة تم استجوابه فيها واستمر احتجازه ثلاثة أيام.

تم نقله بعدها في عربة أجرة تمت مصادرتها إلى موقع متقدم.. تعرضت العربة لوابل من الرصاص.

استطاع الهرب .. تاه في المروج .. أخذ يتجول على غير هدى.. كانت بيروت.. تحثه على الإسراع للوصول .. كل شيء غاب عن ذاكرته. كل ما يتذكره .. إنها دعوه للحضور ..

(جد مستغربة عدم حنينك للذكريات.

هناك هاجس يعيش في أعماقي يقول لي.. إني سوف أراك).

أخذ يردد هذا المقطع الذي ورد في أكثر من رسالة من رسائلها لكل عابر سبيل يلتقي به في الطريق لعله يرشده إلى هدفه..

ـــ أي طريق يا بني..

ـــ طريق تماضر ..

ـــ تسكن أي المدن.

ـــ لقد قالت إنها سوف تراني .. نعم إنها تنتظر مقدمي ..

ويهز عابر السبيل رأسه.. متأسفاً على الشباب الذي ضاع.. والعمر الذي انتهى في زمن الحرب.. ليكون شاهداً لزمن غير موجود.. زمن تم شنقه في وقت تلاشي في العدم.

عصام ما زال يتجول في المروج المحترقة.

السفارة السعودية تبحث عنه بعد أن أفادت سلطات الحدود بأنه اجتاز مركز الجمارك في طريق دمشق ـــ بيروت داخلاً الأراضي اللبنانية.

تماضر اختفت من منزل أقاربها .. ويقال إنها عادت إلى بيروت الغربية لتحمل بندقية.

تداعيات موقف احتضر

(مدخل)

الانتظار علامة مجهولة. ترسبت في أعماق الكائنات منذ الأزل. وقد حاول البعض خلق مبرر لـذلك الشيء غير الملموس الذي يشعل في الأعماق أتون القلق والضياع وحالة من الحـرد الـتي تـصل إلى أقـصى درجاتها الحرارية عند التقاء عقارب الساعة. معلنة أن الموعد أزف.

* * *

١ ــ إذا بكل شيء هباء.. وكل ما كان مجرد تهويمات شيطانية زرعها مجهول بقسوة فوق شباك ممزقـة ألقاها البحر ذات يوم على الشاطئ الحجري بعد أن التهم الصياد.

كان عليّ أن أنتظر.

أدري. إن ذلك معناه زيادة عدد شعرات الشيب في رأسي الذي أخذت السنون كل ما في داخلـه من حواصل لأصل في النهاية إلى مرحلة الصفر .

الصفر ..

الصفر من كل المحصلات التي يعيش لها كل فرد.

ابتهال. تركتني في عرض الطريق بعد أن كان موعدنا يعلن وصوله لتصفع كل من حولها.

: إنني لا أريده زوجاً.. إنه إنسان غير مبالٍ.. إنسان فقير.. وأخلاقه تجارية..؟

٢ ــ لا أدري من زرع ذلك في أفكارها.. وأنا الذي أصبحت غير مبالٍ حتى لا أصدق ما يقال عنـها مـن أصدقاء أسرتها.. وفقير.. لرفضي كل عروض الحياة من أجل البقاء إلى جوارها . وذو أخـلاق تجاريـة.. حتى لا تشعر بالإحباط، وهي ترى أشقاؤها يتناحرون في إثراء زوجاتهم.. في حـين تتجـرع غـصص الحسرة كلما نظرت إلى أسمالها.

٣ ــ كان عليّ أن انتحر..

قبل أن تلتقي عقارب الساعة على الموعد المحدد. وقبل أن تظهر في الروزنامة ورقة اليوم الموعود.

٤ ــ الانتحار هو المخرج الوحيد..

طلقت عملي .. هجرت أصدقائي .. رفضت ذلك الرجل العجوز الذي أحبني وشعر أنني ابن لـه وقد حرمته الأيام ذلك الابن فخطب ودي.

كما قرر إسعادي بتزويجي من إحدى كريماته..

ابتلعت الحبة الأولى من علبة الأسبرين.

ثم القرص الثاني .. كانت المرارة مكروهة. أما رسالة الوداع التي كتبتها بهـدوء .. فتقبـع تحـت المخدة..

وتوالى ابتلاعي للأقراص الثلاثين..

وقبعت العلبة فارغة بجوار فراشي٠٠

وتمددت ٠٠في هدوء٠٠

٥ ــ الساعة تشير إلى التاسعة مساءا وأنا وحيد في غرفتي التي خيم عليها ظلام دامس٠٠

٦ ــ تحسست للمرة العاشرة الورقة٠٠ الرسالة التي ترقد تحت المخدة٠٠ ولم أعد أدري ماذا حدث بعد ذلك٠٠

كان الضجيج حولي

وأشعة النور تتسرب من النافذة٠٠ وأصوات الحياة وعبث النهار٠٠

إنها أصوات معروفة٠٠ وحركة تقول إني أعرفها وكل شيء حولي يقول إنني ما زلت في غرفتي٠٠

رفعت بوجل يدي اليسرى وإذا بسير الساعة الأبيض الصقيل يلفح وجهي ببريقه٠٠ يعيدني للواقع الذي فررت منه٠

أنها العاشرة صباحا

يا لله٠٠

هل كنت في حلم٠٠ وأدخلت كفي تحت المخدة؛ وإذا بي أجد رسالة المساء الوداعية٠٠

قفزت من الفراش٠٠

كل شيء عادي٠

علبة الأسبرين الفارغة تنتصب فاغرة فاها فوق أرض الغرفة وشريط الأقراص الفارغ يمد لسانه بشكل عجيب٠٠ ارتديت ملابسي٠٠

٧ ــ اتجهت إلى مقر عملي٠٠

كلهم يحدق في بشكل مقلق٠٠ وألف سؤال حائر فوق العيون٠٠ يسير خادم المكتب أمامي ويفتح لي باب مكتبي، يقوم بمسح سطح الطاولة التي تراكم عليها التراب٠

ثم يفتح ستائر النافذة ويتجه إلى التقويم المعلق على الجدار٠

يقوم بنزع الأوراق ٠٠واحدة٠٠اثنتان٠٠ ثلاث٠٠٠عشر٠٠احدى عشر لم اهتم بذلك أول الآمر٠٠

ولكن كومة الأوراق التي بين يدي الفراش٠٠دفعتني إلى التطلع في عقارب ساعتي٠٠ أنها تقول العشرة والربع٠٠

والتاريخ يحمل رقما عشرة٠٠

ماذا يعني ذلك؛ انحنى الفراش قليلا يرتب الملفات القابعة على سطح المكتب، ثم ألقى بأوراق التقويم في سلة الزبالة المنتصبة بجواري وخرج..

٨ ــ تفحصت ورقة التقويم..

فإذا بها تقول اليوم الاثنين والتاريخ الرابع والعشرين من ربيع الأول..

ماذا يعني هذا..؟

نهضت من مقعدي، وانحنيت التقط أوراق التقويم من سلة المهملات وأخذت أرتبها فوق مكتبي..دخل الفراش بكوب الشاي كما هي عادته..وقبل أن يخرج دخل زملائي في العمل.

أخذ كل واحد يقول لي وهو يشد على كفي " الحمد لله على السلامة ".. فقط الحمد لله على السلامة، فاحترت بماذا أرد

و لم أحاول السؤال وقبل أن أغادر المكتب بساعة..

دخل الفراش مرة أخرى. وبين يديه دفتر تسليم الأوراق.

فتحه أمامي. ثم ألقاه بهدوء فوق المكتب. تطلعت فيه محاولاً معرفة الأمر.. فلم ينبس بكلمة. فأخذت أعدل من وضع الدفتر لمعرفة ما في داخله.

وإذا به صورة من مذكرة إحالتي للتحقيق. وموقعة من المدير العام للإحاطة بمراجعة الشؤون القانونية. استلمت الورقة ثم غادرت المكتب.

٩ ــ اتجهت إلى الدار. التي تقيم فيها والدتي مع زوجها. فإذا بها تستقبلني بالدموع.

وأمام صراخ الجميع إذا بابتهال تقترب مني. تمد يدها لي تقول لي وهي تشد على كفي (الحمد لله على السلامة) ثم تعود إلى الاختفاء.

وتأخذني والدتي وإخواني إلى غرفة أخرى. كلهم يقول الحمد لله على السلامة وأنا أتلفت كالأبله .

رن جرس الباب ..

فنهضت والدتي من مكانها.

ثم قالت لأحد أخوتي ..

هذا زوج ابتهال جاء لأخذها..؟

وخرجت .. وخرج أحد أخوتي.. وران الصمت على البقية.

١٠ ــ جلس في حضني طفل صغير لم يتجاوز الثانية لم أتذكر اسمه أخذ يعبث.. بمحتويات جيبي الأمامي.

أحرف من رصيد الذاكرة

الأقدام تزرع الطرقات حياة .. والأصوات تنسل هادئة معلنة عن ذاتها مع بداية يوم جديد. يخطر في ساعته الأولى التي لم يتداخل فيها الإحساس. فيكون الخليط المتباين الهادر في مرحلة جديدة لتكون علاقات تصل إلى مرحلة الانفجار في بعض الزوايا.

— ع —

أدار «معتمد» محرك عربته كما هي العادة. الطريق واحد أولاً «ضياء» ثم «جهاد» وأخيراً «شعاع» إلى مدارسهم وأخيراً يتجه إلى مقر عمله.. حيث يكون أول الموقعين في دفتر الدوام بعد فراش المكتب العم «عطية».

— أ —

منذ البارحة بعد أن قلب مجموعة من الصحف. وهو يفكر في كتابة شيء لا يدري ما هو.. إنما هناك دافع داخلي وهاجس غريب .. يطلب منه الإمساك بالقلم والكتابة. عليه أن يكتب .. إنما ماذا .. انثالت الكلمات ...

— س —

كان يا ما كان.. إنما ماذا «كان»؟ زرع نقطة وعلامة استفهام أمام هذه الـ(كان) وتذكر أنه عندما حاول تقديم المصروف اليومي لأبنائه الثلاثة كما هي العادة أكمل مصروف «شعاع» من قطع النقد الصغيرة التي يحتفظ بها عادة في طفاية السجائر بالعربة.

— خ —

كان هناك شاب في الثامنة عشر من عمره أسس مع رفاق له نادياً رياضياً في الجانب الشرقي من المدينة يضم نخبة جيدة من طلبة المدارس.. وماذا بعد ذلك؟ اختفت فائقة من الوجود. فانسحب من النادي وهاجر إلى الشمال يبحث عن عمل..

— ح —

لم يتألم أحد لفراقه.. بقدر ألمه الذاتي. كلهم فرح بسفره ومغادرته الدار.. لم يعد يعتبر بشيء في نظرهم.. عليه أن يسافر حتى يجد لحياته معنى..!

— م —

أخذ يتلفت حوله والعربة التي امتطاها مع مجموعة من الركاب المسافرين تغادر موقف البداية.. هناك من يلوح لهم بأيديهم مودعة.. أما هو فقد كان وحيداً.. وانتصبت يده اليسرى تلوح كالآخرين.

— م —

فائقة كانت تنظر مقدمه.. أوهم نفسه بذلك لقد هاجرت منذ ثلاث سنوات إلى الشمال. لا

يدري لماذا. وإن كان يظن أنها فعلت ذلك من أجل البحث عن عمل. كمـــا يفعـــل الآن وارتـــسمت ابتسامة صغيرة على شفتيه.

— ع —

معتمد لم يجد العمل المناسب في الشمال فعاد إلى مدينته الرابضة فوق قمم جبال الـــسروات.. وعاد إلى الحديث مع رفاق الدرب ممن رفض مغادرة المدينة.

— م —

كون (معتمد) مع وافد مؤسسة للمقاولات بدون رأس مال أو عقد شراكة كل مـــا عليـــه أن يستلم (البضاعة) التي يأتي بها شريكه من الشام .. واليونان.. وتركيا بشاحنته.. ويأخذ ربـــع الـــثمن .. وتزوج شقيقة شريكه لتكون روابط المؤسسة قوية..

— ع —

أخذت الأيام ترسم خطوطاً جديدة في طريق حياته بمقدم «فائقة» من غربتها. لتسكن وحيـــدة في دار أسرتها المطلة على الجانب الشرقي من المدينة. كان اللقاء صدفة. أخذ يلاحقها وهو يـــشكك في هويتها. وصرخت.

ـــ معتمد...

ـــ فائقة..

وأخذت الذكريات تنهل معلنة عن أصالة المواقف السابقة.

— م —

أخذ يراجع حساباته. يعلق ما لا يريد فوق مشجب الحياة لإيجاد منفذ يلج منه إلى رغبته الـــتي أخذت تقلق من حوله من خلال مواقف لم تكن..!

— ع —

بدأ يطالب بنصف الثمن. ويشاكس رفيقه في المؤسسة مدعياً أن الحكومة تحارب مثـــل هـــذه المؤسسات. وأنه مهدد بالسجن لو وشى به أحدهم..

— م —

نفذت جميع رغباته. غدت المؤسسة باسمه وشريكه السابق أصبح عميلاً يورد له طلباته...!

— ع —

بابا.. الساعة السابعة والربع صباحاً. لقد أزف موعد المدرسة. تململ في فراشه قليلاً ثم «فرك» عينيه بيديه كان الثلاثة يقفون في الممر المؤدي إلى الباب الخارجي. وزوجته في المطبخ تعد كوب الحليب الصباحي.

— ع —

بعد أن ترجلت «شعاع» من العربة وانتظرها حتى ولجت باب المدرسة تذكر أنه كان يعـــيش حلماً لا يدري كيف كانت أحداثه.. فأخذ يفكر محاولاً ربط الأشياء المتناثرة في أعماق لعله يـــصل إلى شيء. وأخذ يردد كلمات أغنية لطلال مداح انبثقت من المذياع دخلت فجأة لتقطع محاولته في الوصول إلى نتيجة.

لعبة الأيام

المناخ:

في الثلاثين من العمر يعيش حياة هادئة بعيدة عن المشاكل. أمام عينيه مقوله في إطار مذهب تقول (مهما ركض الإنسان وراء الحياة فلن يلحق بها)..

الحدث:

عدم مبالاته.. دفن أحلامه في أعماقه وخلق لنفسه عالماً غريباً من الوحدة. جاعلاً شخوص معايشته تلك الوجوه التي يصافحها في الطريق لأناس يجهل هويتهم.. وانتمائهم. مؤلفاً بذلك سيرة ذاتية من الأوهام.

يعمل في إحدى مؤسسات الدولة في مدينته التي فشل في الانفصال عنها. ورغم ما في أعماقه من حزن بأن تلك النقود القليلة، أقل من أن تذكر. غداً له مترل خاص.

مضت خمس سنوات على زواجه. شاركته (عواطف) شظف العيش وسغب الحياة. قنديلها الحب الذي لم يتطرق إليه العفن لعلمها أنها رفيقة درب منذ الصبا.

عالم الوجوه التي يلقاها في الطريق. أو يشاهدها في الأفلام السينمائية. وفي بطن الكتب التي يقرأ.. أصبح القاسم المشترك. وهو يحدثها..

وهو يسير معها في الأسواق أو المنتزهات.

أراد أن تكون من هذا العالم لكن لم تستطع تجاوز واقعها رغم الأحلام المشتركة.. والخاصة.

شعر بأن هناك شيئاً..! إنما ما هو..؟ لا يدري لكن رفضها أي دعوة لممارسة العلاقة الزوجية وتهربها من ذلك بشتى الطرق وبأي عذر. ضخم سحابة الحزن القابعة في أعماقه ليهرب إلى ممارسة بعض العادات السيئة بين وقت وآخر. حيث تكون اللذة رغم شعوره بدناءة عمله.

ووجدها؛ صديقه لزوجته التقى بها كثيراً تفكر وتتحدث بحرية متناهية رغم رنة الحزن التي تحاول وأد الفرح المطل من عينيها.

أخذ يفكر فيها وضمها إلى عالم الوجوه التي يشاهدها ولا يحتك بها إلا في تفكيره الذي أحياناً توصله فيها أحاسيسه بأنه تافه حتى القمة.

اعتراه القلق. وسرت في أطرافه رعشة الذل وتاه في ضباب الهموم والآلام المترسبة في أعماقه. ومع هذه العوامل ما أن عرف من (عواطف) بأن عليه أن يوصلها هي وصديقتها إلى السوق حتى كتب على بطاقة صغيرة..

(أريدك.. أرجو ملاقاتك على انفراد).

وجدت البطاقة. فأخرجت قلمها وكتبت في ذيلها كلمة واحدة (لا)..

فوجئ بذلك رغم استعداده الفكري لهذا الرد. إنما شعر بشيء من الابتهاج، فكتب لها رسالة شرح فيها مقدار ارتياحه لها وقربه منها.

* * *

الرسالة الأولى..

أحييك تحية الإخاء ...

ما أشد دهشتي. عندما تصلب نظري على البطاقة.. وأخذت أفكر .. ترى ماذا يريد؟ .. يا للغرابة.. ساورني شعور غريب .. وظلال من الحزن الأسود.

قولك استغربت كلمة (لا).

لا غرابة في الأمر يا عزيزي.. يعني الرفض طبعاً. لا أريد الاحتكاك بك أنت بالذات.

كيف أقابل الحسنة بالسيئة أن ذلك خيانة..

يؤنبني ضميري لها ما حييت..

ومشاعري نحوك شعور أخت.

هو شعور نبيل وعواطف مقدسة..

لا داعي للقلق فالأمر جد تافه .. إليك التفسير.. المرأة تبحث عن الرجل.. أقصد الصغيرات اللاتي في سن المراهقة. الرجل دائماً متزن راجح العقل قلبه واسع والمرأة مخلوقة حساسة ضعيفة ـــ رب اجعلني على نفسي من القادرين ـــ لا تعي خطورة تصرفاتها.

لا معنى. عندي غير ذلك..

ولماذا يا عزيزي لم تنم ليلتين.. لا بأس عليك.. واسمح لي أن أقول لك. إنك مصاب بالتهاب العواطف..

هناك مسكن اسمه عواطف.

حظك مع النساء سيء؟ يخيل لي أن ذلك أفضل فالنساء مثل البحر كلما شربت منه ازددت عطشاً.. ويكون الموت.

تقبل قبلاتي.. احتفظ بها. إن المبذرين إخوان الشياطين. أرجو أن لا يؤثر ردي عليك.

سامحك الله وسامحني.

فهذه التصرفات الرديئة..

والطيش..

سلام.ين....... سلام ..

* * *

الرسالة الثانية.

أخي..

تحية ناعمة.

اتضح لي من خلال رسائلك أنك تقوم بدور الطبيب الذي يجس نبض المريض لكشف العلة.. قد لا يفلح الطيب أحياناً.

لست أدري. ما هذه العاطفة التي جاءت فجأة وبدون مقدمات..

إن ما تشعر به رغبة طارئة فقط (لا أقول طائش) إنما هو إحساس يساور البعض.

لقد جبلنا هكذا. إن ما تحس به (نحوي) ليس حباً.. أنت وأهم .. متوتر الأعصاب مرهق.

هناك ما يضايقك.

أنا أخت تهمني سعادة أخي..

لا أريد أن أكون له مصدر قلق.

أنا لا أؤمن بشيء يدعى الحب ودائماً أقف ضد هذا التيار بشجاعة وجلد.

قولك (العواطف تثور فجأة) لم أرى ما يثيرك، دعك من روايات الرومانسية.

قولك (لن أسكت حتى أكسب رضاك).

كسبت رضاي. وفزت بعطفي . أنا جديرة بصداقتك .

عزيزي لم تقترف ذنباً ولكن الواجب أن تتفادى مثل هذه المواقف. وأن تقدر موقفي بالذات . آمل ذلك.

وقولك (لا أعتبرها خيانة) كنت أعني نفسي لا أعنيك.. فقد بت أحس بذنب..

وأخيراً لا أحبك يا عبيط.. وشكراً .

* * *

فاصلة:

لم ترد على رسالته الثالثة وقررت أن تتجنب ملاقاته. وفجأة إذ بها تقف أمامه. قـــرر إيـــصالها بعربته إلى وجهتها.. فركبت في المقعد الأخير.

: ماذا جاء .. بك..

: كنت قلقة، خشيت أن عواطف عثرت على رسائلي..

: هل أنا مجنون..؟

: نعم وعبيط.. إذ كيف تريد مني خيانة صديقتي .

: سوف أتابع.. حتى أذيب الجليد.

: سوف تفشل ..!.

وانتهت الطريق .. وانتهى الحوار. كما فشل في الوصول حيث انتهت مغامرته عند تلك اللحظة مؤكدة أن كل محاولاته مجرد أحلام يخشى الواقع منها. وبقيت الرسائل زمناً طويلاً في جيبه يخرجها بين لحظة وأخرى مستعيداً كل سطر فيها مترقباً أن يعلن جرس الهاتف هذه المرة مقدمها. فغدا موطناً للشعور بالألم. وعاد إلى مرحلة الضياع والتفكك الداخلي فأخذ يهرب إلى خارج المدينة وحيداً يتجول في الشعاب والأودية يفكر في لا شيء.

الرسالة الوداع:

أحبك.

لم أستطع قول ذلك في حينه.

أخذت أفكر في محاولتك. ولم أصل إلى مرحلة الاقتناع. كان أبي قاسياً غليظ القلب لا همَّ له غير أن يرانا متربين تربية حسنة (العصا) أسلوبه الوحيد جل ساعات يومه عمل.

وعندما يعود إلى الدار ويجدنا نبكي. كل زوجة من زوجاته الثلاث تشتكي فلا يجد غير العصا. حتى لا يعتدي أحدنا على الآخر..

لم يكن يفرق بين الفتاة والولد.

سوى ـ أننا ـ حبيسات الدار.

وتزوجت. لم أعرف غير تلك الليلة. فماتت بقايا فرحة كنت قد بدأت في تجميعها. إنسان؛ أمي لا يرى أبعد من خطواته.. يعتبر المنزل غرفة نوم.. يأوي إليها آخر الليل. وتهاوت أحلامي ومطامحي.

حتى أطفالي لم أعد أقبلهم. لم أعد أشعر بهم ولم أحاول منحهم الحب والحنان الذي أخذت أبحث عنه.

ووجدت أبي على شفا الهاوية. وإحدى شقيقاتي تتخرج من الجامعة وتتوظف. بل تجد من تحب لم تخف ذلك فأنا صندوق أسرارها. لم تدرك ما معنى ذلك بالنسبة لي.. لقد انفجرت القنبلة الموقوتة. هربت من منزل زوجي. لأصبح امرأة مطلقة تطاردها الشائعات وتلاحقها الأقاويل.

لم أعد أحترم الحب.. دافنة العواطف في جب عميق مع.. تصميم أن أصبح شيئاً. فانكببت على القراءة.. أقرأ كل ما يقع تحت يدي لأشغل وقتي. وأعيد الحرارة إلى أعماقي المتجلدة. محاولة مواصلة دراستي للحصول على شهادة ما ..

ووجدتك .

وبعد تردد طويل قررت أن أقول ـ نعم ـ ومع ذلك تذرعت بالصبر محاولة تلقي ندائك

الأخير..

وفجأة انبثق النور.

في السابعة من مساء يوم الثلاثاء الماضي. لمحت صالح رفيق الطفولة يلج دارنا ويده في يد والدي (إنه قريب من بعيد، فوالده ابن عم لوالدي) يشبهك في كثير من صفاتك يقول مـــا تقـــول.. وســـألني والدي عن رأيي فيه فلم أقل شيئاً.

: لقد تقدم لطلب يدك.

: وزوجته...؟

: رحلت إلى العالم الآخر مخلفة طفلة..

: وأنت..؟

وتم عقد قراني في هدوء. لم يعلم بذلك أحد وعليه ها أنا راحلة مع زوجي.. لقد أحببتـــك .. وانتظرتك ولكن كان خيراً عندما لم تستطع العثور على الطريق.

* * *

في اللحظات التي بدأ يستعبد فيها ما جاء في الرسالة وهو يجلس وحيداً في عربته أمـــام بـــاب الدار. أقبل أحد الأصدقاء ففتح له باب العربة. وأعاد الأوراق كما كانت..

: إلى أين؟

: إلى المقهى.

: ما رأيك نذهب إلى السينما.

لم يعارض. أدخل الأوراق في جيبه بهدوء وعدم مبالاة ثم أدار محرك العربة..

الاكتشاف

لم يكن موسم الصيف قد بدأ بعد. فنادق الطائف لا تزال خاوية. تتأهب للموسم الجديد. كنت وحيداً في الفندق الصغير المطل على الشارع العام. أستذكر دروسي أبحث بين دفتيها عن النجاح الذي استأذنت من دائرتي في الرياض حتى أمسك بخناقه هنا.

كنت وحيداً حيث أني لا أعتبر من قدمت معهم رغم سكناهم معي بذات الفندق طلاب نجاح. وذلك لقضائهم جل وقتهم خارج الفندق. حتى هذه الليالي الثلاث التي مرت لم يقض بعضهم ليلة واحدة للاستذكار. والنزيل الوحيد الذي وجدناه قبلنا لا أتمتع بلقائه كثيراً. لم يقل كلمة واحدة حتى الآن وإن التقينا ليلتين في صالة الفندق نشاهد فيلم السهرة الذي يعرضه التلفزيون.

دخلت صالة الفندق. فوجدت (عمر) وهذا اسم نزيل الفندق منحشراً في أحد المقاعد. بينما التلفزيون مغلق على غير عادة. تلفت حولي أبحث عن كلمات أبدأ بها حديثنا الأول والأخير فالاختبار انتهى وعليّ أن أعود مع تباشير اليوم التالي إلى الرياض.

: لماذا التلفزيون مقفل..؟

: لا يوجد به شيء ..

وأدرت مفتاح الجهاز. فعلاً لا شيء هناك فكل ما به نقاط سوداء فأغلقته.

: هل اقتنعت؟. ولكن هل أنت حقاً مسافر..!

وقبل أن أجيب على سؤاله استرسل: دعنا نواجه الحقائق يا سيدي. لقد آن لنا أن نفترق.. وثق أني غير حاقد عليك وحسبي منك أنك وهبتني شيئاً من خلال الأيام التي قضيناها. لقد توفي (حامد) حين كان أبناؤه في مطلع الحياة تاركاً لهم أرضاً زراعية كبيرة وداراً جميلة وبما أن أبناءه لم يكونوا سوى طفلتين (نورة) في الثانية عشرة و(سارة) في التاسعة ووالدتهم فقد عاشوا. ولكن النجاح لم يحالفهم رغم ما بذلوه من جهد في الحفاظ على الأرض. وغلب عليهم الجوع وعلى سيمائهم علامات الاستشهاد الأبي..

لم يتأكد أحد من وفاة (حامد) الذي رحل ذات يوم ولم يعد بعد ذلك. انتظرت الأختين ووالدتهما التي رحلت بعد عشر سنوات من الإرهاق. إنما قالت الكبرى: لابد أنه مات.. وارتعشت الصغرى لهذه الفكرة وقالت: إنه لا يمكن أن يموت. إذ لا يمكن (لإنسان جميل رائع مثله أن يموت) لابد أنه يخوض (المغامرات) في مكان ما. وقد يكون هناك سببا وجيها يمنعه من العودة. فإذا تلاشت الأسباب فأنه عائد بكل تأكيد.

تسلقت الأعشاب المتوحشة كل شيء. ولم يعد في مستطاع الاثنتين مواصلة العمل في الأرض التي قلبت لهم ظهر المجن. وهاجرت (سارة) إلى المدينة متذرعة بقريبة من بعيد. قد تجد منها سنداً في

إيجاد عمل لدى إحدى الأسر الكبيرة.

(نورة) رفضت الفكرة لمعرفتها بأنه لا طائل من ذلك .. وذات صباح عادت (سارة) وشيء من البشر والحبور يملأ خطواتها. وجدت أختها تجلس على أحد الصناديق الفارغة بالمطبخ. وعلى محياها دلائل تفكير عميق ..

: وجدت عملاً.. وهم بحاجة لآخرين.

: لقد عاد..

: صالح. أين هو؟ ولما لم تخبريني بذلك.

: لقد رحل مرة أخرى.. في أمر يهم. رغم أني قدمت له كل شيء!.. حتى يمكث نهائياً.

وبما أن هناك مقولة عجيبة تقول (المرأة لا تنس أول رجل في حياتها) لهذا رفضت (نورة) دعوة شقيقتها إلى المدينة. وبعد تسعة أشهر وضعت مخلوقاً صغيراً خرج إلى النور بدون ضجة أو مضاعفات. ولكن لتموت وحيدة بعد أيام عانت فيها الكثير.

بعد وفاتها بأيام زار أحدهم دار الرعاية الاجتماعية مع زوجته. وطلبا من المسئول إرشادهما إلى طفل يستطيعان تربيته فقدم لهما ذلك الوافد الجديد. الذي لم يقم العاملون بالدار على اختيار اسم مناسب له. حيث ساورهم القلق من الطريقة التي وصل بها الدار. حيث وجدته إحدى العاملات بالمستشفى العام يبكي بحرقة فوق أحد المقاعد المنتشرة أمام عيادات الأطباء الخارجية.

أما سارة فقد تخلت عن عملها لتعود إدراجها إلى الدار المهجورة. وأخذت تبكي أختها. وسارع أهالي القرية إلى مساعدتها لاجتياز المأساة.

: ماذا تريد؟

: أنا..!

: أجل أنت. لقد انتهى كل شيء. لقد رحلت (نورة) أم أن ذلك لا يهمك. وخرج (صالح) لكي تلحق به وتتعلق بثوبه راجية أن يعود.

وصلنا صوت كاتب الفندق يتجادل مع وافد جديد الأمر الذي شغلني عن متابعة رفيقي الذي نهض دون استئذان. وتلفت حولي أبحث عنه. وهرعت إلى الكاتب أسأله فلم يلتفت نحوي ولكن عندما شاهد إصراري قال: لا تهتم إنها عادته كلما سمع أو وصل إلى سمعه أن أحد رواد الفندق يهم بالرحيل يروي له حكايته، فهو زبون دائم بالفندق.

أبحار في ذاكرة إنسان

كانت الرسالة تقول:

(حين تفصل المسافات بين الإنسان والإنسان يتحول كل ما في الأعماق إلى كتلة من الشوق والحنين وترتسم صور أكثر جمالاً مضافاً إليها دفقه الشعور الجم الذي ينبت واحة ظليلة في صحراء العمر، أما إذا قصرت هذه المسافات وتضاءلت واضمحلت بين إنسانين التقيا على أرض المحبة والصداقة... الخ.

[٢]

الساعة تشير إلى العاشرة والنصف مساء وأنا في طريقي إلى المقهى الذي يقبع على تله تبعد عن المدينة خمس عشرة دقيقة، اعتدت الهرب إليه منذ عشرين يوماً مع أوراقي والصحف التي استطعت الحصول عليها من مكتبة الحي ولا شيء آخر سوى الجراك ولي الشيشة الذي ينفث الدخان الأبيض في حديث أزلي مشبع بصور الحياة القاتمة التي أخذت تنسحب مع الزمان في غفلة من الأحداث الرتيبة التي لا لون لها ولا حياة..

ـــ إنني.. أبحث فيك عن السعادة.

قالت .. فداء ذلك ثم انفلتت هاربة.. كانت الطريق طويلة نهايتها غير مرئية رغم الأضواء الصفراء المتدلية من السماء في عفوية غير محببة سرقت من الأطفال المتكومين على الأرصفة ذوي السلاسل الذهبية والسيارات الفارهه. قهقهاتهم المصطنعة وبحثهم في شبق عن عيون نجلاء متلصصة من خلف البراقع التي كانت نشازاً فوق أجسام فارغة الطول.. ترتدي غلالة شفافة.

[٣]

انتهيت من قراءة آخر سطر في المجموعة القصصية التي وصلتني حديثاً مجتازة جميع الأسوار لتقول لي أن هناك عالماً يتأمل النساء في شبق ويبحث عن الحياة والأرض.. عبر لفافة حشيش أخذ دخانها يرتع في جدل داخل غرفة صغيرة ملطخة بشعارات مزيفة عن القومية.. وثوار العالم الثالث.. صور كثيرة متناثرة كانت تتزاحم على الجدران وفوق الأرضية وتحت السقف الذي بدت فيه آثار الأمطار وتكلس أبيض اتخذت منه العناكب والذباب مكاناً لقاذوراتها المتيبسة منذ ألف عام قام التاريخ بتسجيله قبل أن يكون الطوفان الذي ورد ذكره في الكتب السماوية بأشكال مختلفة.

[٤]

البول يحاصرني.. وآخر ورقة في مجموعة القصص تتلاشى أمام ناظري ونادل المقهى الذي يقف أمام وافدين جديدين يجب لي طلب تغيير رأس الشيشة للمرة الثالثة، أنه العالم الثالث هل احترق معه.. الساعة تشير إلى الثانية عشرة موعد عودتي إلى الدار وتسلقي صنم الوهم الذي زرعه ضجيج الشارع..

وصوت التلفزيون المرتفع.. وعراك أطفالي مع أبناء شقيقتي والزوار الذين تمتلئ بهم صالة الاستقبال فأرفع كفي إلى رأسي محاولاً إغلاق سمعي في محاولة استسلام بدائية حتى لا أنفعل وقد احتقن وجهي بالدم.. البول يحاصرني.. ونادل المقهى يختفي. لأنهض من مقعد الشريط الذي أفضل الجلوس به كل مساء منذ هربي.

[٥]

قبل أن تطل أنوار المدينة الصفراء أوقفت عربتي جانباً وترجلت منها وتوغلت بعيداً في الظلام لأجلس حتى أتبول.

احتبست ضحكة بلهاء في داخلي وأنا أنهض لأعود لعربتي التي تركت محركها مداراً. وتلفت حولي.. كانت الأضواء الصفراء المدلاة من السماء في بلاهة تطل من بعيد.. وفداء مازالت تسير. وتذكرتها أنها تبحث من خلالي عن السعادة..

وتذكرت أنني إنسان.. لا يرتدي بذلة داكنة.. أو يفضل شراء المسابح العاجية ذات الرائحة المسكرة أو ارتداء عباءة الوبر الصفراء الرقيقة.. فأطفأت مصابيح العربية الأمامية وتجاوزتها سارقاً النظر إليها علها لا تعرف عربتي.. فتلوح لي بيدها..

ـــ من أنت..؟

ـــ إنسان.

ـــ من أين أنت قادم.

من هناك وأشرت إلى الظلام الذي كان السبب في وقوفي في مخفر الشرطة.. لقد تجاوزت عربة رجال الشرطة.. شك أفرادها في هويتي عندما تجاوزتهم وأنا مطفئ المصابيح.. وإذا بعربة المرور تشعل مصباحها ذات الألوان المتعددة المنصوب فوق سقفها تجتازني ونداء ينبعث من داخلها يدعوني إلى الوقوف.. والترجل.

[٧]

صادرت البزاة الرمادية كل ما في عربتي من أوراق.. ألقاها جندي صغير الجسم تنم ملامحه على أنه لم يتجاوز الثامنة عشرة من العمر وتدل حركاته على أنه جديد في العمل.. على طاولة مدير المخفر.. فأطلت مجموعة القصص من بين الأوراق فأخذ يقلبها ذو النجمات الثلاث في بلاهة وإذا بفداء تطل من إحدى الصفحات..

ـــ سيدي كنت أبحث من خلاله عن السعادة فتجاوزني..

ـــ لقد تابعناه..

ـــ ....

ــ كان عبوره إلى داخل المدينة مريباً ..

والتفت فداء نحوي.. غرست عينيها النجلاوين في لحمي ثم تطلعت إلى قدمي الحافيتين فانحنت تلعقهما.. كان الورم بادياً في أصابعي ومؤخرة قدمي.. ثم وقفت وقد اغـرورقن مقلتاهـا الـنجلاوان بالدموع لأول مرة كانت هذه اللحظة سكري بالفرح لوجودي بين يديها.

ولكن صوت قدوم مخالفين آخرين خنق كل شيء. اختفت فداء وتم إغلاق المحـضر الـذي تم فتحه لي كزائر لأول مرة لقسم الشرطة ليصبح ملفاً متكلساً يتراكم عليه الغبار.

ــ تفضل .

ــ إلى أين ..

ــ إلى داركم.

ــ وأوراقي..؟

ــ سوف تحفظ لدينا..

ــ وفداء..

ــ إنها ضمن هذه الأوراق.

[٨]

ارتديت حذائي.. وأنا أدخل عربتي .. وأشعلت الأنوار وأخذت أتجول في المدينة أبحـث عـن داري القابعة في زاوية الإهمال فلم أعثر عليها. كان هناك شبح يرتدي بالطو أصفر يجتاز الطريق .

ــ هل تعرف دارنا.

ــ في أي شارع تقع.

وأخذت أبحث في ذاكرتي عن اسم الشارع أو رقمه فلم أجد شيئاً سوى الفراغ الذي تحول إلى أجزاء أخذت تتناثر حولي.. أطلق الرجل صفارته بقوة أكثر من مرة وتكومت حولي عربـات مجهولـة الألوان أخذتني إلى مكان لا أدري أين هو.

ولكن (تذكرت أنني على غير المعتاد. نسيت عربتي ومحركها مدار وأبوابها مـشرعة وأنوارهـا تعكر الظلام تبحث عن من يأخذها إلى مكان.. حتى عودتي).

ترديدات

الطائف رغم الحب الذي أكنه لها فهي في أعماقي مدينة الأشباح والضياع إذ أن عاشقها لا يستطيع مواصلة الطريق، فكل الطرق تؤدي إلى خارج المدينة ومن جهاتها الأربع. وأنا أقف مع مؤهلاتي المتوسطة في عرض الطريق. إنسان ضائع تاه في الزحام ذات يوم فسرقه نشال محترف كل شيء حتى ملابسه، فخرج عارياً يركض في الشوارع المهجورة من كل الحياة. وإن كانت تعج بعالم آخر هو عالم الأشباح حيث تجد في كل زاوية شبحاً تلفع بالطو متهرئا صناعة أمريكية متلفعاً بغترة حمراء وقد انحنى رأس الشبح فوق صدره لكن نقيق الضفادع التي تتجول بسيارات مختلفة الأشكال والموديلات يعيد لها الحياة فتقفز في مكانها لتكون على أهبة الاستعداد لمواجهة المجهول.

* * *

انغرس حب سحر في جسمي كنصل خنجر مسموم وأخذ يجري فيه مجرى الدم كانت صورة وهمية وجدتها في الصوت الذي كان يصلني عبر الفضاء منغماً بموسيقي إلهية هي كل الوجود فأنهض من فراشي لأبحث عن صورتها في كتبي وصحفي المتناثرة حول فراشي على الأرض.

ــ لقد كان أخي يكتب الشعر.

ــ وماذا كان يقول..

ــ كان يقول أشياء كثيرة.. لكنه الآن صامت.

ــ ولماذا صمت ..؟

ــ أثر فيه رحيل أمي..

ــ ولماذا رحلت .. أمك.؟

ــ يقولون هربت مع رجل تحبه..

ــ من قال هذا..؟

ــ الجيران..

ــ وأنت الآن ألست معها..؟

ــ بلى ..

ــ وهل صدقت الإشاعة ..؟

ــ لا أدري ..

ــ لماذا ..؟

ــ لأنني وجدت زوجها صورة طبق الأصل كما جاء في الحكايات، أنه يختلف عن أبي، ذلك الرجل الذي لم يشعرنا بأنه رب الدار فقد كان خالي وأقرباء كثيرون اختفوا الآن هم كل شيء في الدار

حتى أمي كانت هي أيضاً أكبر من الآن سناً .. أما الآن فقد غدت شابة تلفت الأنظار.

ـــ وهو ماذا فعل؟؟

ـــ من..؟

ـــ أبوك.

ـــ تزوج ..

كان هذا الحوار وهي بعد طفلة في الرابعة عشرة ترتدي ثوباً أبيض تقف على باب غرفتي وقد أخذها منظر الكتب المتناثرة. وصوت والدتها ومجموعة من النساء يصل من وراء الأبواب حيث كانت في زيارتنا مع والدتها التي تربطها صداقة أزلية بوالدتي منذ الطفولة.

ـــ ولماذا لا تدخلين الغرفة.

ـــ أخشى غضب والدتي..

ـــ ولكن لتقر أي ما كتبت من شعر..

و لم تدخل لتقرأ أشعاري، أصرت على الوقوف أمام الباب لترحل من جديد كما قدمت ولكن كان الحب قد اتخذ مجراه في جسمي فأخذت أكتب لها بدلاً من تلك الكتابات التي كنت أقتبسها من الكتب وما يقع بين يدي من صحف.

* * *

التجول في الشوارع كان هوايتي تركتها بعد أن شعرت بأنني جسم غريب في دارنا لقد تغير كل شيء في حياتي بعد أن حطم أخي طموحي وفرض عليّ مدرسة تدفع معونة شهرية لطلبتها تدرس اللغة العربية والدين فقط حتى تساعده المكافأة في الصرف عليّ بعد وفاة والدي الذي تخلى عنا جميعاً ذات مساء فاكتشفنا أننا لا نملك شيئاً. استطعت مجاراة زملائي في الدراسة حتى السنة الخامسة فتوقف في داخلي مرحل التلقي.. ففشلت في اجتياز امتحان السنة الخامسة مرتين تم على ضوء ذلك إلغاء المكافأة وهرب أخي إلى مدينة أخرى متخلياً عني فأنا إنسان فاشل لا يريد الحياة.

كان التسكع سلواي الوحيدة كل مساء أعود متأخراً إلى الدار فأجد والدتي قد غفت..

* * *

ـــ هل تتأخر كل ليلة هكذا ..

كانت تجلس خلف مكتبي لا أدري كيف دخلت غرفتي.. صدمني صوتها أول وهلة أنني أعرفه.. إنها جارتنا التي رحلت منذ ثلاثة أعوام مع زوجها من المدينة. ولحقت بها أسرتها ولكن ماذا جاء بها..

ـــ لقد غدوت إنساناً آخر..

كانت أوراقي مبعثرة وبعض الصحف الفنية والكتب الصغيرة ملقاة بإهمال حول الفراش.. لقد أخذت تقلب كل شيء حتى ألبوم الصور.

ــ لم أجد لي صورة.

ومن أين أجد لها صورة وهي بعيدة عني وأنا طفل أفضل معاكسة الصغيرات والهرب بدون حكاية فأنا لا أريد لي حكاية كبقية الحكايات يستطيع كل إنسان إضافة شيء من عنده إليها..

ــ إنك جميل في هذه الصورة..

هل حقاً أنا جميل ولماذا لم أكن جميلاً سوى هذه الليلة.. لقد كنت جارها الموبوء الذي تهرب من نظراته عندما يلمحها في الباب الموارب أو من خلال النافذة تغازل المارة كمجنونة حرص أهلها على حبسها داخل غرفة أشبه بقفص القرود..

ــ كيف دخلت غرفتي ..؟

ــ الباب الخارجي مفتوح .. وقد عرفت كل شيء من والدتك هذا المساء فعدت بعد أن شعرت أنها نامت.

ــ وزوجك ..

ــ سافر..

ــ وأنا..

ولم تدعني أكمل حديثي.. كانت امرأة مهجورة لم تمارس الحب منذ ألف عام..

وخرجت على أطراف أصابعها .. بعد أن تركتني كومة من الأشياء القديمة. كان آخر عهدي بها عندما سمعت الباب يغلق.

* * *

هجرت تسكعي.. في الشوارع والبحث عن عيون متلصصة في النوافذ أو الأبواب المواربة كما هجرت مقاعد الدراسة وأخذت أبحث في الصحف والمجلات عن إعلانات الوظائف لعلي أجد وظيفة تناسب مؤهلاتي المتوسطة ولا شيء آخر، أما أشعاري فاكتفيت بما كتبت وأخذت كل مساء أقوم بنسخها في دفتر جديد، احترت في اختيار اسم مناسب لها.. وكذلك لم أستطع تحديد.

صيغة الإهداء وإن قمت بكتابة مقدمة هي صورة طبق الأصل لحياتي التي لا أدري كيف كانت..

* * *

أحيل والد سحر إلى التقاعد فعاد إلى الطائف ولكن لم تكن معه حيث أنها تدرس في الجامعة وقد تركها مع والدتها ليصافحني كل مساء يطلب مني مساعدته في الحصول على تلفون.. لقد كانت

معه أرقام كثيرة يقوم بنشرها كل مساء في غرفتي ويأخذ التلفون في حضنه ثم يدير القرص أكثر من مرة يتحدث كثيراً مع أناس لا أسمع سوى صوتهم فأتجاوزه محاولاً التركيز في متابعة ما يقدمه التلفزيـــون أو مواصلة القراءة في كتاب..

ـــ لقد قالت والدتك إنك تبحث عن عمل..

ـــ أجل ..

كانت لحظة .. توقف فيها البحث عن رقم جديد وخرج بعد أن أعياه العثور عليه. وفجأة رن التلفون، كان أحدهم يطلبه فلحقت به ولكن لم أعثر عليه في الشارع لقد اختفى فعدت وطلبـــت مـــن المتكلم معاودة الاتصال بعد نصف ساعة وخرجت أبحث عنه واتجهت إلى الـــدار الـــتي اســـتأجرها في الشارع الثاني.

ولم أعثر عليه .. ولكن ما أن تفوهت باسم المتكلم حتى صرخت زوجته..

ـــ أنه أخي..

وطلبت من أطفالها البقاء في الدار لا شعار والدهم بذلك ولحقت بي. دخلت غرفتي حيث يقبع التلفون منتظرة أن يتكلم الجهاز، أما أنا فقد دخلت إلى المطبخ أبحث عن والدتي فلم أعثر عليها واتجهت إلى غرفتها فوجدتها نائمة فأخذتني الحيرة وسمعتها تتحدث وعدت إليها كان وجهها الناصـــع البيـــاض والذي أشاهده لأول مرة ينبئ عن جمال باهر.. فتسمرت في مكاني.. ولم ألاحظ أن المكالمة قد انتـــهت وأنها أخذت تتأملني..

ثم نهضت من مكانها.. لم أتحرك من مكاني في فم الباب وشعرت بالارتباك.

ـــ شكراً .. لقد وصل أخي بالسلامة.

وشعرت بأنفاسها قريبة مني ووجهها الذي اختفى خلف غلالتها السوداء الرقيقة يترقب.

وخرجت لتلتقي بزوجها أمام الباب الخارجي وسمعتها تقول له كان أخي.. لقد وصل بالسلامة ..

وأخذ يصرخ منادياً.. وخرجت ووجدتها تقف إلى جواره. وقد زرعت ابتسامة انتصار صـــغيرة على شفتها.

ـــ لقد وجدت لك وظيفة..

ـــ أين ..؟

ـــ هذا مظروف به كل المعلومات وعليه اسم الجهة التي سوف تغدو أحد موظفيها..

* * *

كان العمل لذيذاً شعرت بأن لي كياناً جديداً وإن كان المكتب الذي أجلس خلفـــه متـــداعياً

بعض الشيء ومع ذلك لم أحاول تغييره أو مطالبة إدارتي كما أوعز لي زملائي بمكتب جديد.. وقطعت صلتي بكل من أعرف أنني الآن إنسان جديد رغم أنني لم أغادر مدينتي.. ذات الأشباح. ولكن أفـــرح عندما أطل من الاتجاه الغربي عبر الجبال بعد غروب الشمس عليها وقد شعت أنوارها فآخذ في تأملـــها وقد انزرعت في مقلتي دمعة حزن لم تفارقني منذ كنت طفلاً أذهب إلى المدرسة حافي القدمين بثـــوب قصير وغترة متهرئة هي بقايا أحد الجيران.. كانت الخواطر تتوارد في داخلي كشريط سينمائي أنا أحـــد أبطاله ولكن في حكاية لم يشاهدها أحد حتى الآن لإنسان فرغ جوفه من كل شيء لم يعد يختزن شـــيئاً مما حوله وإن كان هناك خوف من مجهول يجعل من الأحداث صوراً باهتة هي صدى لحادث وقع أيـــام الطفولة لا يدري ما هو ...

الدوار

أشعة الشمس تتسرب في قوة منسلتة فوق الرؤوس العارية تزرع الحياة في أضابير الكون المنتعش من حمى موسيقي الصخب ذات الإيقاع الإفريقي الشنيع راسمة لوحات جديدة المعنى تقدم وفي جو مشبع بالعرق ورائحة التبغ الهافاني المعتق.. مزكمة الأنوف التي أخذت تحمر أرنبتها بفعل كثير من الدوافع عدا الكلام. الذي لم يستطيع الهمس المفرد أن يتجاوز السور المحكم عليه.

كانت الأضواء الخافتة والمختفية خلف الستائر. نهاية ليلة موبوءة والتي اختفت مع بزوغ شمس أغسطس المحرقة لترسم حول العيون ظلالاً داكنة وخطوطاً تفضح سنين العمر التي مرت دون حدث يذكر سوى هذه اللحظات التي بدأت منذ أربعة عشر شهراً عربياً.

تواجهنا أكثر من ألف لحظة شك ودمامل أخذت تنز قيحاً ذا رائحة نتنة. لفعته صور للجفاف المحيط بالعالم أخذت توزعها وكالات الأنباء المدفوعة الأجر في مرحلة تشويه متعمد لعالم أخذ ينفصل بقوة من العالم الجديد. ليغرس في التربة بذور حياة جديدة أخذت معاول الهدم تسقيه بمواد قاتلة ليقف عن النمو وتكوين الظلال المتسربة تحت لواء حياة هائلة.

ولكن الأضواء لخافته غرست رغم شاعريتها في الأعماق صوراً لبروتس وخنجره الذي يقطر بدم الخيانة والعفن. وهو يضاجع زوجة قيصر التي أخذها الحزن فلم تجد وسيلة لقتله سوى أحضان بروتس والذي رمى فوق بلاط الممر المؤدي إلى غرفته بخنجر الجريمة فتحاشى الخدم إزاحته من مكانه فكون الدم اللزج صورة لم يستطع دافنشي رسمها رغم محاولاته الكثيرة والتي وقف فيها آلاف الساعات أمام قطعة من القماش المشدود فوق حامل الرسم الذي نصبه فوقها.

أخذت تخطر بثوبها الأحمر ذي الأشجار الغريبة الاسم أمامه وقد أمسكت بيمناه لترشده إلى غرفة الاستقبال التي دخلها دون أن يخلع حذاءه وطلبت منه الجلوس على الأريكة ثم خرجت وأغلقت الباب وراءها. لم يكن في الدار سواهما إذ لم يكن هناك أحد كما أخبرته في الهاتف. وهو كان يجلس وحيداً في الدار.

كان الطريق الطويل الملتوي يسير أمامه بهدوء رغم ما يتعامل في داخله من أفكار حاول إعدامها قبل أن يصل إلى المنحنى الذي يقبع فيه دارها.

أنها المرة الأولى التي سوف يحمل في سيارته امرأة غريبة تعرف عليها من خلال الهاتف.. أوقف عربته بالقرب من الدار وأصلح من وضع كوفيته وغترته على رأسه وتأمل الساعة التي كانت تشير إلى العاشرة صباحاً. وتلفت حوله باحثاً عن ظله الذي اختفى الآن وهو يجتاز الشارع المرصوف.

عقارب الساعة جاثمة لا تتحرك وحواسه المشدوهة تدعو إلى الضحك.

وفجأة أخذ يضحك .. واهتز المقود بين يديه.. وأخذت عتاب تضحك ثم ألقت برأسها فوق

كتفه. إنه الدوار قاتله الله عاد مرة أخرى وجحظت عيناها ثم أسبلتهما. وران الصمت فوق الجميع بينما كانت خطوات مترددة تصعد سلم الدار ثم صوت رجل يطلب ماء بارداً رغم الصمت المطبق كرر الطلب.

وتنبهت عتاب فقفزت من مكانها متجهة إلى باب الغرفة لتواجه بالرجل يتجول في الشقة التي ترك بابها مفتوحاً..

ــ ماذا تريد..؟

ــ ماء بارداً..

ــ لماذا لم تقرع الباب..؟

وطلبت منه مغادرة الشقة وأسرعت إلى الثلاجة وأخرجت قارورة ماء مثلجا ولحقت به إلى الباب الخارجي وعادت مرتبكة فوجدت إبراهيم مسربلاً بالعرق..

ــ لقد مت..؟

كانت المغامرة كبيرة والبون شاسع. رجل غريب في دار لا يوجد بها أحد لابد أنهم يراقبونه. لقد كان للعيون الملتصقة بالجدران والتي أخذت تتابع خطاه منذ أن وجد في عتاب أحلام ماض دفنه الواقع المر ملجأ يهرب إليه كل يوم من خلال الهاتف. تمسك به بالجرم الملعون الذي حاربته الأديان. وسنت الشرائع له ألف حكم للاقتصاص من مرتكبه..

كانت المرة الأولى التي يحاسب فيها نفسه من خلال مكان الجريمة ومقدار التصاقه بها. رغم أنها ليست المرة الأولى التي يكون فيها متهماً أمام أعماقه إذ كثيراً ما كان يشكل مثل هذه المحكمة ولكن في لحظات يبتعد فيها مع نفسه عن العالم الموبوء يتحدث فيها كثيراً عن مراحل وهمية وصل إليها ووقف الواقع أمامها كجبل من الصلب الذي لا تنفع فيه مخالبه رغم سمكها أو دموعه التي تشبه النار الذي يحرق كل شيء ..

ونهض من مكانه وهو يتأمل الساعة التي لم تتحرك عقاربها وأخذ طريقه إلى الباب..

وعتابا تسير خلفه.. خرج متلفتاً حوله.. كان يسير بدون ظل في الشارع الممتلئ بنور الشمس. فشعر بالحزن وهم بالعودة للبحث عن ظله ولمحها واقفة أمام الباب، كانت تؤشر بيدها مودعة.

وتذكر منذ متى وهذه الكف مغروسة في مكانها تهتز معلنة عن تحرك خطرات مركب الوداع. فتصلبت أقدامه في الأرض التي أخذت تشده إلى الأسفل في مرحلة عودته إلى الواقع بينما كان رجل عجوز يقترب من الباب الموارب الذي انغلق فجأة... عندما حاذاه أخذ الرجل يتأمله وهو يتجاوزه واقترب من الباب وهو يدخل يديه في جيب ثوبه لإخراج مفتاح أدخله في قفل الباب الذي لم يقاوم اليد المعروفة ثم انغلق مرة أخرى وقد ابتلعه المدخل.

وتلفت حوله فإذا بظله يقف إلى جانبه. ورفع رأسه متأملاً الدار المكونة من دورين ولمحهـــا في نافذة غرفة الجلوس حيث كان وأخذت تؤشر له بكفها أن انطلق وقد قطعت اهتزاز الوداع. فنسي أنــــه كان يبحث عن تاريخ اليد المزروعة للوداع. لتصفعه يد أخرى مطالبة في خوف أن يختفي.. وسار الظل معه حتى ركب العربة.

مقاطع من مرحلة العدم

المقطع الأول:

وقف الخامس من أكتوبر .. على ناصية الطريق يبحث عن حافلة النقل الجماعي.. فإذا به يواجه بصمت مريب يعلن الموقف الذي معه توقف جريان الدم في عروق المشاة.. وراكبي العربات.. والواقفون أمام واجهات المحلات.. وأمام مظلات موقف الترام.. فأصبح الجميع.. كتماثيل الشمع مفتوح الأعين والشفاه على كلمات كانت يجب أن تقال وإذا بها مبتورة.

المقطع الثاني:

وقف كمال.. يتلصص على الجميع من نافذته الصغيرة فوق سطح إحدى العمارات الشاهقة التي لم يجد فيها مكاناً لطالب عمل قدم من الريف ذات يوم.. استباح السيل فيها أرض والده فأخذ معالمها ووجد فيها شيخ الجماعة امتداداً طبيعياً لأرضه فاستولى في المساء على نصف المساحة.. وترك المكان الصخري الذي لا يستفاد منه.. ولكن كانت الإرادة قوية إذ حاول والده إعادة تقويم الأرض وإزالة الصخور فلما كان له ذلك ادعى الأهالي أن الموقع طريق عام.

ـــ إنها قادمة ..

كانت تحدثه بالتلفون بعد أن شاهدها مراراً من نافذة غرفته في العمارة المقابلة.. تقوم بنشر الغسيل في البلكونة أو تقوم بتنظيف الغرف .. أو في المطبخ عندما تكون نوافذه مشرعة.. ولم يشاهد سواها في العمارة التي تحوي أكثر من مئة شقة ومتاجر ومواقف سيارات..

ـــ لن تتأخر ..؟

عرف رقم هاتفها فأخذ يتصل بها من تلفون العملة المنصوبة في الشوارع .. وأخيراً قرر أن تكون له..

المقطع الثالث:

شاهد كمال توقف الحركة في الشارع من مكانه. فأخرج منظاره المكبر من تحت حشيته وأخذ يتأمل الشارع ويدير عدسات المكبر كل شيء هادئ حتى السيارات التي كانت تملأ الفضاء برائحتها.. وتعدم الوجود بأبواقها المزعجة تقف في وسط الشارع..

ولمح الخامس من أكتوبر .. يراوح بين قدميه وقد أعياه الانتظار تحت مظلة النقل الجماعي.. فاستغرب عدم وجود آخرين معه .. إذ أن مظلة الوقوف في مثل هذه الساعة تكون مزدحمة بالرجال والنساء والصبية منهم من يقطع الوقت بقراءة جريدة.

ـــ لماذا كل هذه الهدوء..؟

وقفز من مكانه.. أخذ يترل سلم العمارة متناسياً باب غرفته مفتوحاً.. برأس مكشوف وقدم

حافية.. وأخذ يتلفت حوله وإن كانت وجهته المظلة.. التي ما أن وصلها حتى وجدها.

المقطع الرابع:

اهتز كمال من الموقف .. فأخذ يعود في خطواته إلى الوراء وتذكرها. إنها الآن في طريقها إليه لقد تجاوزت موعدها بنصف ساعة.

وأمام العيون المشنوقة دخل العمارة التي تسكن بها وصعد السلم أنه يعرف رقم شقتها.. وضغط زر الجرس بعد أن رتب الكلمات التي سوف يقولها إذا كان من يفتح الباب شخصية أخرى.. وطال انتظاره.. فرفس الباب بمقدم قدمه فانفتح ودخل الشقة بهدوء وأخذ يتجول..

ــ لا يوجد أحد ..

رجع صوته إلى أعماقه فشعر بالقشعريرة تسري في جسمه وأخذ العرق ينسكب على وجهه واجتاز الحجرات حجرة حجرة حتى ولج المطبخ كل شيء طبيعي وعاد إلى الباب الخارجي وتذكر شيئاً فدخل غرفة النوم وتأمل صورة المرأة المعلقة فوق السرير.

ــ إنها امرأة أخرى.

الصورة مختلفة .. وفتح ألبوم صور فوق طاولة في ركن الغرفة وأخذ يقلبه.

المقطع الصفر:

غادر كمال الشقة وأخذ يترل السلم بينما الخامس من أكتوبر يجتاز الشارع وقد أمسك بيد هيفاء التي وجدت فيه ضالتها.

عاد كمال إلى شقته وأخذ يقلب ألبوم الصور من جديد. وفجأة عادت الحركة إلى الشارع وأخذت الأصوات تمارس عملها كالمعتاد.. فأسرع إلى النافذة .. ومد يده إلى المكبر فاصطدمت بورقة كانت تحته..

لقد وصلت وانتظرتك .. وصدفة لمحتك تدخل شقتنا متلصصاً لقد خدعتني.. هيفاء..

ألقى بالورقة على الأرض وأخذ يسحقها بقدميه الحافيتين..

المقطع صفر مكرر:

خرج كمال من غرفته وقد شعر بألم في كعب قدميه من جراء سحقه للورقة الملعونة وبينما هو يجتاز بوابة العمارة الكبيرة إلى لجة الشارع. كانت هيفاء تترجل من سيارة فارهة وقفت غير بعيد من العمارة التي يسكنها بعد أن تلفت حولها وقد ارتدت فستاناً جديداً وفوق كتفها حقيبة يد ذات لون فاقع.

الخوف لا يموت قتلاً

موبوء أنت تترسب في أعماقك جراثيم الكون ومع ذلك ها أنت تسير بشكل جيـــد. تأكـــل بانتظام ثلاث مرات في اليوم. تذهب إلى العمل في سيارة فارهة وفي المساء تجلس إلى أصدقائك يأخذكم الحديث يميناً وشمالاً إلى ما لا نهاية. حتى يستوطن الحزن في أعماقك فتأخذ في التفكير غير المجدي وفجأة ترفع صوتك مترنماً بأغنية تسللت إلى داخلك عنوة حتى تتر الغيوم وتنقشع الهموم..

ـــ سامي.. لا أعرف ماذا أقول إنني خائفة.. خائفة.. فأنا زوجة مهجورة.

ـــ ولماذا الخوف.. كم قلت لك كوني قوية صلبة. أنت سوف تكونين حياتـــك الجديـــدة إذا استسلمت للخوف كانت الهزيمة.

ـــ أجل ..

ـــ وأنا أريدك منتصرة دائماً. حتى تتقنين دورك ويحس من حولك بوجودك.

تذكرت الصفة كما تذكرت الحديث وأنا في طريقي المعتاد عائداً إلى الدار الصفة عمرها ألـــف عام اهتم أناس كثيرون بها. فأخذوا يواجهونني بها في كل مكان يكتبها الأطفال شعارات على جـــدران المنازل، والمسافرون فوق اللوحات الإرشادية التي يعبرونها نحو هدفهم. بكل غباء وجنون حـــتى كانـــت الاستساغة المجروحة بشظايا من حزن تكون في زمن طفولة يتيمة وفقر مدقع ورغبة في التكون.

أما الحديث فقد تواجد أثناء لحظة تسللت فيها الحياة إلى الغابة المهجورة فكان المطر الذي تأخر قدومه حتى العام الأربعين الذين أنزرع فيه الشيب في أماكن متفرقة من شعر رأسه وذقنه وشاربه رغـــم المطاردة المرهقة.

الساعة تشير إلى الحادية عشرة ليلاً كل ما حوله هادئ يقف أمام باب أحد الأصـــدقاء ولمحهـــا فكانت البداية تحمل كيس النفايات تهم بوضعه أمام فتحة الباب ما أن لمحته حتى تراجعت حيـــاء. فلمـــا شعرت أنه لم يتلفت لانشغاله بقرع الباب خرجت لوضع كيس النفايات وهنا أخـــذ يتأملـــها محـــاولاً تكوين صورة.

وشعرت بنظراته، أحست أنه يتأملها فلم تبال.. واصلت عملها (وإذا برغبة تغرز في أعمـــاقي تدعوني للتحدي) هكذا قالت في أول اتصال هاتفي.. البداية منها عندما عرفت الكثير عنه من جارتهـــا التي تمت له بالقرابة. لم تكن حينذاك زوجة مهجورة إنما امرأة لا كيان لها تفتقد أمراً هامـــاً لا تدريـــه غاب عن ذهنها رغم وضوحه في تصرفات خالد زوجها الذي تزوجها عن حب حيث كان اللقـــاء علـــى مقاعد الدراسة في أرض الغربة ليعودا مؤهلين وزوجين في ذات الوقت ويواجه بعاصفة المطـــامح أمـــام جـــدار هائل تم بناؤه من الأسمنت المسلح تخلت عن عملها. توقفت عن الهروب لتقع في بؤرة النسيان والإهمال.

تكرر الاتصال الهاتفي. يحمل الشكوى يواجه الحياة وشاركتها مأساتها أخذت أشكي همـــومي

التي لم تكن بالنسبة لها شيئاً وأثناء ذلك طلبت منها أن تكون قوية لتواجه الحياة. فعـادت إلى عملـها وهجرت بيت الزوجية للإقامة مع أسرتها. غدا الشارع مهجوراً والطريق طويل.

الساعة تشير إلى السابعة مساء وإشارة المرور التي أمامي صفراء ترددت في تجاوزهـا فأخـذت اخفف من سرعة السيارة، وتتجاوزني سيارة بيضاء ما أن اقتربت من الإشارة التي تبدلت حمـراء حـتى توقفت عنوة. وأقف بمحاذاتها من الجانب الأيمن لم أهتم بمن فيها أول الأمر إنما شعور غريـب دفعـني لتأمل من بداخلها وإذا بها هي توقف الدم في عروقي. تأملتني قليلاً ثم أخفت رأسها بيـدها. الدوامـة هائلة وقائد العربة يتأملني بقسوة. أخذ الدوار يذيب الصور التي أمامي ويمسح من ذاكرتي انتظار الـضوء الأخضر وأبواق العربات التي خلفي يرتفع في انفعال.. تحركت في هدوء بينما انطلقت العربـة البيـضاء تسابق الريح.

ـــ سامي أنني مراقبة أخشى من حولي.

ـــ وماذا تخشين إذا كنت قوية..

ـــ أنهم يلاحقونني .. يستغلون خوفي..

ـــ الخوف أنت سبب تكونه في أعماقك .. اطرديه .. كوني حريصة على إظهـار اعتـدادك بنفسك ومكانتك بين أسرتك وأصدقائك.. لا تشعريهم بأنك بحاجة لهم بقدر ما هم بحاجة لـك.. لا تجاوزي المعادلة الصعبة..

كانت المعادلة الصعبة أن أقرر أنها هي بذاتها امرأة العربة البيضاء. فأوقفت السيارة أمام هـاتف العملة وأخذت أدير أرقام هاتفها وقبل أن أصل إلى الرقم الأخير توقف عن المتابعة واسـتعدت قطعـة النقود من الفتحة المخصصة لها وعدت إلى العربة وقد كساني هدوء غريب.

الغريب

* يونس أنت نشاز في مجموعتنا.. نعرف ماذا تقول ابتسامتك رغم العوامل الصعبة كما هي موسومة منذ ألف عام إذا أنت ذات أخرى صنعت من بذرات ومواد غير الذرات والمواد التي كونت الجميع. لذا لم يعد لك مكان بيننا ونفضل أن نتساءل لماذا تأخرت عن الحضور. وأن يحتل مقعدك آخرون وآخرون من أن تكون معنا ..

* يونس اليوم هو الثالث عشر من الشهر الحادي عشر الهجري، الساعة تشير إلى التاسعة وأنت وحيد تحدث ذاتك المهزومة. هل تتذكر متى كانت الهزيمة.. هل عام ٤٨ يدل على هويتك أم ٦٧ هو النسخة الأساسية لتكونك وشعورك. أنك وهم يتلاشى كل يوم ويطل كل يوم..

* يونس. قبل عام ٤٨ كانت الهزيمة القاسية. لقد انتحرت دليله. ألقت بنفسها في بئر مهجورة في أطراف القرية هرباً من نظرتك الهادئة وابتسامتك الصغيرة، الجميع يذكرون ذلك.. كما يذكرون ليلة زفافك واقترانك بها وقدوم أول طفل وكان ذكراً أسميته إيناس لعله يرسم الأنس في شوارع القرية الرملية وبيوتها الطينية. غير أنه مع قدومه توقف المطر. وقررت الحكومة اختيار طريق آخر لرصفه يوصل الميناء بوسط البلاد عبر قرى أخرى تمكن أهلها من تذليل العقبات بما لديهم من نقود ومغريات أخرى. وهنا كان موت دليلة لا أحد يدري مرد ذلك وأن سرت شائعة خبيثة عن علاقة بينها وبين سائق شاحنة طالت غيبته ولم تستطع إغراءك على الانتقال إلى مكان آخر لعلها تجده.

* يونس. أنت منذ وطئت قدماك المدينة ووجدت العمل الذي تبحث عنه لم نفهم حتى الآن سر الهزيمة في صمتك وديمومة الابتسامة الصغيرة التي لا تختفي تراك إنساناً مشوهاً.

* يونس. هناك حديث غريب يقولون إنك تعرفت على فتاة سحقت كل مقاومتك وصلابتك.. أخذت بمجامع قلبك المهارت مقدمة كل شيء في أول لقاء ثم بينكما. ثم أخذت تتراجع محاسبة نفسها على ما أقدمت عليه شاعرة بالذنب نحوك. وجدت أنها ضئيلة أمام مكنوناتك فأخذت في التلاشي راسمة لنفسها طريقاً آخر لعلها تصل إلى شيء من أسرارك الإلهية إنما في النهاية انتحرت بعد أن أفرغت في جوفها قنينة كاملة من دواء مهدي يعطى لمن يصابون بنوبات صرع أو تشنج..

* يونس. أخذ مكانه المعتاد في زاوية من غرفة الجلوس وقد تناثرت حوله صحف الصباح وبعض الأوراق البيضاء ومذياع صغير أسود بينما يتسلل إليه صوت تلفزيون الجيران وأبواق وفحيح عربات في الشارع ووقع أقدام مارة يجتازون الشارع ثم أخذ يغير من جلسته شيئاً فشيئاً أغلق المذياع.. ألقى القلم جانباً.. أخذ يتأمل غلاف مجلة أدبية وصلته مؤخراً بالبريد.

أصبح يونس نائماً على ظهره يتأمل سقف الغرفة. ران صمت عجيب على المكان. أخذت ندف من الضباب الأبيض الخفيف تملأ المكان. الضوء يتلاشى .. رائحة عبقة تملأ المكان. عينا يونس

تتوقف عن الدوران. أصبحنا زجاجتين .. أطرافه توقفت عن الحركة .. فمه مطبق يبدو على شحمتي أذنيه أنهما محتقنتان. ضم يديه على صدره شهادة:

يقال تأخر يونس عن العمل لأول مرة في صباح اليوم التالي. وحيث أن نسخة من مفتاح الشقة التي يسكنها لدى أحد زملائه في العمل وجد بعد الظهر في مكانه ميتاً.

الصَّمت حجارة تفتق

أقف على هام الدنى. أعلن اسمك فقد يتعرف أحدهم عليك فيقوم بإرشادي إلى مخبئك. إني مسجون منذ عشرة آلاف عام في جوف اليم. أبحث فيها عن محارة. عن صدفة تتناسب وموقفك.

الرفض سوط عذب جاء مقتحماً المواكب. لأقف مشدوهاً أمام بوابة المدينة ودمعة صغيرة تنحدر فوق خدي. هنا ناسي.. هنا أنت إنما علي أن أعلن الرحيل حتى أعود إلى ذاتي التائهة في معابر العدم.

ـــ هل تأتين معه..؟

ـــ أنا..!

كان الانبهار في أول الأمر صادماً. وإذا بي أتقزم أتحول إلى هشيم أخذته الرياح لأتبعثر دون إرادة إلى الجهات الأربع ليكون الضياع وها أنت تطلين من جديد..

ـــ إنها مخطوبة..

ـــ أجل لقد تقدم لها من كنت واسطة لديه لمساعدتها في تحصيلها العلمي..

ـــ ولكن قررت مؤخراً الرفض..!.

ـــ وأخذت أضحك. أنه الموقف المومس الذي يسترق من وجودنا الضياء. أخذت أضحك لأنني كنت المصدر الذي خلق هذه المقولات. وكانت الإشاعة رجساً أخذ يلاحق من أعرف ومن لا أعرف ليقتحم الوجود غاز مقنع أخذ يوجه بندقيته في جميع الاتجاهات خاطفاً الأرواح دون تميز. وقد ارتسمت في مخيلته مذبحة العرب في فلسطين. واحدهم يعلن عن تبرعه بآلاف الدولارات لإنقاذ مجموعة من الفيلة في غابات أفريقيا المهددة بالموت من جراء الجفاف.

ووصلني صوتك. هذه المرة لم يكن حالمًا ولم يكن به خدر. يسألني عن صحة الإشاعة. ولماذا طلبت منك الحضور. أسئلة كثيرة ارتسمت في مخيلتي أخذت أبحث فيها عن جواب صحيح.

ـــ عمر .. هل قرأت هذه القصيدة..!.

ـــ أجل .. أعجبت بها إنما الاسم أشاهده لأول مرة.

ـــ محرر الصفحة لم يشر إلى ذلك.

ـــ وهل قرأت زاوية الردود في الصحيفة..

ـــ لم يرد ذكر .. الاسم..

كان الاسم حائراً. هل هو حقيقي أم مزيف لأن العمل مكتمل بكل معانيه .. وإذا بصوتك يذكرني بذلك الاسم. وكنت فعلاً هو. لم يكن الاسم مستعاراً ولم يكن الموقف حلماً..

ـــ هل تأتين معه ..!

وكان قولك باندهاش. أنا المعول الذي هشم البناء الجديد..

وتقتحم الموقع جرافات مجهولة الهوية ورجال مقنعون أخذوا يهلون التراب على الجثث المتعفنة ويهدمون أسوار المخيم المهجور.. أمام عدسات التلفزيون وأضواء آلات التصوير.. وآلاف من مراسلي وكالات الأنباء والصحف والإذاعة. وصوت جهوري يصف الموقف كلهم يسجلون كلماته. كلهم يتابع شفتيه وحركات يديه. ولم يلاحظ الجميع حينها أنه كان متصلب الأطراف عيناه من زجاج لا تتحرك وأنها بدون بؤبؤ وأنه منذ نزل من عربته المكشوفة وهو واقف في مكانه. لم يغير وجهته لم يحرك قدميه.

ولم يلاحظ الجميع أنهم في انسجامهم غير المنظم تركوه بين الآثار تصفعه الرياح بقسوة بعد أن انهارت كافة المواقع. امتد النظر إلى البعيد الفضاء خال لم يعد لدينا سوى الصمت أعبث به بين لحظة وأخرى حتى أخذ الصداع يحطم رأسي بمناجله.

ـ أنهم.. يحتفلون بها زوجة.

ـ وأنا..

ـ أنت ماذا..

ـ أنني الزوج القادم من خلف الفيافي من وقف على هام الدنى معلناً عن اسمها..

ـ إذا هو أنت..

ولم أعد أدرك ما حولي أخذت الأيدي تدفعني.. عصب أحدهم عيني بعصابة سوداء وقيد آخر معصمي خلف ظهري وأخذت الهمهمة تخفت وأنا أسير في طريق طويل رغم الحذر لم يعترضني مانع أو حاجز وتذكرت صوتك.. تذكرت الناطق الرسمي ذا الصوت الجهوري ... تذكرت أنهم يحتفلون بالزواج .. فأخذت أحرك يدي. فإذا بها حرة فأخذت أفرك مقلتي.. لم تكن هناك عصابة.. لم يكن هناك ناس..

إنما ظلام دامس يطوقني وورقة بيضاء مكومة في يدي اليسرى عليها بداية كلمة.. لم تتكون ورنين هاتف يصلني من أعماق بئر.

حنان والساعة الثامنة

١ ـــ توقفت الحركة في المدينة، كل ما هناك همهمات تجاوزت عنان الفضاء، انطلقت بعيداً حتى تجد مجالاً للتعبير عما يختلج بداخلها قبل أن يكون الانفجار .

هي أزمة أزلية ارتفع فيها سعر المحروقات خاصة وقود العربات وأنابيب غاز المواقد حيث أغلقت مراكز البيع بعد أن استعان التجار برجال الأمن لتفريق المواطنين المتزاحمين هنا وهناك في نواح متعددة من المدينة.

٢ ـــ أخذت عربات مجهولة تغادر المدينة في أوقات متفرقة من رابعة النهار لم تلفت النظر، إنما أرتال العربات الراحلة في الظلام لم يأبه لها أحد وإن شدت انتباه العسس الأميين وحراس الليل.

٣ ـــ المحلات مغلقة المدارس مفتوحات الأبواب، إنما لا يوجد أحد. مستشفى المدينة الوحيد. يقول المرضى لم يزرهم طبيب أو ممرض منذ اثنتي عشرة ساعة رغم صراخ المرضى، عواميد النور في الشوارع لم تطفأ، وإن كانت المدينة أمضت ليلة نصف الأحياء مقطوع عنها التيار الكهربائي..

٤ ـــ أخذ السابلة يتساءلون خاصة وإن هواتف العملة والطوارئ المزروعة في الشوارع لا يرد عليها أحد.

٥ ـــ أطلت (حنان) من نافذة غرفتها كما هي العادة لتتأكد من وجود عربة زميلتها في الفصل وجارتها. ولما تأكدت من وجودها ارتدت عباءتها وحملت حقيبتها وانسلت عبر ممرات الدار. لم يلفت الهدوء المخيم ناظرها ولم يثر الصمت هواجسها. وفتحت الباب الخارجي لتصعق في مكانها. العربة مشتعلة من الداخل، كل شيء يحترق بهدوء، أدمت كفيها وهي تضرب الباب، وبح صوتها وهي تنادي.

٦ ـــ داخل العربة متفحم. إنما المثير للريبة أن هيكل العربة الخارجي سليم. اقتربت حنان من العربة وألصقت وجهها بالزجاج. كل شيء أسود، ضربت الزجاج بمقدمة رأسها، غرست أظافرها في وجهها غير مصدقة، لا تدري كم مر من الوقت. نظرت في ساعتها أنها تشير إلى الثامنة. (لا تدري هل الثامنة صباحاً أم مساءً) التفتت خلفها، باب المنزل موارب وحقيبتها المدرسة على عتبة الباب وكذلك عباءتها تأملت نفسها أنها بثياب المدرسة وقد تهدل شعرها، تلفتت حولها في خجل ثم أسرعت إلى العباءة وتلفعت بها، أصلحت من شعرها وثبتت الحجاب على وجهها أغلقت الباب الموارب وحملت حقيبتها.

٧ ـــ المدرسة تكتظ بالطالبات. هكذا يبدو رغم أن البواب لأول مرة لم يرد على تحيتها. أسرعت بالدخول، فناء المدرسة فارغ فاتح فاه. أخذت تعدو نحو مدخل البناء متجهة إلى فصلها (ثانية ثاني) كل الأبواب مغلقة. فتحت الباب بهدوء الحصة الأولى (تاريخ) ومدرسة التاريخ (أبله

عواطف) لا ترتاح لها بعد أن اكتشفتها أمام إحدى دورات المياه تحتضن زميلة لها في شبق بشكل مقزز.

٨ ـ فوجئت (حنان) بالفصل فارغ فتقدمت من طاولتها فوضعت عباءتها كالعادة داخل الدرج مع كتبها. وجلست على المقعد ثم نهضت من مكانها، اتجهت إلى السبورة، فقامت بمسح المسجل عليها وكتبت بخطها الجميل التاريخ والمادة والموضوع ثم رسمت خارطة شبه الجزيرة العربية والخليج والبحر الأحمر ثم أكملت خارطة آسيا وجزء من شمال أفريقيا راسمة أقواساً وسهاماً في جميع الاتجاهات وأخذت تشرح كل ذلك.

٩ ـ انتهى الشرح. تأملت حنان ساعتها.. مازالت الثامنة.

١٠ ـ ألقت بالمسطرة التي كانت تستعين بها في الشرح على الأرض ثم شدت شعر رأسها وهي تصرخ..

: ـ أين البنات..

غادرت الفصل وأخذت تفتح بقية الفصول، كانت الفصول فارغة حتى غرفة المدرسات؛ دخلت فصلها بهدوء، ارتدت عباءتها وحملت حقيبتها بين يديها ثم خرجت من الفصل وقبل أن تغادر المبنى كان جرس المدرسة يرن معلناً انتهاء اليوم الدراسي والطالبات أخذن يتجمهرن في الفناء وأصواتهن تتجاوز سور المدرسة. بينما البواب ينادي الطالبات اللاتي حضر أولياء أمورهن..

١١ ـ افتقدت حنان زميلتها، وأخذت تتفرس الوجوه التي حولها تحاول رصد ما تعرفه من ملامح زميلتها الخاصة، وإذا بالوجوه التي حولها (صورة واحدة) استدارة/ عيون زرقاء زجاجية/ أنف معقوف يتلألأ في وهج الشمس كبريق الذهب/ إنما هناك أمر غريب لا توجد أذرع للفتيات ورغم ذلك تطاردن ويدفعن بعضاً بهدوء واتزان، أخذت تتأمل نفسها فإذا بها لها يدان وأخذت تتحسس وجهها وهي تعدو إلى غرفة دورة المياه حيث تنتصب مرآة قديمة يتزاحم أمامها الفتيات عند الانصراف فلم تجدها في مكانها إنما وجدت صورة مكبرة للوجه الذي يتقاسمه فتيات المدرسة..

١٢ ـ الشيخ إبراهيم أنه اسم والدها تعرف ذلك. قفزت حنان من مكانها وأخذت تعدو إلى باب المدرسة وهي تدفع الفتيات أمامها كأنها تدعوهن للخروج معها. خرجت إلى الشارع فلم تجد أحداً (البواب لم يرد على تحيتها هذه المرة أيضاً).

١٣ ـ أخذت (حنان) طريقها إلى الدار هي الكائن الوحيد الحي في تلك الناحية التي انتشر فيها غبار غريب شل حركة الجميع (إنسان/ حيوان/ جماد) أخذت تتلفت حولها في هدوء وقد تسرب إلى أعماقها إحساس بأن كل ما حولها يسجد لها.

أحاديث تحتفل فجأة

ـــ أ ـــ

بين مغيب الشمس ومشرقها مسافة في الإمكان اجتيازها، هكذا قرر عندها طلب من خادمه أن يقوم بتجهيز حصانه لبدء رحلة قطع هذه المسافة ويتمكن بعدها من الفوز بقلب أجمل فتيات الحي .

مع انبثاق نور الصباح وعلى صوت صياح الديك وثغاء الضأن نهض نافع من فراشة وتلفع بغترته ثم تفقد مسدسه المشدود إلى وسطه وأمام باب الخدر تمطى قليلاً وهو يتثاءب ثم انحنى لحمل زوادته.

الطريق طويل، قرر أن تكون البداية المكان الذي تشرق منه الشمس ثم يأخذ في السير معها حتى يعرف أين تختفي ثم رفع عقيرته بالغناء كما هي عادته عندما ينطلق إلى الصيد أو في رحلة طويلة بعيداً عن مضارب الأهل والعشيرة.

لم يكن يدري بهذه الرحلة أحد إذ لم يؤمن على سره حتى خادمه عبادة الذي يأتمنه على حياته لم يبح له بوجهته وإن همس في إذنه (سوف أجلب طلب أغلى الحلوات) ردد عبادة هذه العبارة بعد ثلاثة أيام من الرحيل وهو يداعب وجنتي سمر في الرجم الذي اعتاد سيده الجلوس فيه عندما تثور به الهواجس.

وفي العودة لمح بنت خال سيده أمام القليب تحاول رفع قربتها، اقترب منها وساعدها على حمل قربتها، أحس بأنفاسها تحرق أطرافه وهو يثبت رباط القربة على مقدمة رأسها وأخذ يتأملها (حلوة الحلوين) تذكر قول سيده إنما هل تكون عفراء هي أغلى الحلوات ربما وأخذ يتأملها وهي متجهة إلى مضارب الحي.

أن (أغلى الحلوات) مجهولة بالنسبة لعبادة؛ الذي أخذن يتواردن عليه كثيراً من فتيان الحي في الرجم أو في المفلى أو أمام القليب يسألونه عن سيده إذا احتار في الإجابة، إنما أخذت الأماني والأحلام تجول في داخله وقد غدا ملجأ الجميع. يترقب عودة الغائب فأخذ يشعر بمكانته متذكراً أنه لم يعد الخادم الذي يؤمر فيطاع إنما هو الآن الآمر الناهي في حلال سيده وبيته فأخذت أموره تتحسن وأحواله تتبدل فقام باستئجار بعض الرعاة لرعي الغنم واستحضر خادماً لعمل القهوة وتلبية طلبات أم سيده العمياء التي لم تشك لحظة في أمانته ووفائه لابنها لمعرفتها ما بينهم من حكايات وقصص.

أخذت عفراء تتردد على الخباء لخدمة عمتها العجوز فلم يهتم أحد بجلوسها إلى ساعة متأخرة من الليل وإنما لاحظت ذلك صديقتها ميثة فأخذت تشاركها السهر بينما عبادة يتجول بين المضارب أو في الصحراء، وبعد أن لاحظ الفتاتين أخذ يعود للخباء في أوقات متقدمة محاولاً المشاركة في السمر. نهرته سيدته فأخذ يتلصص من (الشق) وقد أطرب هذا التصرف الفتاتين فكن يداعبه بإفشاء سره.

مرت أعوام على نافع الذي أخذت الركبان تتناقل قصة رحيله بشكل مخالف للحقيقة كما

منحت المسافر بركات وأعمالاً خارقة للطبيعة أخذ يرويها الشعار ومن يمر بمضارب البادية مما زرع الرعب في قلب عبادة الذي استطاع أن يتخلص من كل تبعية لسيده بعد زواجه من إحدى بنات الحي وهو يردد في داخله أنها (أغلى الحلوات) وفرض على سيدته التي أقعدها المرض الانتقال إلى مسكن أخيها مع إيهام الجميع بأنه سوف يحمي الحلال.

نزح عبادة عن الديار.. رحل مع زوجته وكل ما يمتلكه سيده واختفى عن العيون مختاراً اسماً جديداً وقبيلة جديدة.. إنما لم يتمكن أحد من العثور على أثر له رغم المحاولات المضنية وأعلن بين القبائل عن سرقته لحلال سيده وغدره بمن عطف عليه واعتبره من أهل بيته.

— ب —

مما يتناقل الركبان أنه يوجد رجل صالح في بيت من الشعر النادر يقيم في طرف الصحراء بشكل عجيب من حيث الموقع والرجل الذي كل ما يعرف عنه الناس أنه رجل صالح قرر البقاء بعيداً عن الناس وكان بداية اتصالهم به مرض سرى بين القبائل فجأة فأخذ كل بيت يشد رحاله ويتيه في الصحراء على وجهه خوفاً من العدوى، وحرصاً على أهل بيته من النبذ إذا علمت الجماعة بأنه يوجد بينهم مريض.

إحدى هذه الأسر التائهة على وجهها لمحت مع بزوغ الشمس فرساً يركض في وجه الشمس لم يهتم أحد بذلك إنما كلما تربعت الشمس في كبد السماء وضح موقع الخباء الذي لم يكن فيه أحد حين اقترابهم وفجأة إذ بالفارس يعود وقد تصبب العرق من الحصان ومنه فرحب به ودعاهم للاستراحة ولكن لظرف المرض امتنع الركب عن الضيافة شارحين الأسباب وهنا أمرهم بالنزول وضرب مخيمهم بجوار مخيمه لأن عنده الدواء الشافي للمرض. وهكذا تكون حي جديد في طرف الصحراء ومن خلال شيخهم بحكم قيامه بمعالجة الجميع وشفاء أبنائهم على يده.. ورغم تساؤلهم عن انتمائه ولماذا هو مقيم لوحده وهل أحد يطالبه بدم وثار أو أن جماعته أهدرت دمه. بجرم شنيع إنما الأمر الذي لاحظه الجميع أنه قبل بزوغ الشمس يركب فرسه ويأخذ طريقه إلى قلب الصحراء ويلمحه في بعض الأحيان الرعيان وهو يعود مسابقاً الريح في سباق أزلي مع شيء مجهول لا يدري الجميع كنهه، فكان سؤال يلوب في الأذهان وفي ليلة عرس تربع القمر في كبد السماء أخذ السمار حول النار يرددون.. الأهازيج ويتبادلون الأحاديث بينما كان عازف الربابة بين لحظة وأخرى يداعب أوتار معبود ته فيرتفع صوته متجاوزاً الفضاء في حوار أزلي مع الكون تربع صالح وسط كبار الضيوف أخذ يتلفت متفحصاً الجميع كأنه يبحث عن فقيد ثم لمعت عيناه ببريق عجيب وهو يستمع إلى أخر أبيات المغني الذي صمت فجأة وقد انحدرت من مقلتيه دموع أخذ يمسحها بطرف أنامله مدارياً وجهه عن الجميع وهنا ارتفع صوت صالح:

سافر متجهاً إلى مشرق الشمس من أجل أن يسابقها ليصل قبلها إلى المكان الذي تختفي فيه

كل مساء من أجل عيون معشوقته امتطى فرسه مخلفاً وراءه الجميع، اتجه إلى الصحراء مخترقاً طرقاً لم يطرقها أحد قبله وفي ثالث يوم بان عليه الإرهاق والتعب رغم أن الطعام متوفر والماء كأنه لم يمسه شيء منذ غادر جماعته، الشمس كانت قوية وهجها يثير الدوار والصحراء لا ترحم أحداً خاصة إذا كان وحيداً إنما قاومها بإرادته في الوصول إلى هدفه مهما كانت الصعاب وأخذ شيئاً أسود يقترب من بعيد لا يدري هل كان هذا الشيء متحركاً أم أن فرسه أخذته إليه كل ما في الأمر أن الإرهاق أثر عليه فلم يعد يشعر بشيء مما حوله إذ أغمي عليه وأخذت الفرس طريقها إلى شيء معلوم وكأنها تستمع إلى إرشاداته كل ما يدركه أنه سمع صوت جلبة وميز صوت امرأة تردد غريب.. غريب هذا كل ما يدركه. حتى فتح عينيه فلم يجد حوله أحداً إنما كان رأسه متوسداً زوادته وفرسه يقف أمامه. أحس بهواء لطيف فأخذ يجيل نظره حوله فإذا به داخل مغارة رطبة هواؤها منعش وأمامه كسر من الخبز ودورق ماء، إنما لا يوجد جنس مخلوق. فزمن مكانه وأخذ يتجول وإذا بصوت امرأة يعبر فراغ المغارة يقول:

ـ أنت رجل محظوظ.. أنت رجل محظوظ لا تعمل أمراً يفقدك هذه الميزة..

تكرر القول أكثر من مرة إنما شعر بأنه إنسان جديد لم يعد يتذكر شيئاً من ماضي أيامه سوى أنه قرر معرفة أين تغرب الشمس ومن أين تشرق. وركب فرسه مع الصبح وأخذ طريقه نحو هدفه.

وهنا تقافز الشباب حول النار لإثارة حماس الحضور للمشاركة في الرقص عندما أطل العريس في أبهى حلة فلم يعد أحد يهتم ببقية القصة ونهض صالح يتقدم الجميع مرحباً بالعريس وأخذ سيفه متمايلاً وسط الجميع..

ـ ج ـ

أحس عبادة بالوهن وفتور عام في جسمه زادته وساوس زوجته التي لم تنجب مطالبة بأن يقوما بزيارة الرجل الصالح الذي تناقلت الركبان علاجه الشافي واتصاله بالجن لفك العين وطلاسم النحس فعزم على الرحيل إلى مضاربه لكن الخوف أن يلتقي بأحد هناك من جماعته، كان هاجس يقلقه فلم يفاتح زوجته بذلك لعدم علمها بفعلته الشنعاء حيث أوهمها أنه شريك في الأموال وأنه يحتفظ بحقوق صاحبه حتى يظهر وأن هجره لجماعته إنما هو حتى يتوسط أحياء العرب لعله يصل إلى معرفة مصير رفيقه الذي اختفى منذ زمن طويل ..

كل هذه الهواجس كانت حاسراً تدعوه إلى التمهل إنما رغبته في مولود يحمل اسمه دفعته ذات صباح إلى مطالبة الرعيان بالرحيل.

وأقام له سكناً في مكان ناء عن المساكن، وبعد أن أرتاح من السفر وبعد غروب الشمس تلفع

بعباءته واتجه إلى خيمة الشيخ الذي لم يكن موجوداً كما هي العادة وجلس مع الجالسين يتبادل الحديث معرفاً بنفسه بعد أن لاحظ الجميع أنه غريب .

وإذا بصوت واهن لامرأة عجوز تتوكأ على عصا غليظة يقودها صبي أشعث يقترب مع ظلها الذي تجاوز المكان طولاً، نهض أحدهم واستقبلها أمام باب المخيم وأخذ يسألها عن طلبها محاولاً مساعدتها بعيداً عن سمع وعيون الآخرين بينما وقع خطوات حصان تقترب توقفت بجوار المخيم وبينما العجوز تهم بالعودة من حيث جاءت قابلها شبح رجل يقترب فصرخت:

ـــ نافع... نافع

ووقعت على الأرض. انحنى صالح فوقها وأخذ يجس نبضها بينما يسأل الواقفين عنها ومن أين قدمت، ثم ألقى بعباءته فوقها مشيراً إلى أنها فارقت الحياة ثم طلب من جميع العودة إلى أماكنهم وطلب من الخدم حملها إلى أحد البيوت للاعتناء بها وتجهيزها للدفن.

أفسح الجميع له مكاناً بينهم وعادوا إلى تبادل الحديث، وبينما هو يتأمل وجه العجوز الذي لم يفارقه منذ أن لمحها تلفظ أنفاسها.. ونداء «نافع».. «نافع» يتردد في داخله ثم أخذ يركز نظراته على عبادة الذي لم يتفوه بكلمة منذ جلس ولم يمط اللثام عن وجهه.

ـــ أهلاً بضيفنا .

ـــ أهلاً..

ثم أماط عبادة اللثام عن وجهه بعد أن تأكد أنه لا يعرف أحد من الحاضرين وأخذ يسرد شكواه ويعرف بالديرة التي قدم منها وهو منكس الرأس.

ـــ طلبك متيسر يا عبادة ... وأنت اليوم ضيفنا.

فز عبادة من مكانه ورفع رأسه وأخذ يتأمل الشيخ .. تلفت حوله ثم غادر المكان دون إذن وأمام قبر الميتة بعد أن تم الصلاة عليها فتح صالح الغطاء عن وجهها ثم قبل جبينها ورفع رأسه متأملاً من حوله ثم أعاد الكفن كما كان وواراها الترب واتجه إلى فرسه وغادر الجمع الذي أخذ يتلاشى في الطرقات.

* * *

الارتطام بوجه النافذة

تتناثر الطريق شظايا وينغرز في الأعماق نصل مسموم أخذت عوامله تعسكر داخل الجسم النحيل ويعم الكون ظلام دامس سرق حواس الكائنات فكان الصمت وحل الفراغ الدامي.

الريح هادئة وأوراق الأشجار الصفراء تقاوم السقوط، الساعة تشير إلى السابعة صباحاً، نسيم بارد يلسع الأجسام المتحركة في كل اتجاه ومذياع نسي أصحابه إغلاقه قبل النوم يصرخ (غداة غد يتم عقد الاجتماع الثاني للجنة المشكلة لدراسة احتمال فك الاشتباك ودفع الأطراف المتناحرة إلى احترام وقف إطلاق النار وخلق الثقة في نفوس الأفراد رغم تبادل التصريحات). محرك العربة يدار، يضيع صوت المذياع وأنا داخل العربة التي أترقب أن تستعد للانطلاق.

إنها كالعادة تقف في نافذتها تتأمل الفراغ، لقد تأكدت مؤخراً إنها تنتظر خروجي كل صباح أكد ذلك تلصصي المستمر للنافذة قبل خروجي أو تأخري المقصود حتى أرى أثر ذلك عليها إنها تقف حتى تتحرك العربة وهنا تقوم بإغلاق النافذة دون حركة تذكر.

الهم يغترفني، أصول سدومية متآكلة تشرنقت فيها نفايات حشرات صغيرة تجاوزت انهيار الزمن فكانت حقائق الزيف المترسمة خطى انهيار الحياة. الهاوية تأخذني تزرع الخوف في داخل إنما صوت غريب يصرخ باسمي يدعوني إلى الحذر والتوقف عن الانزلاق السريع. الصوت يقترب وأنا أفكر في مصدره، أخذت خطواتي تنتظم متدارك الارتطام بالنهاية المجهولة.. الصوت يقترب وظل طويل يعترض طريقي، حبل متين سوف يشطرني إلى جزئيين وإذا بالصوت يمسك بيدي وانفرد الظل ليكون وسادة هوائية أخذت أتلفت حولي. وإذا بها تقف في نافذتها تتأمل الفراغ.

أخذت الانفجارات المشعة تحيط بالمكان الذي أقف فيه والمباني تنهار الواحدة تلو الأخرى، النافذة تتأرجح في مكانها كصورة داخل إطار كبير معلقة بخيط واه، أخذت الريح تهزها وهي مازالت واقفة تتأمل الفراغ. الدمار سد الطرقات وانهيار المباني بصمت غطى الفضاء غباره بينما نهر أحمر اللون أخذ يتكون متجهاً إلى المنحدر الذي أقف في نهايته بدون حراك والظل الطويل أخذ يتقلص لم يعد له وجود. أخذ صوت النهر يرتفع وهو يدفع أمامه ما استطاع حمله من بقايا ونفايات أشعر بالأرض تحتي، تهتز وسرى البلل في ملابسي، شيء ثقيل اصطدم بي، أخذ يدفعني إلى ما لا نهاية تشبثت به حتى أبعده وابتعد عن طريقه، كان وجه النافذة ذا الشعر الذهبي والأنف الطويل والعيون التي تراقب الفراغ، اهتز كل شيء في داخلي وشعرت أنني بحاجة إلى البكاء.

انفلت الوجه من بين يدي مبتعداً متخذاً مساره بين الأشياء المندفعة داخل النهر، أخذت طريقي بعكس النهر، خطواتي شقت طريقاً سهلاً إلى قمة الهاوية، رفعت رأسي متأملاً السماء.. مازالت هناك نجوم تتلألأ، ومازالت هناك نافذة واحدة مضاءة.

الطّيف

١ ــ ترنحت جذلاً فتجاوزت خط العقل لتتمرغ في حميا التبذل معلنة عن انصهار كامل في بوتقة العدم بعد أن تبدت الرؤيا كاملة لتصل من ثم إلى مرحلة الانعتاق فأخذت تتصور ذاتها حمامة بيضاء في ساحة عامة تحط على إفريز نافذة أو ذراع شاب أو تحجل أمام طفل في الثانية يحاول الإمساك بها أو تحط في أحضان حسناء افترشت أحد الأركان وحيدة تترقب موعداً لم يحن.

قال الرجل وهو يتأملها في انبهار: أنها صحوة الموت.

قال آخر: إنها الفرصة المهتبلة لارتشاف الشفاء.

قالت سيدة تنتصب بين الاثنين عليها مسحة من الجمال: إنه العته بكل صورة.

٢ ــ تأملت العيون التي حولها واندست في الزحام مخلفة عبقها المسكر ليعود كل شيء إلى طبيعته قبل أن تترجل من عربتها ذات اللون الفاقع.

اثنان من مدمني التجوال في الأسواق. يجلسان فوق مقعد انتظار حافلة النقل الجماعي أخذا يتابعانها وهي تدور حول نفسها حتى تحكم لبس العباءة وتثبت الخمار الشفاف على وجهها زارعة الانبهار في الكون لم تشملهم دائرة الحلول. فأخذا يتحدثان بما يهمهم.

ــ إنها جميلة..!

ــ هل رأيت حقيبة يدها..!

ــ تبدو في حالة غير طبيعية..

ــ ما رأيك..

نهض الاثنان، الأول أدخل يده في جيب ثوبه ولم يخرجها، أما الآخر فقد أدخل يده وأخرج سلسلة المفاتيح ليتأكد من مفتاح العربة.

أخذ الاثنان يعدوان للحاق بها مندسين في كل متجر محاولين كسر طوق.. التجمعات للاقتراب أكثر رغم التوجس والخوف من مراقبي الأمن ورجال الآداب . مر وقت غير يسير لم يبين فيه أثر للمرأة التي يبحثان عنها وقررا العودة إلى مكانهما الأول في انتظار خروجها.

٣ ــ خرجت من السوق وبرفقتها رجل يحمل بعض الأشياء بين لحظة وأخرى تتأمله مبتسمة ثم تأملت ساعتها وإذا بالسيارة الفارهة تقف فجأة ليترجل منها السائق ثم يأخذ الأشياء التي يحملها الرجل ثم يفتح أحد أبواب المقعد الخلفي لتجلس في هدوء ثم يطبق الباب وتنطلق العربة. أخذ الرجل يتلفت حوله منبهراً ثم تأمل ورقة الريالات الخمسة التي وضعت في يده، مظهره العام لا يدل على أنه أحد العاملين في المحلات التجارية أو أحد الحمال.. تأمله الاثنان القابعان فوق المقعد ثم اقتربا منه..

ـــ ماذا حدث..!

ـــ أين ذهبت ..

ـــ من ؟

ـــ المرأة التي كانت معي..

ـــ وهل كانت امرأة..

تأمل الاثنان مرتعب ثم دس ورقة الريالات الخمسة في جيب أحدهم وعاد أدراجه. مد الآخر يده وأخرج الورقة من جيب صاحبه تأملها ثم صرخ..

ـــ تأمل .. إنها صورتها..

وأخذ يقرب الورقة من وجه صاحبه الذي أخذ يبحث عن الصورة، فلما لم يعثر عليها تأمل وجه صاحبه وصرخ فيه..

ـــ يالله أن صورتها فوق خدك.

ـــ ....

٤ ـــ امسك الاثنان بأيدي بعض كل واحد يشد الآخر في غضب وتجمهر القوم.

المحاضر

أخذ يعد درجات سلم المنصة.. واحد.. اثنان.. وكانت الثالثة سطح المنصة التي تربع فوقها كرسيان وطاولة انتصب عليها لاقطان للصوت وكأسان من الزجاج الأبيض وقسطل ماء صغير فوق سطحه قوالب ثلج ملفوف بفوطة بيضاء.

جلس فوق أول كرسي ثم أخذ يقلب أوراقاً دسها تحت إبطه وهو يتجه إلى المنصة. طال تقليب الأوراق دعك جبينه بيده اليمنى ثم أخذ يتأمل الكراسي الفارغة المرصوصة أمامه.

(أخواني.. الأوراق بين يدي فارغة بمعنى أصح بيضاء. خالية من أي حرف .. أيها الأخوة.. لقد نسيت نص المحاضرة.. إنما في الذاكرة شيء مما كتبت فأرجو المعذرة.. إذا كان هناك إسقاط.. أو تقمص هفوة).

وصمت.. توقف عن الكلام .. وران الصمت لم تنبس المقاعد بكلمة.. تحرك قليلاً في مكانه وأفرغ قليلاً من الماء في أحد الكأسين..

(أيها الأخوة.. منذ بدء الخليقة.. والإنسان يبحث عن مكانه المناسب.. و.. و..)

خرج من بين المقاعد طفل في الثالثة من عمره رث الثياب يطارد شيئاً غير مرئي وأخذ صوته الطفو لي الجذل يملأ القاعة.. سحنته المعروقة تدل على أنه يحتاج إلى عناية فائقة في التغذية حتى يصبح سوياً.

شعر بالارتباك .. نهض من مكانه بعد أن توقف عن مواصلة الحديث. وهنا توقف الطفل عن الركض بين المقاعد تأمل الواقف على المنصة.. انفجر باكياً ثم اندس خلف أحد المقاعد وتلاشى .

أصلح من وضع عقاله.. ثم ثنى أطراف غترته.. وعاد إلى الجلوس .

(آسف لتوقفي عن الحديث ـــ ضاحكاً إنما أين وصلنا في النقاط ـــ آمل أن يساعدني أحدكم ..)

ران الصمت.. لم تكن هناك إجابة فورية..

(آه .... آه ... تذكرت .. أن المرحلة التي قطعها الإنسان حتى وصل إلى وقتنا الراهن.. تجاربه فيها أكبر من الزمن .. أو استيعاب المساحة المكانية فلو تلفتنا يميناً.وشمالاً.)

صمت وأخذ يتلفت يميناً وشمالاً ولاحظ أثناء ذلك أن هناك بريقاً فوق الجدار الذي عن يمينه للقاعة.. أخذ يدقق لمعرفة كينونته .. أخذت تصغر فتحتا عينيه وتصلبت يده اليسرى فوق الأوراق بينما ارتفعت يديه اليمنى وهي تشير إلى مكان البريق الذي انفصل عن الجدار وأخذ يقترب ..

كانت عينين بشريتين مثلجتين. أخذت تتراقص فوق المقاعد وهديراً حاداً يملأ القاعة عند كل حركة تصدر منها. وفي وسط القاعة توقفت العينان عن التجوال.. وأخذت ذرات من الغبار تتكون

متقاطرة من جميع الاتجاهات لتبرز فتاة جميلة التقاسيم في الثلاثين من عمرها ترتدي ثوباً أبيض فضفاضاً. وقد ربطت وسطها بحزام أسود وأخذت تتلوى راقصة.. ترسم بأقدامها الحافية على أرض القاعة وبين صفوف الكراسي خطوات متناغمة.. والهدير يرتفع بين لحظة وأخرى.

وضع رأسه بين كفيه على الطاولة .. وأخذ يتأملها في هدوء .. وتخلص من لحظة المفاجأة.

(أيها .. الأخوة..)

دفن رأسه في الأوراق التي بين يديه.. ثم غير وضع النظارة .. على أرنبة أنفه ..

(عندما احترق.. هذا الكون.. بعد وجوده الأول .. حل الطوفان الذي أنقذ البشرية من النهاية المظلمة).

رفع رأسه.. صوّب نظره إلى الموقع الذي ترقص فيه الفتاة فلم يجدها وخيم الصمت على القاعة.

(كان التكون الجديد .. الذي معه انطمست معالم الحضارات القديمة.. لتكون حضارة جديدة.. ومن خلال السياق التطوري ما نحن فيه الآن .. إذ..).

هنا ارتفع صوت سيارة إسعاف.. وهمهمة أصوات لا تميز لنساء ورجال وأطفال.

ويرتفع بكاء وليد صغير. أخذ يتموج مع صوت منبه سيارة الإسعاف ويعلو على الأصوات المختلطة ويتجانس مع صوت مؤذن أخذ يردد... الله أكبر .. الله أكبر .. وواصل حديثه.

(إذ أن الإنسان لم يوفق في اختيار الطريق الحقيقي للانعتاق .. هنا كان التباين وكانت الحروب .. ومعها اندثرت أمم وثم قتل.. ثم قتل .. طفل في مهده .. طفل).

وانكب على الطاولة بقسوة الأمر الذي معه ارتطم جبينه باللاقط فانبثق الدم. مسح بكفه على جبينه وأخذ يتأمل بقعة الدم.. وأمسك بطرف غترته وبللها في الماء ثم أخذ قطعة ثلج من قسطل الماء ووضعها على مكان الجرح.

(أيها السادة.. لم يعد هناك مكان مقدس بعد أن استباح الإنسان ــ الآلي ــ كل شيء لم يعد في المعمورة مكان آمن.. إنهم يقتلون الزهور .. بأحذيتهم السوداء ذات الحدوة الحديدية .. يقول الشاعر .. الشاعر).

ويتحرك اللاقط الآخر المنصوب على الطاولة من مكانه في جلبة واضحة..

(هو يمشي والموت في خوانه.

عاثر الحظ بانتظار مماته.

شاحباً.

بائساً.

حزيناً كئيباً ...

واحتضار السرور في بسماته).

ويتوقف عن النطق .. فمه مفتوح .. كفه اليمنى مرفوعة إلى مستوى الرأس.. وعيناه شاخصتان في الفراغ وخط أرجواني اللون يتر من جبينه منداحاً على أنفه؛ وفمه المفتوح تخرج منه كلمات وحروف متناثرة أخذت تنداح نحو المقاعد كسيل لجب، أخذ يجرف ما في طريقه من أشجار .. وناس.. وحجارة في اتجاه غير محدد. ويرتفع تصفيق حاد.

أدلهم الظلام.. شمل القاعة هدوء غريب .. وارتفع وقع أقدام تسير.. أخذ الوقت يتلاشى وينبثق ضوء من سقف القاعة أخذ يتجول بين المقاعد ويبرز ظل إنسان طويل ويصل الضوء إلى المنصة. وإذا بالمحاضر يدفن رأسه بين يديه فوق الطاولة بشكل عادي كمن راح في.. سبات عميق..

العزاء

من أنت؟

صرخت في وجهي وهي تنتحب، لا أدري سبب هذه الثورة المفاجئة وقد كنا متفقين على كل شيء، وبعد أن انتصبت أمامي فجأة وبدون قصد لا أجد فيها الهم الذي أبحث عنه منذ آلاف السنين وافتقدته بعد إدراكي بأن الحياة أمر سهل تكونها ووجودها مجرد عبث يشارك فيه الجميع دون تحديد لهويات ومراكز، وكل فرد بعد ذلك يختار لنفسه المكان المناسب أما عبر الجماعة أو من خلال طموحه الذاتي.

كانت من ضمن طموحي الذاتي بعد فشلي الذريع في إيجاد رفيق مخلص يثرثر طول الطريق مكتفياً مني بتعليق بسيط أو همسة عتاب وكلمة ملاحظة، ومن هذا المنطق كان اقترابي السريع وعدم توجسي أو خوفي بأن يكون هناك أحد.

همست بهدوء: أنا لا شيء في هذا الوجود بقدر ما أحاول أن أكون هماً مشتركاً فكنت أنت الهم ذاته. طفحت عيناها بالدموع وفغرت فاها لتقول كلمات توقفت عن الخروج من داخلها.

رفعت يدي وأخذت أمسح دموعها التي انداحت بغزارة، شعرت بوخز ألم في جانبي الأيسر تحاملت قليلاً على الألم ثم طوقت رأسها بيدي، اقترب وجهها من صدري ثم استلقى على كتفي الأيسر حيث الألم وأخذت أعبث بشعرها المنطلق على قفاها. وأخذت أفكر في لا شيء، تلبد الموقف، لم يعد هناك ما أقوله وقد بللت دموعها ردائي.

مر وقت طويل ونحن على هذه الحالة، وفجأة شعرت بأنني بحاجة إلى التبول وأن استمر بنا على جلستنا هذه سوف أبلل ملابسي، رفعت رأسها عن كتفي وأخذت أتأمل وجهها وقد أسلبت أجفانها وكأنها ذهبت في إغفاءة رقيقة، وعندما أحست بتململي فتحت عينيها وإذا بها مغارتين من الدم لم يكن هناك بؤبؤ أو مقل إنما مغارة فارغة من الحياة، شعرت بخوفي فأمسكت بمعصمي وطوقتني كلتا يديها.

: لا تخف، كن معي أنني أخشى الانكسار.

نسيت رغبة التبول، وتصلبت في مكاني أحاول الهروب من تسليط نظراتي على وجهها وشفتيها المرتعشتين، ورغم رغبتي في الهروب توقف قلبي عن النبض، ولم أسحب يدي من بين يديها وشعرت بأنني بحاجة إلى مكان أمين أخفي فيه نظراتي عن المنظر المرعب الذي أمامي، أحنيت رأسي بين قدمي متأملاً حجري، ومدت يدها إلى رأسي، لم أجفل من الحركة وانقاد رأسي معها إلى كتفها الذي قربته بدورها حتى يسند رأسي، وتذكرت أنها بعد هذا الوضع فقدت عينيها بعد أن وصل رأسي لمكانه وخطرت رؤيا أخرى ولكن هي كانت تبكي، أما أنا فالحزن يطوقني حتى شل كل أحاسيسي فلم يعد بالتالي في رغبة للبكاء.

: هيا بنا.. لقد أظلم الوقت..

قالت ذلك ثم تحركت من مكانها ورفعت رأسي عن كتفها واتجهت بنظراتي إلى جهة أخرى وإن كنت أتابع حركات يديها وهي تقوم بجمع الأشياء المتناثرة حولها. ثم نهضت من مكانها وارتدت عباءتها ثم أصلحت الغطاء فوق وجهها..

تأخرت في النهوض بعد أن تأملت الفضاء الذي أصبح داكناً بعض الشيء وأشباح العربات وزرافات من الناس التي تجلس في أماكن؛ متباعدة حولنا تعد نفسها للرحيل أما لحلول الظلام أو خوفاً من برد الشتاء.

الساعة تشير إلى السابعة مساءً، الهدوء مخيم على المكان وبي رغبة أحاول مقاومتها للتطلع في عينيها، ولكن أهرب بعيداً.

وقفت قليلاً قبل أن أنحني لطي الفراش الذي نجلس عليه.. وإذا بأنفاسها تلفح وجهي ويدها تطوقني.

: أمازلت مرتعباً.

وجهها يطفح بشراً وحيوية، وصوتها الهادي الأسر يملأ وجودي ثقة وإحساساً بالقرب ..

امتدت يدي لجذبها من خلفي حتى أواجهها فلم أتمكن من سحبها، وهنا استدرت في حركة سريعة فإذا بي أواجه بالفراغ لم يكن هناك أحد، أخذت أتلفت حولي، لم يكن هناك سوى عربتي والفراش الذي تناثرت عليه قشور حبات الفستق وأوراق ومجلات لا أدري متى أحضرتها.

عدوت نحو العربة.. لم أجد أحداً بداخلها، وشد نظري شبح يتسلق. الصخور مبتعداً، ما أن لمحته حتى اختفى. تصلبت في مكاني، أخذ البرد القارص يأكل أطرافي، وأخذت أتحسس وجهي لقد أصبح أملس بدون نتوءات شعرت أنني أصبحت بدون أنف أو محاجر للعين أو فم يتحرك فكاه.

أشعلت محرك العربة.. تأملت وجهي في المرأة الصغيرة المنتصبة أمامية ووجدت كل شيء طبيعي. ثم نزلت لأجمع الأوراق وطي الفراش ثم فتحت شنطة السيارة الخلفية لوضع الفراش في مكانه المناسب.

: وهل ترحل بدوني.

كانت تقف خلفي وقد رفعت الغطاء عن وجهها ويداها على خاصرتها.. هكذا وجدتها بعد أن أغفلت شنطة السيارة واستدرت.. إنها هي بذاتها.

اتجهت إلى باب السيارة الآخر وركبت، لم يكن هناك حديث نتبادله طول طريق العودة وإن كانت بين لحظة وأخرى أختلس النظر نحوها وأمام المسجد الكبير كان أوج الزحام حيث أرتال السيارات تقف وتتحرك بهدوء ثم تقف وتسرب الملل إلى داخل فأخذت أتأمل عقارب الساعة والتفت

نحوها وإذا ـــ بالمقعد فارغ. تطلعت للمقعد الخلفي.. لم يكن هناك أحد وتحركـــت الـــسيارة قلـــيلاً وتحركت معها وأنا أتلفت أبحث عنها بين مقدمات العربات وزحام المشاة. وأمام إشارة المـــرور عـــدت طريقي مرة أخرى أبحث عنها فلم أصل إلى نتيجة رغم أضواء أعمدة النور واســـتطاعتي تمييزهـــا أمـــام آلاف النسوة بطولها الفارغ ومشيتها المتميزة وطريقة احتضان العباءة ومررت من أمام باب المقبرة الـــتي تقبع جنوب المسجد الكبير.. كان الباب مفتوحاً وأناس يقفون أمامه.. أخذت أتأمل الوجوه فـــإذا بهـــا هي كل الوجوه وجهها.

ترجلت من العربة رغم صراخ رجل المرور والعربات التي خلفي، وأخذت أعدو نحوها.

أجل كانت هذه المرة هي، وكانت أيضاً أحداقها مجوفة..

أخذت أمد يدي مسلمتين..

لم يكن هناك أحد سوانا..

يوم آخر للحزن

هل أنا فعلاً بحاجة إلى كمية من الحزن حتى أعيد حساباتي، وأخفف من سرعتي، قد يكون في الأمر مغالطة، إنما الملاحظ أن حالة الوجوم أخذت تحتل مساحة كبيرة من بيدر أيامي.. لم يعد للفرح النصيب الكافي بعد أن كان المسيطر بعدته وأعداده على نمطي المتلهف بأن أكون في كل الثنايا بسمة رقيقة، رعداً هادراً، نداء يستحلب صديد الأيام.

تذكرت أنني وحيد حلم موبوء له أطراف كما الإخطبوط عمياء تمتص رحيق الحياة من الأشياء التي تصادفها ثم تختفي.. بعيداً عن العيون والشك يقتلها، يزرع سهامه المسمومة في أعماقي ويكون السقم الأصفر وإغفاءة النوم.

تذكرت ذلك والطريق الطويل يحتويني في سفر آخر نحو التلاشي مبتعداً وصوتك يقول (إنها محاولة للهرب) تذكرت إنها المرة الثالثة للهرب، لن أجزم بأنها محاولة لإنهاك قواي حتى أتقدم بشكل واقع ملموس بعيدا عن الأحلام التي احلق معها هربا مما أنا فيه، أنهم يمتصون رحيق الزهور يعبثون بأزهار الحديقة ويطلقون الأصوات النشاز لقتل كل ما هو جميل، وها أنت تمارسين ذات الدور.

ـــ أعرف .. لماذا الغياب..

ـــ وما أدراك ؟

ـــ وقوف.. رفيقاتك وحيدات ورحيلهن دونك ..

ـــ أني متعبة ..

ـــ وهل هذا التعب .. يدفعك إلى الهروب حتى مني ..

ـــ أجل ..! .. !

تردد صدي (أجل) في داخلي ثم طفح على السطح، لم يكن معي آخرون، إنما انتصب فوق المقاعد المحيطة بمكتبي، هياكل آدمية وأخذت الأصوات المحيطة ترتفع مجلجلة تناقش أمراً لا أدركه وإذا بأحدهم يتقمص صوتك، يعلن بشكل افتزازي انسحابي غير الإنساني متخلياً عن مواقعي المتقدمة للغزاة الذين أخذوا يهدمون المنازل، يغتصبون النساء، يقتلون الأطفال، يقتنصون الأرض.

أخذت أتلفت يميناً وشمالاً أتابع الجماجم المتحركة فوق هذه الهياكل راصداً حركة كل فك ومتابعة ما يخرج من كلمات وغبار، امتلأت الغرفة الخالية إلا مني بالغبار وقصاصات الورق والحروف والعبارات المتناثرة وأزيز رياح منتصف شباط تصفع واجهات الدور وتحطم أغصان الأشجار اللدنة..

ـــ لن أنتظر .. أكثر .

ـــ ....

ـــ لقد أصبح الموقف صعباً ..

ـــ وماذا بيدي .. أنت في حل من أين ارتباط.

ـــ وبهذه السهولة..

ـــ أبداً إنما حتى لا أكون سبباً في تعاسة الآخرين.

ـــ إذاً..

ـــ إذاً أعلن موتي للمرة الثانية وهذا الإعلان يعطيك حكم التمتع بالحرية الكاملة واختيار البعـــد الآخر.

الضجيج يرتفع والكلمات المتداخلة لم تعد تجدي بعد أن تباينت المواقف وأخذ الائتلاف يتفتت ويصبح محاوراً، كل محور يناقش قضية، جانبية بعيدة كل البعد عن قضيتنا ووقفت وقد وضعت كفـــي على أذني ثم أغمضت عيني وغادرت مكتبي..

أخذت أزيح ما يعترض طريقي من نفايات الطريق إلى الباب طويل يحتاج إلى آخرين لم أحـــاول فـــتح عيني أو رفع يدي من على أذني مستخدماً كتفي وصدري ومقدمة حذائي، الاحتجاجات ترتفع، وانهيار الأكوام التي أمامي تصدر أصوات مما يؤكد إنها بقايا أناس مازالت فيهم بقايا ونبض..

وشعرت أنك بقربي أصابعك العظيمة انغرست في خاصرتي محاولة شد ذراعي الـــيمنى لا أدري ماذا كان الموقف فقط صوتك هو دليل قربك مني ارتفع الضجيج، تعاظم الوقت، شعرت أني بحاجة إلى فتح عيني لأرى ما حولي، لم يكن هناك أحد. الظلام دامس، السواد يلف المكان، مازالت سماعة الهاتف على أذني أعاود الاتصال والصوت القادم يقول لا أحد في الجانب الآخر. أنني وحيد ويـــدي تتـــصلب عضلاتها، أشعر بالخدر يدب في أطرافي، الدم يهرب، خاصرتي تؤلمني، أنهم يبكون، البكاء الحار يـــصلني شجناً، الظلام لا يسمح برؤية الأشياء، لا شيء في طريقي سوى البكاء الذي أخذ يقترب أكثر، يقترب أكثر .. يقترب أكثر ..

الفهـــرس

صدر للكاتب

١ ـ البحث عن ابتسامة
٢ ـ حكاية حب ساذجة
٣ ـ مساء يوم في آذار
٤ ـ انتظار الرحلة الملغاة
٥ ـ الزهور الصفراء
٦ ـ قالت إنها قادمة
٧ ـ الغريب
٨ ـ الانحدار
٩ ـ الرجل الذي مات وهو ينتظر
١٠ ـ الطيب
١١ـ الحملة
١٢ ـ الغياب
١٣ ـ المحطة الأخيرة